المجاني الحديثة

عن مجاني الأب شيخو

المطبعة الكاثوليكية
بيروت ١٩٥١

المجاني الحديثة
عن مجاني الأب شيخو

جدّدها
اختياراً ودرساً وشرحاً وتبويباً
لجنة من الأساتذة
بإدارة

فؤاد أفرام البستاني
مدير دار المعلمين والمعلمات
أستاذ الأدب ومؤسسات المجتمع العربي
في معهد الآداب الشرقية

منشورات الآداب الشرقية
بيروت ١٩٥١

الجزء الخامس

الأدب الأندلسي

الأدب المشرقي في الانحطاط

بقلم
كرم البستاني

هذا الكتاب

ينقسم هذا الكتاب على قسمين : الاول في الادب الاندلسي، والثاني في الادب المشرقي في عصر الانحطاط .

وفي كل من القسمين بابان : احدهما في الشعر والآخر في النثر .

القسم الأول

الباب الأول

في الشعر

الادب الاندلسي

لم نرد بالادب الاندلسي ما انتجه الاندلسيون وحدهم من شعر ونثر ، وانما اردنا به كذلك ما انتجه المغربيون في هذين الفنّين ، ذاك لان الاختلاط الذي كان بين الاندلس والمغرب ، وتنقّل الادباء ما بين هذين القطرين ، وتأثرهم بمرئيات ومحسوسات واحدة مَهَر أدبيها بنفحة متوحّدة ، حتى ليصعب معها تمييز احدهما من الآخر ؛ وهذا ما جعل مؤرخي الادب العربي ينظرون اليها نظرهم الى ادب واحد ، اطلقوا عليه اسم الادب الاندلسي وجعلنا نجاريهم في نظرتهم.

كان ادباء هذين القطرين ذوي مواهب طيبة و إلهام سامٍ ؛ وقد منحهم الله تعالى ذوقاً سليماً ودقّة فنّ ورقّة شعور سنّت لهم انتاجاً يرشح بالفن والروعة.

واننا اذا نظرنا الى شعرهم استهوانا ، على قلّة حظّه من الابتكار ، بجمال معانيه ولطفها ، ورقّة الفاظه و إناقتها ، واشراق ديباجته وسلاستها ؛ وراقنا ما في اكثره من قرب الى الطبع وبعدٍ من التكلّف.

و إن اصحابه ، وان يكونوا اتّبعوا في اكثر فنونه خطى المشرقيين ، فجاؤوا مقلِّدين وخلت صورهم من العاطفة الصدوق ، حتى لا تكاد تنبض بالاحساس والشعور ، وبالغوا في المدح حتى تجاوزوا المعقول ، الّا انهم تفرّدوا بالابداع وصدق العاطفة فيما تغنّوا فيه بمفاتن طبيعتهم الخلّابة ، وفيما تفجّعوا به على ما دال من دولهم واقتطع من بلادهم.

اما نثرهم فهو الى التكلّف والتصنّع اميل منه الى الطبع السمح ، فقد تأثر أصحابه اسلوب السجّاعين في العصور العباسية المتأخرة ، فتكلفوا فيه التسجيع والتوشية مثلهم ؛ افقروه من المعاني ، واغنوه بالألاعيب اللفظية والتزاويق البيانيّة ، حتى لاصبح ، على ما يحتويه ، احياناً ، من ابحاث ذات قيمة ، يبعث الملل وينفّر الذوق.

بيد ان بعض المنشئين منهم ، من علماء وادباء ومؤرخين ورحّالة ، ابتعدوا عن هذا الاسلوب ، وتركوا نفوسهم على سجاياها ، فأتوا بنثر مرسلٍ لا أثر فيه للتصنع ، على ان في بعضه ضعفاً وركاكة ربما تولّدا من شدة امتزاجهم واختلاطهم بالاعاجم ، او من ان بعضهم غير عربي الاصل ، وانما هو مستعرب ، فلم تتأتَّ له الجزالة وقوة التعبير.

ابن هاني الأندلسي

٩٣٧؟ - ٩٧٢ م

هو ابو القاسم محمد بن هاني الازدي الاندلسي ؛ ولد في اشبيلية ونشأ فيها ، ومَهر في الشعر ، وكان حظه من الادب وافرًا.

اتصل اولًا بصاحب اشبيلية ومدحه وحظي عنده . على ان انهماكه بالملذات ، وشدّة تشيّعه ، وما اتّهم به من سلوكه مسلك المعري ، وتجرّده عن الدين وابدائه الغلوّ ، جعل اهل اشبيلية ينقمون عليه ، ويسيئون المقالة في حق الملك بسببه ، فاشار عليه الملك بالغيبة عن اشبيلية ليتناسى الناس خبره ، فخرج منها الى عدوة المغرب ؛ ثم ارتحل الى جعفر ويحيى ابني غلبون في المسيلة ، وهي مدينة على الزاب ، فمدحها وبالغا في اكرامه . وما لبث ان عرف بهِ المعزّ لدين الله العبيدي، فطلبه اليه ، وكرم وفادته ، ومدحه ابن هاني وسلّم عليه بالخلافة . ومدح قائده جوهر فاتح مصر .

ولما توجه المعز الى مصر شيّعه ابن هاني ورجع الى المغرب فتجهّز واخذ عياله والتحق به؛ فلما وصل الى برقة أضافه شخص من اهلها ، فاقام عنده اياماً في مجلس الانس ، فيقال : انه عربد عليهم فقتلوه ؛ وقيل: انه خرج من تلك الدار ، وهو سكران ، فنام في الطريق فاصبح ميتاً ، ولم يعرف سبب موته ؛ وقيل : بل وجد في ساقية من سواقي برقة مخنوقاً بتكّة سراويله . وكان له من العمر يوم مات ستًّا وثلاثين سنة.

كان ابن هاني يحب الإغراب في شعره ويغالي حتى الاحالة ؛ وكان عند الاندلسيين كالمتنبي عند المشرقيين ، ولهذا لقّبوه بمتنبي الغرب . على انه وان يكن قد تحدّى المتنبي في الاحتفال بالحكم وضرب الامثال لم يجاره ، وجاءت حكمه ساذجة لا عمق فيها . قال ابن خلكان عنه ، وهو يذكر ديوانه : « ولولا ما فيه من الغلوّ في المدح والافراط المفضي الى الكفر لكان من احسن الدواوين . وليس في المغاربة من هو في طبقته لا من متقدّميهم ولا متأخريهم بل هو اشعرهم على الاطلاق ».

ويقال ان ابا العلاء المعري كان اذا سمع شعره يقول : « ما اشبّهه الا برحى تطحن قرونًا » ؛ يشير الى ما في الفاظه من قعقعةٍ ، ويزعم ان لا طائل تحت تلك الالفاظ.

ولما بلغ المعز خبر وفاته ، وهو في مصر ، تأسف عليه كثيرًا ، وقال : « هذا الرجل كنا نرجو ان نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدّر لنا ذلك . »

شعره

لابن هاني ديوان شعر طبع في مصر وفي بيروت على حروف المعجم بحسب الرويّ ؛ يشتمل على مدائحه التي كان يصدّر اكثرها بالغزل ، وعلى مراثيه واوصافه ، وقد اخترنا منه ما يمثل هذه الفنون .

مدح

فُتِقَت لكم ريحُ الجِلاد

١ فُتِقَتْ لكم رِيحُ الجِلادِ بعَنبرٍ ، وأمدَّكم فَلَقُ الصَّباحِ المُسفِرِ ، [1]
وجَنَيتُمُ ثمرَ الوقائعِ ، يانعاً بالنَّصرِ ، من وَرَقِ الحديدِ الأخضرِ [2]
وضربتُمُ هامَ الكُماةِ ، ورُعتُمُ بِيضَ الخُدورِ بكلِّ ليثٍ مُخدِرِ . [3]
أبني العَوالي السَّمهريّةِ ، والسُّيو فِ المَشرفيَّةِ ، والعديدِ الأكثرِ ! [4]
٥ كلُّ المُلوكِ ، عن السُّروجِ ، سَواقطٌ ، إلّا المُملَّكَ فوقَ ظَهرِ الأشقرِ .
من منكمُ المَلِكُ المُطاعُ ، كأنّه تحتَ السَّوابغِ ، تُبَّعٌ في حِمْيَرِ ؟ [5]
القائدُ الخيلَ العِتاقَ شوازباً ، خُزراً الى لحظِ السِّنانِ الأخزرِ ، [6]
شُعثَ النَّواصي ، حَشِرةً آذانُها ، قُبَّ الأياطلِ ، داميات الأنسُرِ ، [7]
تَنبو سَنابكُهنّ عن عَفَرِ الثّرى ، فيطأنَ في خدِّ العزيزِ الأصعرِ . [8]

١ * فتقت : استخرجت ◎ الجلاد: الحرب ◎ الفلق : الصبح . يصفهم بالشجاعة والاخلاق ، فيقول : انهم يتنشقون روائح العنبر من مقارعة الفرسان ، وقد جللهم الصبح بضيائه .

٢ * شبه السيوف بعيدان خضر اخرجت منها شجاعتهم ثمراً يانعاً .

٣ * بيض الخدور : النساء ◎ المخدر : الملازم عرينه . يقول : انهم ليوث مخدرة روّعوا النساء فخفن السبي .

٤ * السمهرية : الرماح ◎ المشرفية : السيوف .

٥ السوابغ ، واحدتها سابغة : الدرع الواسعة ◎ تبع : لقب ملوك حمير . اي انهم في دروعهم كالتبابعة تحدق بهم كتائب حمير وفرسانها .

٦ الشوازب ، واحدتها شازبة : الضامرة ◎ الخزر ، واحدها الاخزر : الناظر بموءخر عينيه تكبّراً وتغيّظاً ◎ والسنان الاخزر : المرهف .

٧ * الحشرة : اللطيفة ◎ القب ، واحدها الاقب : الضامر ، الدقيق ◎ الاياطل : الخصور ، واحدها ايطل ◎ الانسر ، واحدها نسر : لحمة في باطن حافر الفرس من اعلاه .

٨ * تنبو : تبعد ، ترتد ◎ السنابك ، واحدها سنبك : طرف الحافر ◎ العفر : ظاهر التراب ◎ الاصعر : الذي يميل بنظره عن الناس كبراً .

جيشٌ تَقَدَّمه اللُّيوثُ ، وفوقَه … كالغِيلِ من قَصَبِ الوشيجِ الأَسمرِ ، [١]
تَمتدُّ أَلسِنةُ الصَّواعقِ ، فوقَه … عن ظُلَّتَي مُزنٍ عليه كَنَهْوَرِ . [٢]
ويقودُهُ اللَّيثُ الغَضَنْفَرُ مُعلِماً ، … في كلِّ شَثْنِ اللِّبدَتينِ غَضَنفرِ ، [٣]
في فِتيةٍ ، صَدَأُ الدُّروعِ ، عبيرُهم ، … وخُلوقُهم عَلَقُ النَّجيعِ الأَحمرِ ، [٤]
لا يأكُلُ السِّرحانُ شِلْوَ طعينِهم ، … مِمَّا عليه من القَنا المُتكسِّرِ . [٥]
أَنِسوا بهجرانِ الأَنيسِ ، كأَنَّهم … في عَبقريِّ البِيدِ جِنَّةُ عَبقرِ ؛ [٦]
قد جاوروا أُجُمَ الضَّواري حولهم ، … فإذا هُمُ زأروا بها لم تَزأَرِ ، [٧]
ومَشَوا على قِطَعِ النُّفوسِ ، كأَنَّما … تَمشي سَنابكُ خيلِهم في مَرمرِ ،
وتَظَلُّ تَسبَحُ ، في الدِّماءِ ، قِبابُهم ، … فكأنهن سَفائنٌ في أبحُرِ ،
فحِياضُهم من كلِّ مُهجةِ خالعٍ ؛ … وخِباؤُهم من كلِّ لِبدةِ قَسوَرِ ؛
حيٌّ من الأَعرابِ ، إلّا أنّهم … يَرِدونَ ماءَ الأَمنِ غيرَ مُكدَّرِ ،
طَرَدوا الأَوابدَ ، في الفدافدِ ، طَرْدَهم … الأعوجيّةَ في مَجالِ العِثْيَرِ . [٨]
إنّا لَتَجمعُنا ، وهذا الحيَّ مِن … بكرٍ ، أَذِمَّةُ سالفٍ لم تُخفَرِ ؛ [٩]
أخلاقُنا ، فكأنّنا من نِسبةٍ ؛ … ولِداتُنا ؛ فكأنّنا من عُنصرِ .
لِيَ منهمُ سيفٌ ، إذا جَرّدتُه ، … يوماً ، ضربتُ به رقابَ الأَعصُرِ ؛
صعبٌ ، إذا نُوَبُ الزمانِ استُصعِبَت ، … مُتنمِّرٌ للحادثِ المُتَنمِّرِ ، [١٠]
فإذا عَفا ، لم تلقَ غيرَ مُملَّكٍ ، … وإذا سطا ، لم تلقَ غيرَ مُظفَّرِ ؛

١ * الغيل : الشجر الكثير الملتف ◎ الوشيج الاسمر : الرماح .
٢ * الظلّة : اول سحابة تُظلّ ◎ المزن : السحاب ◎ الكنهور ، من السحاب : قطع كالجبال ، او المتراكم منه .
٣ * الغضنفر : الاسد ، والعظيم الجثة ◎ المعلم : الفارس جعل لنفسه علامة الفرسان ◎ الشثن : الخشن ، الغليظ ◎ اللبدة : الشعر المجتمع بين كتفي الاسد .
٤ * الخلوق : الطيب ◎ النجيع والعلق : الدم ، وهو من باب اضافة الشيء الى نفسه .
٥ * السرحان : الذئب ◎ الشلو : الجسد
٦ * العبقري : منسوب الى عبقر : موضع كثير الجن في زعمهم ، نسبوا اليه كل شيء تعجّبوا منه .
٧ * الاجم : واحدتها اجمة : الشجر الملتف ، ومأوى الاسد .
٨ * الأوابد : الوحوش ◎ الفدافد ، واحدها فدفد : القفر ◎ العثير : غبار الحرب .
٩ * الاذمّة : واحدها ذمام : العهد .
١٠ * المتنمّر : الغاضب ، المتشبه بالنمر . والحادث المتنمّر : الشديد الصعب .

وكفاكَ من حُبِّ السَّماحةِ أنَّها ، منه ، بمَوضعِ مُقلةٍ في مِحجَرِ ، [1]
فغَمامُه من رحمةٍ ، وعِراصُه من جَنَّةٍ ، ويمينُـه من كَوثَرِ .

مدح المعزّ

قال يمدح الخليفة الفاطمي المعزّ لدين الله بعد فتحه مصر وجعلها كرسيّ ملكه

ما شِئتَ لا ما شاءَت الأقدارُ ، فاحكم ، فانتَ الواحدُ القهَّارُ !
وكأنمـا أنتَ النبيُّ محمدٌ ؛ وكأنمـا انصارُك الانصارُ .
انتَ الذي كانت تُبشرُنا به ، في كُتبِها ، الأحبارُ والأخبارُ .
هذا الذي تُجدي شفاعتُه غدًا ، حقًّا ، وتَخمُدُ أن تَراه النَّارُ ، [2]
من آلِ أحمدَ ، كلُّ فخرٍ لم يكن يُنمى اليهم ليس فيـه فَخارُ ،
كالبدرِ ، تحتَ غَمامةٍ من قَسطلٍ ، ضَحيانَ ، لا يُخفيه عنك سِرارُ . [3]
لله غَزوتُهم ، غداةَ فراقسٍ ، وقـد استُشِبَّت للكَريهة نارُ ؛ [4]
والمُستظَلُّ ، سماوُه من عِثيَرٍ ، فيها الكواكبُ لَهذَمٌ وغِرارُ ؛ [5]
والخيلُ تَمرحُ في الشَّكيمِ كأنَّها عِقبانُ صارةَ ، شاقَها الأَوكارُ ، [6]
مرَّت لِغايتِها ، فلا واللهِ مـا عَلِقت بها ، في عَدوِها ، الأَبصارُ ،
وعلى مَطاهـا فِتيةٌ شيعيّةٌ ، ما إن لهـا إلّا الولاءُ شِعارُ ، [7]
من كلِّ أغلبَ باسلٍ ، مُتخمِّطٍ ، كالليثِ ، فهو لقِرنِه هَصَّارُ ، [8]
قَلِقٍ الى يومِ الهِياجِ ، مُغامرٌ ، دمُ كلِّ قَيلٍ في ظُباه جُبارُ ، [9]

١ * المقلة : سواد العين وبياضها معًا ◎ المحجر : ما دار بالعين . يريد انهم احلّوا السماحة عندهم افضل محلّ فهي بمثابة المقلة من المحجر .

٢ * اراد بالنار نار الجحيم .

٣ * القسطل : غبار الحرب ◎ الضحيان : البارز للشمس ◎ السِرار : آخر ليلة من الشهر .

٤ * فراقس : موضع ◎ الكريهـة : الحرب .

٥ * العثير : الغبار ◎ اللهذم : الحادّ القاطع من السيوف والاسنة ◎ الغرار : حد الرمح والسهم والسيف .

٦ * الشكيم : واحدته شكيمة : هي من اللجام الحديدة المعترضة في فم الفرس ◎ الصارة : اعلى الجبل .

٧ * مطاها : ظهرها ◎ وقوله الولاء اراد به الولاء لعلي بن ابي طالب .

٨ * المتخمّط : المتكبر ، المتغضّب ◎ الهصّار : اسم مبالغة من هصر الاسد فريسته : كسرها .

٩ * القيل : الملك ◎ جبار : مهدور .

انْ تَخبُ نارُ الحربِ ، فهو بفتكهِ … ميقادُها ، مضرامُها المِغوارُ .
أُسدٌ ، إذا زارت وِجارَ ثعالبٍ ، … ما إن لها الا القلوبُ وِجارُ ،
حفّوا براياتِ المعزّ ، ومن به … تَستبشِرُ الأَمـلاكُ والأَقطارُ .
ظَنَّ الدُمُستُقُ ، بعدَ ذاك ، رجعةً ؛ … قُضيت بسيفِك منهم الأَوطارُ ؛ [1]
اضحوا جميعاً خامدين ، وأقفرت … عَرَصاتُهم ، وتعطّلت آثارُ ،
كانت ، جِنانا ، ارضُهم ، مَعروشةً ، … فأصابَها ، من جيشِه ، إعصارُ . [2]
ابناءَ فاطمَ ! هل لنا ، في حَشرِنا ، … لَجأٌ سِواكم عاصمٌ ، ومَجارُ ؟
انتم أحبّـاءُ الإله وآلُه ، … خُلفاؤه ، في أرضه ، الأبرارُ ،
اهلُ النُبوّةِ والرسالةِ والهدى ، … في البيّناتِ ، وسادةٌ أطهارُ ،
ان قيلَ : من خيرُ البريةِ ؟ لم يكن … إلّاكمُ خَلقٌ اليـه يُشارُ ؛
لو تَلمسون الصَّخرَ لانبَجست به ، … وتفجّرت ، وتَدفَّقَت أنهـارُ .
أمُعِزَّ دينِ اللهِ ! إنَ زمـانَنا … بك ، فيه عِزٌّ ، جَلَّ ، واستكبارُ ؛
ها إنَّ مِصرَ ، غداةَ صِرتَ قَطينَها ، … تَجري اتحسُدَها بك الأقطارُ ؛
شَرُفَت بك الآفاقُ ، وانقسمت بك … الأرزاقُ والآجالُ والأعمـارُ ؛
جلّت صِفاتُك أن تُحَدَّ بمِقوَلٍ ؛ … ما يَصنعُ المِصداقُ والمكثارُ ؟
واللهُ خَصَّك بالقُرانِ وفضلِه ؛ … واخَجلَتي ! ما تصنعُ الاشعارُ ؟ [3]

مدح المعز ايضاً

وقال يمدح المعزّ ويذكر ركوبه في بعض الاعياد ، وقد صدّر المدح بمقدمة فيها غزل ووصف وداء ومجلس لهو :

قُمنَ في مأتمٍ عـلى العشّاقِ ، … ولَبِسن الحِدادَ في الاحداقِ ،
وبكَينَ الدِمـاءَ بالعَنمِ الرَّطبِ ، … المُقَنّى ، وبالخدودِ الرِّقاقِ ، [4]
ومَنَحنَ الفِراقَ رِقّـةَ شَكواهنَّ ، … حتّى عَشِقتُ يومَ الفِراقِ .

١ * الدمستق : قائد الروم .

٢ * معروشة : مرفوعة على الخشب ◎ الاعصار : الزوبعة .

٣ * القران : مسهّل القرآن .

٤ * العنم : شجر له ثمرة حمراء يشبه بها البنان المخضوب ◎ المقني : المحمّر حمرة شديدة .

ومعَ الجيرةِ ، الّذين غَدَوا ، دَمعٌ طليقٌ ومُهجَةٌ في وِثاقِ ؛
حارَبَتهم نوائبُ الدهر ، حتى آذنوا بالفراق قبل التّلاقي ؛
ودَنَوا للوَداعِ ، حتّى ترى الأَجيادَ فوقَ الأجيادِ كالأَطواقِ .
يومَ راهنتُ ، في البُكاءِ ، عيوناً ، فتقدَّمتُ في عِنانِ السِّباقِ ،
أمنعُ القلبَ أن يذوبَ ؛ ومن يمنَعُ جمرَ الغضا عن الإحراقِ ؟
ربَّ يومٍ لنا رقيقِ حواشي اللّهوِ ، حسناً ، جوّالِ عقدِ النِّطاقِ ، [1]
قد لبسناه ، وهو ، من نفحاتِ المسكِ ، دِرعُ الجيوبِ ، دِرعُ التّراقي ؛ [2]
والأَباريقُ كالظِّباءِ العَواطي ، أوجست نبأةَ الجيادِ العِتاقِ ، [3]
مُصغياتٍ إلى الغِناءِ ، مُطلّاتٍ عليه ، كثيرةَ الإطراقِ ؛
وهي شُمُّ الأنوفِ يَشمَخن كِبرًا ، ثم يَرعفن بالدّمِ المُهراقِ ؛ [4]
قدَّمَتها السُّقاةُ ، كي يُوقِروها صَمَماً عن سَماعِ شادٍ وساقِ . [5]
جنِّبُوها مجالسَ اللّهوِ والوصلِ ، إذا ما خلَونَ للعُشّاقِ ،
فهيَ أدهى من الوشاةِ على سِرِّ المُتيّمِ المُشتاقِ ،
ترتدي بالأكمامِ منها حياءً ، وهي غِيدٌ يَتلعنَ بالأعناقِ . [6]
لا تَسَلني عن اللّيالي الخَوالي ؛ وأجِرني من اللّيالي البَواقي !
ضرَبَت بيننا بأبعدَ ممّا بينَ راجي المُعِزِّ والإملاقِ ؛
كُلُّ أسرارِ راحتَيهِ غَمامٌ مُستهِلٌّ بوابلٍ غَيداقِ ؛ [7]
فإذا ما سَقاكَ ، من ظَمَإٍ ، جاوزَ حدَّ السُّقيا إلى الإغراقِ .
في يَدَيه خزائنُ اللهِ في الأرضِ ، ولكنَّه على الإنفاقِ ؛

١ * الجوال : الكثير الجولان . وقوله عقد النطاق اراد به النطاق المعقود ، والنطاق ما يشد به الوسط . وجولان النطاق كناية عن دقة الخصر ، استعير ذلك لوصف نهار اللهو بما يستحسن .

٢ * استعار اللبس لليوم بجامع الاشتمال بنفحات المسك ، فكأن هذه النفحات درع التئوا به ⊙ الجيوب ، واحدها جيب : طوق القميص ⊙ التراقي ، واحدتها ترقوة : مقدم الحلق في اعلى الصدر .

٣ * العواطي واحدتها عاطية : من عطت الظبية اذا تطاولت الى الشجر لتتناول منه : والمراد هنا الظباء الطويلات الاعناق .

٤ * يرعفن بالدم : يُسلنه ⊙ المهراق : المراق ، المصبوب .

٥ * يوقروها : يحملوها .

٦ * يتلعن بالاعناق : يمددنها .

٧ * الغيداق : الشديد الانصباب .

وإذا مـا دعا المقاديرَ ، لَلـكَون ، أجابَتِ لـكلّ أمرٍ وِفاقِ ؛
لبِسَ العبدُ منه ما يَلبَسُ الإيمـانُ من نصلِ سيفِهِ البَرّاقِ ؛ [١]
وجلا الفَجرُ منـه عن نبَويٍّ ابيضِ الوجه ، ابيضِ الأخلاقِ ؛
ساحباً من ذُيولِ مَجرٍ لهامٍ ، تُؤذِنُ الأرضُ تحتَه باصطفاقِ ، [٢]
ليسَ في العارضِ الـكَنَهوَرِ شِبهٌ منه ، غيرَ الإرعادِ والإبراقِ ؛
رفعت فوقَه المغـاويرُ شُهباً من قَناً ، في سَماوةٍ من طِراقِ ؛ [٣]
وغَمامٍ في ظِلّ ألويةِ النَّصرِ ، فمِن راجِفٍ ، ومن خَفّـاقِ ؛
وعَرينٍ من كلّ ليثٍ هَصورٍ كالحِ النّابِ ، أسجرِ الحِملاقِ . [٤]

مدح يحيى بن عليّ

قال يمدح يحيى بن علي بن غلبون والي المسيلة . ابتدأ متغزلاً ثم تخلص الى المدح .

فَتَكاتُ طَرفِكِ ام سيوفُ ابيكِ ، وكُؤوسُ خمرٍ ام مَراشِفُ فِيكِ ؟
أجِلادُ مُرهَفةٍ ، وفَتكُ مَحاجِرٍ ؟ ما أنتِ راحمةٌ ، ولا أهلوكِ ! [٥]
يا بنتَ ذي البُردِ الطويلِ نِجادُه ! أكذا يجوزُ الحُكمُ في ناديكِ ؟
قد كانَ يَدعوني خيالُك طارقاً ، حتّى دعـاني بالقَنا داعيكِ .
عيناكِ أم مَغناكِ مَوعِدُنا ، وفي وادي الـكرى ألقاكِ أم واديكِ ؟
منعوكِ من سِنةِ الـكَرى وسَروا ، فلو عثَروا بطَيفٍ طـارقٍ ظَنّوكِ ،
ودَعوكِ نَشوى ما سقَوكِ مُدامةً ؛ لمّا تَمايَـلَ عِطفُكِ اتّهَموكِ .
حسِبوا التَّكحُّلَ ، في جُفونكِ ، حِليةً ؛ تاللهِ مـا باكفّهم كحلوكِ !
وجلَوكِ لي ، إذ نحنُ عُمنا ، بانةً ، حتّى اذا احتفلَ الهوى حجَبوكِ ! [٦]
ولَوى مُقبَّلُكِ اللِّثامَ ، وما درَوا أن قد لُثِمتَ به ، وقُبّلَ فوكِ .

١ * يريد ان سيفه يحمي العبد كما يحمي الايمان .
٢ * المجر واللهام : صفتـان للجيش ، وكلاهما بمعني الجيش العظيم .
٣ * السماوة : الرواق ◉ الطراق : الحديد يرقّق ثم يجعل على ترس او شبهه .
٤ * الاسجر : من في عينه سجر وهو ان يخالط البياض حمرة ◉ الحملاق : باطن اجفان العين .
٥ * المرهفة : السيوف المسنونة ◉ محاجر ، واحدها محجر : ما دار بالعين .
٦ * عمنا : سرنا ◉ احتفل : وضح وانجلى

فضعي القِناعَ ! فقَبلَ خدّكِ حيّرت … راياتُ يحيى بالدمِ المسفوكِ. [1]
يا خيلَه لا تسخَطي عزَماتِه ، … ولئن سخِطتِ ، فقلّما يُرضيكِ ، [2]
إيهاً ! فمن بينِ الأسنّةِ والظُّبى ، … إنّ الملائكةَ الكِرامَ تليكِ.
قد قلّدتكِ يدُ الأميرِ أعِنّةً ، … لِتخايلي وَشْكاً بما يتلوكِ ، [3]
وحماكِ أغمارَ المواردِ ، أنّه … بالسيفِ ، من مُهَجِ العدى ، ساقيكِ. [4]
عُوجي بجنحِ اللّيلِ ، فالملكُ ، الذي … يَهدي النُّجومَ الى العُلى ، هاديكِ. [5]
ربُّ المذاكي والعوالي شُرَّعاً ، … لكنّه وِترٌ بغيرِ شريكِ ؛ [6]
هوَ ذلك الليثُ الغضنفرُ ، فانجُ من … بطشٍ ، على مُهَجِ اللّيوثِ ، وشيكِ ؛
نلقاه فوقَ رِحالةٍ وأقبَّ ، لا … نلقاه فوقَ حشيّةٍ وأريكِ ؛ [7]
كذَبت نفوسَ الحاسدين ظنونُها ، … من آفِكٍ منهم ، ومن مأفوكِ. [8]
إنّ السماءَ لدونَ ما ترقى له ، … والنّجمُ أقربُ نهجِكَ المسلوكِ ،
عاودتَ من دارِ الخِلافةِ مطلعاً ، … فطلَعتَ شمساً غيرَ ذاتِ دُلوكِ ؛ [9]
ورأى الخليفةُ منك بأسَ مُهنّدٍ ، … بيدَيه ، من روحِ الشُّعاعِ ، سبيكِ ،
وغدَت بك الدُّنيا زَبَرجدةً جلَت … عن ثغرِ لؤلؤةٍ ، اليكَ ، ضحوكِ ،
يدُكَ الحميدةُ ، قبلَ جودِكَ ، أنها … يدُ مالكٍ يقضي على مملوكِ.
الشِّعرُ ما زُرّت عليكَ جيوبُه ، … من كلّ موشيّ البديعِ محوكِ ،
والفتكُ فتكُك في صميمِ المالِ لا … ما حدّثوا عن عُروةِ الصُّعلوكِ. [10]
وأرى الملوكَ ، إذا رأيتُك ، سُوقةً ، … وأرى عُفاتَك سُوقةً كملوكِ ، [11]

١ * ضعي القناع : ارفعيه .

٢ * لا تسخطي : لا تكرهي ⊙ العزمات ، واحدتها عزمة : ما عقد الانسان ضميره عليه .

٣ * لتخايلي : أي لتتخايلي ، والتخايل : التبختر والتكبر ⊙ الوشك : السرعة ⊙ يتلوك : يتبعك .

٤ * اغمار : زحمات ⊙ الموارد : الطرق يريد اغمار الحروب ⊙ مهج ، واحدتها مهجة : دم القلب .

٥ * عوجي : اعطفي وميلي .

٦ * المذاكي : واحدها المُذكي : وهو من الخيل ما تمّ سنه وكملت قوته .

٧ * الاقب : الفرس الضامر البطن الدقيق الخصر ⊙ الحشية : الفراش المحشو ⊙ الاريك : السرير .

٨ * الآفك : الكاذب ⊙ المأفوك : المكذوب .

٩ * الدلوك : الميلان الى الغروب .

١٠ * عروة الصعلوك : فارس جاهلي شاعر .

١١ * السوقة : الرعية من الناس ⊙ العفاة ، واحدها عاف : طالب المعروف .

الغَيثُ أَوَّلهم ، وليسَ بمُعدَمٍ ؛ والبَحرُ منهم ، وهو غيرُ ضَريكِ .[١]
أجرَيتَ جُودَكَ في الزُّلالِ لِشاربٍ ، وسَبكْتَه في العَسجَدِ المسبوكِ ؛[٢]
لا يَعدَمنَّكَ أعْوَجيٌّ ، صَعَّرت عاداتُ نصرِكَ منه خدَّ مَليكِ ،[٣]
من سابحٍ منها ، إذا استحضَرتَه رَبِذَ اليدَينِ ، وسَلهبٍ محبوكِ ،[٤]
قَيدِ الظَّليمِ ، مُخبِرٍ عن ضاحكٍ من بَيضِ أُدحيِّ الظَّليمِ ، تَريكِ ،[٥]
لو تأخُذُ الحسناءُ عنهُ خِصالَها ، ما طالَ بَثُّ مُحِبِّها المَفروكِ ،[٦]
لو كانَ سُنبُكه الدَّقيقُ بكَفِّها ، نَظَمَت قَلائدَها بغيرِ سُلوكِ .
لكَ كلُّ قَرمٍ ، لو تقدَّمَ عُمرُه ، لم يَلهجِ العَدَويُّ باليَرموكِ ؛[٧]
وقَعاتُ نَصرٍ في الأعادي حدَّثت عن يومِ بدرٍ ، قبلَها ، وتبوكِ .[٨]
هل انتَ تاركُ نَصلِ سيفِكَ حُقبةً في غِمدِهِ أم ليسَ بالمتروكِ ؟
لو يستطيعُ الليلُ لاستعدى على مَسراكَ ، تحتَ قِناعه الحالكِ ؛
لاقيتَ كلَّ كتيبةٍ ، وفلَلْتَ كلَّ ضَريبةٍ ، وألَنتَ كلَّ عَريكِ .[٩]

رثاؤه

وهب الدهر نفيساً

قال يرثي ولد ابراهيم بن جعفر بن علي .

وَهَبَ الدَّهرُ نفيساً ، فاستَرَدْ ، رُبَّما جادَ بَخيلٌ فحَسَدْ ؛
إنّما أعطى فُواقَي ناقةٍ ، بيدٍ شيئاً تَلَقّاه بيَدْ ![١٠]

١ * الضريك : الفقير .
٢ * العسجد : الذهب .
٣ * الاعوجي : نسبة الى اعوج وهو فرس لبني هلال وليس في العرب فحل اشهر ولا اكثر نسلًا منه .
٤ * ربذ اليدين : خفيف اليدين في مشيه ◎ السلهب من الخيل : ما عظم وطالت عظامه ◎ المحبوك : المحكم الخلق .
٥ * الظليم : ذكر النعام ، ويريد بقوله قيد الظليم : ان هذا الفرس لسرعته يسبق الظليم ، فيمنعه الفرار ، فكأنه قيّده ◎ الادحي : مبيض النعام في الرمل ◎ التريك : بيض النعام بعدان تخرج منه الفروخ .
٦ * المفروك : من فركت المرأة زوجها اذا تركته .
٧ * يوم اليرموك يوم مشهور كسر فيه المسلمون الروم وفتحوا الشام ◎ وربما اراد بالعدوي : نعيم بن عبدالله الفحّام العدوي الذي قتل يوم اليرموك .
٨ * يوم بدر : كان للمسلمين على المشركين من قريش ◎ غزوة تبوك غزاها النبي محمد وصالحه اهل تبوك على الجزية .
٩ * العريك : اراد به الصعب .
١٠ * الفواق : مقدار ما بين الحلبتين . كني به هنا عن قصر الوقت

خابَ من يَرجو زماناً دائماً ، تُعرفُ البأساءُ منه والنَّكدْ !
فإذا ما كَدَرُ العيشِ نما ؛ واذا مــا طَيِّبُ العيشِ نَفَدْ ،
فلقد أَذكَرَ من كان سَها ؛ ولَقــد نَبَّه مَن كانَ رقَدْ !
قُلْ لمن شاءَ يقُل ما شاءَه ، إنَّ خَصمي ، في حياتي ، لأَلَدّ !
أَوَ مــا يُعجِبُ مِنَّا أنَّنا عربٌ نُوتَر لا نُعطى قَوَد ؟
ماتَ من لو عاشَ في سِرباله ، غَلَبَ النورُ عليه فاتّقَــد !
سيِّدٌ قوبِلَ فيه معشرٌ ، ليسَ في أبنائهم من لم يَسُد ؛
نافسَ الدَّهرُ عليهم يَعرِباً ، ورأى مَوضِعَ حِقدٍ فَحقَد ؛
هابَ ان يُجرى عليه حِكمُه ، فنَوى الغدرَ له يومَ وُلِد ،
حيثُ لم يَنظُر به رَيعانَه ، إنَّمــا استعجلَه قبلَ الأَمَد ! [1]
إذ بدا في صهَواتِ الخيلِ كالقمر المــلآنِ ، والسيفِ الفَرِد ؛
ورَجَوناه مَــلاذًا للورى ؛ ودعَوناه عِتادًا للأَبــد .
إنَّمــا كان شِهاباً ثاقباً ، صُعِقَ الليلُ له حتَّى خَمَد ،
ورُدَينيًّا هَزَزنا مَتنَــهُ ، فتَثَنَّى ساعةً ثم انقصَد ؛ [2]
قلَّما يَملأُ عيناً من سناً ، غيرَ ما يملأُ صدرًا من كَمَد !
لا رَجاءٌ في خُلودٍ ، كلُّنا واردُ الماءِ الذي كانَ وَرَد ؛
جاورَت أرضَ ثَراه دِيَمٌ ، تحمِلُ اللؤلؤَ رَطباً لا البَرَد .
إن في الجَوسقِ قبرًا ، تُربُه ، من دمِ الباكينَ ، إضريجُ جَسَد ؛ [3]
وَطِئَت نفسي عليه قَدَمي ، ومَشى ، في فَضلةِ الرُّوحِ ، الجسَد .
يومَ عايَنتُ كُماةَ الحربِ في مَعرَكٍ ، لو كان حرباً لم يُرَد ؛
بُدِّلَ الإقــدامُ فيه هَلَعاً ، فاستوى الأَبطالُ والهِيفُ الخُرُد ، [4]
واستحالَ الزَّأرُ إرناناً ، كما رجَّعَ الباكي ، على الأيكِ ، الغَرِد !

١ * ينظر : ينتظر ◎ الريعان : اول كل شيء وافضله : واراد به هنا ريعان الصبا .

٢ * الرديني : الرمح ◎ انقصد : انكسر .

٣ * الجوسق : القصر ◎ الاضريج : المضرّج المخضّب ◎ الجسد : الدم .

٤ * الهيف ، واحدتها هيفاء : الضامرة البطن ، الرقيقة الخصر ◎ الخرد ، واحدتها خريدة : البكر ، والجارية الطويلة السكوت .

قد رآهُ ، وهو ميت ، فبكى ، من رآه ، وهو حيٌّ ، فسجَد ؛
لو تَراخَى الموتُ عنه ساعةً ، ملأَ الأَرضَ طِعاناً وصَفَد ! [1]
لو رأته الطَّعنةُ السُّلكى ، لما كان إبراهيمُ فيه يُضطَّهَدْ ، [2]
ولحالَت دونَه رَجراجــةٌ ، كعُباب البحرِ ، يَرمي بالزَّبد ، [3]
ولُيوثٌ يُتَّقى مكروهُهــا ، وعناجيجُ طِوالٌ . تَنجَرِد ، [4]
ولصَرَّت حلَقٌ ماذيَّــةٌ ، وقَناً ذُبْلٌ ، واسيافٌ تَقِد . [5]
خيرُ زَندٍ كانَ في خيرِ يدٍ منك ، قد نِيطَت الى خيرِ عَضُد .
غيرَ أنَّ الذُّخرَ خيرٌ لامرِىءٍ ، لم يَجِد من احزَمِ الأَمرين بُدْ ،
لو نجــا اشرفُ شيءٍ قدرًا ، فازتِ الشمسُ بتخليدِ الأَبد ؛
ولو أنَّ المَجدَ يبقى ماجدًا ، لم يُنازع جِدَّةَ العيشِ أَحد ؛
كلُّ مُلكٍ ، لمليكٍ بعدَه ، فهو لَغوٌ ، بعد ما كان عَهِد . [6]
يا ابا أَحمدَ ، والحِكمةُ في قولِ من قالَ : إلى اللهِ المَرَدّ ،
لا مَلومٌ انتَ في بعض الاسى ، غيرَ أن الحُرَّ أَولَى بالجَلَد .
والمُنى أنتَ ، إذا دُمتَ لها دامتِ النَّعماءُ والعيشُ الرَّغد ؛
وهي الأَيامُ لا يأمنُهــا حازمٌ ، يأخُذُ من يومٍ لِغَد ،
لو مُعافىً من خُطوبٍ ، عُوفِيت لِقوةٌ بين هِضابٍ ونُجُـد ، [7]
فاتَني ريبُ زَماني بالذي ابتغيه ، وهو ما لستُ أَجِد !
ولقد فــاتَ بنا انفسَنا ، واذا ما فاتَ شيءٌ لم يُردّ !
ليتَ شعري ! أيُّ شيءٍ يَرتجي من رَجاه ، او بماذا يَستعِدّ ؟
فلقد أَسرعَ ركبٌ لم يَعُج ؛ ولقــد أَدبرَ يومٌ لم يَعُد !

١ * الصفد : الوثاق . يريد انه يملأ الارض من الاسرى المصفّدين اي الموثقين بالسلاسل .

٢ * السلكى : المستقيمة تجاه الوجه .

٣ * رجراجة : نعت لكتيبته ، والكتيبة الرجراجة : التي كأنها تتمخض ولا تسير لكثرتها .

٤ * عناجيج ، واحدها عنجوج : وهي جياد الخيل .

٥ * الحلق : اراد بها حلق الدرع ؛ الماذية : الدرع الليّنة .

٦ * بعد ما كان عهد : اي بعد ان كان اوصى له بولاية العهد من بعده ، والضمير في عهد يعود الى والد الميت .

٧ * اللقوة : العقاب .

وصفه

حرّاقات المعزّ

قال يصف حراقات(١) المعز لدين الله .

اما والجواري المُنشآتِ التي سرَت ، لقد ظاهَرَتها عُدّةٌ وعديدُ ؛ [2]
قِبابٌ ، كما تُزجى القِبابُ على المَها ، ولكنَّ من ضَمَّت عليه أسودُ ؛ [3]
وما راعَ مَلْكَ الرومِ إلّا اطّلاعُها ، تُنشَّرُ أعلامٌ لهـا وبُنودُ ،
عليها غَمامٌ مُكفهِرٌّ صَبيرُه ، له بارِقـاتٌ جَمّةٌ ، ورعودُ ، [4]
مَواخِرُ في طامي العُبابِ ، كأنّها لِعزمِك بأسٌ ، أو لكفّك جودُ ؛
من الراسياتِ الشُّمِّ ، لولا انتقالُها ، فمنهـا قِنانٌ شُمَّخٌ ورُيودُ ؛ [5]
من الطَّيرِ ، إلّا أنهنَّ جوارحٌ ، فليسَ لها الّا النفوسَ مَصيدُ ؛
من القادحاتِ النارِ تُضرَمُ للصَّلى ، فليسَ لها ، يومَ اللّقاءِ خُمودُ ؛ [6]
اذا زَفَرَت غَيظًا ترامَت بمارجٍ ، كما شَبَّ من نارِ الجحيمِ وَقودُ ، [7]
فافواهُهنَّ الحامِيـاتُ صواعقٌ ؛ وانفاسُهنَّ الزّافراتُ حديـدُ .
لها شُعَلٌ فوقَ الغِمارِ ، كأنّها دِمـاءٌ تلقّتها مَلاحفُ سودُ ،
تعانِقُ موجَ البحرِ ، حتى كأنّه سَليطٌ لها ، فيه الذُّبالُ عَتيدُ . [8]

وصف مجلس

قال من قصيدة مدح يصف مجلسًا بناه ابرهيم بن جعفر بن علي :

الشَّمسُ عنه كليلةٌ أجفانُهـا ، عَبرى ، يَضيقُ بسِرّها كِتمانُها ، [9]

١ * الحراقات ، واحدتها حراقة : السفينة فيها مرامي نار يرمى بها العدو .

٢ * والجواري : الواو للقسم ◎ الجواري : السفن ، واحدتها جارية ◎ ظاهرتها : عاونتها .

٣ * شبه السفن بالهوادج عليها النساء اللواتي شبههن بالمها ، ولكن فيها رجال كالاسود .

٤ * مكفهر : متراكب ◎ الصبير : السحاب الابيض . يشير الى ١٠ تقذفه الحراقات من النار والدخان .

٥ * شبه السفن بالجبال الراسية ، ولكنها جبال تنتقل فيها قمم عالية ، وريود اي نواتئ .

٦ * تضرم : تشعل ◎ الصلى : مقاساة حر النار ◎ يوم اللقاء : يوم الحرب .

٧ * المارج : اللهب .

٨ * السليط : الزيت ◎ العتيد : المهيّأ ، المعدّ .

٩ * كليلة : ضعيفة ◎ عبرى : دامعة العين .

لو تستطيعُ ضياءه لَدَنَت له ، … يَعشو الى لَمعانه لَمعانُها ، [1]
وأَراكَها تحبو على بُرَحائِها ، … لم تُخفَ مُذعِنةً ولا إذعانُها . [2]
إيوانُ كِسرى ، لو رأته فارسٌ … ذُعِرت ، وخَرَّ لسَمكِه إيوانُها ؛ [3]
سجَدَت الى النيران ، أَعصُرَها ، ولو … بَصُرت به سجَدت له نيرانُها .
أو ما ترى الدنيا وجامعَ شملِها … صُغرى لَدَيه ، وهي يَعظُمُ شأنُها ؟
خَضِلُ البشاشة ، مُونِقٌ من مائها ، … فكأنّه متهلّلٌ ، جَذلانُها ؛ [4]
يَندَى ، فتَنشأ ، في تنقُّلِ فيئِه ، … غُرُّ السَّحائب ، مُسبَلٌ هطَلانُها .
تَغدو القُصورُ البيضُ ، في جَنّاتِه ، … صُورًا إليه ، يَجِلُّ عنه عِيانُها ،
والقبَّةُ البيضاءُ طائرةٌ به ، … تَهوي بمُختَرَقِ الصِّبا أعنانُها ،
بُطنانُها وشيُ البُرودِ وعُصبُها ، … فكأنَّما قُوهِيُّها ظُهرانُها . [5]
نِيطت أكاليلٌ بها منظومةٌ ، … فغدا يُضاحِكُ دُرُّها مَرجانُها ،
وتعرَّضت طُرَرُ الشُّمولِ كأنّها … عذَباتُ أَوشحةٍ ، يروقُ جُمانُها ، [6]
وكأنَّ أفوافَ الرِّياضِ نُثِرنَ في … صفحاتِها ، فتَفوَّفت ألوانُها . [7]
فأدِر جفونَك ، واكتحِل بمناظرٍ ، … غَشَّى فريدَ لُجَينِها عِقيانُها ، [8]
لترى فنونَ السِّحرِ أمثلةً ، وما … يَدري الجَهولُ ، لعلّها اعيانُها ؛
مُتشرِّفاتٌ من خُدورِ أوانسٍ ، … مصفوفةٍ ، قد فصِّلت تيجانُها ،
مُتقابلاتٌ في مراتِبِها ، جَنَت … حرباً على البيضِ الحسانِ حِسانُها ؛
تُسلي المُحِبَّ عن الحبيبِ ، وتجتني … ثمرَ النُّفوسِ ، محرَّماً سِلوانُها .

١ * يعشو : ينظر .

٢ * تحبو : ترحف ◎ البرحاء : الشدة والاذى .

٣ * السمك : السقف .

٤ * الخضل : الندي .

٥ * العُصب ، واحدها عَصب : نوع من البرود ◎ القوهي : ثياب بيض .

٦ * الطرر ، واحدتها طرة : الناصية ◎ الشمول : لعله اراد بها جمعًا لشمال اي النخلة ، فيكون المراد ان نواحي النخل تعرضت لمهب الرياح كأنها عذبات اوشحة يعجب جمانها . والجمان : اللؤلؤ الصغير ، او حب فضة كاللؤلؤ .

٧ * الافواف : اراد بها الازهار ، شبهها بالفوف وهو نوع من البرود اليمانية ◎ تفوّفت ◎ تخططت بخطوط بيض على طولها .

٨ * العقيان : الذهب .

ابن دَرّاج القسطلي

٩٥٨ - ١٠٢٩

هو ابو عمر ابن دَرّاج القَسطليّ ، منسوبًا الى مدينة في الاندلس يقال لها قسطلة درّاج ، ولا يعلم أَإلى جد الشاعر درّاجٍ نسبت ام الى غيره .

ولد في هذه المدينة ونشأ فيها ، ثم اتصل بالمنصور بن ابي عامر ، مؤسس الدولة العامرية ، فكان من أبلغ شعرائه ، حتى قال فيه ابن حيّان : «إنه سبّاق حلبة الشعراء العامريين ، وخاتمة محسني اهل الاندلس اجمعين» .

وقد وصفه ابن بسّام الشنتمري في «ذخيرته» بأنه لسان الجزيرة شاعرًا ، واوّل معاصريه من شعرائها المشهورين ، وحامل لوائهم »

وذكره الثعالبي في يتيمته « قال : « بلغني ان ابا عمر القسطلي كان بصقع الاندلس كالمتنبي بصقع الشام ، وهو احد شعرائهم الفحول هنالك ، وكان يجيد ما ينظم . »

تنقّل شاعرنا على اثر الفتنة بين ملوك الاندلس يمدحهم ويستعينهم على ما نكبته به تلك الفتنة ، ثم القى عصا سيره عند منذر بن يحيى ، أمير سَرَقُسطة ، فلم يزل عنده ، ثم عند ابنه يمدحهما حتى مضى لسبيله في فتنة البرابر مع أملاك الجزيرة .

كان ابن دراج شاعرًا مطبوعًا ، عاليَ النفس الشعري ، قويّ العاطفة ، رحب الخيال ، جيّد الوصف ، متين النسج ، موسيقي اللفظ ، يطيل قصائده ، حتى لم يذكر له منها الا مقاطع . قال عنه ابن شهيد : « إنه مطبوع على النظام . شديد اسر الكلام ، ثم زاد بما في اشعاره من الدليل على العلم بالخبر واللغة ، وطول طلقه في الوصف ، وتلاعبه بالمعاني وتكريرها »

وكانت قصائده في مدح الملوك تسمى السلطانيات ، وتسمّى قصائده في مدح الامراء الهاشميات .

شعره

ليس لابن درّاج ديوان شعر معروف ، وانما شعره متفرق في الكتب الادبية ، وقد اعتمدنا ، فيما اخذناه من شعره ، يتيمة الدهر للثعالبي ، والذخيرة لابن بسام الشنتمري .

من سلطانيات

مدحه لسليمان بن الحكم المستعين بالله

هنيئاً لهذا المُلكِ رَوحٌ وريحانُ ، وللدّينِ والدُّنيا أمانٌ وإيمانُ ،
فإنَّ قَعيدَ الخِزيِ قد ثُلَّ عرشُه ؛ وإنَّ أميرَ المُؤمنين سُليمانُ . [1]
سَمِيٌّ الّذي انقادَ الأنامُ لأمرِه ، فلم يَعصِه في الأرضِ إنسٌ ولا جانُ ؛ [2]
وقامَ فقامَت للمعالي مَعالِمٌ ، وللخيرِ أسواقٌ ، وللعدلِ ميزانُ ؛
وجَدَّدَ للإسلامِ سُورَ خِلافةٍ ، عليها من الرَّحمنِ نُورٌ وبُرهانُ ،
وأكَّدها عهدٌ لأكرمِ من وفى بعهدٍ ، زَكَت منه عُهودٌ وأيمانُ ،
قريبُ النَّبيِّ المُصطفى وابنُ عمّه ، ووارثُ ما شادَت قُريشٌ وعَدنانُ ،
وما ساقت الشُّورى ، وأوجَبه التُّقى ، وأَورثَ ذو النُّورينِ عثمانُ ،
وما حَكَمت فيه السُّيوفُ وحازَه اليك أبو الأملاكِ جَدُّكَ مَروانُ .

. . .

صفة رجال حربه

وقد لَمَعت حَولَيك منهم أسِنَّةٌ ، تُخَيِّلُ أنَّ الحَزنَ والسَّهلَ نِيرانُ ؛
أُسودٌ هَياجٍ ما تَزالُ تَراهُمُ تطيرُ بهم ، نحو الكَريهةِ ، عِقبانُ ،
وأقمارُ حربٍ طالعاتٌ كأنّما عَمائمُهم ، في مَوقفِ الرَّوعِ ، تِيجانُ .
وكلُّ زَناتيٍّ ، كأنَّ حُسامَه وهامةَ من لاقاه ، نارٌ وقُربانُ ؛ [3]
وأبيضَ صِنهاجٍ ، كأنَّ سِنانَه شِهابٌ ، إذا أهوى لقِرنٍ ، وشيطانُ . [4]

١ * القعيد : المجالس ◎ الخزي : الذل والهوان ◎ ثل : هدم .
واراد بقوله « قعيد الخزي » محمد بن هشام الملقب بالمهدي ، وهو الذي انتزع منه سليمان ملك قرطبة .

٢ * يشير الى سليمان الحكيم .

٣ * زناتي : منسوب الى قبيلة زناته .

٤ * صنهاج : اراد صنهاجي . نسبة الى قبيلة صنهاجة .

مدح المُرتضى آخر ملوك بني مروان

١ جِهادُكَ حُكمُ اللهِ مَن ذا يَرُدُّه؟ وعَزمُك أمرُ اللهِ مَن ذا يَصُدُّه؟
وطائرُكَ اليُمنُ، الذي أنتَ يُمنُه، وطالِعُك السَّعدُ، الذي أنتَ سَعدُه.

وَبيعةُ رِضوانٍ، رَعى اللهُ حقَّها، لِمَن بَيعةُ الرِّضوانِ، إذ غابَ جَدُّه،
فأصبحَ، في رأسِ الرِّياسةِ، تاجُه، ونُظِّمَ، في جِيدِ الخِلافةِ، عِقدُه؛
٥ مَسرَّتُه مَأوَى الغريبِ وسِترُهُ، ولَذَّتُه خيرُ المُقِلِّ ورِفدُه؛
وأَجنادُه، في مَوقِفِ الرَّوعِ، رَوضةٌ، وأعلامُه، في مَوردِ المَوتِ، ورِدُه.
نُلاعِبُ آرامَ الفَلا من هِباتِه، وآرامُه غُرُّ الطِّرادِ وجُردُه، [١]
ونَفترِشُ الدِّيباجَ، من جُودِ كَفِّه، وما فَرشُه إلّا الجَوادُ ولِبدُه.
وكلُّ إمامٍ ناصرٍ أنتَ صِنوُه؛ وكلُّ إمامٍ قاهرٍ أنت نِدُّه.
١٠ نَمَوكَ الى بيتِ النُّبوّةِ، وابتَنوا لك الشَّرفَ الفَردَ، الذي أنتَ فَردُه،
فأَفخِر بمَن قُربُ النَّبيّين فَخرُه؛ وأمجِد بمَن مجدُ الخلائفِ مَجدُه.

مدح المنصور بن ابي عامر

نظم هذه القصيدة تلبية لما امره به المنصور من معارضة قصيدة ابي نواس في مدح الخصيب، صاحب الخراج في مصر: وهي التي اوّلها: « اجارة بيتينا ابوك غيور »

خطابه لزوجته

أَلَمْ تَعلَمي أنّ الثَّواءَ هو الثَّوَى، وأَنَّ بُيوتَ العاجِزينَ قُبورُ؟ [٢]
تُخوِّفُني طُولَ السِّفارِ، وإنَّه، لتَقبيلِ كَفِّ العامريِّ، سَفيرُ؛
ذَريني أَرِدْ ماءَ المَفاوِزِ، آجِناً، إلى حيثُ ماءُ المَكرُماتِ نَميرُ، [٣]
فإنَّ خطيراتِ المَهالِكِ، ضُمَّنٌ، لِراكِبِها، أنَّ الجَزاءَ خَطيرُ.

. . .

١ * ارام، واحدها رئم: الظبي الابيض ◎ غرّ الطراد: الخيول التي في جباهها غرر، اي بياض ◎ الجرد: الخيول القصيرة الشعر.

٢ * الثواء: الاقامة ◎ الثوى: الهلاك

٣ * ذريني: دعيني ◎ ارد: اشرب ◎ المفاوز، واحدتها مفازة: الفلاة لا ماء فيها ◎ الآجن: المتغير لونه وطعمه

وصف وداعه

وَلَمَّا تَدَانَتْ لِلوَدَاعِ ، وَقَدْ هَفَا … بِصَبْرِيَ مِنْهَا أَنَّةٌ وَزَفِيرُ ، [1]
تُنَاشِدُنِي عَهْدَ المَوَدَّةِ وَالهَوَى ، … وَفِي المَهْدِ مَبْغُومُ النِّدَاءِ صَغِيرُ ، [2]
عَيِيٌّ بِمَرْجُوعِ الخِطَابِ ، وَلَفْظُهُ … بِمَوْقِعِ أَهْوَاءِ النُّفُوسِ ، خَبِيرُ ، [3]
تَبَوَّأَ مَمْنُوعَ القُلُوبِ ، وَمُهِّدَتْ … لَهُ أَذْرُعٌ مَحْفُوفَةٌ وَنُحُورُ ، [4]
فَكُلُّ مُفَدَّاةِ التَّرَائِبِ مُرْضِعٌ ؛ … وَكُلُّ مُحَيَّاةِ المَحَاسِنِ ظِئْرُ ؛ [5]
عَصَيْتُ شَفِيعَ النَّفْسِ فِيهِ ، وَقَادَنِي … رَوَاحٌ بِتَدْآبِ السُّرَى ، وَبُكُورُ ، [6]
وَطَارَ جَنَاحُ البَيْنِ بِي ، وَهَفَتْ بِهَا … جَوَانِحُ ، مِنْ ذُعْرِ الفِرَاقِ ، تَطِيرُ ،
لَئِنْ وَدَّعَتْ مِنِّي غَيُورًا ، فَإِنَّنِي … عَلَى عَزْمَتِي ، مِنْ شَجْوِهَا ، لَغَيُورُ ،
وَلَوْ شَهِدَتْنِي ، وَالهَوَاجِرُ تَلْتَظِي … عَلَيَّ ، وَرَقْرَاقُ السَّرَابِ يَمُورُ ، [7]
أُسَلِّطُ حَرَّ الهَاجِرَاتِ ، إِذَا سَطَا ، … عَلَى حُرِّ وَجْهِي ، وَالأَصِيلُ هَجِيرُ ، [8]
وَاسْتَنْشِقُ النَّكْبَاءَ ، وَهِيَ بَوَارِحٌ ، … وَاسْتَوْطِئُ الرَّمْضَاءَ ، وَهِيَ تَفُورُ ، [9]
وَلِلْمَوْتِ ، فِي عَيْنِ الجَبَانِ ، تَلَوُّنٌ ، … وَلِلذُّعْرِ ، فِي سَمْعِ الجَرِيءِ ، صَفِيرُ .

. . .

وَقَدْ خُيِّلَتْ طُرْقُ المَجَرَّةِ أَنَّهَا … عَلَى مَفْرِقِ اللَّيْلِ البَهِيمِ ، قَتِيرُ ، [10]
وَدَارَتْ نُجُومُ القُطْبِ ، حَتَّى كَأَنَّهَا … كُؤُوسُ مَهًا ، وَالَى بِهِنَّ مُدِيرُ ،

١ ٭ هفا به : ذهب به .

٢ ٭ مبغوم والمبغوم : الذي لا يفصح ، وهو مفعول بمعنى فاعل ، اي باغم . النداء : اراد بـه طفله ◉

٣ ٭ العيي : العاجز . يريد انه عاجز عن الكلام ولكنه خبير بموقع ما تميل اليه النفوس .

٤ ٭ المحفوفة : المحفوفة : ما ازيل الشعر عنها ، فبدت ناضرة ، ناعمة .

٥ ٭ الترائب ، واحدتها التريبة : اعلى الصدر ◉ الظير : مسهل ظئر : المرضع .

٦ ٭ تدآب ، مصدر دأب : جدّ في العمل واستمر عليه ◉ السرى : سير الليل ◉ البكور : السير بكرة ، غدوة .

٧ . الرقراق : المتلالىء ◉ السراب : ما يرى نصف النهار عند اشتداد الحرّ كأنه ماء ◉ يمور : يتحرك .

٨ ٭ حرّ الوجه : صفحته .

٩ ٭ النكباء : ريح انحرفت عن مهاب الرياح ووقعت بين ريحين ◉ البوارح ، واحدتها بارح : الحارّة ◉ استوطئ : اطأ ◉ الرمضاء : الارض الحامية من شدة حر الشمس .

١٠ ٭ القتير : رؤوس المسامير في الدرع ، والدرع نفسه ، شبه بهـا المجرة ، في لونها الكمد .

لَقَد أيقَنت أنّ المُنى طوعُ هِمَّتي ، وأنّي بعَطفِ العامريَ جَديرُ .

. . . .

مجلسه ابن عامر

ولمـاَّ تَوافَوا للسَّلام ، ورُفِعَت عن الشَّمسِ ، في أُفقِ السَّماء ، سُتورُ ،
وقد قامَ ، من زُرقِ الأَسنَّةِ ، دُونَها صُفوفٌ ، ومِن بيضِ السّيوفِ سُتورُ ،
رأوا طاعة الرَّحمنِ كيفَ اعتِزازُها ، وآياتِ صُنعِ اللهِ كيفَ تُنيرُ ،
وكيفَ استوى بالبَرِّ والبحرِ مجلسٌ ، وقامَ بِعبءِ الرّاسياتِ سَريرُ ،
فجاؤوا عِجالاً ، والقلوبُ خَوافقُ ، وولُّوا بِطاءً ، والنَّواظِرُ صُورُ . ١

مدح الخليفة خيران العامري

قال فيه هذه القصيدة ، وهو متوجّه الى سَرَقُسْطَة سنة ١٠١٦ نثبت بعضها لطولها :

١ لكَ الخَيرُ ! قد أوفى بعَهدِكَ خَيرانُ ؛ وبُشراكَ ! قد وافاكَ عِزٌّ وسُلطانُ ؛
اليكَ شحنّا الفُلكَ تَهوي ، كأنها وقد ذُعِرَت من مَغربِ الشَّمس ، غِربانُ ،
على لُجَجٍ خُضرٍ ، إذا هبَّتِ الصِّبا تَرامَى بنا فيها ثَبيرٌ وثَهلانُ ، ٢
مَواثِلَ تَرعى ، في ذَراها ، مَواثلاً ، كما عُبِدَت في الجاهليّةِ أَوثانُ . ٣

. . . .

وداعه لإخوانه

فإن غَرَّبَت أرضُ المَغاربِ مَوئِلي ، وأنـكَرَني فيها خَليطٌ وخِلّانُ ، ٤
فكم رحَّبَت أرضُ العراقِ بمَقدمي ، وأجزَلَتِ البُشرى عليَّ خُراسانُ ؛
وإن بلاداً أخرَجَتني لعُطَّـلٌ ؛ وإنّ زماناً خانَ عَهدي لَخَوّانُ . ٥
سلامٌ على الإخوانِ تسليمَ يائسٍ ؛ وسَقياً لدهرٍ كانَ لي فيه إخوانُ ،
نُودّعُهم شَوقاً بِشجوٍ ، كمِثلِ ما أجابَت ، خَفيفَ السَّهمِ ، عَوجاءُ مِرنانُ ، ٦

١ * يريد انهم ولوا عنه وتوا ظرهم مائلة اليه لا ترتوي من رؤيته .
٢ * ثبير : جبل في مكة ◉ ثهلان : جبل في بلاد العرب .
٣ * مواثل : ظاهرات ، منتصبات ◉ ذراها : جانبها .
٤ * الخليط : العشير .
٥ * عطّل : واحدتها عاطل : غير الحالية ، اللابسة الحليّ .
٦ * العوجاء : القوس ◉ المرنان : المصوّتة .

وَيَصدَعُ ، ما ضَمَّ الوَداعُ ، تَفرُّقٌ ، ... كما انشعَبَت ، تحتَ العَواصفِ ، أغصانُ . [1]
إذا شرَّقَ الحادي بهِم غَرَّبَت بنا ... نَوًى ، يومُها يَومان ، والحِينُ أحيانُ ،
فَلا مُؤنِسٌ إلّا شَهيقٌ وزَفرةٌ ؛ ... ولا مُسعِدٌ إلّا دُموعٌ وأشجانُ ،
وما كانَ ذاكَ البَينُ بينَ أحِبّةٍ ، ... ولكن قُلوبٌ فارَقَتهن أبدانُ .

. . . .

مدح الخليفة

هم استَخلَفوا الأحبابَ أمواجَ لُجّةٍ ، ... هي الموتُ ، أو في الموتِ عَنهن سُلوانُ ،
ولا يأسَ من رُوحٍ ، وفي اللهِ مَطمَعٌ ؛ ... ولا بُعدَ من خيرٍ ، وفي الأرضِ خيرانُ .
متى تَلحظُوا قَصرَ المَريّةِ تَنزلُوا ... ببَحرِ نَدًى ، يُمناه دُرٌّ ومَرجانُ ،
وتَستبدِلوا ، من مَوجِ بحرٍ شجاكُمُ ، ... بمَوجٍ ، لكم منه لُجَينٌ وعِقيانُ .
فتى سيفُه للدِّين أمنٌ وإيمانُ ؛ ... وإيمانُه للأهلِ رَوحٌ ورَيحانُ ؛
وبالخيرِ فتّاحٌ ، وبالخيرِ عائدٌ ، ... وبالخيلِ ظَعّانٌ ؛ وللخيلِ طَعّانُ ؛
لها الكَرّةُ الغَرّاءُ عن كلِّ شاردٍ ، ... أضاءَت لهم منها دِيارٌ وأوطانُ ،
ورَدَّ بها يومَ اللِّقاءِ زَناتَةً ، ... كما انقلَبَت يومَ الهَباءَةِ ذُبيانُ ، [2]
بكلِّ كَمِيٍّ عامريٍّ ، يَسوقُه ، ... كحَرِّ الوَغى ، قَلبٌ على الدّين حَرّانُ ؛
فأيُّ صُقورٍ قَلّبت أيَّ أعيُنٍ ، ... الى أيِّ لَيثٍ رَدَّها ، وهي خِلدانُ ؛ [3]
عُيونٌ بها كادُوا العُلا بعَمائها ، ... فهُم ، في سَبيلِ الرُّشدِ والغَيِّ ، عُميانُ ،
وما لهُمُ ، في ظُلمَةٍ بعدُ ، كَوكبٌ ؛ ... وما لهُمُ ، في مُقلةٍ بعدُ ، إنسانُ ؛
تَضيقُ بهِم رُحبُ القصورِ ، ووُدُّهم ، ... لو احتازَهُم عنها كُهوفٌ وغِيرانُ [4]

. . . .

حَفَرتَ لهُم ، في يوم قَبرَةَ ، بالقَنا ... قُبورًا ، هَواءُ الجَوِّ منهن مَلآنُ ؛ [5]

١ * يصدع : يفرّق ◉ انشعبت الاغصان : تفرّعت عن بعضها .

٢ * يوم الهباءة : يوم من ايام العرب كان لعبس على ذبيان قتل فيه قيس بن زهير العبسي حذيفة بن بدر الفزاري .

٣ * خلدان : لم نجد هذه اللفظة فيما بين ايدينا من المعاجم ، ولعله اراد بها جمعًا لخلد ، وهي الفارة العمياء وجمع هذه اللفظة الصحيح هو مناجذ ، فيكون المعنى انه ردّ العيون وهي عميٌ كعيون المناجذ .

٤ * غيران ، واحدها غار : الكهف .

٥ * قبرة : موضع .

فلو نُشِرَ الأَملاكُ ، يَومَكَ فيهِمُ ، لألقَى إليكَ التّاجَ كِسرى وخاقانُ ؛
ولو رُدَّ في المَنصورِ رُوحُ حياتِه ، غَداةَ لَقِيتَ المَوتَ ، والموتُ غرثانُ ،
ونادَيتَ للهَيجاءِ أبناءَ مُلكِه ، فَلَبّاكَ آسادٌ : عبيدٌ وفِتيانُ ،
جِبالٌ إذا أرسَيتَها حَومةَ الوَغَى ؛ وإن تَدعُهُم يوماً إليها فَعُقبانُ ؛
كتائبُ ، بل كُتبٌ بنَصرِكَ سُطِّرَت ، ووَجهُكَ ، بسمِ اللهِ ، والسّيفُ عُنوانُ ؛
هُوَ السّيفُ لا يَرتابُ أنّكَ سيفُه ، إذا نازلَ الأقرانَ ، في الحربِ ، أقرانُ .
وأسمرَ يَسري ، في بِحارٍ من الرّدى ، بيُمناكَ ، لكن تَغتَدي ، وهوَ ظَمآنُ ،
تلألأَ نُوراً ، من سَناكَ ، سِنانُه ، وقد دعَتِ الفُرسانَ ، للحربِ ، فُرسانُ ،
فلِلّهِ ماذا أنجَبَت منكَ عامرٌ ؛ ولله ماذا ناسَبَت منكَ قَحطانُ . [1]

[1] ناسبت : شاركت في النسب .

ابن شُهَيد

٩٩٢ - ١٠٣٤

هو ابو عامر احمد بن عبد الملك بن شُهيد الاشجعي ، نسبة الى قبيلة اشجع بن ريث بن غطفان . وُلد في قرطبة ، ونشأ فيها واستوزره صاحبها .

كان ابن شهيد من اعلم اهل الاندلس ، وكان متفنناً بارعاً في فنونه ، يظهر تفننه في طريقة نقده التي بنى فيها اراءه على تأثير نفس الكاتب في انشائه ؛ وفي تصانيفه الغريبة البديعة ، أمثال كتاب « الزوابع والتوابع » اي « الشياطين والجن » وهو كناية عن رسالة نثرية شعرية ، وصف بها رحلة قام بها الى بلاد الجن ، يصحبه فيها جني دعاه زهيراً .

وهو وان يكن في نثره اتبع التسجيع ، فافسد شيئاً من طبعه بتصنّعه ، فقد كان شعره مطبوعاً ، على طول في النفس ، ودقّة في المعاني وجودة في التوليد والابتكار ، وشدة أسر ، وخفة روحٍ . وقد ابدع في وصف الطبيعة وتشخيصها ؛ وكثيراً ما كان يبدأ مدائحه بمقدّمة نثرية ، يتبعها بمدحيته مصدّرة بوصف طبيعة بلاده ، ومجالس انسه .

وصفه ابن بسّام في « ذخيرته » قال : « كان ابو عامر شيخ الحضرة العظمى وفتاها ان هزل فسجع الحمام ، او جدّ فزئير الاسد الضرغام . نظمٌ كما اتّسق الدرّ على النحور ، ونثر كما خلط المسك مع الكافور . »

وقال فيه مروان بن حيان المؤرخ الاندلسي : « كان ابو عامر يبلغ المعنى ولا يطيل سفر الكلام ، وشعره حسن عند اهل النقد تصرّفَ فيه تصرُّف المطبوعين فلم يقصّر عن غايتهم . »

وكانت له رسائل في فنون الفكاهة وانواع التعريض والاهزال . توفي في قرطبة ودفن فيها ولم يكن قد تجاوز الثانية والاربعين .

شعره ونثره

ليس لابن شهيد ديوان معروف ؛ وقد فقدت جميع تصانيفه الادبية ؛ ولم يبق من شعره الّا ما ذكر له في كتب الادب كفوات الوفيات ، والذخيرة ، وكذلك لم يبق من آثاره النثرية ، ومن كتاب الزوابع والتوابع الّا ما ذكره ابن بسام في الذخيرة ؛ وقد اخذنا من هذا الكتاب ما اخترناه من نثره وشعره .

مدح المؤتمن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن ابي عامر

قصيدة ضمنها رسالة نثرية طويلة ، وقد صدّرها بوصف الطبيعة ومجلس لهو وصيد ، ثم انتقل الى المدح .

وصف الطبيعة

أمّا الرّياحُ بجوِّ عاصِمْ ، فحلَبْنَ أخلافَ الغمائمْ ؛[١]
سَهِرَ الحَيا برياضِهـا ، فأسالهـا ، والنَّورُ نائم ،
حتّى اغتدَت زَهَراتُها ، كالغيدِ ، باللُّجِّ ، العَوائِم ،
من ثَيِّباتٍ لم تُبَلْ ، كشفَ الخدودِ ، ولا المَعاصِم ،[٢]
وصِغارِ أبكارٍ شكَت ، خجلًا ، فعاذَت بالكمائِم .[٣]
وَردٌ ، كما خجِلَت خُدودُ العِينِ من لحَظاتِ هائم ،[٤]
وشَقيقُ نُعمانٍ ، شكَت صفحاتُه من لَطمِ لاطِم ،[٥]
وغُصونُ أشجارٍ ، حكَت رَقصَ المآتِمِ للمآتِم ؛
بكَرَ الحِسانُ ، يَرِدْنَها ، من كلِّ واضحة الملاغِم ،[٦]
وضَحِكنَ عُجباً ، فالتقَت فيها المَباسِمُ بالمَباسِم ؛
ضَحِكت ، وأومضَ بارقٌ ، فظَلِلتُ للبرقينِ شائِم ،[٧]

١ * اخلاف ، واحدها خلف : حلمة ضرع الناقة ، استعارها للغمائم .

٢ * الثيّبات ، واحدتها ثيب : المتزوجة ، لم تبل : لم تبالي .

٣ * عاذت : لجأت ◉ الكمائم ، واحدها كمّ : الغلاف الذي يحيط بالزهر او الثمر فيستره ثم ينشق عنه .

٤ * العين ، واحدتهـا عيناء : الحسنة العين .

٥ * يدّعي ان احمرار زهر الشقيق مسبب عن اللطم .

٦ * يردنها : يصرن اليها ◉ الملاغم ، واحدها ملغم : الفم والانف وما حولهما .

٧ * شائم ، من شام البرق : نظر اليه .

ورَنَت ، فبادرَ نَرجِسٌ ، يَشكو عَماه الى حَمائِم.

مجلس لهو

طَارَدتُهنّ بفتيةٍ حُردٍ على حَربِ المُسالِمِ ، [١]

وجَرى بها فُلكُ الصِبا باللّهو ، والقُضبِ اللّوائِم ؛

وكأنّنا فيها العَفارتُ ، والكُؤوسُ من الرَّواجِم ؛ [٢]

وعَلا بنا سُكرٌ أبى إلّا الإنابةَ للمَحارِم ،

نَرمي قلانسنا لهُ ، ونَجُرُّ من عَذَبِ العَمائِم ؛ [٣]

وتَرنّحت فيها القيانُ لنا ، ورَجّعتِ البَواغِم ، [٤]

قُمنا نُصفّقُ بالأكُفِّ لها ، ونرقُصُ بالجَماجِم.

. . . .

وصف الخيل والصيد

وأغرَّ قد لَبِسَ الدُّجى بُردًا ، فراقك ، وهو فاحِمْ ،

يَحكي بغُرّتهِ هِلالَ الفِطرِ ، لاحَ لَعينِ صائِم ؛

فكأنّما خاضَ الصَّباحَ ، فجاء مُبيَضَّ القوائِم ؛

ويَسيرُ في يَبَسِ الثّرى ، وكأنّه في البحرِ عائِم ؛

حتّى إذا عَلَمُ الصَّباحِ أشارَ من تِلكَ المَعالِم ،

وتَمايَلت أيدي الثُّرَيا ، وهي مُذهَبةُ الخَواتِم ،

ورَنَت ذُكاءُ بِناظِرٍ رَمِدٍ ، منَ الأقذاءِ ، سالِم ، [٥]

طَلَعَ الصِّوارُ لِحَينِه ، وكأنه المَوجُ المُراكِم ، [٦]

أو عَسكرٌ رَكِبوا الخيولَ الشُّهبَ ، واحتقَروا الأداهِم ،

فاشتَدَّ سابِقُنا لهُ ، يَكشِرنَ عن مِثلِ اللهاذِم ؛ [٧]

---

١ • حُرد ، واحدها حارد : الغاضب.

٢ • الرّواجم ، واحدتها راجمة : الرامية بالحجارة ، والمراد هنا الرجوم : ما يظهر في السماء كانه نجوم تتساقط ، وفي الكلام اشارة الى ما كان يعتقده العرب من صعود العفاريت الى جهة السماء لاستراق السمع من كلام الملائكة ، ومن سقوط الرجوم عليهم.

٣ • عذب العمائم : اطرافها.

٤ • البواغم ، واحدتها باغمة : الظبية المصوّتة بارخم ما يكون من صوتها ، استعارها للنساء المغنية.

٥ • ذكاء : الشمس ◎ الرّمِد : المصاب بالرمد.

٦ • الصوار : قطيع البقر الوحشي ◎ المراكم : المتراكم بعضه فوق بعض.

٧ • اللهاذم ، واحدها لهذم : السنان الحاد كالسيف او كالسنان.

وكأنّنا ، في رَميِها ، نَستَلُّ من بيضِ الصّوارمِ ؛
فحمَى أواخِرَه أغَرُّ ، مُعـاوِدٌ تلك المَلاحِمِ ، [1]
يَهوي برَوقَي مِحرَبٍ طَبِنٍ بحَربِ الغُضفِ حازمِ ؛ [2]
وكأنّما أرواقُهـا ، مُسوَدَّةً ، أقلامُ عالِمِ ؛
فتَبادَرَ الفِتيانُ ، من جَنَباتِه ، أشهى المَطاعِمِ ،
شَيّاً ومُطَبَّخاً عـلى جَمرٍ ، زَهَته الرّيحُ جاحِمِ .

مدح المؤتمن

وبَعيـدةِ الأرجاءِ ، نا زحةٍ على أيدي الرّواسِمِ ، [3]
عَمِهَت لهـا أحلامُنا ؛ وكأنّها أضغاثُ حالِمِ ، [4]
وتضاءلَت أجرامُنـا فيها ، بمُوبِقةِ الجَرائمِ ،
وتَحوَّلَت فينـا الذُّنابَى الرأسَ ، وابنُ المَجدِ راغِمِ ،
وأدارَ كلُّ صَغيرِ قَدرِ المُنتهى أرحِي العَظائِمِ ؛ [5]
فكأنّنا عُميٌ نُساقُ ، على العَمى ، في ظِلِّ عاتِمِ ؛
حتّى انتضَى عَبدُ العزيزِ عَزيمةً ، من صَدرِ عازمِ ،
فبَدَت لنا سُبُلُ الهُدى ، بنَواجِمٍ غـيرِ الهَواجِمِ ؛ [6]
أبناءُ مَلْكٍ حِمْيَريٍّ ، قـامَ بالغُرِّ القَماقِمِ ، [7]
من عامِرٍ أهلِ المَصانِعِ ، والصّنائعِ ، والكَرائمِ ؛
حَكَمَ الزّمانُ بظُلمِهم دهرًا ، وصَرفُ الدّهرِ ظالِمِ ،
فارتَدَّ بَهجةَ مُلكِهم كَرُّ الخُبَعثِنَةِ الضُّبارِمِ ، [8]
ذَكَرٌ على ذَكَرٍ يَصولُ ، وصارِمٌ يَسطو بصارِمِ ؛

١ • الاغر : الابيض ◎ المعاود : الذي جعل الشيء من عادته.
٢ • الروق : القرن ◎ المحرب : صاحب الحرب . الشجاع ◎ طبن : فطن ◎ الغضف ، واحدها اغضف : الكلب المسترخي الاذنين.
٣ • البعيدة : الارجاء : اراد بها الفلاة ◎ النازحة: البعيدة ◎ الرواسم: النياق.
٤ • عمهت : ضلت ◎ الاحلام : العقول ◎ الاضغاث، واحدها ضغث: الحلم المختلط الملتبس.
٥ • الأرحي ، واحدها رحى: الطاحون. استعارها لعظائم الامور
٦ • النواجم : الطوالع ، الظواهر ، واحدتها ناجمة ◎ الهواجم : المباغتة ، واحدتها هاجمة.
٧ • القماقم ، واحدها قمقام: السيد الكثير العطاء.
٨ • الخبعثنة : الاسد ◎ الضبارم : الموثق الخلق.

إيهٍ ! هيا عبدَ العزيزِ ، وأنتَ رَجّامُ المَراجِمِ ، [١]
قَمَرٌ ، تُضيءُ له الخُطوبُ ، علـى دآدِيها الفَواحِمِ ، [٢]
تَسري الرِّياحُ بمَجدِهِ ، فنَسيمُها بالغَورِ فاغِمِ ، [٣]
لم يَروَ من ماءِ الشَّبابِ ، وكلُّ أشيَبَ عنه خائِمِ . [٤]
رَعياً لِمُؤتَمَنٍ رعَى فينا الحَدايثَ والقَدائِمِ ،
بدأت أوائلُه ، وعادَ لكَشفِ غاشيةِ الغَياهِمِ ، [٥]
لا تَترُكَن صَرمَ الزَّمانِ على ظُبى تلكَ الصَّوارِمِ ،
وارمِ الخُطوبَ بمِثلِها عَزماً ، فانت لها مُساهِمِ ،
وإلَيكَها من ناطِقٍ يَدعوكَ ، إذ صَمَتَ البَهائِمِ .

وله فيه

وصف مجلس

أذَّنَ الدِّيكُ فثُبْ أو ثَوِّبِ ، وانضحِ القلبَ بماءِ العِنَبِ ، [٦]
وتأمَّل آيـةً مُعجِزَةً ، ما قرأنا مثلَها في الـكُتُبِ ،
ركَعَ الإبريقُ من طاعتِه ، وبكَى فابتلَّ ثَوبُ الأكوُبِ ، [٧]
ولوَ المِزهَرُ يَنفي كُرَبي ، وتَطَرَّبتُ فأعيـا طَرَبي .
ورَبيبٍ قامَ فينا ساقياً ، كالرَّشا أرضِعَ بينَ الرَّبرَبِ ؛ [٨]
ظَبيةٌ ، دُونَ الصَّبايا ، قُصِصَت ، فأتَت غيداءَ في شَكلِ صَبي ، [٩]
فُتِحَ الوَردُ على صَفحتِهـا ، وحَماهُ صُدغُهـا بالعَقرَبِ .

. . .

١ * الرّجام : اسم مبالغة من رجمه : رماه بالحجارة ، شتمه ، طرده ◎ المراجم ، واحدها مِرجم : الرجل الشديد القوي .
٢ * دآدي ، واحدتها دأداة : الليلة الشديدة الظلام .
٣ * فاغم : من فغم الطيب فلاناً ملأ خياشيمه .
٤ * خائم : متراجع ، متقهقر .
٥ * غاشية الغياهم : الظلمات الطارئة ، الواحد غيهم .
٦ * ثب : من ثاب : عاد ◎ ثوّب : ارجع بعد الذهاب .
٧ * الأكوب ، واحدها كوب : القدح .
٨ * الربرب : القطيع .
٩ * الغيداء : الشابة الطويلة العنق .

وصف الغمام

وغمامٍ باكَرَتنا عينُه ، تُترِعُ الأُفقَ بدمعٍ صَيِّبِ ، [1]
مِثلَ بحرٍ جاءَنا ، مِن فوقِنا ، جِرمُه مِن لؤلؤٍ لم يُثقَبِ ،
فدَنا ، حتّى حَسِبنا أنه يَمسحُ الأرضَ بفضلِ الهَيدَبِ ، [2]
فسألناه ، وقد أعجَبنا حَشوَه العينَ بمرأى مُعجِبِ !

التخلص الى المدح

أنتَ ماذا ؟ قالَ : مُزنٌ علَّمت كَفَّه النُّجعَةَ كفًّا دَرِبِ ؛ [3]
سامَني بالشَّرقِ أن أسقيَكم ، رَحمةً منه بأقصى المَغرِبِ ؛
فسألناه أينَ ذاكَ لنا ! قالَ : هل يَخفى ضياءُ الكوكبِ ؟
مالكٌ ناصبَ مَن خالَفَكم ، عامريُّ المُنتَمى والمَنصِبِ .
فعلِمنا أنّها نفحةُ مَن ورثَ الجُودَ أباً ، بعدَ أبِ ؛
لكَ كفٌّ بالثُّريّا فيضُها ، ولها بَسطُ النَّدى من كَثَبِ ،
كقَليبٍ دَلوُها مُترَعةٌ ، أشرَقَت بالماءِ عَقدَ الكَرَبِ ؛ [4]
تُبصِرُ العينانِ منه ، إن بَدا ، قَمَرَ السَّرجِ وشمسَ الموكِبِ ،
أنجَبَته للمَعالي أُسرةٌ ، نزَلوا المَجدِ أعلى الرُّتَبِ ،
بنُفوسٍ ، من سَناءٍ ، غَضّةٍ ، في جُسومٍ بضّةٍ من حسَبِ ،
ووُجوهٍ مُشرِقاتٍ ، أومَضَت ضاحكاتٍ ، في وُجوهِ الكُرَبِ .
لهمُ أيّامُ حربٍ كَثَّرَت في عِداهم ، داعياتِ الحَرَبِ ، [5]
لم يُطِق عامرُ قِدماً مِثلَها ، لا ولا عَمرو بنُ مَعديكَرِبِ ؛ [6]
سَحَبوا من ذَيلِ مَجدٍ ، إذ هُمُ للوغى ، في ظِلِّ نقعٍ أشهَبِ .
يا ابنَ أمِّ المجدِ ! خُذها عِبرَةً ، جِدَّ قولٍ يُشتَهى كاللَّعِبِ ؛
مِن بَناتِ اللُّبِّ زانَتكَ ، كما زانَ صَدرَ المُهرِ حَليُ اللَّبَبِ ، [7]
خَمرَةٌ ، مِن طيبِها ، قد سُبِيَت قطَعَت نحوَك عَرضَ السَّبسَبِ . [8]

١ * العين : السحاب ◎ تترع : تملأ ◎ الصيب : المنصبّ .
٢ * الهيدب : من السحاب المتدلي الذي يدنو من الارض .
٣ * النجعة : طلب الكلأ ، الحشيش في اماكنه ◎ الدرب : الماهر .
٤ * القليب : البئر ◎ اشرقت : أغصّت ◎ الكرب : الحبل
٥ * الحرب : الهلاك ، والويل .
٦ * عمرو بن معديكرب : احد فرسان العرب المشهورين .
٧ * اللب : العقل ◎ اللبب : صدر الفرس .
٨ * السبسب : الفلاة .

قُرطُبة العجوز

١ عَجوزٌ لَعَمرُ الصِبا فانيهْ ، لها ، في الحَشا ، صُورةُ الغانيهْ ،
تُريكَ العُقولَ ، على ضُعفِها ، تُدارُ ، كما دارتِ السّانيهْ ؛ [١]
فقد عَنِيَت بهَواهـا الحُلو مْ ، فَهْيَ بِراحتِها عـانيهْ ؛
تَقاصرُ ، عن طُولِها ، قُونكَةٌ ؛ وتَبعُدُ ، عن غَنجِها ، دانيهْ ؛ [٢]
٥ تَردَّيتُ ، من حُزنِ عَيشي بها ، غَراماً ، فيـا طُولَ أَحزانيهْ !

وصف النَّحلة

١ وطائرةٍ تَهوي ، كأَنَّ جَناحَهـا ضَميرٌ خَفِيٌّ ، لا يُحدِّدُه وَهْمُ ،
مُلازمةٍ للرَّوضِ ، حتّى كأنّما لَها كلُّ ما تَفتَرُّ عنه الرُّبى طُعمُ ،
تَمُجُّ بِفيها الشَّهدَ صِرفاً ، ويَختَفي لِمُشتارِه ما بينَ أحشائِها سَهْمُ ، [٣]
مُنافِرةٍ للإنسِ ، تأنسُ بالفَلا ، مُفرِّقةٍ للشَّهدِ ، من بَعضِها السُّمُّ ،
٥ فإِدناؤها رُشْدٌ ، وهَتْكُ حِجابِها ، إذا احتَجَبت في غيرِ أيّامِها ، ظُلمُ .

نثره

إصابة البيان

وإصابةُ البَيانِ لا يَقُومُ بها حِفظُ كثيرِ الغريبِ ، واستيفاءُ مَسائلِ النَّحوِ ، بل بالطَّبعِ مع وَزنِه من هَذينِ ؛ ومِقدارُ طبعِ الإنسانِ إنّما يكونُ على مِقدارِ تَركيبِ نفسِه مع جِسمِه ، فمن كانَت نفسُه في أَصلِ تَركيبِه مستوليةً على جسمِه كانَ مطبوعاً رُوحانياً ، يُطالِعُ صُورَ الكلامِ والمعاني في أجملِ هَيئاتِها وأروقِ لِباساتِها ؛ ومن كانَ جسمُه مستولياً على نفسِه ، من أصلِ تركيبِه ، والغالبَ

١ * السانية : الناعورة .
٢ * قونكة ، ودانية : مدينتـان في الاندلس .
٣ * المشتار : جاني العسل ، الشهد .

على حِسّه ، كان ما يُطلِعُ مِن تلك الصُّوَرِ ناقصاً عن الدّرجةِ الأُولى في الكمالِ والتّمام ، وحُسنِ الرَّونقِ والنِّظامِ . فمن كانت نفسه المستولية على جسمه فقد تأتّى منه في حسن النظام ، صُورٌ رائقةٌ من الكلامِ ، تملأ القُلوبَ ، وتَشغَفُ النُّفوسَ . فإذا فتّشتَ لُحسنِها أصلاً لم تَجِدْه ، ولجمالِ تَركيبها أُسًّا لم تعرِفه ؛ وهذا هو الغَرِيبُ أن يَترَكَّبَ الحُسْنُ من غيرِ حُسْنٍ كقولِ امرئِ القيسِ :

ألا عِمْ صَباحاً أيُّها الطَّللُ البالي[1]

وقوله :

تَنوَّرتُها من أذرِعاتٍ ، وأَهلُها ... بيَثرِبَ ، أدنى دارِها نظَرٌ عالي[2]

فإنّ هذه الدّيباجةَ إذا تَطلّبتَ لها أصلاً من غريبِ معنًى لم تَجِدْه ، وكقَولِ ابي نُواسٍ :

طَرَحتُم منَ التَّرحالِ ذِكرًا فغمَّنا ، ... فلو قد شَخَصتُم صبّحَ الموتُ بعضَنا

ثم قالَ فيها :

سأشكو الى الفَضلِ بنِ يحيي بنِ خالدٍ ... هَواكِ ، لعلَّ الفَضلَ يَجمَعُ بيننا

فهذا من الكلام الغَثّ ، واللّفظِ الرّثِّ ، الذي لو رامَه حِمارُ الكُساحِ[3] لأَدرَكه ، ولكن له من التَّعلُّقِ بالنفسِ والاستيلاءِ على القلبِ ما ترى .

لكلِّ عصرٍ بَيان

قال ابو عامر : وكما أنّ لكلِّ مَقامٍ مَقالًا ، فكذلك لكلِّ عصرٍ بيانٌ ، ولكلِّ دهرٍ كلامٌ ، ولكلِّ طائفةٍ من الأُمَمِ المُتعاقبةِ نوعٌ من الخَطابةِ وضَربٌ من البلاغةِ ، لا يُوافقُها غيرُه ولا تَهَشُّ لسِواه .

وكما أنّ للدُنيا دُوَلًا فكذلك للكَلام نُقَلٌ وتَغايرٌ في العادةِ ألا تَرى أنّ الزّمانَ لمّا دارَ كيفَ أحالَ بعضَ الرَّسمِ الأَوَّلِ في هذا الفَنِّ الى طَرِيقةِ عبدِ

١ * عم : انعم .

٢ * تنورتها : نظرت اليها ◉ اذرعات : موضع في بلاد الشام من جهات حوران ، وربما كانت التي يسمونها اليوم اذرع .

٣ * الكساح : داء ، يقعد المصاب به ، وقوله حمار الكساح اي ذو الكساح .

الحميدِ وابن المُقفّعِ وسَهلِ بنِ هارونَ وغيرِهم من أهلِ البيان ؟ فالصَّنعةُ معهم أفسحُ باعاً ، وأشدُّ ذِراعاً ، وأنورُ شُعاعاً ، لرُجحانِ تلك العُقولِ واتِّساعِ تلك القَرائحِ في العلوم .

ثم دارَ الزمانُ دَوَراناً ، فكانت إحالةٌ أُخرى الى طَريقةِ ابراهيمَ بنِ العَبّاسِ ومحمّدِ بن الزَّياتِ وابنَي وهبٍ ونظرائهم ، فرقَّتِ الطِّباعُ ، وخَفَّ ثِقلُ النُفوسِ .

ثم دارَ الزمانُ فاعترى أهلَه باللَّطائفِ صَلَفٌ[1] ، وبرِقّةِ الكلام كَلَفٌ[2] فكانت إحالةٌ أُخرى الى طريقةِ البديعِ وشمسِ المَعالي وأَصحابِهما .

وكذلك الشُّعراء انتقلوا عن العادةِ في الصَّنعةِ بانتقالِ الزمانِ ، وطلَبَ كلّ ذي عَصرٍ ما يَجوزُ فيهِ ، وتَهَشُّ له قُلوبُ أهلِه ، فكانَ من صريعِ الغَواني وَبشَّارٍ وأَبي نُواسٍ وأَصحابِهِم في البديعِ ما كان ، من استعمالِ أَفانينِه ، والزّيادةِ في تفريعِ فُنونِه .

ثم جاء أَبو تَمَّامٍ فأَسرفَ في التَّجنيسِ ، وخَرجَ عن العادةِ . وطابَ ذلك منه ، وامتثلَه الناسُ ، فكلُّ شِعرٍ لا يكونُ اليومَ تجنيساً أَو ما يُشبِهُه تمُجُّه الآذانُ ، والتَّوسُّطُ في الأَمرِ أَعدلُ ؛ ولذلك فضَّلَ أَهلُ البَصرةِ صَريعَ الغَواني على أَبي تَمَّامٍ ، لأَنَّه لَبِسَ دِيباجةَ المُحدَثِين على لأْمةِ[3] العربِ ، فتَركَّبَ له من الحُسنِ بينهُما ما تَركَّبَ .

التَّوابع والزَّوابع

هي فصول من رسالة قال ابن بَسَّامٍ عنها إنها « وإن صدَرت عنه مَصدرَ هَزْلٍ فتَشتَمِلُ على بدائعَ روائِع » وهي كنايةٌ عن رِحلةٍ رحلها الى بِلاد الجِنّ فلقي فيها شياطين الخطباء والشعراء فاستنشدهم وانشدهم ، ووصف لهم ما اقترحوه ، وانتقد أقوال أصحابهم من أَهل الإِنس ، وكان دليلَه جِنّيٌ سمَّاه زُهَير بنُ نُمَيرٍ ، وقد صدَّر هذه الرِّسالة مخاطباً لأَبي بكر ابن حَزمٍ .

١ ـ صلف : اعجاب.
٢ ـ كلف : ولوع.
٣ ـ اللأمة : الدرع ، استعارها للثوب اللفظي.

في أَرض الجِن

قال ابو عامر: تَذاكَرتُ يوماً مَعَ زُهير بن نُمَيرٍ أَخبارَ الخُطَباءِ والشُّعراءِ، وما كانَ يألَفُهم من التَوابعِ والزَّوابعِ، وقُلتُ: هل حيلةٌ في لِقاءِ من اتَّفقَ منهم؟ قال: حَتَّى استأذِنَ شَيخَنَا. وطارَ عنّي ثم انصرفَ كلَمحٍ بالبَصرِ، وقد أَذِنَ له، فقال: حُلَّ عن مَتنِ الجَوادِ. فصِرنا عليه؛ وسارَ بنا كالطائرِ يَجتابُ[1] الجَوَّ فالجَوَّ، ويَقطَعُ الدَوَّ[2] فالدَّوَّ، حتى التَحمتُ أَرضاً لا كأرضِنا، وشارفتُ جوًّا لا كجَوِّنا، متفَرِّعَ الشَّجرِ، عَطِرَ الزَّهرِ؛ فقال لي: حَلَلْتَ أَرضَ الجِنّ أبا عامر، فبِمَن تُريدُ أن نَبدأَ؟

قلتُ: الخُطَباءُ أَولى بالتَّقديمِ، لكنّي إلى الشُعراءِ أَشوقُ.

قال: فمَن تُريدُ منهم؟

قلتُ: صاحبَ امرئِ القَيسِ.

فأمالَ العِنانَ الى وادٍ من الأَوديةِ ذي دَوحٍ[3] تتكسَّرُ أَشجارُه، وتترَنَّمُ أَطيارُه، فصاح: يا عُتَيبَةُ بنَ نَوفلٍ، بِسِقطِ اللّوى فحَومَل، ويومِ دارةِ جُلجُل، إلّا ما عرَضتَ علينا وَجهَك، وأَنشَدتَنا من شِعرِك، وسَمِعتَ الإِنسيَّ، وعرَّفتَنا كيفَ إجازَتُك له[4]!

فظهَرَ لنا فارسٌ على فرَسٍ شَقراءَ كأَنّها تَلتهِبُ، فقال: حيَّاكَ اللهُ يا زُهيرُ وحيّا صاحبَك! أَهذا فتاهُم؟

قلتُ: هو هذا، وأَيُّ جَمرةٍ يا عُتَيبةُ!

فقال لي: أَنشِد، فقلتُ: السَّيدُ أَولى بالإِنشادِ. فتطامَحَ طَرفُه، واهتَزَّ عِطفُه، وقبَضَ عِنانَ الشقراءِ، وضرَبها بالسَّوطِ، فسَمت تُحضِرُ[5]

١ * يجتاب: يقطع.

٢ * الدوّ: البرّية.

٣ * الدوح، واحدتها دوحة: الشجرة العظيمة.

٤ * الاجازة: الاذن. واراد بالاجازة هنا أخذ الاذن، بقول الشعر، كما يقال اليوم فلان مجاز بكذا من العلوم، اي مأذون بتعاطيها.

٥ * تحضر: تركض.

طُولًا عنّا ، وكَرَّ فاستقبلَنا بالصّعدةِ[1] هازًّا لها ، ثم ركَزَها وجعلَ يُنشِدُ :

سَما لكَ شَوقٌ ، بعدَ ما كانَ أَقصَرا .

حتى أَكملَها ثم قال لي : أَنشِد . فَهمَمْتُ بالحَيصةِ[2] ، ثم اشتدَّت قُوى نفسي وأنشَدتُ :

شَجَتْهُ مَغانٍ ، من سُليمَى ، وأَدْؤُرُ[3] .

حتى انتهيتُ الى قولي :

ومِن قُبَّةٍ ، لا يُدرِكُ الطَّرفُ رأسَها ، ... تَزِلُّ بها ريحُ الصَّبا ، فتَحدَّرُ ،
تَكَلَّفتُها ، والليلُ قد جاشَ بَحرُه ، ... وقد جَعلَت أمواجُه تتكسَّرُ ؛
ومن تَحتِ حِضني أَبيضُ ذو سَفاسِقٍ ؛ ... وفي الكَفِّ ، من عسّالةِ الخَطِّ ، أَسمَرُ ؛ [4]
هما صاحبايَ ، من لَدُن كنتُ يافعاً ، ... مُقيلانِ من جَدِّ الفَتى ، حينَ يَعثُرُ ، [5]
فذا جَدولٌ ، في الغِمدِ ، تُسقى به المُنى ؛ ... وذا غُصُنٌ ، في الكَفِّ ، يُجنى فيُثمِرُ .

فلمّا انتَهيتُ تأَمّلني عُتَيبة ثم قال : اذهَب فقد أَجزتُك ، وغابَ عنا . فقال لي زُهير : من تُريدُ بعدُ ؟ قلت : صاحبَ طَرَفة . فجَزَعنا[6] واديَ عُتَيبةَ ، ورَكَضنا حتّى انتَهينا الى غَيضةٍ شجرها شَجَران : سامٌ يفوحُ بَهارا[7] ، وشِحْرٌ[8] يعبَقُ هِنديًّا وغارا[9] . فرأينا عَيناً تَسيل ، ويدورُ ماؤها فَلَكيًّا ولا يَجولُ . فصاحَ به زُهير : يا عَنترُ بنَ العَجلان ، حلَّ بك زهير وصاحبُه ، فبِخَولة ، وما قطَعتَ معها من ليلَة ، إلّا ما عرَضتَ وجهَكَ لنا ! فبدا إلينا راكِبٌ جميلُ الوجهِ ، قد توَشَّحَ السيفَ ، واشتَمَلَ عليه كِساءُ خَزٍّ ، وبيدِه خَطِيٌّ ، فقال : مَرحباً بكما ، واستَنشدني ، فقلتُ : الزعيمُ أَولى بالإنشاد ، فأَنشد :

١ * الصعدة : القناة ، الرمح .

٢ * الحيصة : التخلص من الشيء .

٣ * ادؤر : جمع دار .

٤ * السفاسق ، واحدتها سفسقة : وهي من السيف فرنده ، جوهره ووشيه ◎ عسّالة الخط : الرماح المهتزة لينا .

٥ * مقيلان ، من اقاله من عثرته : رفعه ، انهضه ◎ الجد : الحظ .

٦ * جزعنا : قطعنا .

٧ * سام : الخيزران ◎ البهار : نبت طيب الرائحة .

٨ * الشحر : نوع من الشجر .

٩ * الهندي والغار : من الاشجار العطرة .

لسُعدى بحَزَّانِ الشديفِ طُلولُ[1] .

حتى أَكْمَلَها ، فأَنشدْتُه من قصيدة :

أَمِن رَسمِ دارٍ بالعقيقِ مُحِيلِ ؟[2]

ولمَّا هَبطْنا الغَيثَ ، تُذعَرُ وَحشُه ، على كلِّ خوَّارِ العِنانِ ، أَسيلِ ،[3]
وثارت بَناتُ الأَعوجيَّاتِ ، بالضُّحى ، أبابيلَ من أعطافِ غيرِ وبيلِ ،[4]
نَدوسُ بها أَبكارَ نَورٍ ، كأنه رداءُ عَروسٍ ، أوذِنَت بحَليلِ ،
رَمينا بها عَرضَ الصُّوارِ ، فأَقعَصَت أَغَنَّ ، قتَلناه بغَيرِ قتيلِ ،[5]
وبادرَ أَصحابي النُّزولَ ، فاقبلَت كَراديسُ من غَضِّ الشِّواء نَشيلِ ،
نُمسِّحُ بالجَودانِ منه أكُفَّنا ، اذا ما اقتَصنا منه غيرَ قليلِ .[6]

. . .

فصاحَ عَنترُ : للهِ أَنت ! اذهَب فإِنَّك مُجازٌ . وغابَ عنَّا .

ثم مِلنا عنه فقال لي زهير إلى من تَتوقُ بعدُ من الجاهليّينَ ؟

قلت كفاني من رأيت .

. . .

ثم قال لي زُهيرُ من تُريدُ بعدُ ؟

قلت : صاحبَ ابي نُواسٍ

قال : هو بدَيرِ حَنَّةَ مُنذُ أَشهرٍ ، قد غَلَبت عليه الخمرُ ، وديرُ حنَّةَ في ذلك الجَبَلِ وعَرَضَه عليَّ فإِذا بيَنَنا وبينَه فَراسِخُ . فركَضنا ساعةً ، . . . حتى انتهينا الى أَصلِ جبل ديرِ حنَّةَ ، فشَقَّ سمَعي قَرعُ النَّواقيسِ فصِحتُ : من مَنازلِ ابي نُواسٍ ورَبِّ الكَعبةِ العَليا .

١ * الصواب : « لهند بحزان الشُريف طلول » الحزان، واحدها الحزيز الغليظ من الارض ◉ الشريف : واد بنجد .

٢ * العقيق : مكان ◉ محيل : مرت عليه احوال ، سنون .

٣ * خوار العنان : سهل الانقياد ◉ الاسيل : الطويل ، الاملس .

٤ * بنات الاعوجيات : الخيول . منسوبة الى فرس عربي شهير يقال له اعوج ◉ ابابيل : متفرقة .

٥ * اقعصت : قتلت .

٦ * الجودان : كذا في الاصل ولم نجد هذه اللفظة : ولعلها تصحيف الحوذان ، وهو نبات اصفر الزهر .

وسرنا نجتابُ أديارًا وكنائسَ وحاناتٍ ، حتى انتهينا الى ديرٍ عظيمٍ، تعبقُ روائحُهُ وتصوكُ[١] نوافِحُه ، فوقفَ زُهيرٌ ببابِه وصاحَ : سلامٌ على أهلِ ديرِ حنّةَ .

فقلت لزُهيرٍ : أوَهل صِرنا بذاتِ الأُكيْراحِ ؟[٢]

قال : نعم .

وأقبلَت نحوَنا الرّهابينُ مُشدَّدَةً بالزّنانيرِ ، قد قبضَت على العكاكيزِ ، بيضَ الحواجبِ واللِّحى ، إذا نظروا الى المرءِ استحيا ، مُكثِرين للتّسبيحِ ، عليهم هُدى المسيحِ ، فقالوا : أهلًا بك يا زُهير من زائِر ، وبصاحِبك أبي عامِر ، ما بُغيتُك ؟

قال : حُسَينُ الدنّان .

قالوا : إنّه لفي شُربِ الخَمرة ، منذُ ايامٍ عَشرة ، وما نُراكُما منتفعين به .

فقال : وعلى ذلك .

ونزَلنا وجاؤوا بنا الى بيتٍ قد اصطَفَّت دنانُه ، وعكَفَت غِزلانُه ، وفي فُرجَتِه شيخٌ طويلُ الوَجهِ والسَّبلة[٣] ، قد افترشَ أضغاثَ زَهر ، واتّكأ على زِقِّ خمر ، وبيدِه طِرْجَهارة[٤] ، فصاحَ به زهير : حيّاكَ اللهُ أبا الإحسان! فجاوب بجوابٍ لا يُعقَلُ لغَلَبةِ الخمرِ عليه . فقال لي زُهير : اقرعْ أُذُنَ نشوته بإحدى خمريّاتِك ، فإنه ربّما تنبّه لبعضِ ذلك ، فصِحتُ أُنشِدُ من كلِمة لي طويلة :

ولَرُبَّ حانٍ ، قد أدَرتُ بدَيرِه	خمرَ الصِّبا ، مُزِجَت بصَفوِ خُمورِه ؛
في فِتيةٍ ، جعلوا الزّقاقَ تِكاءَهم ،	مُتصاغرينَ تَخَشُّعاً لكبيرِه ؛
وتَرنَّمَ النّاقوسُ عندَ صَلاتِهم ،	ففتَحتُ من عَيني لِرَجعِ هَديرِه ؛

١ * تصوك : من صاك الطيب والمسك : لصقا ◎ النوافح ، واحدتها نافحة : من نفح الطيب : انتشرت رائحته .

٢ * ذات الاكيراح : مكان في العراق كانت فيه بيوت صغيرة تسكنها الرهبان الذين لا قلالي لهم ◎ والاكيراح تصغير اكراح ، واحدها كرح : بيت الراهب وهي لفظة سريانية .

٣ * السبلة : الشارب .

٤ * الطرجهارة : الفنجانة .

يُهدي الينا الرَّاحَ كلُّ مُعصفرٍ ، كالخِشفِ خَفَّرَه التِماحُ خَفيرِه.[1]

فصاحَ من حَبائلِ نشوتِه : أ أشجَعيٌّ ؟

قلت : أنا ذاك !

فاستَدعى ماءً قَراحاً فشرِبَ منه وغسَلَ وجهَه ، فأفاقَ واعتَذرَ إليَّ من حالِه ، فادرَكَتني مَهابتُه ، وأَخذتُ في إجلالِه ، لمكانِه من العِلمِ والشِعرِ. فقال لي : أَنشِد ، أو حتى أُنشِدَك ؟

فقلتُ : إنّ ذلك لأَشدُّ لتأنيسي . على أَنّه ما بعدَك لُمحسِنٍ إحسان . فأنشد :

يا ديرَ حنَّةَ من ذاتِ الاكيراحِ ...

فكُدتُ واللهِ أَخرُجُ من جلدي طرباً .

... ثم قــال : أَنشِدني قطعةً من مُجونِك . فقد بَعُدَ عهدي بمثالِك ، فأنشدتُه :

١ وناظرةٍ تحتَ طَيِّ القِنــاعِ ، دَعاها ، الى اللهِ والخيرِ ، داعي ،

سَعَت بابنِها تبتغي منزلًا ، لوَصلِ التَبتُّلِ والإنقطــاعِ ،[2]

فجاءت تَهادى ، كمثلِ الرَّؤومِ ، تُراعي غزالًا ، بأعــلى يَفاعِ ؛[3]

أَتتنــا تَبختَرُ في مَشيِها ، فحلَّت بوادٍ كثيرِ السِباعِ ،

وريعَت حِذارًا على طِفلِها ، فناديتُ : يا هذه لا تُراعي !

٥ فولّت ، وللمِسكِ من ذَيلِها ، على الأرضِ ، خطٌّ ، كظَهرِ الشُجاعِ .[4]

فلما سمع هذا البيتَ قام يرقُص به ويُردِّدُه ، ثم أَفاقَ ، ثم قال : هذا ، واللهِ ، شيءٌ لم نُلهَمْه نحن . ثم استَدناني فدَنوتُ منه فقبَّلَ بين عينيَّ وقال : اذهَب فإنَّك مُجازٌ .

١ * الخشف : الظبي ◎ خفّره : جعله يستحي ◎ الالتماح : النظر ◎ الخفير : الحارس.

٢ * التبتّل : الانقطاع عن الدنيا الى الله.

٣ * تهادى : تتهادى : تتمايل ◎ الرؤوم : العطوف، الحنون ◎ اليفاع : المكان العالي.

٤ * الشجاع : الحيّة.

فانصرفنا عنه وانحدرنا من الجبل ، فقال لي زُهير : ومن تُريدُ بعد ؟ قلتُ له : خاتمةَ القوم صاحبَ أَبي الطَّيِّب . فقال : اشدُد له حَيازيمَك[١] وعطِّر له نسيمَك ، وانثُر عليه نجومَك .

وأمال عِنانَ الأدهمِ الى طريقٍ ، فجعلَ يَركُضُ بنا ، وزُهير يتأمَّلُ آثارَ فَرَسٍ لَمحناها هناك فقلت له : ما تَتَبُّعُك لهذه الآثار ؟

قال : هي آثارُ فرسِ حارثَة بنِ المُغلِّس صاحبِ ابي الطيِّب ، وهو صاحبُ قَنْص . فلم يزَل يتقرَّاها[٢] حتى وَقَفْنا الى فارسٍ على فرَسٍ بيضاءَ كأنه قضيبٌ على كثِيب ، وبيدِه قَناةٌ قد اسندَها الى عُنُقِه ، وعلى رأسِه عِمامةٌ حمراءُ ، قد أرخى لها عَذَبةً صفراءَ . فحيَّاه زُهير ، فأحسنَ الرَّدَّ ناظرًا من مُقلةٍ شَوساءَ[٣] ، قد مُلِئت تِيهاً وعُجباً . فعرَّفه قَصدي ، وألقى اليه رَغبتي ، فقال : بلغَني أنّه يتَناولُ[٤] ، قلتُ : للضَّرورةِ الدافعة ، وإلّا فالقَريحةُ غيرُ صادعة[٥] والشَّفرةُ غيرُ قاطعة .

قال : فأنشِدني ، وأكبَرتُه أن استَنشدَه ، فانشَدتُه قصيدتي التي أوَّلُها :

أَبَرقٌ بدا ، أم لَمعُ أبيضَ قاصِلِ ؟[٦]

حتى انتهيت الى قولي :

١ تَردَّدَ فيه البرقُ ، حتّى حَسِبتُه يُشيرُ إلى نجمِ الرُّبى ، بالأنامِلِ ؛
رُبى نسَجَت أيدي الغَمامِ ، لِلبسِها غَلائلَ صُفرًا ، فوقَ بيضِ غَلائلِ ؛
وقد فغَرَت فاهاً بها كلُّ زَهرةٍ ، إلى كلِّ ضَرعٍ ، للغَمامةِ ، حافِلِ ، ٧
ومرَّت جُيوشُ المُزنِ رَهوًا ، كأنّها عَساكرُ زَنجٍ مُذهباتِ المَناصِلِ ، ٨

١ * الحيازيم ، واحدها حيزوم : الصدر ، وشد الحيازيم كناية عن الصبر .

٢ * يتقراها : يتتبَّعها .

٣ * الشوساء : من شاس الرجل وشوس : نظر بموخر عينه تكبّرًا

٤ * يتناول : يتناول : يريد يأخذ بقول الشعر .

٥ * صادعة : ماضية .

٦ * القاصل : القاطع .

٧ * الضرع : الثدي ◎ الحافل الممتلىء .

٨ * الرهو : السير السهل .

وحَلَقَتِ الخَضراءُ[١] ، في غُرِّ شُهبِها ، كلُجَّةِ بحرٍ ، كُلِّلَت باليَعالِلِ ،
تخالُ بها زُهرَ الكواكبِ نَرجِساً ، على شَطِّ وادٍ ، للمَجَرَّةِ ، سائِلِ ،
وبدرَ الدُّجى فيها غديرًا ، وحوله نجومٌ كَطَالِعاتِ الحَمامِ النَّواهلِ ؛
كأنَّ الدُّجى هَمِّي، ودَمعي نجُومُه ، تَحدَّرَ إشفاقاً لدَهرِ الأَراذلِ .

... فلما انتَهيتُ قال لزُهير : إنِ امتدَّ به طَلَقُ العُمُر ، فلا بُدَّ ان يَنفُثَ بدُرر ، وما أراه إلّا سيُحتَضَر[٢] ، بين قَريحةٍ كالجمر ، وهِمّةٍ تَضَعُ أخمَصَه على مَفرِقِ البدر .

فقلت : هَلّا وَضَعتَه على صَلْعة النَّسر ؟

فأستَضحكَ إليَّ وقال : اذهَب فقد أَجزتُك بهذه النُّكتة، فقَبَّلتُ رأسه وانصرفنا .

شعران لبغل وحمار

قال ابو عامر : ومَشَيتُ يوماً أنا وزُهيرٌ بأرضِ الجِنّ نتَقرّى الفوائد ، ونَعتمِدُ أنديَة أهلِ الآدابِ منهم ، إذ أشرفنا على قَرارةٍ[٣] غَنَّاء ، تَفتَرُّ عن بِركةِ ماء ، وفيها عانةٌ[٤] من حُمُر الجِنّ وبِغالِهم ، قد أصابَها أولَقٌ[٥] فهِيَ تَصطكُّ[٦] بالحوافِر ، وتَنفخُ منِ المَناخِر . فلمّا بَصُرَت بنا أجفَلَت إلينا وهي تقولُ : جاءكم على رِجلَيه ، فارتَعتُ لذلك ، فتبسَّمَ زُهير وقد عَرَف القَصْد ، وقال لي : تهيَّأ للحُكم .

فلمّا لَحِقَت بنا بَدَأتني بالتَّفدية ، وحيَّتني بالتَّكنية ، فقلتُ : ما الخَطبُ ، حُمِيَ حِماكِ ايَّتُها العانةُ ، وأخصَبَ مَرعاكِ ؟

قالت : شِعران لحمارٍ وبَغلٍ ، مِن عُشّاقِنا اختَلَفنا فيهما ، وقد رَضِيناكَ حَكَماً .

قلت : حتى أسمعَ

فتقدَّمت إليَّ بَغلةٌ شَهباء ، عليها جُلُّها وبُرقُعها ، لم تَدخُل فيما دَخلت فيه العانةُ

١ * الخضراء : قبة الفلك ◎ اليعالل ، واحدها يعلول : السحاب الابيض .
٢ * سيحتضر : من الاحتضار القرب من الموت .
٣ * القرارة : الارض المطمئنة .
٤ * العانة : القطيع .
٥ * الاولق : الجنون او شبهه .
٦ * تصطك : تضرب .

من سَوءِ العَجَلة ، وسُخفِ الحركةِ ، فقالت : أحدُ الشِّعرين لبَغلٍ من بغالِنا وهو :

على كلِّ صَبٍّ ، من هَواه ، دليلُ : سَقامٌ ، على حَرِّ الجوى ، ونُحولُ !
وما زالَ هذا الحبُّ داءً مُبرِّحاً ، إذا ما اعترى بَغلًا ، فليس يزُولُ !
بنفسي التي أمّا مُلاحِظُ طَرفِها فسِحرٌ ، وأمّا خدُّها فأسيلُ ،
تَعِبتُ بما حُمِّلتُ من ثِقلِ حُبِّها ؛ وإني لبَغلٌ للثِّقـالِ حَمولُ !

والشِّعرُ الآخرُ لدَكينِ الحِمار :

دُهِيتُ بهذا الحُبِّ منذُ هَوِيثُ ، وراثَت إراداتي فلستُ أَرِيثُ ![1]
كَلِفتُ بإلفي ، منذُ عشرين حِجّةً ، يَجولُ هَواها في الحشا ويَعِيثُ ؛
ومالي من بَرحِ الصَّبابةِ مَخلَصٌ ؛ ولا ليَ من فَيضِ السَّقامِ مُغيثُ !

فضَحِكَ زُهير وتَماسكتُ وقلتُ للمُنشدةِ : ما هَوِيث ؟

قالت : هو هَوِيتُ بلغةِ الحَمير ؛ وأشارت الى العانةِ ان دَكِيناً مغلوب

ثم انصرفت قانعةً راضية ، وقالت ليَ البَغلةُ : أما تَعرِفُني أبا عامر ؟

قلتُ : لو كانت ثَمَّ عَلامة !

فأماطَت لِثامَها ، فإذا هي بَغلةُ ابي عيسى ، والخالُ على خدِّها ، فتباكَينا طويلًا ، وأخذنا في ذِكرِ أيامنا ، فقالت : ما أبقتِ الأيّامُ منك ؟

قلت : ما تَرَين .

قالت : شَبَّ عمروٌ عن الطَّوقِ[٢] ! فما فعلَ الأَحِبّةُ بَعدي أَهُم على العَهد؟

قلت : شَبَّ الغِلمانُ ، وشاخَ الفِتيان ، وتنكَّرَتِ الخِلّان ، ومِن إخوانِك مَن بلَغَ الإمارة ، وانتهى الى الوزارة .

فتنفَّسَتِ الصُّعداء وقالت : سَقاهم اللهُ سَبَلَ العَهد[٣] ، وإن حالوا عن العَهد[٤] ، ونَسُوا ايامَ الوُدّ . بحرمةِ الأدب ، إلّا ما أقرأتَهم مني السلام ؟

قلت : كما تأمُرين وأكثر .

١ * راثت : اعيت .

٢ * مثل عمرو ، لما سيق اليه ، وكان له طوق يلبسه في صغره ، فقال له : البسه ، فلم يسعه ، فقال : شب عمرو عن الطوق ، فذهب قوله مثلًا يضرب للابس ما هو دون قدره .
قاله جزيمة بن الابرش لابن اخته

٣ * السبل : المطر ⊙ العهد : اول مطر الربيع .

٤ * العهد : الوفاء .

ابن زيدون

١٠٠٣ - ١٠٧٠

هو ابو الوليد احمد بن عبدالله بن زيدون المخزومي آخر شعراء بني مخزوم . ولد في قرطبة ودرس على ائمة الادب فيها وانقاد له الشعر وهو في العشرين من سنّه .

ولما شب اتصل بصاحب قرطبة ابي الحزم بن جهور ، احد ملوك الطوائف ، فقرّبه اليه وولّاه الوزارة ، ومنحه لقب ذي الوزارتين . غير ان ابن عبدوس منافسه في حبّ ولادة بنت المستكفي ، وبعضّ خصومه وحسّاده، كادوا له عند ابي الحزم ، واتّهموه عنده بانه يسعى الى قلب الدولة الجهورية واعادة الدولة الاموية ، فسجنه ، وصمّ اذنيه عن استعطافه اياه بشعره ، وتبرئته نفسه مما رمي به حسدًا وانتقامًا ، ولم يخرجه من سجنه ؛ فتحيّل ابن زيدون حتى تمكّن من الفرار وغادر قرطبة ولم يعد اليها الا بعد وفاة ابي الحزم وتولّي ابنه ابي الوليد ؛ فاعاده هذا الى المنزلة التي كانت له .

ولكن خصومه ما عتّموا ان افسدوا بينهما ، فاضطر شاعرنا الى الفرار ، مرة ثانية ، من قرطبة ، وانطلق الى اشبيلية ، فاتّصل بصاحبها المعتضد بن عباد ، ثم بابنه المعتمد ، واستوزر لهما . وقد حاول احد حسّاده الجدد ابو بكر بن عمّار ، من وزراء المعتمد ان يغير قلب هذا الملك عليه فلم يُفلح .

ولما شبت الثورة على اليهود في اشبيلية ارسله المعتمد لتهدئتها ، بما كان له من المنزلة عند الاشبيليين ؛ فسافر الى اشبيلية ، وهو مريض ؛ وكان قد شاخ ووهنت قواه ، فلم يطق الحاح المرض عليه فتوفي فيها .

كان ابن زيدون كاتبًا شاعرًا ؛ وكانوا يلقّبونه ببحتري الغرب ، لانه كان ينسج على منوال البحتري ، ويجاريه في خياله وحسن فنّه ، واشراق صوره ، وجمال ديباجته وتصرّفه في المعاني ؛ على انه كان ارقّ منه غزلًا ، وابرع في تصوير اختلاجات النفس ولوعة الحب ؛ وفي مزج الغزل بوصف الطبيعة ، حتى يجعل الطبيعة تشاركه في شعوره وتبكي لما به من لواعج الشوق وحسرة الفراق .

وكان طويل النفس ، وطواله كثيرة يبلغ بعضها الثمانين بيتًا ؛ وعلى طولها لم تكن تنحدر الى ركاكة النسج وسفساف القول . بيد انه كان كثير التصنّع والاغراب في مدحه .

شعره

لابن زيدون ديوان في المدح والرثاء والغزل والوصف والاخوانيات . طبع في مصر سنة ١٩٣٢ وشرحه وضبطه وصنّفه كامل الكيلاني وعبد الرحمن خليفة ؛ وقد قدّم له كامل الكيلاني مقدّمة ممتعة فصّل فيها حياته ودرس شعره درساً تحليلياً . وعلى هذه الطبعة اعتمدنا فيما اخترناه من شعره .

مدح وشكوى

ارسل ابن زيدون هذه القصيدة من السجن الى ابي الحزم بن جهور يمدحه فيها ويشكو اليه حاله، ويبرئ نفسه مما رمي به. قال، بعد مقدمة تشوق فيها الى ايامه الخوالي:

من يسألِ الناسَ عن حالي، فشاهدُها … مَحضُ العِيانِ، الذي يُغني عن الخَبَرِ؛
لم تَطوِ بُردَ شبابي كَبرةٌ، وأرى … بَرقَ المَشيبِ اعتلى في عارضِ الشَّعَرِ، [1]
قبلَ الثلاثين، إذ عهدُ الصِّبا كَثَبٌ، … وللشبيبةِ غُصنٌ غيرُ مُهتَصَرِ؛ [2]
ها إنها لوعةٌ، في الصَّدرِ، قادحةٌ … نارَ الأسى، ومَشيبي طائرُ الشَّرَرِ.
لا يُهنِئِ الشامتَ المُرتاحَ خاطرُه … أني مُعنّى الأماني، ضائعُ الخَطَرِ؛ [3]
هلِ الرياحُ، لنجمِ الأرضِ، عاصفةٌ، … أم الكُسوفُ لغيرِ الشمسِ والقمرِ؟ [4]
إن طالَ في السِّجنِ إيداعي، فلا عجبٌ، … قد يُودَعُ الجفنَ حدُّ الصارمِ الذَّكرِ؛
وإن يُثبِّط ابا الحزمِ الرِّضى قدَرٌ … عن كشفِ ضُرّي، فلا عتبٌ على القدرِ. [5]
ما للذُّنوبِ، التي جاني كبائرِها … غيري، يُحمِّلُني أوزارَها وَزَري؟ [6]
من لم أزل، من تأنّيه، على ثقةٍ، … ولم أبِت، من تجنّيه، على حذرٍ؛
ذو الشِّيمةِ الرَّسلِ، إن هيجت حفيظتُه، … والجانبِ السَّهلِ، والمُستعتَبِ اليَسَرِ، [7]
من فِيه للمُجتلي والمُبتلي، نسقاً، … جَمالُ مَرأىً، عليه سَروُ مُختبَرِ. [8]

١ * العارض : الخد.
٢ * الكثب : القريب ◎ المهتصر : المكسور من غير بينونة
٣ * المعنى : المُتعب ◎ الخطر : المنزلة.
٤ * نجم الارض : نباتها.
٥ * تثبطه : اخره.
٦ * الجاني : المرتكب ◎ الاوزار، واحدها وزر: الذنب. الوَزَر: المعين والملجأ.
٧ * الشيمة : الخلق والطبيعة ◎ الرسل، السهل، السمح ◎ الحفيظة: الغضب ◎ اليسر : السهل، الليّن.
٨ * المجتلي : الناظر، اسم فاعل من اجتلاه نظر اليه ◎ المبتلي : اسم فاعل من ابتلاه : اختبره ◎ النسق : ما كان على طريقة نظام واحد ◎ السرو: الشرف.

مُذلَّلٌ للمساعي حكمَها شططاً ، عليه ، وهو العزيزُ النفسِ والنَّفرِ ؛ [١]
وزيرُ سلمٍ ، كفاهُ يُمنُ طائرِه شُؤمَ الحروبِ ، ورأيٌ مُحصَدُ المِرَرِ ؛ [٢]
أغنَت قريحتُه مَغنَى تجاربه ، ونابتِ اللّمحةُ العَجلى عن الفِكَرِ .
كم اشترى ، بكَرى عينيهِ ، من سَهرٍ ؛ هُدوءَ عينِ الهُدى في ذلك السَّهرِ ،
في حضرةٍ غابَ صرفُ الدهرِ ، خشيتَه ، عنها ، ونامَ القَطا فيها ، فلم يَثُرِ ، [٣]
مُمتَّعٌ ، بالربيعِ الطَّلقِ ، نازلُها ، يُلهيهِ ، عن طِيبِ آصالٍ ، نَدى بُكَرِ ، [٤]
ما إن يَزالُ يَبثُّ النَّبتَ في جلَدٍ ، مذ ساسَها ، ويُفيضُ الماءَ من حَجَرِ . [٥]
قد كنتُ أحسِبني والنجمَ في قرَنٍ ؛ ففيمَ أصبحتُ منحطّاً الى العَفَرِ ؟ [٦]
أحينَ رفَّ على الآفاقِ ، من أدبي ، غَرسٌ له ، من جَناه ، يانعُ الثَّمرِ ؟
وسيلةً سبباً ، إلّا تكن نسباً ، فهو الودادُ صفا من غيرِ ما كدَرِ . [٧]
وبائنٍ من ثَناءٍ ، حسنُه مثلٌ ، وشيُ المحاسنِ منه مُعلَمُ الطُّررِ ، [٨]
يستودَعُ الصُّحفَ ، لا تخفى نوافحُه ، إلّا خفاءَ نسيمِ المِسكِ في الصُّررِ ، [٩]
من كلِّ مختالةٍ ، بالحِبرِ رافلةٍ فيه ، اختيالَ الكَعابِ الرُّودِ بالحِبَرِ ، [١٠]
تُجفى لها الرَّوضةُ الغنّاءُ ، أضحكَها مُجالُ دمعِ النّدى في أعينِ الزَّهرِ
يا بهجةَ الدَّهرِ حيّاً ، وهو ، إن فَنِيَت حياتُه ، زينةُ الآثارِ والسِّيَرِ ،
لي في اعتمادِكَ ، بالتأميل ، سابقةٌ وهجرةٌ ، في الهوى ، أولى من الهِجَرِ ،
ففيمَ غضّت همومي من عُلا هِممي ، وحاصَ بي مَطلَبي عن وجهةِ الظَّفرِ ؟ [١١]
هل من سبيلٍ ، فماءُ العتبِ لي أسِنٌ ، الى العُذوبةِ من عُتباكَ والخَصَرِ ؟ [١٢]

١ * المساعي ، واحدتها مسعاة : المأثرة ⊙ الشطط : التباعد عن الحق .
٢ * المحصد : المفتول ⊙ المرر ، واحدتها مرة : قوة الخلق وشدته .
٣ * القطا ، واحدتها قطاة : طائر .
٤ * الاصال ، واحدها اصيل : الوقت بين العصر والمغرب ⊙ البكر ، واحدتها بكرة : الغدوة .
٥ * الجلد : الارض الصلبة .
٦ * العفر : ظاهر التراب .
٧ * وسيلة : منصوبة على المصدر ⊙ السبب : الذريعة .
٨ * الطرر : واحدتها طرة : الجبهة الناصية ، طرف كل شيء .
٩ * النوافح : واحدتها نافحة : الارج .
١٠ * المختالة : كناية عن الصحيفة ⊙ الكعاب الرود : الجارية الشابة .
١١ * حاص : حاد .
١٢ * العتب : السخط ⊙ الاسن : المتغير ⊙ العتبى : الرضى ⊙ الخصر : البرودة ، شبه الرضى بالماء العذب البارد .

نذَرتُ شكرَكَ ، لا أنسى الوفاءَ بهِ ، إنِ اسفرَتْ لي عنها أوجُهُ البُشَرِ . [1]
لا تَلهُ عني ، فلم اسألكَ مُعتسِفاً ، رَدَّ الصّبا ، بعد إيفاءٍ على الكِبَرِ ،
واستوفرِ الحظَّ من نُصحٍ وصاغيةٍ ، كلاهما العِلقُ لم يُوهَب ولم يُعَرِ ؛ [2]
هَبني جَهِلتُ ، فكان العِلقُ سيّئةً ، لا عذرَ منها سوى أني من البَشَرِ ،
إنّ السيادةَ ، بالإغضاءِ ، لابسةٌ بَهاءَها ، وبَهاءُ الحُسنِ في الخَفَرِ .
لكَ الشّفاعةُ ، لا تُثنى أعِنّتُها دونَ القَبولِ بمقبولٍ من العِذَرِ ،
والبَس ، من النّعمةِ الخضراءِ ، أيكتَها ظِلّاً حراماً على الآفاتِ والغِيَرِ ،
نعِمَ جَنّةِ دُنيا ، إنْ هي انصرَمت ، نَعِمتَ بالخُلدِ في الجَنّاتِ والنَّهَرِ .

ذكرى وتشوّق

قال هذا الموشّح يذكر قُرطبة وايام صباه فيها ، ويتشوق اليها
والى الامكنة التي كانت مساحب اذيال لهوه ، ومجالس انسه .

تَنشَّقَ ، من عَرفِ الصَّبا ما تَنشَّقا ،
وعاوَدَه ذِكرُ الصِّبا فتشوَّقا ،
وما زالَ لمعُ البرقِ ، لمّا تألَّقا
يُهِيبُ بدمعِ العينِ حتّى تَدفّقا ، وهل يَملِكُ الدّمعَ المَشوقُ المُصبَّأُ؟ [3]

...

خليليَّ ! إنْ أجزَعْ ، فقد وَضحَ العُذرُ ؛
وإنْ استطِعْ صبراً ، فمِن شيمتي الصَّبرُ ؛
وإنْ يكُ رُزءاً ما أصابَ به الدَّهرُ ،
ففي يومِنا خمرٌ ، وفي غدِهِ أمرٌ ؛ ولا عجبٌ ، إنّ الكريمَ مرزَّأُ [4]

...

١ * البُشر : واحدتها بشرى : الخبر المفرح .
٢ * استوفر : استكثر ◉ صاغية الانسان : خاصّته ◉ العلق : الشيء النفيس .
٣ * يهيب به : يدعوه ◉ المصبّأ : ذو الصبوة ، جهالة الفتوة .
٤ * استعار قوله : «ففي يومنا خمر وفي غده امر» من قول امرئ القيس حينما جاءه نعي ابيه . والمراد اليوم

رمَتني الليالي عن قِسيِّ النوائبِ ،
فما أخطأتني مُرسَلاتُ المصائبِ ؛
أُقضِّي نهاري بالأماني الكواذبِ ،
وآوي الى ليلٍ بَطِيءِ الكواكبِ ، وأبطأُ سارٍ كوكبٌ باتَ يُكلأُ [1]

. . .

أَقُرطُبةُ الغرَّاءُ ! هل فيكِ مَطمَعُ ؟
وهل كَبِدٌ حرَّى لِبَينِكِ تَنقَعُ ؟
وهل لليَاليكِ الحميدةِ مَرجِعُ ؟
إذِ الحسنُ مَرأًى ، فيكِ ، واللَّهوُ مَسمَعُ ؛ وإذ كَنَفُ الدُّنيا ، لَدَيكِ ، مُوَطَّأُ ؟ [2]

. . .

أَليس عجيباً أَن تَشُطَّ النَّوى بكِ ؟
فأحيا ، كأنْ لم أنسَ نَفحَ جَنابكِ ،
ولم يَلتئِمْ شَعبي خِلالَ شِعابكِ ،
ولم يكُ خَلقي ، بَدؤُه من تُرابكِ ، ولم يكتَنِفني ، من نَواحيكِ ، مَنشأُ ؟! [3]

. . .

نهارُكِ وضَّاحٌ ، وليلُكِ ضَحيانُ ،
وتُربُكِ مَصبوحٌ ، وغُصنُكِ نَشوانُ ،
وأَرضُكِ تُكسى ، حينَ جَوُّكِ عُريانُ ،
وريَّاكِ رَوحٌ للنفوسِ ، وريحانُ ، وحَسبُ الأماني ظِلُّكِ المتفيَّأُ ! [4]

. . .

نلهو ، وغداً نقوم بما يجب علينا ◉ المرزّأ : المصاب .

[1] * في قوله « ليل بطيء الكواكب » اشارة الى مطلع بائية النابغة الذبياني التي مدح بها الغساسنة :

كليني لهمٍّ ، يا أُميمةَ ، ناصبِ ،
وليلٍ اقاسيه ، بطيءِ الكواكبِ

يكلأ : اراد يرعى ويراقب .

[2] * تنقع : تروى ◉ الكنف : الجانب . الموطأ : الممهد . المذلل .

[3] * يلتئم شعبي : اجتمع بين احبهم بعد تفرّق ◉ الشعاب ، واحدها شعب : الطريق في الجبل . مسيل الماء في بطن ارض . ما افرج بين جبلين .

[4] * الضحيان : البارز ، الظاهر ، لا يستره ظلام ، لما فيه من الاضواء ◉ الجو العريان : الصافي الاديم . وكسوة الارض كناية عما فيها من النبات .

أَأَنسى زماناً ، بالعُقاب ، مُرفَّلا ؟
وعيشاً بأكنافِ الرُّصافةِ دَغفَلا ؟
ومَغنىً ، إزاءَ الجَعفريّةِ ، أَقبلَا ؟
لَنِعمَ مُرادُ النفسِ رَوضاً وَجدولا ؛ ونِعمَ مَحلُّ الصَّبوةِ المتبوَّأُ ! [١]

. . .

ويا رُبَّ مَلهىً ، بالعَقيقِ ، ومَجلِسِ ،
لدى تُرعةٍ ، تَرنو بأحداقِ نَرجِسِ ؛
بِطاحُ هواءٍ مُطمِعِ الحالِ مُؤيِسِ ،
مَغيمٍ ، ولكن ، من سَنا الراحِ ، مُشمِسِ ، إذا ما بدَت ، في كأسِها ، تتلألأُ .

وقد ضَمّنا ، من عَينِ شُهدةَ ، مَشهَدُ ،
بَدأنا وعدنا فيهِ ؛ والعَودُ أحمدُ ؛
يَزُفُّ عروسَ اللهوِ أحورُ أغيدُ ،
له مَبسِمٌ عَذبٌ ، وخَدٌّ مُورَّدُ ، وكَفٌّ ، بحِنّاءِ المُدامِ ، تُقَنَّأُ . [٢]

. .

وكائنْ غدَونا مُصعِدين على الجِسرِ ،
الى الجَوسَقِ النَّصريِّ بينَ الرُّبا العُفرِ ،
ورُحنا الى الوَعساءِ من شاطىءِ النَّهرِ ،
بحيثُ هبوبُ الرّيحِ ، عاطِرةَ النشرِ ، عَلا قُضُبَ النَّوارِ ، فَهيَ تُكَفَّأُ . [٣]

١ * العقاب والرصافة والجعفرية . وما يأتي من اسماء في الابيات التالية ، كلها : اسماء امكنة ◉ الدغفل : الواسع الخصب ◉ المتبوّأ : المقتعد .

٢ * تقنّأ : تصبغ باون قانىء ، احمر .

٣ * الجوسق : القصر ◉ الوعساء : رابية من رمل لينة ◉ تكفأ : تقلب .

وأحسِن بأيامٍ خلَونَ صَوالــحِ ،
بِضيعةِ الدُّولابِ ، أو قصرِ ناصحِ ،
تَهُزُّ الصَّبا ، أثناءَ تلكَ الأباطحِ ،
صفيحَةَ سَلسالِ المَواردِ سائحِ ، تَرى الشمسَ تجلو نَصلَها ، حين يَصدأُ. [1]

. . .

ويا حبَّذا الزَّهراءُ بهجةَ مَنظَرِ ،
ورِقَّــةَ أنفاسٍ ، وصِحَّةَ جَوهرِ ؛
وناهِيك من مَبدا جَمالٍ ومَحضَرِ ،
وجنَّةِ عَدنٍ تَطَّبيك ، وكَوثَرِ ، بمَرأىً يَزيدُ العُمرَ ، طِيباً ، ويَنسأُ [2]

. . .

مَعاهدُ ، أبكيها ، لعهدٍ تَصرَّما ،
أغَضَّ ، من الوردِ الجَنيِّ ، وأنعما ،
لبسنا الصِبا فيها حَبيراً ، مُنمنَما ،
وقُدنا ، الى اللّذاتِ ، جيشاً عَرَمْرَما ، له الأمنُ رِدْءٌ ، والعَداوةُ مَربأُ. [3]

. . .

كَساها الرَّبيعُ الطَّلقُ وَشيَ الخمائلِ ،
وراحت لها مَرضى الرِّياحِ البلائلِ ،
وغادى بنوها العَيشَ ، حُلوَ الشَّمائلِ ،
ولا زالَ مِنَّا بالضُّحى والأصائلِ ، سَلامٌ ، على تلك الميادينِ ، يُقرأُ . [4]

. . .

١ * سلسال : الموارد : اراد به جدول ماء ، وصفيحته : وجهه.

٢ * تطبيك : تعجبك ، وتستهويك ◎ ينسأ : يؤجل ، ويؤخر .

٣ * الحبير : الناعم ، الجديد ◎ المنمنم : الموشى ◎ الردء : المعين ◎ المربأ : المكان يُرقب منه.

٤ * الخمائل ، واحدتها خميلة : الموضع الكثير الشجر ◎ البلائل ، واحدتها بليلة : المبلولة ، النديَّة .

أَإِخوانَنــا ! للواردين مَصادرُ ،
ولا أَوّلٌ إلا سيتــلوه آخرُ ،
وإنّي ، لأعتابِ الزّمانِ ، لناظِرُ ،
فقد يستَقيلُ الجَدُّ ، والجدُّ عاثرُ ، وتُحمَدُ عُقبى الأَمرِ ، ما زالَ يُشنَأُ.[1]

. . .

ظَعَنتُ ، فكان الحُرُّ يُجفى ، فيَظْعَنُ ،
وأصبحتُ اسلو بالأَسى ، حين احزَنُ ،
وقرَّ ، على اليأسِ ، الفؤادُ المُوطَّنُ ؛
وإنّ بلادًا ، هُنتُ فيها ، لأَهونُ ؛ ومن رامَ مِثلي بالدَّنيَّةِ أدنأُ.[2]

. . .

ولا يُغبِطُ الأَعداءَ كَوني في السِّجنِ ،
فإني رأَيتُ الشمسَ تُحصَنُ بالدَّجنِ ،
وما كنتُ إلّا الصّارمَ العَضبَ في جَفنِ ،
أوِ اللّيثَ في غابٍ ، أوِ الصَّقرَ في وَكنٍ ، أوِ العِلقَ يُخفى ، في الصّوارِ ، ويُخبَأُ.[3]

. . .

يَضيقُ ، بأَنواعِ الصَّبابةِ ، مَذهَبي ،
الى كلّ رَحبِ الصَّدرِ ، منكم ، مُهذَّبِ ،
مُفضَّضِ لألاءِ الأَساريرِ ، مُذهَبِ ،
يُنافِسُ منه البدرُ غُرّةَ كوكبِ ، درى أنها أبهى سَناءً وأضوأُ.[4]

. . .

١ ⋆ يستقيل : ينهض ◉ الجد : الحظ ◉ يشنأ : يبغض.

٢ ⋆ ادنأ : احطّ ◉ اي الذي يرومه بالدنية هو احط مقاماً.

٣ ⋆ تحصن : تحرز ، وتمنع ، الدّجن : الغيم والمطر ◉ الصوار : وعاء المسك.

٤ ⋆ اسارير الوجه : محاسنه.

أَسِفتُ ، فما ارتاحُ ، والراحُ تُشمِلُ ،
ولا أُسعِفُ الأَوتارَ ، وهي تَرَسَّلُ ،
ولا أَرعوي عن زَفرةٍ ، حينَ أُعذَلُ ،
ولا ليَ ، مُذ فارقتكُم ، مُتعلَّلُ ، سوى خبَرٍ منكم ، على النأي ، يطرأُ . [١]

حَمِدتُم ، من الأَيامِ ، لِينَ خِلالِها ،
وسرَّتكمُ الدُنيا بحُسنِ دلالِها ،
مؤَمّنةً من عَتبِها ومَلالِها ،
ولا زالَ منكم لابسٌ من ظِلالِها ، يُسوِّغُ أبكارَ المُنى ، ويُهنَّأ . [٢]

غزله

اضحى التنائي

قال من قصيدة طويلة بعث بها الى ولّادة بنت المستكفي يشكو فيها
الم الفراق والوجد المبرّح ، ويستعطفها متلهّفًا على ايام اللقاء

١ أضحى التنائي بديلًا من تدانينا ، وناب ، عن طولِ لُقيانا ، تجافينا ؛
أَلّا ، وقد حانَ صُبحُ البَينِ ، صَبَّحنا حَينٌ ، فقامَ بنا للحَينِ ناعينا ؟ [٣]
من مُبلغُ المُلبسينا ، بانتزاحِهمُ ، حُزناً ، مع الدّهرِ ، لا يبلى ويُبلينا : [٤]
أَنَّ الزّمانَ ، الذي ما زال يُضحِكُنا أُنساً بقُربهمُ ، قد عادَ يُبكينا !
٥ غِيظَ العِدا من تَساقِينا الهوى ، فدعَوا بأَن نَغَصَّ ، فقالَ الدّهرُ : آمينا !
فانحلَّ ما كان معقودًا بأَنفسنا ، وانبتَّ ما كان موصولًا بأَيدينا !
وقد نكونُ ، وما يُخشى تَفرُّقُنا ، فاليومَ نحنُ ، وما يُرجى تلاقينا !

١ * ترَسَّل ، تترسّل : تترتّل .
٢ * يسوّغ : ربما اراد انه يجعل ابكار المنى سائغة سهلة المشرب .
٣ * ألّا : حرف تحضيض ۞ الحين : الهلاك .
٤ * الانتزاح : البعد .

يا لَيتَ شِعري، ولم نُعتِب أعاديَكم ، هل نالَ حظّاً ، من العُتبى ، أَعادينا؟ [1]
لم نَعتقِد، بعدَكم ، إلّا الوفاءَ لكم رأياً ، ولم نتقلّد غيرَه دِينا ؛
ما حَقُّنا أن تُقِرّوا عينَ ذي حسَدٍ بنا ، ولا ان تُسرّوا كاشحاً فينا . [2]
بِنتُم وبِنّا ، فما ابتلّت جوانِحُنا شوقاً اليكم ، ولا جفّت مآقينا ؛
تَكادُ ، حين تُناجيكم ضمائرُنا ، يَقضي علينا الأَسى ، لولا تأَسّينا ! [3]
حالَت ، لفقدِكمُ ، أيامُنا ، فغدَت سوداً ، وكانت ، بكم بيضاً، لَياليِنا ؛
لِيُسقَ عهدُكمُ ، عهدُ السرُورِ ، فما كنتُم لأَرواحِنا إلّا رَياحينا !
لا تَحسبوا نأيَكم عنّا يُغيّرُنا ، إن طالما غيّرَ النأيُ المحبّينا ،
واللهِ ما طلَبت أهواؤنا بدلاً منكم، ولا انصرَفت عنكم أمانينا .
ياساريَ البرقِ ! غادِ القصرَ ، واسقِ بهِ من كان صِرفَ الهوى والوُدِّ يسقينا ، [4]
وأسأَل هنالك : هل عَنّى تذكُّرُنا إلفاً ، تذكُّرُه أمسى يُعنّينا؟ [5]
ويا نسيمَ الصِّبا ! بلِّغ تحيّتَنا من لو ، على البُعدِ ، حيّاً كان يُحيينا !
ما ضرَّ إن لم نكُن اكفاءَه شرفاً ، وفي المَودّةِ كافٍ من تكافينا .
يا روضةً طالما أجنت لَواحظَنا ورداً ، جَلاه الصِّبا غضّاً ونسرينا ! [6]
ويا حياةً تملّينا ، بزَهرتِها ، مُنىً ضروباً ، ولَذّاتٍ أفانينا ! [7]
ويا نعيماً خطَرنا ، من غضارتِه ، في وَشيِ نُعمى ، سحَبنا ذيلَه حينا ! [8]
لَسنا نُسمّيكِ اجلالاً وتكرمةً ، وقدرُكِ المُعتلي عن ذاكَ يُغنينا ،
إذا انفردتِ، وما شُورِكتِ في صِفةٍ ، فحسبُنا الوصفُ إيضاحاً وتبيينا .
يا جنّةَ الخُلدِ ! أُبدِلنا بسَلسلِها ، والكوثرِ العذبِ ، زقّوماً وغِسلينا ، [9]

١ * نعتب : نعطي العتبى : الرضى .

٢ * الكاشح : المبغض .

٣ * التأسي : التسلّي والتعزي .

٤ * غادِ القصر : اسقه غدوة .

٥ * عنّاه : شغله .

٦ * اجنت : لواحظنا وردًا : جعلتها تجني ، تقطف الورد .

٧ * تملّينا : تمتعنا .

٨ * الغضارة : النضرة .

٩ * السلسل : الخمر اللينة ◎ الكوثر: نهر في الجنة تتفجر منه جميع انهارها ◎ الزقوم: شجرة في جهنم منها طعام اهل النار ◎ الغسلين : ما يسيل من جلود اهل النار .

دومي على العَهدِ ، ما دُمنا ، محافظةً ؛ فالحُرُّ من دانَ إنصافاً كما دينا ،
عليكِ مِنّا سَلامُ اللهِ ، ما بَقِيَت صَبابةٌ بكِ نُخفيها ، فتخفينا . [1]

هَب لي رُقادًا

ما ضَرَّ ، لو أنكَ لي راحمُ ، وعِلَّتي انت بهــا عالم؟
يَهنيكَ ، يا سُؤلي ويا بغيتي ، أنك ممَّا اشتكي ســالمُ !
تَضحَكُ في الحُبِّ وأَبكي انا ! اللهُ ، فيما بيننــا ، حاكمُ !
اقول ، لما طارَ عنّي الكَرى ، قولَ مُعنًّى ، قلبُهُ هائمُ :
يا نائماً أيقظَني حبُّــه ، هَب لي رُقادًا ، أيُّها النائمُ !

أيُوحِشني الزمان !

أَيُوحِشُني الزمانُ ، وأَنتَ أُنسِي ، ويُظلِمُ لي النَّهارُ ، وانتَ شمسي؟
وأَغرِسُ ، في محبَّتِكَ ، الأَماني ، فأجني الموتَ من ثمَراتِ غَرسي؟
لقد جازيتَ غدرًا عن وفائي ، وبعتَ مَودَّتي ظُلماً ببَخسِ !
ولو أَنَّ الزمانَ أطاعَ حُكمي ، فَديتُكَ ، من مَكارِهِهِ ، بنَفسي .

إِني ذكرتك !

كتب الى ولادة هذه القصيدة ، يصف شوقه الى لقائها ويعاتبها قال :

إني ذكَرتُكِ ، بالزَّهراءِ ، مُشتاقاً ، والأُفقُ طَلقٌ ، ومرأى الارض قد راقا ،
وللنَسيمِ اعتـلالٌ ، في أَصائِلِه ، كأنّه رقَّ لي ، فاعتلَّ اشفاقا ،
والرَّوضُ ، عن مائِهِ الفِضيِّ ، مُبتَسِمٌ ، كما شَقَقتَ ، عن اللَّبَّاتِ ، أطواقا . [2]
يومٌ ، كأيَّامِ لَذّاتٍ لنا انصرَمت ، بِتنا لها ، حينَ نامَ الدهرُ ، سُرّاقا ،

١ * نخفيها : نسترها ◎ تخفينا : تظهرنا وهو من الاضداد .
٢ * اللبات ، واحدتها لبة : موضع القلادة من الصدر ◎ الاطواق ، واحدها طوق : ما يطيف بالعنق من الثوب . شبه ابتسام الروض عن مائه الفضي بابتسام اللبات حينما تشق عنها الاطواق .

نَلهو بِما يَستَمِيلُ العَينَ مِن زَهَرٍ ، … جالَ النَدى فيه ، حتّى مالَ اعناقا ؛
كأَنَّ أَعيُنَه ، إذ عايَنَت أَرَقي ، … بكَت لِما بي ، فجالَ الدَمعُ رَقراقا .
وردٌ تألَّقَ ، في ضاحي مَنابِتِه ، … فازدادَ منه الضُّحى ،في العينِ ،إشراقا ، [1]
سرَى يُنافِحُه نَيلُوفرٌ عَبِقٌ ، … وسنانُ ، نَبَّه منه الصُبحُ أَحداقا ؛ [2]
كلٌّ يَهيجُ لنا ذِكرى تَشَوُّقِنا … اليكِ ، لم يَعدُ عنها الصَّدرُ إن ضاقا . [3]
لا سكَّنَ اللهُ قلباً ، عَنَّ ذِكرُكُم ، … فلم يَطِر ، بجَناحِ الشوقِ ، خَفّاقا ؛
لو شاءَ حَملي نسيمُ الصُبحِ ،حين سرى ، … وافاكُمُ بفتىً أضناه ما لاقى !
لو كانَ وَفّى المُنى ، في جَمعِنا بِكُمُ ، … لَكانَ من أَكرمِ الأَيامِ أخلاقا .
كانَ التَّجاري بمَحضِ الوُدِّ ،مُذ زَمَنٍ ، … مَيدانَ أُنسٍ ، جرينا فيه أطلاقا ، [4]
فالآنَ ، أَحمَدَ ما كنا لعَهدِكُمُ ، … سلَوتُمُ ، وبقينا نحنُ عُشّاقا !

عادة التجنّي

ثِقي بي ، يا مُعذّبتي ، فإني … سأحفظُ فيكِ ما ضَيَّعتِ منّي !
وإن أصبحتِ ، قد أَرضَيتِ قوماً … بسُخطي، لم يكن ذا فيكِ ظَنّي ؛
وهل قلبٌ كقلبكِ في ضُلوعي ، … فأسلو عنكِ حين سلَوتِ عني؟
تمَنَّت ان تنالَ رضاكِ نفسي ، … فكانَ منيَّـةً ذاك التَّمنّي ،
ولم أجنِ الذّنوبَ ، فتَحقَديها ، … ولكن عادةٌ منك التجنّي ! [5]

المحب القَنوع

سأَقنَعُ منكِ بلَحظِ البصَرْ ، … وأرضى بتسليمِكِ المُختَصَرْ
ولا أَتخطّى التِماسَ المُنى ، … ولا اتعدّى اختلاسَ النَظرْ

١ * الضاحي : الظاهر للشمس .
٢ * النيلوفر : نبات ينبت في الماء الراكد ◉ الوسنان: ناعس الطرف
٣ * لم يعد : لم يتجاوز .
٤ * اطلاقا ، واحدها طلق: الشوط .
٥ * التجنّي : من تجني عليه : رماه بإثم لم يفعله .

أصونُك من لَحظَاتِ الظُّنونِ ، وأُعليكِ عن خطَراتِ الفِكَرْ
وأَحذَرُ من لَحظَاتِ الرَّقيبِ ، وقد يُستدامُ الهوى بالحَذَرْ

أَنا راضٍ

لم يكُن هَجرُ حبيبي عن قِلَى ، لا ولا ذاك التَّجنّي ملَلا ![1]
سَرّه شُكريَ ، إذ عافى ، ولم يَدرِ ما غايةُ صبري ، فابتلى.[2]
أَنا راضٍ بالذي يَرضَى به لِيَ من لو قالَ: مُت! ما قُلتُ: لا!
مَثَلٌ في كلّ حُسنٍ ، مثلَ ما صارَ ذُلّي ، في هواه ، مَثَلا!
يا فَتيتَ المِسكِ ، يا شمسَ الضُّحى ، يا قضيبَ البانِ ، يا ريمَ الفَلا![3]
إن يكن لي أَملٌ غيرَ الرِّضا منكَ ، لا بُلِّغتُ ذاك الأَمَلا!

١ ـ القلى : البغض.
٢ ـ عافاه : دفع عنه العلة ، والسوء.
ابتلاه : جرّبه.
٣ ـ الريم ، مسهّل الرئم: الظبي الابيض.

ابن حَمدِيس الصقلّي

١٠٥٥ - ١١٣٢

هو أبو محمد عبد الجبّار بن حَمدِيس الازدي ؛ ولد في صقلّية ،في بحر المغرب ، بالقرب من افريقية ، وجاء الاندلس في سنة ١٠٧٨ ، واتصل بالمعتمد ونال منه سني الجوائز .

كان ابن حمديس من فحول شعراء الاندلس ، قال عنه ابن بسّام في «الذخيرة» « هو شاعر ماهر ، يقرطس[1] اغراض المعاني البديعة ، ويعبّر عنها بالالفاظ النفيسة الرفيعة ، ويتصرّف بالتشبيه المصيب ، ويغوص في بحر الكلم على درّ المعنى الغريب » .

وكان حسن الصياغة ، واضح الديباجة ، رقيق الغزل ، عاطفي الرثاء ؛ أبدع في وصف جمال الطبيعة ومشاهدها الفتانة ، وفي وصف مظاهر العمران وروائعه ؛ وله صور دقيقة جميلة متحركة ، وتشابيه طريفة لم يسبقه اليها شاعر .

على ان شعره لا يخلو من بعض تصنّع ، ولا سيما مدحه الذي لم يترك فيه عمود الشعر المشرقي .

توفي في جزيرة ميورقه ، وقيل في مدينة بجايه .

---

(١) يقرطس : يصيب

شعره

لابن حمديس ديوان شعر يقع في ٤٧٧ صفحة، طبع في روما سنة ١٨٩٧ ، ووقف على طبعه وتصحيحه المستشرق الايطالي چلستينو سيكياباريلّي ، وجعل له ذيلًا يشتمل على ما وجده لشاعرنا من اشعار في سائر الكتب العربية .

واكثر ما يشتمل عليه هذا الديوان مدح ورثاء ووصف وقد جعلنا ما اخذناه من مدح ورثاء كلًّا في باب على حدة ، وجمعنا الغزل والوصف في باب ، وما بقي ، مما لا يدخل هذه الابواب ، في باب اغراض شتّى .

المدح

قال من قصيدة يمدح بها المعتمد بن عبّاد · ويذكر رجوعه من لَبيط · وهو حصن بقربٍ من المَرِيّة ، نجا اليه قومس من الروم ومعه جماعة من قبل الفُنش · وكان المعتمد قد نزل عليه مع المرابطين واقام محاصرًا زمنًا ، ثم دخل الشتاء فقام عنه · وقد انشده الشاعر هذه القصيدة في اشبيلية يوم دخول الناس عليه للسلام ولتهنئته بعودته ·

في كُنْهِ قَدرِكَ للعُقولِ تَحَيُّرُ ، فَلِذاكَ ، عنه النَّيِّراتُ ، تُقَصِّرُ ،[1]
والواصفون عُلاكَ منّا قَرَّبوا ما تَرجَموا للنّاسِ عنه ، وعَبَّروا.
ألقيتَ عَزمَكَ بينَ عَيني ضَيغَمٍ ، وأبأتَ طَيفَكَ كلَّ شيءٍ يَذعَرُ ،[2]
ورَحلتَ ، في جَونِ القَتامِ ، عَرَمرَمٍ ، وكأنّه ليلٌ ، بوجهِكَ ، مُقمِرُ ،[3]
ولَئن قَدِمتَ ، وفي اعتقادِكَ عَودةٌ ، فالبحرُ ، من عِظَمٍ ، يَمُدُّ ويَجزُرُ ،
والفَتحُ من فَضلِ الإلهِ ، ويومُه مُتقدِّمٌ بالنَّصرِ ، أو مُتأخِّرُ ،
لولا اقترابُ الوقتِ ، عن قَدَرٍ ، لَمَا فُتِحَت ، على حالٍ ، لأَحمدَ خَيبَرُ.[4]
وفَوارسٌ تَحمَرُّ من ضَربِ الطُّلا ، بأكفِّهِم ، ورَقُ الحديدِ الاخضرُ ،[5]
أَلِفَت قلوبُهُمُ الخضوعَ لِرَبِّهِم ، والبأسُ ، في أسيافِهِم ، مُتكَبِّرُ ،
يَرمونَ أغراضَ الحُتوفِ بأنفُسٍ ، ووُجوهُها ، لِعُيونِهِم ، تَتَنَمَّرُ ،[6]
صَحِبَت جُيوشُهُمُ جيوشًا ، يا لَها من أبحُرٍ ، زَخَرت عليها أبحُرُ.
ويلٌ لِحِصنِ لَبيطَ من يومٍ ، على جَنَباتِه ، يَجري النَّجيعُ الأحمرُ ،[7]

١ ⋆ الكُنه : حقيقة الشيء ، وجوهره ·

٢ ⋆ ابأت : انزلت ، جعلت ·

٣ ⋆ الجون : الاسود ◉ القتام : غبار الحرب ◉ العرمرم : الكثير · اراد جيشًا كثير العدد مسودّ الغبار ·

٤ ⋆ يشير الى غزوة خيبر في سنة ٧ هـ ٦٢٨ م ·

٥ ⋆ الطلا : الاعناق · واحدتها طلاة او طلية ·

٦ ⋆ الحتوف ، واحدها حتف : الموت ◉ تتنمر : تتنكر وتتوعد ·

٧ ⋆ حصن لبيط : احد حصون الاندلس ، حاصره المعتمد ولم يفتحه لدخول الشتاء ◉ النجيع : الدم ·

وَالرَّوعُ تَثقُلُ بالرَّدى ساعاتُه ، وتَخِفُّ بالأبطالِ فيهِ الضُّمَّرُ ، [1]
يُثنَى النَّهارُ به على أعقابه ، حتّى كأنَّ الشمسَ فيه تَكَوَّرُ ، [2]
والنَّقعُ فيه دُجُنَّةٌ لا تَنجلي ، والصُّبحُ منه مُلاءةٌ لا تُنشَرُ ؛
ولَقد شَدَدتَ على خِناقِ عُلوجِهم ، وأدارَ رأيَكَ فيهِمُ مُستَبصِرُ ، [3]
قَلُّوا لَديكَ غَنيمةً ، فكأنَّما أبقَتهُمُ الأيامُ فيه ليَكثُروا .
والفُنشُ يَحسِبُ ناظِرَيه وقَلبَه ، بقوارعِ الأحزانِ ، يومٌ مُعوِرُ ، [4]
رَكِبَ الغَوايةَ واستبدَّ برأيِهِ جَهلًا ، ليَعبُرَ خِضرِماً لا يُعبَرُ . [5]
خُذ في عَزائمِك ، التي تَركتَهُم خَبرًا ، مع الأيامِ ، لا يَتغيَّرُ ،
جاهَدتَ في الرَّحمنِ حَقَّ جِهادِه ، وجَرى المُلوكُ ، كما جَريتَ ، فقَصَّروا ،
فيَبيتُ ناجودٌ وعودٌ حَولَهم ، ويَبيتُ حولَكَ شَوذَبٌ وسَنَوَّرُ ، [6]
وتَفوحُ غاليةٌ بهم وذَريرةٌ ، وهُما دمٌ ، في بُردَتَيك ، وعِثيَرُ . [7]

الرِّثاء

قال يرثي جوهرةَ وهي جارية له ماتت غريقةً في المركب الذي عُطب به في خروجه من الاندلس إلى إفريقية

1 يَهدِمُ دارَ الحياةِ بانيها ، فأيُّ حيٍّ مُخَلَّدٌ فيها ؟
وإن تَردَّت مِن قبلِنا أُمَمٌ ، فَهيَ نفوسٌ ردَّت عَواريها ! [8]
أما تَراها كأنَّها أَجَمٌ ، أُسودُها بيننا دَواهيها ؟ [9]
إن سالَمت ، وَهيَ لا تُسالِمُنا ، أيامُنا ، حارَبَت لَياليها ؟

١ * الروع : الخوف - ويوم الروع : يوم الحرب ◎ الضُّمَّر ، واحدها ضامر : الفرس القليل اللحم ، الدقيق ، وهذا مما يستحسن في الخيل .

٢ * تكوّر ، اي تتكور : يجمع ضوءها ، ويُلفّ كما تلف العمامة : و تضمحلّ وتذهب .

٣ * العلوج ، واحدها ، علج : الكافر .

٤ * الفنش : الفونس ، وهو القومس ، اي الامير ، الذي لجأ الى حصن لبيط .

٥ * الخضرم : البحر الخضمّ ، استعارة للامر العظيم .

٦ * الناجود : الخمر ◎ الشوذب ، من الرجال : الطويل الحسن الخلق ؛ النجيب من كل شيء ◎ السنور : كل سلاح كان من حديد .

٧ * الغالية : اخلاط من الطيب ◎ الذريرة : نوع من الطيوب ◎ العثير : غبار الحرب .

٨ * تردت : هلكت ، فنيت ، ماتت .

٩ * الاجم ، واحدتها اجمة : الشجر الكثير الملتف .

واوَحشَتَا مِن فِراقِ مُؤنسةٍ   عيشتي ذِكرُها ويُحييها ،
أذكُرُها ، والدُّموعُ تَسبقُني ،   كأنَّني للأسى أجاريها !
يا بحرُ أرخصتَ غيرَ مُكترثٍ   من كُنتُ ، لا للبياعِ ، أغليها ،
جَوهرةً ، كانَ خاطري صَدَفاً   لها ، أقيها بهِ وأحميها ،
أبتَّها ، في حَشاكَ مُغرقةً ؛   وبتُّ ، في ساحليك ، أبكيها !
ونَفحةُ الطِّيبِ في ذَوائبِها ؛   وصِبغةُ الكُحلِ في مآقيها ! [١]
عانقَها المَوجُ ، ثم فارقها   عن ضَمّةٍ ، فاضَ روحُها فيها ؛
وَيلي على الماءِ والتُّرابِ ، ومِن   أحكامِ مَدَّينِ حُكِّما فيها !
أماتَها ذا ، وذاكَ غيَّرَها ؛   كيفَ من العُنصُرينِ أفديها ؟!

وصف وغزل

يا صاح لا تصحْ

قال يصف صبوحاً في روضةٍ :

قُم ، هاكَها مِن كفِّ ذاتِ الوِشاحْ ،   فقد نعى اللَّيلَ بشيرُ الصَّباحْ ، [٢]
واحلُل عُرى نومِك عن مُقلةٍ ،   تَمقُلُ أحداقاً مِراضاً ، صِحاحْ ، [٣]
خَلِّ الكَرى عنك ، وخُذ قهوةً   تُهدي ، الى الرُّوحِ ، نسيمَ ارتياحْ .
هذا صَبوحٌ وصَباحٌ ، فما   عُذرُك في تَركِ صَبوحِ الصَّباحْ ؟
باكِر الى اللَّذاتِ ، واركَب لها   سَوابقَ اللَّهوِ ذَواتِ المِراحْ ، [٤]
مِن قبلِ أن ترشُفَ شمسُ الضُّحى   رِيقَ الغَوادي ، من ثُغورِ الأقاحْ ، [٥]
أو يَطويَ الظِّلُّ بساطاً ، إذا   ما بَرِحَ الطَّلُّ له عن بَراحْ . [٦]

١ . الذوائب : واحدتها ذؤابة : شعر مقدم الرأس .

٢ . هاكها : خذها ◎ ذات الوشاح : صفة للمرأة ، الوشاح : عصابة من اديم تضعها المرأة بين عاتقها وكشحها اي خصرها ، مرصّعة بالجواهر .

٣ . تمقل : تنظر .

٤ . المراح : النشاط ، واشتداد الفرح .

٥ . اقاح ، واحدتها اقحوانة : نبات اوراق زهره بيضاء ، مفلّجة صغيرة يشبهون بها الاسنان ، وهو ما يسمى زهر الربيع .

٦ . الطل : الندى ◎ البراح : المتسع من الارض لا شجر فيه ولا بناء .

يا حَبَّذا ما تُبصِرُ العَينُ من ... أَنجُمِ راحٍ ، فوقَ أفلاكِ راحْ ، [١]
في رَوضةٍ غَنَّاءَ ، غَنَّت بها ... في قُضُبِ الأَوراقِ ، وُرقٌ فِصاحْ ، [٢]
لا يَعرِفُ النَّاظِرُ أغصانَها ... إذا تَثَنَّت ، من قُدودِ المِلاحْ ؛ [٣]
كأنَّ مَفتوتَ عَبيرٍ بها ... مُطيَّبٌ منه هُبوبُ الرِّياحْ .
من كلِّ مقصورٍ على رَنَّةٍ ، ... لو دَمَعَت عَينٌ له قُلتَ : ناحْ ، [٤]
او ساجعٍ ، تَحسِبُ ألحانَه ... من كُلِّ نَدمانَ عليه اقتراحْ [٥]
يا صاحِ ، لا تَصحُ ! فكم لَذَّةٍ ... في السُّكرِ ، لم يَدرِ بها عيشُ صاحْ !

كيمياء الشَّمس

قال يصف نهرًا :

ولابسٍ نُقُبَ الأَعراضِ جَوهرُهُ ، ... له انسيابُ حُبابٍ ، رَقْشُه الحَبَبُ ، [٦]
إذا الصَّبا زَلَقَت فيه سَنابكُها ، ... حَسبتَه مُنصُلًا في مَتنِهِ شُطَبُ ، [٧]
وَرَدْتُه ونجومُ الجوِّ مائلةٌ ، ... كما تَدحرَجَ دُرٌّ ماله ثُقَبُ ؛
ومَغربٌ ، طَعنَته ، غيرَ نابيةٍ ، ... أَسِنَّةٌ ، هي ان حقَّقتَها شُهُبُ ؛
ومَشرِقٌ ، كيمياءُ الشَّمسِ في يدهِ ، ... ففِضَّةُ الماءِ ، مِن إلقائِها ذَهَبُ .

كواكب نار في بُروج زُجاج

قال يصفُ ثريًّا الجامع :

ومُشبِهةٍ ، في الجوِّ ، أنوارَ أُختِها ، ... يُضيءُ سَناها كلَّ أسحَمَ ، داجِ ، [٨]

١ * الراح : الاولى : الخمرة ، وانجمها : كؤوسها . والراح الثانية ، واحدتها راحة : الكف .

٢ * الغنَّاء : الكثيرة الشجر ◎ الورق : الحمائم .

٣ * قدود : قامات ، واحدها قدّ .

٤ * يريد العود ، آلة الطرب .

٥ * الساجع : المغني ، المطرب ◎ الندمان : النديم .

٦ * نقب ، واحدها نقاب : طريق ◎ الاعراض ، واحدها عرض : سفح الجبل ، الوادي ◎ جوهره : اراد به ماءه ◎ الانسياب : التدافع ◎ الحباب : الحية ◎ الرقش : التنقيط ، والنقش ◎ الحبب : الفقاقيع التي تعلو الماء او الخمر .

٧ * السنابك : اطراف الحوافر ، واحدها سنبك ، استعارها لريح الصبا تنزلق على وجه الماء ◎ المنصل : السيف ◎ متنه : صفحته ◎ شطب ، واحدتها شطبة : الخط ، والطريقة في متن السيف .

٨ * اراد باختها نجوم الثريا ◎ السنا : النور ◎ الاسحم : الاسود ◎ الداجي : المظلم .

كأنَّ صِلالًا ، وسطَها ، في مَكامنٍ ، ... تُحرِّكُ فيهـا أَلسُناً بِلَجاجٍ ، [1]
وتَحسِبُها تجلو ، على كلِّ ناظرٍ ، ... كواكبَ نارٍ ، في بُروجِ زُجاجِ .

عنقود نور

قال يصف خمرة :

أجلو عَروساً بخدِّها خَجلٌ ، ... كالوَردِ لَوناً ، ونَشرُها عَبِقُ ؛
كأنَّما كوكبٌ ، يُصافحُني ، ... مُجوَّفُ الجِسمِ ، روحه شَفَقُ . [2]
حمراءُ ، مَشمولةٌ ، لها عُمُرٌ ، ... في طَرَفٍ منه دَهرُها غَرِقُ ، [3]
أسأَلُها حُمرةَ العَقيقِ ، فلي ... من لؤلوءٍ ، بعد شُربِها ، عَرَقُ .
راحٌ أَضافَت الى دمي دَمها ، ... طَبائعٌ في المِزاجِ تَتَّفِقُ ؛
وللثُّريَّا يـدٌ مُختَّمةٌ ، ... منها ، بناناً ، خِضابُها الغَسقُ ؛ [4]
كأنَّها ، والصَّباحُ يَقطِفُها ، ... عُنقودُ نُورٍ ، له الدُّجى وَرَقُ .
وفَحمةُ اللَّيلِ ، كلَّما اعترَضَت ، ... أَلهبَ فيهـا اتّقادَه الفَلَقُ ؛ [5]
عَجبتُ من مُحرِقٍ ومحترِقٍ ، ... لا فَحمةٌ ، مِنها ، ولا حَرَقُ .

لم يدرِ أيني !

قال متغزلًا :

عَذَّبتِني بالعُنصُرينِ : ... بِلَظَى حَشايَ وماءِ عيني ،
أَلبستِني سُقماً ، أَرا ... كِ لبستِهِ في النَّاظِرينَ ،
جِسمي هو الطَّيفُ ، الَّذي ... يُدنيه منكِ طِلابُ دَيني .
ولَقَد خَفيتُ من الضَّنى ، ... وأَمِنتُ لَحظَ الكاشِحينَ ، [6]
ولَئِن سلِمتُ من الرَّدى ، ... فلأَنَّـه لم يَدرِ أَيني ؟ !

١ * الصلال ، واحدها صل : الحية ، اللّجاج : الالحاح .
٢ * اراد بالكوكب الكأس . الشفق : بقية ضوء الشمس وحمرتها في اول الليل .
٣ * مشمولة : مبردة بالشمال .
٤ * الغسق : ظلمة اول الليل .
٥ * الفلق : الصبح .
٦ * الكاشح : المبغض .

وصف عارض برد

١ ألا نسخَ اللهُ القُطارَ حجارةً ، تصوبُ علينا ، والغَمامَ غُموما ! [١]
وكانت سماءُ اللهِ لا تُمطِرُ الحصا ، ليالِيَ كنا لا نَطيشُ حُلوما ،
فلمّا تحوّلنا عَفاريتَ شِرَّةٍ ، تحوّل شُؤبوبُ السماءِ رُجوما . [٢]

شكا اوجاعه بخريره !

قال يصف نهرًا :

١ ومُطّرِدِ الأَجزاءِ ، يصقُلُ مَتنَه صَباً ، أعلنَت للعَينِ ما في ضَميرِهِ ،
جَريحٍ بأَطرافِ الحصى ، كلّما جَرى عليها شَكا أوجاعَه بخَريرِه ،
كأَنَّ حُباباً رِيعَ تحتَ حَبابِهِ ، فأقبلَ يُلقي نَفسَه في غَديرِهِ .

مِنجل من عَسجَد

١ أُنظُر الى حُسنِ هِلالٍ بدا ، يَهتِكُ من أَنوارِهِ الحِندِسا ، [٣]
كَمِنجَلٍ قد صِيغَ من عَسجدٍ ، يَحصِدُ من زَهرِ الرُّبا نَرجِسا . [٤]

رقص الشقائق

١ نظَرتُ الى حُسنِ الرِّياضِ ، وغَيمُها جَرى دمعُه منهنّ في أعينِ الزَّهرِ ،
فلم تَرَ عَيني بينَها كشقائقٍ ، تُبلبِلُها الأَرواحُ في القُضُبِ الخُضرِ ،
كما مَشَّطَت غِيدُ القِيانِ شُعورَها ، وقامَت ، لِرَقصٍ ، في غَلائِلِها الحُمرِ .

حافر الظلماء

قال في قمر آخر الشهر :

١ وربَّ صُبحٍ رقَبناه ، وقد طَلَعت بَقيّةُ البَدرِ في أُولى بَشائرِهِ ؛
كأنّما أَدهمُ الظَّلماءِ ، حينَ نَجا من أَشهبِ الصُّبحِ ، القى نعلَ حافرِهِ .

١ * نسخ : مسخ ، حوّل من جسم الى آخر ◎ القطـار : المطر ◎ تصوب : تمطر .
٢ * الشرة : الشرّ ◎ الشؤبوب : الدفعة من المطـر ◎ الرجوم : حجارة تتساقط من النجوم .
٣ * الحندس : الظلام .
٤ * العسجد : الذهب .

المجالس الخُضر

لله دَرُّ عِصابة نَزلوا ، بينَ الرياضِ ، مَجالساً خُضرا ؛
شَربوا ، بكاساتٍ ، مُعتَّقةً ، شربت عقولُهمُ بها سُكرا ؛
وكأنَّما الأقمارُ تَلثِمُ ، من ايدي السُّقاةِ ، كواكباً زُهرا ،
وكأنَّ فيَاشاتِهنَّ[1] ، وقد مُلِئت ، الى لَهَواتِها ، خَمرا ،
بيضُ الحِسانِ وَقَفن في عُرُسٍ ، لمَّا لبسنَ غلائلاً حُمرا .

مداهن الياقوت

كأنَّما النِيلوفرُ المُجتَنى ، وقد بدا للعينِ فوقَ البَنانْ ،
مَداهنُ الياقوتِ مُحمرَّةٌ ، قد ضُمِّنَت شَعرًا من الزَّعفرانْ .

وصف بركة

قال يصف بركة في دار بناها المنصور بن اعلى صاحب بجاية ، وكان على هذه البركة اشجار من ذهب وفضّة ، وعلى حافاتها تماثيل اسود من الرخام الابيض تقذف بالمياه :

وضراغمٍ سَكنَت عرينَ رئاسةٍ ، ترَكت خريرَ الماءِ فيهِ زئيرا ؛
فَكأنَّما غشَّى النُّضارُ جسومَها ، وأذابَ ، في أفواهِها ، البلُّورا ؛[2]
أُسدٌ كأنَّ سُكونَها مُتحرِّكٌ في النَّفسِ ، لو وَجدَت هناك مُثيرا ،
وتَذكَّرَت فَتكاتِها ، فكأنَّما أقعَت على أدبارِها لِتَثُورا ؛[3]
وتَخالُها ، والشَّمسُ تَجلو لَونَها ، نارًا ، وألسُنَها اللَّواحِسَ نُورا ؛
فكأنَّما سَلَّت سُيوفَ جداولٍ ذَابت بلا نارٍ ، فَعُدنَ غديرا ؛
وكأنَّما نَسجَ النَّسيمُ لِمائهِ درعاً ، فَقدَّرَ سَردَها تَقديرا .
وبديعة الثَّمرات تَعبُرُ ، نحوَها ، عيناي بَحرَ عجائبٍ مَسحُورا ؛

١ * الفياشات : اراد بها اباريق الزجاج ، ولعلّها من لغة العامة في المغرب ◎ اللهوات ، واحدتها لهاة : اللحمة في الحلق . واراد هنا الحلق مطلقًا .

٢ * شبه رخام البركة بالنضار ، وهو هنا في معنى الفضة ، وشبه الماء المتدفّق بذائب البلور .

٣ * اقعت : ربضت .

شَجَرِيَّةٌ ، ذَهَبِيَّةٌ ، نَزَعَت إلى ... سِحرٍ يُؤَثِّرُ ، في النُّهى ، تأثِيرا ،
قد صُوحِبَت أَغصانُها ، فكأنَّما ... قَبَضَت بِهِنَّ ، مِنَ الفَضاءِ ، طُيورا ؛ [1]
وكأنَّما تأبى لِوُقوعِ طَيرِها ، ... أَنْ تَستَقِلَّ بِنَهضِها ، وتَطيرا ؛
مِن كُلِّ واقِعَةٍ تَرى مِنقارَها ... ماءً ، كَسَلسالِ اللُّجَينِ ، نَميرا ؛
خُرسٌ تُعَدُّ مِنَ الفِصاحِ ، فإن شَدَت ... جَعَلَت تُغَرِّدُ بالمِياهِ صَفيرا ،
وكأنَّما في كُلِّ غُصنٍ فِضَّةٌ ... لانَت ، فأُرسِلَ خَيطُها مَجرُورا ،
وتُريكَ في الصِّهرِيجِ ، مَوقعَ قَطرِها ... فَوقَ الزَّبَرجَدِ ، لُؤلُؤاً مَنثُورا ؛ [2]
ضَحِكَت مَحاسِنُه إليكَ ، كأنَّما ... جَعَلَت لها زُهرُ النُّجُومِ ثُغورا .

اغراض شتى

الخضاب شاهد زور

حَبَّذا فِتيانُ صِدقٍ ، أَعرَسوا ... بِعَذارى من سُلافاتِ الخُمورْ ،
عَربَدَ الصَّحوُ عليهم بالأسى ، ... فاتَّقاه السُّكرُ عنهم بالسُّرورْ ؛ [3]
عَمَّروا رَبعَ الصِّبا ، من قبلِ أَن ... يَتَمَشَّى فيه ، بالشَّيبِ ، دُثورْ ؛ [4]
إنَّ للأعمارِ أعجازًا ، إذا ... بُلِغَت ، لم تَثنَ منهنَّ صُدورْ .
عَدِّ بالأكوابِ عَنّي ، إنَّ لي ، ... في يَدِ الأنسِ ، عنهنَّ ، نُفورْ ؛ [5]
عَمَّرَ الشَّيبُ الدُّجى ، من لِمَّتي ، ... بِنُجومٍ دُلَّعٍ ، لَيسَت تَغورْ ؛
لا نُشورٌ لِشَبابي ، بعدما ... ماتَ ، من عُمري ، الى يومِ النُّشورْ . [6]
وخِضابُ الشَّيبِ لا أقبَلُه ، ... إنَّه ، في شَعَري ، شاهِدُ زورْ ؛
أنا ، من وجدي بأيّامِ الصِّبا ، ... أَذرِفُ الدَّمعَ رَواحًا وبُكورْ ،

١ * صوحبت : التأمت .
٢ * الصهريج : البركة .
٣ * عربد : ساء خلقه .
٤ * الدثور : البلى .
٥ * الاكواب ، واحدها كوب : القدح الكبير .
٦ * يوم النشور : القيامة .

أصِفُ الرّاحَ ، ولا أشرَبُها ، وَهيَ بالشّدوِ، على الشَّربِ، تَدورْ ، [1]
كالّذي يأمُرُ بالكَرِّ ، ولا يَصطلي نارَ الوَغى ، حيثُ تفورْ .
فَسواءٌ ، بينَ إخوانِ الصَّفا وذوي اللّهوِ ، مغيبي والحُضورْ ؛
أنا من كَسبِ ذُنوبي ، وَجِلٌ ، وإنِ استغفرتُ ، فاللهُ غفورْ .

مغربُك القبرُ

بيتُكَ فيه مَصرعُك ، وفي الضريحِ مَضجعُك ،
غَرّتكَ دُنياكَ ، التّي لها شرابٌ يَخدَعُكْ ،
هِمتَ بحُبِّ فارِكٍ ، وقَلّما تُمتِّعُكْ ، [2]
يَضُرُّكَ الحِرصُ بها ، والزُّهدُ فيها يَنفعُكْ ،
لا تَأمَنَنْ مَنيّةً ، إنَّ عَصاها تَقرعُكْ ،
مَغرِبُك القبرُ ، الّذي يكونُ منه مَطلعُكْ ،
إن فرّقَتك تُربةٌ ، فاللهُ سوفَ يَجمعُكْ ،
وللحسابِ موقفٌ ، أهوالُه تُروّعُكْ ،
فكيفَ بالنّارِ ، الّتي من كلِّ وجهٍ ، تَلذعُكْ ،
يَراكَ ذو العَرشِ ، إذا ناديتَه ويسمعُكْ ؛
فثِقْ به ، ولا يكُن لغيرِه ، تَضرُّعُكْ !

في جَنةٍ او في نار

سلّمِ الأمرَ منكَ للهِ ، واعلمْ أنَّ ما قد قضى به سيكونُ ؛
واذا صحَّ ذاكَ عندكَ ، فافهم أنَّ شُغلَ الضّميرِ منك جنونُ .
هل نَقيضُ السّكونِ إلّا حِراكٌ ؛ ونَقيضُ الحِراكِ إلّا سكونُ ؟
هكذا ينقضي الزّمانُ ، إلى أنْ تَشمَلَ العالمينَ فيه المَنونُ ،

[1] الشدو : الغناء .
[2] الفارك : المرأة تبغض زوجها .

وتقومُ المَوتى النِّيامُ ، إلى ما … كُحِلَت بالحياةِ منه عيونُ ،
بِجِنانٍ ، يُقيمُ فيها مُقيمٌ ؛ … أو بنارٍ ، فيها عَذابٌ مُهينُ .

تفجّع وذكرى

قال من قصيدة يتفجّع على صِقِلِّيَة ، وبلده سَرَقُوسَة بعد سقوطهما بيد الاسبان :

أعاذِلُ ! دَعْني أُطلِقُ العَبرةَ ، الّتي … عَدِمتُ لها من أجمل الصّبرِ حابسا ؛
فإنّي امرؤٌ آوي الى الشَّجَنِ ، الّذي … وَجدتُ له ، في حَبَّةِ القلبِ ، ناخسا .
تَعوَّذتُ أرضي ان تعودَ لقومِها ، … فساءت ظُنوني ثم أصبحتُ يائسا ، [١]
وعَزَّيتُ فيها النفسَ ، لما رأيتُها … تُكابِدُ داءً قاتِلَ السُّقمِ ، ناحسا !
وكيفَ ، وقد سِيمَت هواناً ، وصَيَّرت … مَساجِدَها ، أيدي النّصارى ، كنائسا ؟
إذا شاءتِ الرُّهبانُ بالضَّربِ أنطقَت ، … معَ الصُّبحِ والإمساءِ ، فيها النَّواقسا !
صِقِلّيّةٌ ، كادَ الزّمانُ بلادَها ، … وكانت على أهلِ الزّمانِ مَحارسا ؛
فكم أعينٍ ، بالخوفِ ، أمسَت سَواهِرًا ، … وكانت ، بطيبِ الأمنِ منهم ، نَواعسا !
أرى بلدي ، قد سامَه الرُّومُ ذِلّةً ، … وكانَ بقَومي عِزُّهُ مُتقاعِسا ، [٢]
وكانت بلادُ الكُفرِ تَلبَسُ خوفَه ، … فأضحَى لذاكَ الخوفِ منهن لابسا !
عَدِمتُ اسودًا منهمُ عربيَّةً ، … تَرى بين أيديها العُلوجَ فرائسا ؛ [٣]
فلم تَرَ عيني مِثلَهم ، في كَتيبةٍ ، … مَضارِبَ أبطالِ الحروب ، مَداعِسا ! [٤]
ويا رُبَّ بَرّاقِ النِّصالِ ، تَخالُه ، … منَ النَّقعِ ليلاً ، مُشرِقَ الشُّهبِ ، دامسا ، [٥]
خَلَوا ، بينَ أطرافِ القَنا ، بكُماتِه ، … بطَعنٍ ، من الفُرسانِ ، يُخلي القَرابسا ، [٦]
وما خِلتُ أنَّ النّارَ يَبرُدُ حَرُّها ، … على سَعَفٍ لاقتْه ، في القَيظِ ، يابسا ، [٧]

١ * تعوذت : دعوت بالحفظ .
٢ * المتقاعس : الثابت ، الممتنع .
٣ * فرائس ، واحدتها فريسة : ما يفترسه الاسد ونحوه .
٤ * المداعس ، واحدها المدعس : الطعّان .
٥ * الدامس : المظلم .
٦ * القرابس ، واحدها قربوس : قسم السرج المقوّس المرتفع من قدام المقعد ومؤخره .
٧ * السعف : جريد النخل ، واحدتها سعفة .

أما مُلِئت، غزوًا، قِلَوْرِيَّةٌ بهم،   وأَردَوا بَطاريقًا بها وأَشاوِسا؟ [1]
همُ فتحُوا أَغلاقَها بسيوفِهم؛   وهم تَركوا الأَنوارَ فيها حَنادِسا، [2]
وساقُوا، بأيدي السَّبي، بِيضًا حَواسرًا،   تخالُ عليهنَّ الشُّعورَ برانسا؛ [3]
يخوضون بحرًا، كلَّ حينٍ، إليهمُ،   بِبَحرٍ يكونُ الموجُ فيه فَوارسا.
وحَربيّةٍ تَرمي بمُحرقِ نِفطِها،   فَيغشَى سَعوطُ الموتِ فيها المَعاطسا، [4]
تَراهنَّ، في حُمرِ اللُّبودِ وصُفرِها،   كمِثلِ بَناتِ الزِّنجِ زُفَّت عَرائسا،
إذا عَشَنت فيها التّنانيرُ خِلتَها   تُفتِّحُ، للبُركانِ عنها، مَنافسا. [5]
أَفي قصرِ يَنّي رقّةٌ يَعمُرونها،   ورَسمٌ من الإسلامِ أَصبح دارِسا؟ [6]
ومن عَجَبٍ أَن الشَّياطينَ صَيَّرت   بُروجَ النُّجوم المُحرقاتِ مَجالسا،
واضحَت لهم سَرقوسةٌ دارَ مِنعةٍ،   يزورون بالدّارَين فيها النَّواوِسا، [7]
مَشَوا في بلادٍ، اهلُها تحتَ أَرضِها،   وما مارسوا منهم أَبيًّا مُمارِسا،
ولو شُقِّقَت تلك القُبورُ لأَنهضَت   إليهم، من الأَجداثِ، أُسدًا عَوابسا،
ولكن رأيتُ الغِيلَ، إن غابَ لَيثُه،   تَبختَرَ، في أَرجائِه، الذئبُ مائسا. [8]

عفاف اللسان

١ يقولونَ لي لا تُجيدُ الهجاءَ!   فقلتُ: ومالي أُجيدُ المَديحْ؟
فقالوا: لأَنك تَرجو الثَّوابَ،   وهذا القِياسُ لعَمري صحيحْ!
فقلتُ: صِفاتي؟ فقالوا: حِسانٌ؛   فقلتُ: نَسيبي؟ فقالوا: مَليحْ!

١ * قلورية: من مدن الاندلس ◎ البطارق، واحدها بطريق: قائد الروم ◎ الاشاوس، واحدها اشوس: الناظر بمؤخر عينيه تكبرًا وتيهًا.
٢ * الحنادس: واحدها الحندس: الظلام.
٣ * الحواسر، واحدتهن حاسرة: الكاشفة عن وجهها.
٤ * الحربية: سفينة ترمى نيران النفط ◎ المعاطس، واحدها معطس: الانف.
٥ * عشنت النار: دخنت ◎ التنانير، واحدها تنور: تجويفة اسطوانية من فخار تجعل في الارض وتوقد فيها النار للخبز. واراد هنا آلات رمي النيران.
٦ * الرقة: الارض، التي يغطيها الماء ثم ينضب عنها.
٧ * النواوس، واحدها ناووس: المقبرة.
٨ * غيل الاسد: اجمته.

فقلتُ : إليكم فلي حُجَّةٌ ، وللحقّ فيها مَجالٌ فسيحْ ؛
عَفافُ اللّسانِ مَقالُ الجميلِ ، وفِسْقُ اللّسانِ مَقالُ القبيح.

تهزُل النفس اذا سمن الجسد

حَسِّن غِذاءَك واعتمِدْ ، منه ، على وقتٍ وَحدْ ،
فالنفسُ تهزُلُ بالمآكلِ ، كلّما سَمِنَ الجَسَدْ.

طين أنا !

لا أرْكَبُ البحرَ ، خوفاً عليّ منه المَعاطِبْ ،
طِينٌ أنا ، وهو ماءٌ ، والطّينُ ، في الماءِ ، ذائبْ !

المُروّةُ والدّينُ

أدمِ المُروّةَ والوَفاءَ ، ولا يكُنْ حَبلُ الدّيانةِ منكَ غيرَ مَتِينِ ،
والعِزُّ أَبقَى ما تَراهُ لمُكرَمٍ ، إكرامُهُ لمُرُوّةٍ أو دينِ.

ابن خفاجه

١٠٥٨-١١٣٧ م

هو ابو اسحاق ابرهيم بن ابي الفتح بن خفَاجه الاندلسي . ولد في جزيرة شُقْر من اعمال بلنسية ، وتوفي فيها . وصفه الفتح بن خاقان في كتابه « قلائد العقيان » « بأنه مالك أَعنَّة المحاسن ، وناهج طريقها ، العارف بتنسيقها وتنميقها ، انفرد بالوصف وتصرّف في فنون الاوصاف» . وذكره ابن بسّام في « الذخيرة » واثنى عليه . وقال عنه المقّري في « نفح الطّيب » « انه اديب الاندلس وشاعرها » .

كان ابن خفاجة عزيز النفس، لم يتعرّض لاستماحة ملوك الاندلس، مع تهافتهم على شعرائها . وكان أوحد الناس في وصف الانهار والازهار والرياض والرياحين والبساتين ، حتى لقّبه الشَّقَندي بصَنَوبريّ الاندلس ، لانه كان كالصنوبري مغرًى بوصف الجنان والمتنزّهات .

وهو في شعره المدحي والرثائي والغزلي يسير على طريقة المشرقيين من حيث الابتداء ، وقليلًا ما يرى له معانٍ مبتكرة في هذه الفنون . ولكنَّه تميّز باوصافه لمظاهر الطبيعة وجمالاتها ، وبعاطفته نحوها . والطبيعة ترافقه في مدحه وغزله ، حتى في رثائه وهجائه .

وقد يتصنَّع في شعره فيأتي بالاستعارات والجناس والطباق والتورية ولكنه لا يتبغَّض ؛ وهو كسائر شعراء الاندلس يهدي مدائحه الى ممدوحيه إما في صورة تحية ، او في صورة عذراء جميلة .

شعره

لابن خَفاجة ديوان شعر مرتّب على الحروف ، طُبع في مصر، يحتوي على مدائحه ، ورثائه وغزله ، ووصفه ، وهجائه ، وشكواه . وقد فُسّرت فيه بعض الفاظ غريبة .

مدح القائد أبي الطاهر

قال بعد مقدمة وصفية غزلية يمدح القائد ابا الطاهر تميم ابن امير المؤمنين ويسأله مخاطبة القائد الاعلى ابي عبدالله محمد بن عائشة في شأنه وارسلها اليه من تلمسان :

صَدَرتُ ، ودونَ النجمِ سِترُ غَمامةٍ ، يشِفُّ كما شفَّ الرَّمادُ عن الجَمرِ ؛ [1]
ولا ليلَ ، إلَّا بالثريَّـةِ ، أقمرٌ ، تنفّس فيه السُّكرُ عن نَفحةِ الشُّكرِ ، [2]
ولا كفَّ ، إلا للامير ، كريمةٌ ، تبسّمَ فيها النَّصلُ عن مَبسِمِ النَّصرِ ،
وهبَّ بها يَمضي ، فيفري ، كأنَّما شِهابٌ بها يَنقضُّ ، او قَدَرٌ يَجري .
فللّهِ محمولٌ هنـاك وحاملٌ ، بعيدُ مَجالِ الصوتِ والصيتِ والذِّكرِ ،
تلوذُ المُنى منـه بأصيدَ أمجدٍ ، صقيلِ فِرندِ الحمدِ والمجدِ والبِشرِ ؛
وابلجَ منصورِ اللواءِ ، اذا سرى أظلّت عُقابُ النَّصرِ اجنحةَ النَّسرِ ،
عليه يمينٌ أن تفيضَ يمينُه ، وأن لا يغُضَّ السيفُ جفناً على وِترِ ؛ [3]
يَعُبُّ عُبابَ البحرِ في السِلمِ والوَغى ، ببذلِ اليدِ الغَرَّاءِ والفَتكةِ البِكرِ .
له رايةٌ ، لو زاحمَ الدهرُ تحتَها ، لعُدَّت به دُهمُ الليالي من الشُّقرِ ؛
وعزمٌ يُذِلُّ الطَودَ عَزماً ، ونجدةٌ تهُزُّ قدودَ السُّمرِ في الحُلَلِ الحُمرِ ؛
ووَجهٌ وضيءٌ شفَّ عنـه لِثامُه ، كما شفَّ رقراقُ الغَمامِ عن البَدرِ .
اذا كتَمتْه ، بالمُفاضةِ ، دِرعُه ، تراءى هِلالٌ منه يَطلُعُ من بحرٍ . [4]
سرَى بينَ نُوّارٍ لزُرقِ أسنةٍ حِدادٍ ، واوراقٍ لرايتـهِ خُضرِ ،

١ * صدرت : برزت .
٢ * الثوية : موضع .
٣ * الوتر : الثأر .
١ * المفاضة : الدرع الواسعة .

فهزَّت إليه عَطفها كلُّ رايةٍ ، تهزُّ عليه الغُصنَ في الوَرَقِ النَضرِ ،
وحنَّ اليــه كلُّ وَردٍ مُحجَّلٍ ، كأَنَّ أَجينا سالَ منه على تِبرِ . [1]
أَما وانتشارِ النَّقعِ عنه صحيفةً ، لقد راعَ في تلك الصحيفةِ من حِبرِ ، [2]
ونال فطيماً سُؤدَدَ الكهلِ في الصِبا ، فتمَّ تمامَ البدرِ في غُرةِ الشَّهرِ ،
وحلَت بهِ الآمالُ ، وهي شريفةٌ ، محلَّ ليالي الصَومِ من ليلةِ القَدرِ .
لبيبٌ ، فما ندري أرأياً لحادثٍ . يُبيِّتُ ، أم سَهماً لشاكلة يَبري ؛ [3]
تقسَّمه جُودٌ يفيضُ وهِمَّــةٌ ، فمن مَنهلٍ غَمرٍ ، ومن جَبَلٍ وَعرِ ؛
له كلُّ نُعمى بيَّضَت كُلَّ صَفحةٍ ، بكلِّ مكانٍ ، فالبهِيمُ من الغُرِّ ، [4]
رَميتُ بآمـالي اليه ، وإنما حمَلتُ بها المرعى الجديبَ الى القَطرِ ،
ولا أملُ الا كتابَ شفاعــةٍ ، اذا الخَطبُ أعيا وزرُه شدَّ من إزري ؛
شفيعٌ لو استعطفتَ عصرَ الصِبا به ، لعاجَ ، سقَته دَمعةُ المُزنِ من عَصرِ .
وبي مَسُّ شكوى لا أُطيقُ لها السُّرى ، فان لم أطأ بابَ الاميرِ ، فعن عُذرِ ،
ولو مُلئت عينُ الدُّجى لَملأتُها بغرة شمسِ العَصرِ ، في مَطلعِ القَصرِ .
وما المرءُ الا قلبُه ، واذا سرى معَ الركبِ من شوقٍ ، فإني مع السَّفرِ .
ابا الطاهر ! اقبلْها اليك تحيةً ، أرَقتُ عليها ، سَحرةً ، رَونقَ السِّحرِ ،
خلعتُ قوافيهــا عليك ، وإنَّما نظمتُ بها عِقداً نفيساً على نَحرِ .

مدح صاحب قُرطبة

قال بعد مقدمة غزلية فخرية حماسية يمدح ابا الحسن بن الربيع صاحب قُرطبة لأمر عرض له:

ارضٌ هبطتُ بها سماءَ طَلقةً ، وخبَطتُ ، من سُدفٍ بها ، أنوارا ، [5]
عاطيتُ ذِكرَ ابي الحسين بها السُّرى رَيحانةً ، يَشتمُّها ، معطارا ،
وسُلافةً خفَّت بنــا طرباً لها ، واستَرقصت من فِتيةٍ ومَهارى ، [6]

١ ـ الورد : الفرس المحمر اللون الى صفرة .
٢ ـ النقع : غبار الحرب ◎ راع : اعجب ◎ الحبر اراد به ما في صحيفة النقع من اسوداد .
٣ ـ الشاكلة : الامر الملتبس .
٤ ـ البهيم : الاسود ◎ الغر : البيض .
٥ ـ السدف ، واحدها اسدف : الليل المظلم .
٦ ـ السلافة : الخمرة ◎ المهارى ، واحدتها مهريَّة : ابل منسوبة الى مهرة بن حيدان من عرب اليمن .

عبِثَت بها سِنةُ الكَرى، فتمايدت، ... في مُلتقى اسحارِها، اشجارا،
ولربّما سالت اباطِحُها بها، ... في مُلتقى انهارِها، أنهارا.
أأبا الحسينِ، وما دعوتُ مُصغَّرًا ... بأبي الحسين، وقد دَعوتُ كُبارا، ۱
أعزِزْ عليَّ، وقد حللتَ علاقةً ... بين الجوانحِ، أن شَحطت مَزارا، ۲
وشرَقتُ فيك بعَبرةٍ مشبوبةٍ، ... كالبرقِ يَقدَحُ في الغَمامةِ نارا؛
وعُلاك، لو سمحَ الزمانُ بليلةٍ ... منه، لظَلَّ بصَفحَتيه عِذارا؛
تثني معاطفَها، اهتزازَ بشاشةٍ، ... تَترَى، وخفَّ بها السُّرورُ وَقارا،
فاستهجنت حملَ الثُّريّا تَومةً، ... واستَصغَرت لُبسَ الهِلالِ سِوارا. ۳
وعسَى الزمانُ، وان عَسا في حالةٍ، ... يحنو، فيَدنُو بالوزيرِ مزارا، ٤
فمِن المُنى، وهو الغزالةُ سُنةً، ... لو أنني كنتُ الهلالَ سَرارا، ٥
طُلتَ المدائحَ طَولَ أروعَ ماجدٍ، ... فلبستَها حُللًا عليك قِصارا؛
وكفاكَ أنّكَ من بُدورِ مَعاشرٍ ... طلَعوا، لأوّلِ ليلةٍ، أقمارا؛
ولئن عدَتني عنك كلُّ تَنوفةٍ، ... يهفو لها قلبُ السرابِ حِذارا، ٦
فلرِبّما طرَقت جَنابي فتيةٌ ... كَرُموا جِوارًا، في العُلى، ونِجارا، ٧
نُجَباءُ تَخفُقُ في ظهورِ نَجائبٍ، ... ما إن نَضَلُّ، وقد مَثَلن مَنارا،
صدَعت بهم سُجفَ الظّلامِ أجادلٌ، ... لزِمَت بهم أكوارَها أوكارا، ۸
فسرَت اليَّ، مع الرِّكابِ، تحيّةٌ، ... عقَدت عليّ، لها العُلا، أزرارا،
هزّازةً ناءَت بعِطفي عِزّةٍ، ... حتى جَررتُ، على المَجرِّ، إزارا،
هدَرت جِنايةَ صَرفِ دهرٍ جائرٍ، ... نفَضَ المشيبَ بعارِضيَّ غُبارا،
فاذا حنَوتُ، فلا سلَوتُ، فإنّما ... أنتَ القريبُ، وإن شحَطت ديارا. ۹

وقالوا انها كانت لا يعدل بها شيء في سرعة جريانها.

۱ * الكبار : العظيم، الشريف.

۲ * العلاقة : المحبة ◎ شحطت: بعدت.

۳ * التومة : خزام مخصوص يوضع في الانف.

٤ * عسا : صار عاسيا.

٥ * السرار : آخر ليلة من شهر القمر.

٦ * التنوفة : المفازة.

۷ * الجناب : الناحية ◎ النجار: الاصل

۸ * صدعت : شقت ◎ السجف : الستر ◎ الاجادل، واحدها اجدل : الصقر.

۹ * حنوت : عطفت.

الرثاء

قال يرثي اخوانه ويندب شبابه :

ألَا عرَّسَ الإِخوانُ في ساحةِ البِلى ،   وما رفعُوا ، غيرَ القبورِ ، قِبابا ! [1]
فدَمعٌ ، كما سَحَّ الغَمامُ ، ولَوعةٌ ،   كما أَضرمَت ريحُ الشَّمالِ شِهابا !
إِذا استوقفَتني ، في الديارِ، عشِيةٌ ،   تلَذَّذتُ فيها جيئةً وذَهابا !
أكُرُّ بطَرفي في معاهدِ فِتيةٍ ،   ثَكِلتهُمُ ، بيضَ الوجوهِ، شَبابا !
فطالَ وُقوفي بين وَجدٍ وزَفرةٍ ،   أنادي رُسوماً ، لا تُحيرُ جَوابا ، [2]
وأمحُو جميلَ الصَّبرِ ، طَوراً ، بعَبرةٍ ،   أُخطُّ بها ، في صَفحَتَيَّ ، كِتابا ،
وقد دَرَسَت أجسامُهم وديارُهم ،   فلم أرَ إِلَّا أَقبُرًا ويَبابا ، [3]
وَحسبِيَ شجوًا أَن أرى الدارَ بلقعاً،   خَلاءً ، واشباحَ الصديقِ تُرابا !

اوصافه

وصف نهر

للهِ نهرٌ سالَ في بطحاءِ ،   أَشهى ورُودًا من لَمَى الحسناءِ ،
مُتعطِفٌ مثلَ السِّوارِ ، كأنّه ،   والزَّهرُ يَكنِفُه ، مَجرُّ سماءِ ،
قد رَقَّ ، حتى ظُنَّ قُرصاً مُفرغاً   من فضةٍ ، في بُردةٍ خضراءِ ،
وغدَت تحُفُّ به الغصونُ ، كأنّها   هُدبٌ يحُفُّ بمُقلةٍ زرقاءِ ؛
ولطالما عاطيتُ فيه مُدامةً   صفراءَ ، تخضِبُ أيدِيَ النُّدماءِ ،
والريحُ تعبَثُ بالغصونِ ، وقد جرى   ذَهَبُ الأصيلِ على لُجَينِ الماءِ .

١ * عرس : نزل ليلًا .
٢ * تحير : ترد .
٣ * درست : انمحت ◎اليباب : القفر .

وصف شجرة نارنج

أَلا أفصحَ الطَّيرُ ، حتى خطَبْ ،   وَخفَّ له الغُصنُ ، حتى اضطرَبْ ؛
فملْ طرَباً بينَ ظِلٍّ ، هفَا ،   رطِيبٍ ، وماء ، هناك ، انثَعَبْ ، ١
وجُل في الحديقةِ أُختِ المُنى ،   ودِنْ بالمُدامــة امّ الطَّرَبْ .
وحاملةٍ ، من بناتِ القَنا ،   أماليدَ تحمِلُ خُضرَ العَذَبْ ، ٢
تنوبُ ، مورَّقةً ، عن عِذارٍ ،   وتضحَكُ ، زاهرةً ، عن شَنِبْ ، ٣
وَتندَى بها ، في مَهبِّ الصَّبا ،   زَبَرجدةٌ اثمرت بـالذهَبْ ،
تَفــاوَحُ انفاسُها تارة ،   وطورًا تُغازلُهـا من كَثَبْ ،
فتبسِمُ ، في حالةٍ ، عن رِضاً ،   وتنظُرُ ، آونةً ، عن غَضَبْ .

وردة من الذهب الجامد

ومائسةٍ تُزهَى ، وقد خلَعَ الحَيا   عليها حُلى حُمرًا ، وأردِيةً خُضرا ، ٤
يذوبُ لها ريقُ الغمامةِ فِضَّةً ،   ويَجمُدُ ، في أعطافِها ، ذهباً نَضرا .

مجلس أنس

سَقياً ليومٍ قد أَنختُ بسَرحةٍ   ريَّا ، تُلاعبُها الشَّمالُ ، فتلعَبُ ، ٥
سكرى يُغنِّيها الحمَامُ ، فتنثني   طربا ، ويَسقيها الغَمامُ ، فتشرَبُ ،
نَلهو ، فتُرفَــعُ للشبيبةِ رايةٌ   فيه ، ويطلُعُ ، للبَهارةِ ، كوكبُ ؛ ٦
والرَّوضُ وجهٌ أزهرٌ ، والظِلُّ فَرعٌ اسودٌ ، والماءُ ثَغرٌ أشنَبُ ؛ ٧

١ * انثعب الماء : جرى .
٢ * اماليد ، واحدها املود : الغصن اللين الناعم .
٣ * الشنب : الثغر البـارد ، الحسن الاسنان .
٤ * تزهى : تتيه عجبًا ◎ الحيا : المطر .
٥ * انخت : أقمت ◎ السرحة : الشجرة لا شوك فيها .
٦ * البهارة : الجمال .
٧ * الاشنب : البارد .

في حيثُ أطرَبنا الحمامُ ، عشيةً ، فشَدا يُغنّينا الحَمامُ المُطرِبُ ،
واهتزَّ عِطفُ الغُصنِ من طربٍ بنا ، وافترَّ ، عن ثغرِ الهِلالِ ، المَغرِبُ ؛
فكأنَّه ، والحسنُ مُقترِنٌ به ، طَوقٌ ، على بُردِ الغَمامةِ ، مُذهَبُ .
في فِتيةٍ تَسري ، فينصدِعُ الدُّجى عنها ، وتَنزِلُ بالجديبِ ، فيُخصِبُ ،
كَرُموا ، فلا غَيثُ السَّماحةِ مُخلِفٌ ، يوماً ، ولا برقُ اللطافةِ خُلَّبُ ،
من كلِّ ازهرَ ، لِلنَّعيمِ بوجهِه ماءٌ يُرَقرِقُه الشبابُ ، فيسكُبُ .

قوس كالهلال وسهم كالشهاب

عَوجاءَ تُعطَفُ ، ثم تُرسَلُ تارةً ، فكأنَّما هي حيةٌ تنسابُ ؛ [1]
واذا انحنَت ، والسَّهمُ منها خارجٌ ، فهي الهِلالُ انقضَّ منه شِهابُ .

اشقر يزاحم الليل

ألا زاحَم الليلَ بي اشقرٌ ، تَصوَّبَ ، تحتَ الدُّجى ، كوكبا ، [2]
فكادَ ، وقد طارَ بي شُعلةً على فحمةِ الليلِ أن تَلهَبا ،
وباتَ يطارِدُه بارقٌ ، أحالَ غُرابَ الدُّجى أشهبا ،
فذهَّبَ ، ليلَ السُّرى ، عارضٌ ، يُفضِّضُ ، بالماءِ ، ما ذَهَّبا ، [3]
فأعشبَ ما جادَ من تَلعةٍ ، وطَرَّزَ ، بالنَّورِ ، ما أعشَبا ، [4]
فردَّى مَناكبَ تلك الغصونِ ، وزرَّرَ اكفافَ تلك الرُّبى . [5]

سحَّابة الاذيال

وغمامةٍ لم يَستقِلَّ بها السُّرى ، فمَشَت على الظَّلماءِ مَشيَ مُقيَّدِ ؛
حمَلَت بها ريحُ القَبولِ سَحابةً سَحّابةَ الاذيالِ ، تُلمَسُ باليدِ ؛

١ * العوجاء : القوس .
٢ * تصوب : انقض .
٣ * العارض : السحاب الماطر .
٤ * التلعة : المرتفع ◎ النور : الزهر الابيض .
٥ * اكفاف : حواشي .

في ليلةٍ قد باتَ ياحَسُ ، تحتَها ، حِبرًا ، لسانُ البارقِ المتوقِّدِ ،
شابَت وراءَ قناعِها لَممُ الرُّبى ، واشمطَّ مَفرِقُ كلِّ عَضبٍ أَملَدِ . [1]

ساق احدب اسود

رُبَّ ابنِ ليلٍ سقانا ، والشمسُ تُطالِعُ غُرَّه ،
فظلَّ يسودُّ لونا ، والكأسُ تسطَعُ حُمره ،
كأنهُ كيسُ فحمٍ ، قد أُوقِدَت فيه جَمره .
وللمُدامِ مديرٌ يشُبُّ جَمرةَ خَمره ،
تضاحكت عن حَبابٍ ، يُقبِّلُ الماءُ ثَغره ؛
فظلت آخذُ ياقو تةً ، وأَصرِفُ دُرّه ،
حتى تَثنَّيتُ غصناً ، واصفرتِ الشمسُ نُقره ، [2]
وارتدَّ المشمس طَرفٌ ، به من السُّقمِ فَتره ، [3]
يجولُ ، للغيمِ ، فيه ، كُحلٌ ، وللقَطرِ عَبره .

اريكِ السُّهى

بهرتِ جمالًا ، فرُعتِ البَصرْ ، وذُبتُ سَقاماً ، ففُتُّ النَّظَرْ ،
فصِرتُ ، اذا أَمكَنت لُقيةٌ ، أُريكِ السُّهى وتُريني القَمَرْ . [4]

وصف متفرّج

وصقيلةِ الأنواءِ تَلوي عِطفَها ريحٌ ، تلُفُّ فروعَها ، مِعطارُ ، [5]
عاطى بها الصهباءَ أَحوى أَحورٌ ، سحّابُ أذيالِ السُّرى ، سَحّارُ ، [6]

١ * اشمطّ شعر الرأس : خالطه الشيب .

٢ * النقرة : السبيكة المذابة من الذهب .

٣ * الفترة : الفتور .

٤ * السهى : كوكب خفي لا يكاد يرى .

٥ * الأَنواء ، واحدها نوء : النبت والبقل .

٦ * الاحوى من كان في شفتيه خضرة الى سواد ◎ الاحور : من اشتد بياض بياض عينيه وسواد سوادهما .

والنَّورُ عِقدٌ ، والغصونُ سوالفٌ ،   والجذعُ زَندٌ ، والخليجُ سِوارُ ؛
بحديقةٍ ظَلَّ اللّمى ظِلّاً بها ،   وتطلّعت شنَباً بها الأنوارُ ،
رقصَ القضيبُ بها ،وقد شرِبَ الثّرى ،   وشَدا الحمامُ ، وصفّق التيّارُ ،
غنّاء ، ألحفَ عِطفَها الورقَ النديُّ ،   والتفَّ ، في جَنباتِها ، النُّوّارُ ، [1]
فتطلّعت ، في كلِّ موقعِ لحظةٍ ،   من كلِّ غُصنٍ ، صَفحةٌ وعِذارُ .

الاندلس جنة الخلد

يا اهلَ اندلسٍ ، للهِ درُّكمُ !   ماءٌ وظِلٌّ وأنهارٌ وأشجارُ ،
ما جنّةُ الخُلدِ إلّا في ديارِكمُ ،   ولو تخيّرتُ هذا كنتُ اختارُ ،
لا تختشوا ،بعدَ ذا ،أن تدخُلوا سقَراً ،   فليسَ تُدخَلُ ، بعد الجنّةِ النارُ ! [2]

ملاءة الأنوار

وكِمامةٍ ، حدَرَ الصباحُ قِناعَها   عن صَفحةٍ ، تَندى ،من الأزهارِ ، [3]
في ابطحٍ ، رضَعت ثغورُ أقاحِه ،   أخلافَ كلِّ غمامةٍ مِدرارِ ،
نثَرت ،بحِجرِ الارضِ فيه ،يدُ الصَّبا   دُررَ النّدى ودراهمَ النُّوّارِ ؛
وقد ارتدى غصنُ النّقا ، وتقلّدَت   حَليَ الحَبابِ ، سوالفُ الأنهارِ ، [4]
فحلَلتُ حيثُ الماءُ صفحةُ ضاحكٍ   جَذِلٍ ،وحيثُ الشّطُّ بدءُ عِذارِ ، [5]
والريحُ تنفُضُ ، بُكرةً ، لِمَمَ الرُّبى ،   والطَّلُّ يَنضَحُ اوجُهَ الأشجارِ ،
مُتقسِّمَ الألحاظِ بينَ محاسنٍ ،   من ردفِ رابيةٍ وخصرِ قرارِ ، [6]
وأراكةٍ سجعَ الهديلُ بفرعِها ،   والصُّبحُ يُسفِرُ عن جبينِ نهارِ ، [7]
هزّت له اعطافَها ، ولربّما   خلعَت عليهِ مُلاءةَ الأنوارِ .

١ * الحفه الشيء : جعله لـه لحافاً ، ستره .

٢ * سقر : جهنّم .

٣ * الكمامة : غطاء الزهر .

٤ * الحلي : ما يزين به من مصوغ المعدنيات او الجواهر الكريمة ◉ الحباب : الفقاقيع التي تعلو الماء .

٥ * اراد بحيث الشط بدء عذار ، ان العشب لا يزال في اول نبته . والعذار : الشعر الذي يحاذي الاذن في الخد .

٦ * الردف : العجيزة .

٧ * الاراكة : شجرة ذات اشواك ◉ الهديل : فرخ الحمام .

جيوب الاشجار

وأراكةٍ ضرَبت سماءً ، فوقنا ، تَندَى ، وأفلاكُ الكؤوسِ تُدارُ ،
حفَّت بدَوحتِها مَجرَّةُ جدولٍ ، نثَرت عليه نُجومَها الأزهارُ ،
وكأنّها ، وكأنّ جدولَ مائِها ، حسناءُ شُدَّ بخَصرِها زُنّارُ .
زَفَّ الزُّجاجُ بها عَروسَ مُدامةٍ تُجلى ، ونُوّارُ الغصونِ نِثارُ ،
في روضة ، جنحُ الدُّجى ظِلٌّ بها ، وتجسَّمت نورًا بها الأنوارُ ، [١]
غنّاءَ ، يَنشُرُ وَشيَه البَزّازُ لي فيها ، ويَفتُقُ مِسكَه العطّارُ ،
قامَ الغِناءُ بها ، وقد نَضَحَ النَدى وجهَ الثَرى ، واستيقظَ النُّوّارُ ،
والماءُ ، من حَليِ الحَياءِ ، مُقلَّدٌ ، زرَّت عليه جيوبَها الاشجارُ .

فرس اشقر اغر

واشقرٍ تُضرمُ منه الوَغى ، بشُعلةٍ من شُعلِ الباسِ ؛
من جُلَّنارٍ ناضرٍ خدُّه ، وأُذْنُه من ورَقِ الآسِ ؛ [٢]
تَطلُعُ للغُرَّةِ ، في وجهِه ، حَبابةٌ تضحَكُ في كاسِ .

نرجسة من ذهب

وكأسِ أُنسٍ قد جَلَتها المُنى ، فباتَتِ النفسُ بها مُعرِسَه ،
طافَ بها اسودُ مُحدودِبٌ ، يُطرِبُ من يَلهو به مَجلِسَه ،
فخِلتُه ، من سبَجٍ ، رَبوةً قد أنبتَت ، من ذهبٍ ، نَرجِسَه . [٣]

صلاة الكسوف

اطلَّ ، وقد خُطَّ في خدِّه ، من الشَّعر ، سطرٌ دقيقُ الحُروفِ ،
فقُلتُ أرى الشَّمسَ مكسوفةً ، فقُوموا نصَلِّي صلاةَ الكسوفِ .

١ * يريد ان الانوار لبست اجسام النوراي الزهر الابيض .
٢ * الجلنار : زهر الرمان .
٣ * السبج : الخرز الاسود .

اسود يسبح

١ واسودٍ يسبَحُ في لُجَّـةٍ ، لا تَـكتُمُ الحصباءَ غُدرانُها ،[١]
كأنَّها ، في شَـكلِها ، مُقلةٌ ، وذلك الاسودُ انسانُها .

كل غصن ثريا

١ للهِ نوريّـةُ المُحيّا ، تحمِلُ نـاريّـةَ الحُميّا ؛[٢]
والدَوحُ رطبُ المَهزِ ، لَدنٌ ، قد رقَّ ريًّا ، وطاب ريَّا ،[٣]
تجسَّمَ النُورُ فيـه نورًا ، فـكلُّ غُصنٍ به ثُريَّا .

متفرقات

يتألم لشكاة

قال يتألم لشكاة من لم يكن يراها الا بوساطة او برسالة

١ يا منيةَ النَفسِ حَسبي ،من تشكّيكِ ، أني أُصاب ،وكفُّ الدهرِ تَرميكِ ،
ولو تسامَح خَطبٌ في فدائِك بي ، لـكنتُ ،مَهما عَرا خطبٌ،أُفدّيكِ ،
وكيفَ أُغفي بليلٍ تَسهَرين به ، أو استسيغُ شَراباً ليس يَرويكِ ؟
هُنَيدَ ! أوجعتِ قلباً قد أقمتِ به ، ما بالُ طَرفي،وما يُدريكِ،يَبكيكِ ؟
٥ فربَّ لؤلؤِ دمعٍ كنتُ أذخَرُهُ عِلقاً ، أُغالي به ، أرخَصتُه فيكِ !
وإن نأى بكِ ربعٌ غيرُ مقتربٍ ، أَو احتواكِ حِجاب فيه يُقصيكِ ،
فإنَّ كلَّ نسيمٍ ، خاضَه أَرَجٌ ، رسولُ شوقٍ أَتى عنّي يُحيّيكِ !
وربَّما شفَعَت لي غَفوةٌ نسخَت أُخرى الظَّلامِ ،فباتَ الطَّيفُ يُدنيكِ .

تنبيه افهام الاطفال

١ نبّه وليدكَ ، مِن صِباه ، بزَجرةٍ ، فلربَّما أغفى هنـاكَ ذَكاؤه ،
وانهَرهُ ، حتى تَستهِلَّ دموعُه ، في وَجنَتَيه ، وتلتظي احشاؤه ،
فالسيفُ لا تَذكو بـكفِّكَ نارُه ، حتى يسيلَ بصَفحَتَيـه ماؤه .

١ * لا تكتم الحصباء غدرانها : اي صافية الماء .
٢ * النورية : نسبة الى النور ◎ المحيا : الوجه ◎ الحميا : الخمرة .
٣ * الريّا ، مؤنث الريّان : الممتلئ ، الاخضر الناعم من اغصان الشجر ◎ والريّا الثانية : الريح الطيّبة .

ابن سهل الاسرائيلي

١٢١١ - ١٢٥١ م

هو ابرهيم بن سهل الإسرائيلي ، شاعر اشبيلية ووشّاحها ؛ اظهر الاسلام ، ولم يكن يخلو من قدح واتهام ؛ وكان يقول ، اذا سئل عن اسلامه : للناس ما ظهر ولله ما استتر .

كان ابن سهل من الادباء الاذكياء ، وقد عرف برقّة نظمه ، قيل : سئل بعض المغاربة عن سبب ذلك فأجاب : « لانه اجتمع فيه ذلّان ذلّ العشق وذلّ اليهودية »

ومعظم شعر ابن سهل في الغزل ، ولكنه تغزّل متصنّع فيه ، حظّه من العاطفة ضئيل . وكان يكثر من المحسّنات اللفظية والمعنوية ، ويتكلّف التوجيه باصطلاح النُحاة مثل قوله :

تنأى وتدنو ، والتفاتك واحدٌ ، كالفعل يعمل ظاهرًا ومقدّرا

مات غريقًا وله من العمر اربعون سنة ، فقال فيه ، يوم غرقه ، احد اكابر زمانه : عاد الدرّ الى موطنه .

شعره

لابن سهل ديوان شعر اكثره في الغزل طبع في بيروت . وفي المكتبة الشرقية نسخة من ديوان له مطبوع على مطبعة حجرية سنة ١٢٧٩هـ (١٨٦٢) انتقى ما فيه من شعر حسن ابن محمد العطار من نسخة وجدها في افريقية.

سَل في الظلام

سَلْ في الظلامِ أخاكَ البدرَ عن سهَري، تَدري النجومُ كما تَدري الورى خَبري؛
أَبيتُ أَهتِفُ بالشَّكوى، وأَشرَبُ مِن دَمعي، وأَنشُقُ ريّاً ذِكرِكِ العَطِرِ،
حتّى يُخيَّلُ أني شاربٌ ثَمِلٌ، بينَ الرِّياضِ وبينَ الكاسِ والوَترِ.
مَن لي به اختلفَت فيه المَلاحةُ، إذ أَومَت إلى غيرِهِ، إيماءَ مُختصِرِ،
مُعطَّلٌ فالحُلى منه مُحَلّأَةٌ، تَغنَى الدَّراري عن التَّقليدِ بالدُّرَرِ، [1]
بخدِّهِ لفُؤادي نِسبةٌ عَجَباً، كِلاهما ابدًا يَدمَى من النَّظَرِ،
وخالُه نُقطةٌ من غَنجِ مُقلتِه، أَتى بها الحُسنُ من آياتِه الكُبَرِ،
جاءت من العَينِ نحو الخدِّ زائرةً، وراقَها الوردُ فاستغنت عن الصَّدَرِ؛
بعضُ المحاسنِ يَهوَى بعضَها طرَباً، تأمَّلُوا كيفَ هامَ الغُنجُ بالحَوَرِ!

توبة

أسعِدِ الوجدَ بدَمعٍ وكَفا؛ لا تقلْ للدمعِ حسبي وكفَى! [2]
لَستُ في دمعي غريقاً، إنّما جسَدي خَفَّ ضَنًى حتّى طَفا. [3]
جادَ غيثُ الدَّمعِ، من بَعدِكَ، في مُقلتي، رَسمَ الكَرى حتى عَفا؛
ذِكرُكِ الأعطرُ يبكيني دماً؛ رُبَّ مِسكٍ، بشَذاه، رَعفا؛ [4]
كنتُ أَشكُو في الهوى، واليومَ قد تُبتُ، يعفو اللهُ عمّا سلَفا!

١ * المعطّل: ضد المحلّى ◎ المحلّأة: المحلاة، المزينة.
٢ * وكف: سال.
٣ * طفا: عام.
٤ * رعف الدم: سال.

شمس كالكأس

أنظُر إلى لون الأَصيلِ ، كأنَّه ، لا شَكَّ ، لونُ مودِّعٍ لفِراقِ ،
والشَّمسُ تنظرُ نحوَهُ مُصفرَّةً ، قد خَمَّشَت خَدًّا من الإشفاقِ ،
لاقَت بحُمرتهـا الخليجَ ، فألَّفَا خجَلَ الصِّبـا ومَدامعَ العُشَّاقِ ،
سقطَت ، أوانَ غروبها ، مُحمَرَّةً ، كالكأسِ خرَّت من أنامل ساقِ .

حث الكؤوس

حُثَّ الكؤوسَ ، ولا تُطعِ من لاما ، فالمُزنُ قد سقَت الرِّياضَ رِهاماً ! [1]
رَقَّ الغَمامُ لما بها ، إذ أمحَلَت ، فغـدا يُريقُ لها الدُّموعَ سِجاما ،
والبَرقُ سيفٌ ، والسَّحابُ كتائبُ تُبدي ، لوقعِ عِذارهِ ، إحجاما ،
والدَّوحُ ميَّالُ الغصونِ ، كأنَّما شَرِبَ النَّباتُ من الغَمامِ مُداما ،
والزَّهرُ يَرنو عن نَواظِرَ سَدَّدَت لحَظاتُهنَّ ، الى الشُّجونِ ، سِهاما .
هنَّ الكواكبُ ، غيرَ أن لم تَستطِع شمسُ النهـار لضوئها إبهاما ؛
تُثني على كرَمِ الوَليِّ بنَفحةٍ عن مِسك دَارِيٍّ تُفَضُّ خِتاما ؛ [2]
تُهدي الصِّبا ، للصَّبِ ، منها ، مثلَ ما يُهدي المُحبُّ إلى الحبيب سَلاما ؛
فكأنَّها عرَقُ الحبيبِ تَضوَّعًا ؛ وكأنها نَفسُ المحبِّ سَقـاما .

يا قاتل الله العيون

بأبي جفونُ معذّبي وجفوني ، فهي التي جلَبت اليَّ مَنوني !
ما كُنتُ أحسَبُ أن جفني ، قبلَها ، يَقتـادُني من نظرةٍ لفُتونِ ؛
يا قـاتلَ اللهُ العيونَ ، لأنَّها حكَمت علينـا بالهَوى والهُونِ !

١ * الرهام ، واحدتها الرهمة : المطر الخفيف .
٢ * الولي : مطر الربيع الذي يلي الوسمي اول مطر الربيع ◎ الداري : نسبة الى دارين، فرضة في البحرين يحمل المسك اليها من الهند فينسب اليها لانه يباع فيها ، وهو من اطيب المسك .

ولقد كتمتُ الحبَّ بين جوانحي ، حتّى تكلَّمَ في دُموعِ شُؤوني ؛
هيهاتَ لا تخفى عَلاماتُ الهوى ، كادَ المُريبُ بأَن يقولَ خُذوني !
وبمهجتي ألحاظَ ظبيةِ وجرةٍ ، حُرّاسُ مَسكَنِهـا أُسودُ عرينِ ، [١]
سَدُّوا عليَّ الطُرقَ ، خوفَ طريقهم ، فالطَّيفُ لا يَسري على تأمينِ .
أوَما كفاهم منعُهم ، حتّى رمَوا منهم مُـبرَّأةً برَجمِ ظُنونِ ؟
وتَوهَّموا أن قد تعاطَت قَهوةً ، لمـا رأوها تَنثني من لينِ ،
واستفهموها : من سقوكِ ؟ وما درَوا ما استُودِعَت من مَبسِمٍ وجُفونِ .
ومن العجائبِ أنَّهم قد عرَّضوا بي للفُتونِ ، وبعـدَه عذَلوني ؛
خَدَعوا فؤادي بالوصالِ ، وعندما شبّوا الهوى في أضلعي هجَروني ؛
لو لم يُريدوا قَتلَتي لم يُطمِعوا في القُربِ ، قلبَ مُتيَّمٍ مفتونِ .
لم يَرحمُوني حينَ حانَ فِراقُهم ، مـا ضَرَّهم لو أنَّهم رَحموني ؟
ومن العَجائِبِ أن تَعجَّبَ عاذلي من ان يَطولَ تشوُّقي ، وحَنيني !
يا عاذلي ! ذَرني وقلبي والهوى ، أأعَرتَني قلباً لحمـل شُجوني ؟
يا ظبيةً تَلوي ديوني في الهوى ، كيفَ السَّبيلُ الى اقتضاءِ ديوني ؟ [٢]
ما كان ضَرَّكِ ، ياشقيقةَ مُهجتي ، أن لو بَعثتِ تحيَّـةً تُحييني ؟!
زَكّي جمالًا أنتِ فيه غَنيّةٌ ، وتصدَّقي منـه على المِسكينِ ! [٣]
منّي عليه ، ولو بطيفٍ طارقٍ ، ما قلَّ يكثُرُ من نَوالِ ضنينِ !
ما كنتُ أحسِبُ ، قبلَ حُبّكِ ، أن أرى في غيرِ دارِ الخُلدِ حُورَ العينِ ؛
قسماً بحُسنِكِ ما بصُرتُ بمثلِه في العـالَمين ، شهادةً بيمينِ !

١ * وجرة : موضع بين مكة والبصرة .
٢ * تلوي : تماطل ، وتؤجل .
٣ * زكى ماله : ادى عنه الزكاة ، الصدقة .

هل درى ظبي الحمى

موشح

هل درى ظَبيُ الحِمى أن قد حمَى   قَلب صَبٍّ حلَّه عن مَكْنَسِ ، [١]
فهو في حَرٍّ وخَفقٍ مثلَ مـا   لَعِبت رِيحُ الصَّبـا بالقَبَسِ . [٢]

. . .

يا بُدورًا أشرقَت ، يومَ النَّوى ،   غُرَرًا تَسلُكُ بي نَهجَ الغَرَرْ . [٣]
ما لنفسي ، في الهَوى ، ذَنبٌ سِوى   منـكُمُ الحُسنُ ، ومن عيني النَّظَرْ ،
أجتني اللَّذاتِ مَكلومَ الحَشَى ،   والتَّداني من حبيـبي بالفِكَرْ ؛

. . .

كلَّما أَشكُوه وَجدي بَسَما ،   كالرُّبى بالعـارِضِ المُنبَجِسِ [٤]
إذ يُقيمُ القَطرُ فيها مَأتَمًا ،   وَهْيَ من بَهجتِها في عُرُسِ .

. . .

غالبٌ لي غَـالبٌ بالتُّؤَدهْ ،   بأبي أَفديهِ من جافٍ رقيقْ ، [٥]
مـا عَلِمنا مثلَ ثَغرٍ نَضَّدَهْ ،   أُقحُوانًا عُصِرَت منه رَحيقْ ،
أخذَت عيناه منـه العَربدَهْ ،   وفؤادي سُكرُه ما إن يُفيقْ ،

. . .

١ * المكنس : مستكن الظباء من الحر .
٢ * القبس : القبس : شعلة النار .
٣ * الغرر : التعريض للهلكة .
٤ * المنبجس ، من انبجس الماء : تفجّر .
٥ * التؤدة : الرفق ، التروّي .

فاحِمُ اللِّمَّةِ معسولُ اللَّمَى ، ساحرُ الغُنجِ شَهيُّ اللَّعَسِ ،[١]
وَجهُهُ يَتلُو الضُحى مُبتسِماً ، وَهْوَ ، من إعراضِه ، في عَبَسِ .

. . .

أيُّها السائلُ عن جُرمي لَدَيهْ ! بي جَزاءُ الذَّنبِ ، وَهْوَ المُذنِبُ ؛
أَخذَت شمسُ الضُّحَى من وَجنَتَيْهْ ، مَشرِقاً ، للشَّمسِ فيه مَغرِبُ ؛
ذَهَبَ الدَّمعُ بأشواقي إليهْ ، وله خدٌّ بلَحظي مُذهَبُ ،

. . .

يَنبُتُ الوردُ بغَرسي كلَّما لاحظَتهُ مُقلتي في الخَلَسِ ؛
ليتَ شِعري ! أيُّ شيءٍ حرَّما ذلكَ الوردَ على المُغترِسِ ؟

. . .

كلَّما أشكو إليه حُرَقي ، غادرتني مقلتاه دَنِفا ؛
تركَت ألحاظه ، من رَمقي ، أَثرَ النَّملِ على صُمِّ الصَّفا ؛
وانا اشكُرُهُ فيما بَقِي ، لستُ ألحاه على ما أتلفا ![٢]

. . .

فهو عندي عادلٌ إن ظَلَما ، وعذولي نُطقُه كالخَرَسِ ،
ليسَ لي في الأَمرِ حكمٌ ، بعدما حلَّ ، من نفسي ، محلَّ النَّفسِ .

. . .

أضرَمَ الدَّمعُ بأحشائي ضِرامْ ، تتلظَّى كلَّ حينٍ ما تَشا ،

١ • اللمى : سمرة ، او سواد في الشفة مستحسن . واللعس :

٢ • الحاه : الومه .

هي في خَدَّيه بَردٌ وسَلامْ ؛   وهيَ ضُرٌّ وحريقٌ في الحشا ؛
اتَّقي منه ، على حُكمِ الغَرامْ ،   أسدًا وَرْدًا ، وأهواه رَشا ؛

. . .

قُلتُ لمَّا أن تَبدَّى مُعلِما ،   وهو من ألحاظِه في حرَسِ ؛[1]
أَيُّها الآخذُ قلبي مَغنَما ،   إجعَلِ الوَصلَ مَكانَ الخُمُسِ ![2]

كأن العيون قلوب

أذوقُ الهوى مُرَّ المَطاعِمِ ، عَلقَما ،   وأذكُرُ من فِيهِ اللَّمى فيَطيبُ ؛
تَحِنُّ وتَصبو كلُّ عينٍ لحُسنِهِ ؛   كأَنَّ عيونَ النَّاسِ فيه قلوبُ !

١ * المعلم : الموسوم بعلامة يعرف بها .
٢ * الخمس : اراد به خمس الغنيمة وهو ما كان يؤخذ في الاسلام .

القسم الأول

الباب الثاني

النثر الأندلسي

ابن عبد ربّه

٨٦٠ - ٩٤٠

هو أبو عمر أحمد بن عبد ربّه ، وُلد في قرطبة ، ونشأ فيها وبه ميل الى الادب من نظم ونثر .

كان في شبابه مولعاً باللهو والمجون ، يكثر من الغزل ، الاباحي احياناً ، ولكنه تزهّد كبره ، فعارض قصائده الغزلية بقصائد زهدية من بحورها وقوافيها ، سُمّيت بالممحّصات .

ذكر صاحب « نفح الطيب » ما ترجم به الاديب الاندلسي لسان الدين بن الخطيب ، صاحب العقد قال : « عالم ساد بالعلم ورأس ، واقتبس من الحظوة مـا اقتبس ، وشهر بالاندلس حتى سار الى المشرق ذكره ، واستطار شرر الذكاء فكره ؛ وكانت له عناية بالعلم وثقة ، ورواية له متّسقة ؛ واما الادب فهو كان حجته ، وبه غمرت الافهام لجته . . . وله التأليف المشهور الذي سمّاه العقد وحماه من عثرات النقد ، لانه ابرزه مثقف القناة ، مرهف الشباة ، تقصر عنه ثواقب الالباب وتبصر السحر منه في كل باب . وله شعر انتهى منتهاه وتجاوز سماك الاحسان سماه . »

وقيل ان الخطيب ابا الوليد بن عيال الاندلسي لقي المتنبي في الحج ، فقال له المتنبي : انشدني لمليح الاندلس ، يعني ابن عبد ربه ، فانشده ابياتـاً منها :

يا مَن تقطّع خصره من رقة ! ما بال قلبك لا يكون رقيقا ؟

فاستعادها المتنبي ثم قال : « يا ابن عبد ربّه لقد تأتيك العراق حبواً .

كان ابن عبد ربّه من العلماء المكثرين من المحفوظات والاطلاع على اخبار الناس . وكان شاعراً اديباً بطبيعته ، ولكن علمه وعقله سيطرا على ادبه فاضعفا من قوّة خياله وفنه . فارجوزته ، في وصف وقائع عبد الرحمن الناصر صاحب قرطبة ، عبارة عن تاريخ منظوم لا ملحمة شعريـة . وهو من كبار المنشئين ، واضح الانشاء ، مرتّب الافكار ، حسن الانتقالات ، وهو اذا قصّر في الشعر فله من علمه منزلة كبيرة ينمّ بها كتابه « العقد » ، الذي نعت بالفريد لنفاسته .

ذكروا ان الصاحب بن عباد ، الاديب المشهور ، انتقد صاحب « العقد » بانه صرف همته الى ذكر الحوادث الشرقية ، ولم يلتفت الى الغرب بلاده ، فقال لما اطلع على كتابه : « هذه بضاعتنا ردّت الينا » . على ان هذا النقد لا يقدح اليوم في العقد ، فاننا نراه من اقدم المصادر للفوائد الادبية واخبار الشعراء والخلفاء والملوك وحوادثهم . وانه وان يكن فيه نقص من حيث التاريخ فان محتوياته الادبية تجعله في الدرجة الثانية بعد الأغاني .

آثاره

لابن عبد ربّه آثار شعرية ونثرية ، جمعنا منها « العقد الفريد » . وهو كناية عن مجموعة ادبية من خطب وشعر ، وفصول نثرية واقوال للحكماء والعلماء في قواعد العمران والاجتماع ؛ وفيه علم العروض وعلم الالحان والابدان ، ونتف تاريخية ، مع اخبار عرب الجاهلية وايامهم وانسابهم وحوادثهم ، واخبار الطالبيين والبرامكة ، والمتنبئين ، والمتمرّدين والنساء وغيرها . استند في تأليفه الى ما تقدّمه من الكتب الادبيـة خصوصاً « عيون الاخبار » لابن قتيبة ، وبعض مرويات الاصمعي وابي عبيدة والشيباني والجاحظ وابن الكلبي وغيرهم ، ما عدا ما اقتبسه من القرآن والحديث والتوراة والانجيل ، وما نقله عن الكتب التي ترجمت الى العربية ، في ذاك العهد ، عن اليونانية والهندية والفارسية .

قسمه بحسب المواضيع الى خمسة وعشرين كتاباً اطلق على كل منها اسم جوهرة من جواهر العقد ، وحذف الاسناد من اكثر الاخبار طلباً لخفة اللفظ والايجاز .

طُبع « العقد » مراراً في القاهرة . ونقل منه المستشرق الفرنسي تورشيل الى لغته بعض مقاطع تتعلّق باحوال العرب القدماء .

الفكاهات واللطائف

الاصبع المقطوعة

قالَ الشَّيْبانِيُّ : بلَغَني أَنَّ أعرابيَّيْنِ ظَريفَيْنِ من شَياطِينِ العَرَبِ حطَمَتْهُما سنةٌ فانحدَرا إلى العِراقِ . فبَيْنما هُما يَتماشَيانِ في السُّوقِ ، واسمُ أَحدِهِما خِنْدانُ ، اذا فارسٌ قد أوطأَ دابَّتَهُ رِجلَ خِنْدانَ فقَطَعَ إِصبعاً من أَصابعِهِ ، فتعلَّقَا بِهِ حتى أَخذا أَرْشَ الإِصبعِ[1] .

وكانا جائعَيْنِ مقرورَيْنِ ، فلَمَّا صارَ المالُ بأيديهِما قَصَدا الى بَعضِ الكرابيجِ[2] فابْتاعا منَ الطَّعامِ ما اشتَهَيا ؛ فلمَّا شَبعَ صاحبُ خِنْدانَ أَنشأَ يَقولُ :

فلا غرثٌ ، ما دامَ في النّاسِ كُرْبَجٌ وما بقيَتْ ، في رِجلِ خِنْدانَ ، إِصْبعُ

السفَط المقفَل

أُتِيَ الحَجّاجُ بسفَطٍ قد أُصيبَ في بعضِ خزائنِ كِسْرى مُقفَلٍ ؛ فأَمَرَ بالقُفْلِ فكُسِرَ فاذا فيهِ سَفَطٌ آخَرُ مُقْفَلٌ . فقالَ الحَجّاجُ : مَنْ يَشتري مِنّي هذا السَّفطَ بِما فيهِ ؟

فتزايدَ فيهِ أَصحابُهُ حتى بلغَ خمسةَ آلافِ دينارٍ ، فأَخذَهُ الحجّاجُ ونَظَرَ فيهِ فقالَ : ما عسى أن يَكونَ فيهِ إِلّا حماقَةً مِن حماقاتِ العَجَمِ . ثُمَّ أَنفَذَ البَيعَ وعزَمَ على المُشتري أَنْ يَفتَحَهُ ويُرِيَهُ ما فيهِ ففتحه بين يديهِ فاذا فيهِ رُقعَةٌ مَكتوبٌ فيها : مَنْ أَرادَ أَن تَطُولَ لحيَتُهُ فَليُمَشِّطها مِن أَسفلَ .

١ * ارش الاصبع : الارش شرعاً بدل ما دون النفس من الاطراف .

٢ * الكرابيج ، واحدها كربج : الحانوت ، فارسية معرّبة .

ابو دلامة في بيت الدجاج

كانَ المهديُّ قد كسا أبا دُلامةَ ساجاً[١] فأُخذَ بهِ وهُوَ سَكرانُ ، فأُتيَ بهِ إلى المهدِيّ . فأمرَ بتمزيقِ السَّاجِ عليْهِ وأنْ يُحبَسَ في بَيْتِ الدَّجاجِ .

فلمَّا كانَ في بعضِ اللَّيلِ ، وصحا ابو دُلامَةَ من سُكرهِ . ورأى نفسَهُ بينَ الدَّجاجِ صاحَ : يا صاحِبَ البَيتِ !

فاستَجابَ لهُ السَّجّانُ وقالَ : ما لكَ يا عدُوَّ اللهِ ؟

قالَ : وَيْلكَ مَن أدخلَني معَ الدَّجاجِ ؟

قال : أعمالُك الخبيثةُ ؛ أُتيَ بكِ أميرُ المؤمنينَ وأنت سَكرانُ ، فأمرَ بتَمْزيق ساجِكَ وَحبسكَ معَ الدَّجاجِ .

قالَ لهُ : وَيْلَكَ ارْقُبْ لي سِراجاً وجِئني بدَواةٍ ووَرَقٍ . فكتَبَ أبو دَلامةَ الى المهدِيِّ :

أَميرَ المُؤْمنينَ فَدَتْكَ نفسي ، عَلامَ حَبَسْتَني وخَرَقتَ ساجي ؟
أُقادُ إلى السُّجونِ ، بغيرِ ذنبٍ ، كأنّي بعضُ عُمَّالِ الخَراجِ ،
ولو معَهُمْ حُبِسْتُ ، لهانَ ذاكُمْ ، ولكنّي حُبستُ مَعَ الدَّجاجِ ،
دجاجاتٌ ، يُطيفُ بِهِنَّ ديكٌ ، يُنادي بالصِّياحِ ، اذا يُناجي ،
وقد كانت تُخبِّرُني ذُنوبي بأَنّي ، مِنْ عذابِكَ ، غيرُ ناجي ،
على أنّي ، وإن لاقيتُ شرًّا ، لخيرِكَ ، بعدَ ذاكَ الشَّرِّ ، راجي .

ثمَّ قالَ أوْصِلها الى أميرِ المؤمنينَ ، فأوصلَها اليهِ السَّجّانُ . فلمَّا قرأَها أمرَ باطلاقهِ وأدخلَهُ عليهِ فقالَ لهُ : أينَ بتَّ اللَّيلةَ أبا دُلامةَ .

قالَ : في بَيتِ الدَّجاجِ ، يا أميرَ المؤمنينَ .

قالَ : فما كنتَ تصنعُ ؟

قالَ : كنتُ أُقوْقي معهُنَّ حتى أصبحتُ .

فضَحِكَ المهدِيُّ وأمرَ لهُ بصِلَةٍ جَزيلةٍ وخلَعَ عليهِ كُسوَةً شريفةً .

١ * الساج : الطيلسان الاسود او الاخضر .

اي الاثنين أَغلب الادب أم الطبع

قيلَ إنَّ مَلِكاً مِن مُلوكِ فارسَ كانَ لهُ وَزيرٌ حازمٌ مُجرَّبٌ . فكانَ يَصدُرُ عن رأيِهِ ويَتعرَّفُ اليُمنَ في مَشورَتهِ . ثُمَّ إنَّهُ هلَكَ ذلكَ الملكُ وقامَ بَعدَهُ ولدُهُ ، فأُعجِبَ بنفسهِ مُستبدًّا برأيِهِ ومَشُورَتِهِ . فقيلَ لهُ : إنَّ أباكَ كانَ لا يَقطَعُ أَمرًا دونَهُ .

فقالَ : كانَ يَغلَطُ فيهِ وسأَمتَحِنُهُ بنفسي .

فأَرسلَ إليهِ فقالَ لهُ : أَيُّهما أَغلَبُ على الرَّجلِ الأَدبُ أَو الطَّبيعَةُ .

فقالَ لهُ الوزيرُ : الطَّبيعةُ أغلبُ لأَنَّهـا أَصلٌ والأَدبُ فَرعٌ ، وكلُّ فَرعٍ يَرجِعُ إلى أَصلهِ .

فدَعا بِسُفرَتِهِ[١] فلمَّا وُضِعَتْ أَقبلَتْ سَنانيرُ بأَيديها الشَّمعُ ، فوقَفَتْ حَولَ السُّفرَةِ . فقالَ الوزيرِ : اَعتَبِرْ خطأَكَ وضَعْفَ مَذهبكَ ! متى كانَ أبو هذهِ السَّنانيرِ شَمَّاعاً ؟

فسكتَ عنهُ الوزيرُ وقالَ : أَمهِلْني في الجوابِ الى اللَّيلَةِ المُقبلَةِ .

فقالَ : ذاكَ لكَ .

فخرَجَ الوَزيرِ فدَعا بغُلامٍ لهُ فقَالَ : اَلتَمِسْ لي فَأرًا واربطْهُ في خيطٍ وجِئني بهِ .

فأَتاهُ بهِ الغُلامُ فعقَدَهُ في سَبَنِيَّتهِ[٢] وطرَحهُ في كُمِّهِ ، ثمَّ راحَ مِنَ الغَدِ إلى المَلِكِ . فلمَّا حضَرَت سُفرَتُهُ أَقبلَتِ السَّنانيرُ بالشَّمعِ حتى حفَّتْ بهـا فحَلَّ الوزيرُ الفأرَ مِن سَبَنِيَّتهِ ثمَّ أَلقاهُ اليها ، فاستبَقَتِ السَّنانيرُ إليهِ ، ورَمَتْ بالشَّمعِ حتَّى كادَ البيتُ يَضطَرِمُ نارًا . فقالَ الوَزيرُ : كيفَ رأَيتَ غَلَبـةَ الطَّبعِ على الأَدبِ ورُجوعَ الفَرعِ إلى أَصلهِ .

قالَ : صدَقتَ ؛ ورَجَعَ إلى ما كانَ أَبوهُ عليهِ معـهُ . فإنَّما مَدارُ كلِّ شيءٍ على طبعِهِ والتَّكلُّفُ مذمومٌ من كلِّ وَجهٍ .

١ * السفرة : يريد المائدة . والسفرة في الاصل طعام المسافر . ويراد به ايضاً جلد يبسط تحت الخوان .

٢ * سبنيته : يريد طيلسانهُ والسبنيَّة ثوب من الحرير او ازار اسود للمرأة نسبة الى سبن قرية في جوار بغداد .

الحكايات والنوادر

ملك الروم وحاتم الطائي

من أَعجبِ ما حُكيَ عن حاتمٍ الطّائيِّ هو أَنَّ أَحدَ قياصرةِ الرُّوم بلَغَتهُ اخبارُ حاتمٍ فأَستغربَ ذلكَ ؛ وكان قد بلَغَهُ أَنَّ لحاتمٍ فرساً من كرامِ الخيلِ عَزيزَةً عندَهُ ، فأَرسلَ إِليهِ بعضَ حُجّابه يطلبُ منهُ الفرَسَ هديَّةً إِليهِ ، وهُو يريدُ أَن يَمتحِنَ سماحَتَه بذلكَ ، فلمّا دخلَ الحاجبُ ديارَ طيِّء سأَلَ عن أَبياتِ حاتمٍ حتى دخلَ عليهِ ، فاستقبَلَهُ ورحَّبَ بهِ ، وهو لا يعلمُ أَنَّه حاجبُ الملكِ .

وكانت المواشي حِينئذٍ في المراعي ، فلم يَجدْ إِليها سبيلًا لِقِرَى ضيفهِ ، فنحرَ الفرَسَ وأَضرمَ النّارَ . ثم دخلَ الى ضَيفِهِ يُحادِثهُ فأَعلمهُ أَنّه رسولُ قيصرَ ، وقد حضَرَ يستميحُهُ الفرَسَ . فساءَ ذلك حاتماً وقالَ : هلّا أَعلمْتَني قبلَ الآنِ ، فإِنّي قدْ نحرْتُها لك ، إِذ لم أَجدْ جَزُوراً غيرَها بينَ يَدَيَّ .

فعجبَ الرَّسولُ مِنْ سَخائهِ وقالَ : واللهِ لقد رَأَينا منكَ اكثرَ ممّا سَمعنا .

المرأة المتظلمة وابن المأمون

حدَّثَ الشَّيبانيُّ قالَ : جلسَ المأْمونُ يوماً لِلمَظالمِ ، فكانَ آخرَ من تقدَّمَ إِليهِ ، وقد همَّ بالقيامِ ، امرأَةٌ عليها هَيئةُ السَّفرِ ، وَعليها ثيابٌ رثَّةٌ . فوَقفتْ بينَ يَديهِ فقالتِ : السَّلامُ عليكَ ، يا أَميرَ المؤْمنينَ ، ورحمةُ اللهِ وبركاتُه .

فَنظرَ المأْمونُ الى يَحيي بنِ أَكثمَ فقال لها يَحيي : وَعليكِ السَّلامُ ، يا أَمَةَ اللهِ ، تكلَّمي في حاجَتِكِ . فقالت :

يا خيرَ مُنتصفٍ يُهدَى لهُ الرَّشَدُ ؛ ويا إِماماً بهِ قد أَشرَقَ البَلَدُ ،

تَشكو إليكَ، عَميدَ القومِ، أرملةٌ، عدَا عليها، فلمْ يُترَكْ لها سبدُ،[١]
وأبتزَّ مِني ضِياعي، بعدَ مَنعتِها ظُلماً، وفُرِّقَ مني الأهلُ والْوَلدُ!

فأَطرقَ المأمونُ حيناً ثم رفعَ رأسهُ اليها وهو يقولُ:

في دُونِ ما قُلتِ زالَ الصَّبرُ والجَلَدُ عني، وقُرِّحَ مِنِّي القلبُ والكَبِدُ،[٢]
هذا أذانُ صلاةِ العصرِ، فانصَرِفي وأَحضِري الخصمَ في اليومِ الذي أَعِدُ؛
فالمجلِسُ السَّبتُ،ان يُقضَ الجُلوسُ لنا نُنصِفْكِ مِنهُ، وَإلّا المَجلسُ الأَحدُ.[٣]

فلمّا كانَ اليومُ الأَحدُ، جلسَ، فكانَ أَوَّلَ مَنْ تقدَّمَ إِليهِ تلكَ المرأَةُ. فقالتْ: ٱلسَّلامُ عليكَ يا أَميرَ المُؤمنينَ، ورحمةُ اللهِ وَبركاتُهُ.

فقالَ: وعليكِ ٱلسَّلامُ اينَ الخَصمُ؟

فقالتِ: ٱلواقفُ على رَأسكَ يا أميرَ المُؤمنينَ. وَأَومأَتْ الى العَبَّاس ابنهِ

فقالَ: يا أَحمدُ بن أَبي خالدٍ خُذ بيدِهِ فأَجلسهُ معها مَجلِسَ الخُصوم.

فجعلَ كلامُها يَعلو كلامَ العبّاسِ؛ فقالَ لها أَحمدُ بنُ أَبي خالدٍ: يا أَمةَ اللهِ! إِنَّكِ بينَ يدَيْ أَميرِ المُؤمنينَ، وإنَّكِ تُكلّمينَ الأَميرَ فاخفِضي من صَوتِكِ!

فقالَ المأمونُ: دَعْها يا أَحمدُ فانَّ الحقَّ أَنطقَها وأَخرسهُ.

ثم قضى لها بردِّ ضيعتِها إِليها، وظلَمَ العبّاسَ بظُلمهِ لهـا. وأَمرَ بٱلكتابِ لها إِلى العاملِ ببلَدِها أَن يُوغِرَ[٤] لها ضَيعتَها ويُحسنَ مُعاونَتها وأَمرَ لها بنَفَقةٍ.

ملك الفرس وصاحب المطبخ

كان ملكٌ من مُلوكِ الفرسِ عَظيمَ المملَكةِ شَديدَ النِّقمةِ، وكانَ لهُ صاحبُ مَطبخٍ؛ فلمَّا قرَّبَ إِليهِ طَعامَهُ، في بعضِ الأَيَّامِ، سقطتْ نُقطةٌ

١ * لم يترك لها سبد: اي لم يبقَ لها شيء من المال. والسبد الشعر القليل. ويقال: ما له سبد ولا لبد اي لا قليل ولا كثير واللبد هو الصوف.

٢ * اي ازال صبري وجلدي ما هو دون شكواك

٣ * اي ان تيسر لنا الجلوس.

٤ * يُوغِر لها ضيعتها: اي يجعلها لها من غير خراج. يقال اوغر الملك والرجل الارض اي اعفاها من الضريبة او هي ان يؤدّي الخراج الى السلطان الاكبر فرارًا من العمّال. ويسمى ضمان الخراج ايغارًا.

مِن الطَّعامِ على يَدَيهِ ، فزَوَى لها الملكُ وجهَهُ وعَلِمَ صاحِبُ المَطبخِ أَنَّـهُ قاتِلهُ ، فـكَفأَ[١] الصَّحفةَ على رأْسهِ . فقال الملكُ : عليَّ بهِ .

فلمَّا أَتاهُ قالَ لهُ : قد علمْتُ أَنَّ سُقوطَ النُّقطةِ أَخطأَتْ بها يَدُكَ ؛ فما عذرُكَ في الثَّانية ؟

قالَ : استَحْييتُ المَلِكِ أَن يقتلَ مِثلي ، في سنّي وقديمِ حُرمَتي ، في نُقطةٍ . فأَردتُ أَنْ أُعظِمَ ذنبي ليحسُنَ بهِ قتلي ، ولِئلَّا ينسُبَكَ النَّاسُ إِلى الظُّلم والجورِ .

فقالَ لهُ الملكُ : انَّ لطفَ الِاعتذَارِ يُنجيكَ من القتلِ ، فأَنتَ حرٌّ لوَجهِ اللهِ .

الحجَّاج والاعرابيّ

خرَجَ الحجَّاجُ ، ذاتَ يومٍ ، فأَصحرَ[٢] وحضرَ غداؤُهُ . فقالَ : اطلُبوا مَن يَتغدَّى معنا ! فطلبوا فلم يَجدوا إِلَّا أعرابيًّا في شَملَةٍ[٣] فأَتوهُ بهِ . قالَ لهُ : هلمَّ :

قالَ لهُ : قد دَعاني مَن هوَ أَكرَمُ منكَ فأَجبتُهُ :

قالَ : ومَن هوَ .

قالَ : اللهُ تبارَكَ وتَعالى دَعاني إِلى الصِّيامِ فأَنا صائِمٌ .

قالَ : صومٌ في مثلِ هذا اليومِ على حرٍّ ؟

قالَ : صمتُ ليومٍ هو أَحرُّ منهُ[٤] .

قالَ : فأَفطِرِ اليومَ وتصومُ غدًا

قالَ : أَوَيضمنُ ليَ الأَميرُ أَن أَعيشَ إِلى غدٍ ؟

قالَ : ليسَ ذلكَ إِليَّ .

١ * كفأَ الصحفة : كبها والصحفة الصحن الكبير .

٢ * أَصحر : دخل الصحراء .

٣ * شملة : نوع من الاكسية تشبه العباءة قيل لها شملة لان صاحبها يشتمل بها اي يديرها حواليه .

٤ * اي للنجاة من يوم هو احرّ منه يريد النجاة من النار .

قالَ : فكيفَ تسألُني عاجِلًا بآجلٍ ليسَ لي إليه سبيل .

قالَ : إنّهُ طعامٌ طَيِّبٌ .

قالَ : واللهِ ما طَيِّبهُ خبّازُكَ ولا طبّاخُكَ ولكن طيّبتهُ العافِيةُ .

قالَ الحجّاجُ : تاللهِ : ما رأيتُ كاليوم .

ابن كلدة عند كسرى[1]

وفدَ ابنُ كلدةَ الثّقفيُّ على كسرى ، فانْتَصبَ بينَ يديه . فقالَ لهُ كسرى : مَن أنتَ ؟

قالَ : أنا الحارثُ بنُ كلَدَة .

قال : أعربيٌّ أنت ؟

قال : نعم ومن صَميمها .

قال : فما صناعَتُك .

قالَ : طبيبٌ .

قالَ : وما تَصنعُ العرَبُ بالطَّبيبِ مع جَهلِها وضُعفِ عُقولها وقِلّةِ قَبُولها وسوءِ غِذائها .

فقالَ ذلكَ أجدرُ أيُّها الملكُ ، اذا كانت بهذِهِ الصِّفةِ ، أَن تَحتاجَ إلى ما يُصلحُ جهلهَا ويُقيمُ عِوَجها . ويَسوسُ أبدانَها . ويُعدِّلُ أسنادَها[2] .

قالَ الملكُ : كيفَ لها بأن تَعرفَ ما تَعهدُهُ عَليها ، لو عَرفتِ الحقَّ لم تُنسبْ الى الجَهلِ .

قالَ الحارثُ : ايُّها الملكُ إنَّ اللهَ جلَّ اسمُهُ قسَّمَ العقولَ بينَ العبادِ كما قسَّمَ الأرْزاقَ وأخذَ القومُ نصيبَهم ، ففيهمْ ما في النّاسِ من جاهِلٍ وعالِمٍ وعاجِزٍ وحازمٍ .

١ * ابن كلدة : هو الحارث بن كلدة الثقفي كان احد امراء قومه في الجاهلية وكان طبيباً حاذقاً يجول في احياء العرب ويسوس ابدانها اسلم وتوفي في ايام عمر بن الخطاب .

٢ * يعدل اسنادها : يقوم ما تستند اليه . والاسناد جمع سنَد وهو الركن الذي يعتمد عليه .

قالَ الملكُ : فما الّذي تجدُ في أخلاقِهم . وتحفظُ من مَذاهِبِهم .

قالَ الحارثُ : لهم أنفسٌ سخيَّةٌ ، وقُلوبٌ جَرِّيَةٌ ، وعُقولٌ صَحيَّةٌ مَرضيَّةٌ ، وأَحسابٌ نقيةٌ ، فيمرُقُ الكلامُ من أفواهِهم مُروقَ السَّهمِ من الوتَرِ ، ألينَ من الماءِ ، وأَعذَبَ من الهواءِ . يُطعمونَ الطَّعامَ ، ويَضرِبُونَ الهامَ ، وعِزُّهمْ لا يُرامُ ، وجارُهم لا يُضامُ ، ولا يُروَّعُ إذا نامَ . لا يُقرُّون بفضلِ أَحدٍ من الأَقوامِ ، ما خَلا الهُمامَ الذي لا يُقاسُ به أحدٌ من الأَنامِ .

قالَ كسرى : للهِ درُّك من عَربيٍّ ! لقد أصبتَ عِلماً وخُصصتَ به من بين الحُمْق فِطنةً وفَهماً . ثمَّ امرَ بإعطائهِ وَصِلَتهِ وقَضى حوائجَهُ .

زوال الدنيا

قالَ حكيمٌ : وجدتُ مَثلَ الدُّنيا والمَغرور بالدُّنيا المَملوءةِ آفاتٍ مَثلَ رجُلٍ أَلجأَهُ خوفٌ إلى بئرٍ تدلَّى وتعلَّقَ بغُصنَينِ نابتَينِ على شفيرِ البئرِ[١] . ووَقعت رِجلاهُ على شَيء . فمدَّهما فنظَر ، فإذا بحيَّاتٍ أربعٍ قد أَطلعنَ رُؤُوسَهنَّ من جُحورِهنَّ .

ونَظرَ إلى أَسفلِ البئر فإذا بثُعبانٍ[٢] فاغِر فاهُ نحوَهُ . فرَفعَ بصَرَهُ الى الغُصنِ الذي يَتعلَّقُ بـهِ ، فإذا في أَصلِهِ جُرَذانِ أَبيضُ وأسودُ يَقرضانِ الغُصنَ دائبينِ لا يَفتُران .

فَبينما هُو مُهتمٌّ بنفسهِ ابتغاءَ الحِيلةِ في نجاتِهِ ، اذ نَظرَ ، فإذا بجانبٍ منهُ جُحرُ نحلٍ قد وَضعنَ شَيئاً من عَسلٍ ، فتطاعَم منهُ[٣] فوجدَ حَلاوتَهُ ، فَشغَلتهُ عَن الفِكر في أَمرِهِ والتماسِ النَّجاةِ لنفسهِ ، ولم يَذكر أَنَّ رِجلَيهِ فوق أَربعِ حيَّاتٍ لا يَدري مَن تُساورهُ[٤] منهنَّ ، وأَنَّ الجُرذَينِ دائبانِ في قرض

١ * شفير البئر : حافته والشفير من كل شيء حرفه .
٢ * الثعبان : الحية الكبيرة .
٣ * تطاعم منه : ذاقه .
٤ * تساورهُ : تقحم اليه وتواثبه .

الغُصنِ الذي يَتعلَّقُ به ، وأنَّها إذا أَوقعاهُ وقع في لَهَوات التِنّين . ولم يَزلِ لاهياً غافِلًا حتى هلكَ .

قالَ الحكيمُ : فشَبَّهتُ الدُّنيا المَملوءَةَ آفاتٍ وشُرُورًا ومخاوِفَ بالبِئرِ ؛ وشَبَّهتُ الحيَّاتِ الأَربعَ[1] بالأَخلاط الأَربعِ التي في جَسدِ الإِنسان من المِرَّتين والبَلغمِ والدَّمِ ؛ وشَبَّهتُ الغصنَ الذي تعلَّقَ به بالحياةِ ؛ وشَبَّهت الجُرذَينِ الأَبيضَ والأَسودَ اللّذينِ يَقرِضانِ الغصنَ دائبَينِ لا يَفتُران باللَّيلِ والنَّهارِ وَدَوَرانِهما في إِفناءِ الأَيَّامِ والآجالِ ؛ وشَبَّهتُ الثُّعبانَ الفاغِرَ فاهُ بالموت الذي لا بُدّ منه ؛ وشَبَّهت العسلةَ التي تطاعَمها بالذي يرى الإِنسانُ وَيسمعُ ويلبسُ فيُلهيهِ ذلكَ عن عَاقِبةِ أَمرِهِ .

المناظرة

كسرى والعرب

روَى ابنُ القُطَاميِّ[2] عَنِ الكلْبي قالَ . قَدِمَ النُّعمانُ بنُ المُنذِرِ على كِسرى[3] وعندَهُ وُفودُ الرُّومِ والهندِ والصِّينِ ؛ فذَكروا مِنْ مُلوكِهم وبلادِهم ، فافتخرَ النُّعمانُ بالعرَبِ وفضَّلَهمْ على جميعِ الأُممِ ، لا يَستثني فارسَ ولا غيرَها . فقالَ كسرى وأَخذَتهُ عِزَّةُ المُلْكِ : يا نُعمانُ لقدْ فكَّرْتُ في أَمرِ العَرَبِ وغيرِهمْ مِنَ الأُممِ ، ونظرْتُ في حالِ مَنْ يَقْدَم عليَّ مِنْ وُفودِ الأُممِ ، فوَجدتَ الرُّومَ لها حظًّا في اجتماعِ أُلفَتِها[4] وعِظَم

١ * الاخلاط الاربع : ان الاقدمين من الاطباء كانوا يرتأون ان في جسم الانسان اربعة اجسام رطبة ينتج من امتزاجها عافية الانسان وهي الدم والبلغم والصفراء والسوداء وقد انكر ذلك عليهم المحدثون . والدم : مائع سيال منه احمر خالص الحمرة صافٍ يخرج من القلب بعد تصفيته ومنه ناصع ضارب الى السواد وفي الدم قِوام الحياة . والبلغم : مائع ابيض اللون مُغذٍ يسيل في عروق تسمى العروق البلغميّة ويصب في الدم بجوار القلب . والصفراء : سيَّال اصفر او ضارب الى الخضرة لزج مرّ يخرجه الطحال . والسوداء : سيَّال وهمي لا حقيقة لوجوده كان الاقدمون يزعمون انه مائع اسود غليظ حاذق يخرج من فوق الكلى . وقد يسمي الاطباء الصفراء والسوداء المرَّتين لمرارتهما .

٢ * ابن القطامي : لم يذكره النسابون . ويظهر انه من رواة القرن الثالث او الرابع بعد الهجرة .

٣ * النعمان : هو ابو قابوس الذي تنصَّر ◉ كسرى : هو كسرى الثاني ابرويز بن هرمز بن انو شروان .

٤ * يريد نظامها وسياستها . وقد حدُّوا الالفة اتفاق الاراء والمعاونة على تدبير المعاش .

سُلطانِها ، وكَثْرَةِ مَدائنِها ووَثِيقِ بُنْيانِها ، وأَنَّ لها ديناً يُبيِّنُ حلالها وحرامَها . ويَرُدُّ سَفيهَها ويُقيمُ جاهِلَها .

ورأيتُ الهِندَ نحوًا من ذلك في حِكمَتِها وطِبِّها مَعَ كَثْرَةِ أنهارِ بلادِها وثمارِها ، وعجيبِ صِناعاتِها وطِيبِ أشجارِها ، ودَقيقِ حِسابِها وكَثْرَةِ عَدَدِها .

وكذلكَ الصِّينَ في اجتماعِها وكَثْرَةِ صِناعاتِ أيديها وفُرُوسِيَّتِها وهِمَّتِها في آلةِ الحربِ وصِناعةِ الحديدِ ، وأنَّ لها مَلِكاً يَجمَعُها .

والتُّركَ والخَزَرَ[١] على ما بهم من سوءِ الحالِ في المعاشِ وقلَّةِ الرِّيفِ والثِّمارِ والحُصُونِ . وما هُوَ رأسُ عِمارةِ الدُّنيا منَ المَساكِنِ والملابِسِ ، لهم مُلوكٌ تضمُّ قواصِيَهُمْ وتُدَبِّرُ أمرَهم .

ولم أرَ للعَرَبِ شيئاً من خِصالِ الخيرِ في أمرِ دينٍ ولا دنيا ولا حَزمٍ ولا قوَّةٍ ، ومعَ أنَّ ممَّا يدلُّ على مَهانتِها وذُلِّها وصِغَرِ هِمَّتِها مَحلَّتُهم ، الَّتي هِمْ بها معَ الوُحوشِ النَّافرةِ والطَّيرِ الحائِرَةِ . يَقتُلُونَ أولادَهُم مِنَ الفاقةِ ، ويَأكلُ بعضُهُم بَعضاً منَ الحاجَةِ . قد خَرَجوا مِنْ مطاعِمِ الدُّنيا ومَلابِسها ومَشارِبِها ولهوِها ولذَّاتِها ، فأَفضلُ طعامٍ ظَفِرَ بهِ ناعِمُهُمْ لحومُ الإِبلِ ، الَّتي يَعافُها كثيرٌ من السِّباعِ لثِقَلِها وسوءِ طَعمِها وخَوفِ دائِها .

وإنْ قَرَى أحدُهُم ضيفاً عدَّها مكرُمةً . وإن أُطعِمَ أكلةً عدَّها غنيمةً . تَنطِقُ بذلكَ أشعارُهم وتفتخِرُ بذلكَ رجالُهم ؛ ما خلا هذهِ التَّنوخيَّةَ[٢] الَّتي أَسَّسَ جَدِّي اجتماعَها وشدَّ مملكتَها . ومَنَعَها من عدوِّها . فجرى لها ذلكَ إلى يومِنا هذا ، وإنَّ لَها معَ ذلكَ آثارًا ولبوساً وقُرًى وحصوناً وأُمورًا تُشبهُ بعضَ أُمورِ النَّاسِ يَعني اليمن .

١ ★ الخزر : هم فرع من شعوب سكيثيا في شرقي اوروبا ظهروا في من ظهر من البرابرة اثناء القرن الخامس للمسيح وسكنوا ضفتي نهر الأَتل Volga ولم يزالوا يتقدمون الى الغرب حتى افتتحوا في خلال المائة السابعة للمسيح روسيا الجنوبية ، وبهم سمي بحر قزبين بحر الخزر . واخذوا يحاربون مملكة الروم لمجاورتهم لها فنالوا منهم مرارًا . وكانت ام لاون الرابع ملك القسطنطينية من الخزر تزوجها قسطنطين المتذر الاسم Copronyme . وبقي ملكهم الى ظهور دولة الروس فغلبوهم وابادوهم . وكان الخزر يدينون بالنصرانية واليهودية واسلم قسم منهم .

٢ ★ يقول انه يستثني ممَّا وصف به العرب سكان اليمن وهم من تنوخ . وسبب استثنائه لتنوخ ان كسرى انو شروان امدَّ سيف بن ذي يزن فاسترجم ملك ابائه من الحبشة . فصارت وقتئذ ملوك اليمن كعمَّال لملوك فارس . فتادبو بآدابهم واستنوا بسنتهم .

ثمَّ لا أراكم تستكينونَ على ما بكم من الذِّلَّةِ والقِلّةِ والفاقةِ والبؤْس ، حتى تفتخروا وتُريدُوا أَنْ تنزلوا فوقَ مراتبِ النّاس .

قالَ النُّعمانُ : أَصلحَ اللهُ الملكَ ! حقٌّ لأُمَّةٍ ، الملكُ منها ، أَن يَسمُوَ فضلُها ويَعظُمَ خطبُها وَتعلُوَ درجتُها ، إِلّا أَنَّ عندي جواباً في كل ما نطَقَ بهِ الملكُ في غيرِ ردٍّ عليهِ ولا تكذيبٍ لهُ ، فان أَمّنني من غضبِهِ نطَقْتُ بهِ .

قالَ كسرى : قُلْ فأَنتَ آمنٌ .

قالَ النُّعمانُ : أَمّا أُمّتُكَ أَيها الملكُ فلَيْسَتْ تُنازعُ في الفضلِ لموضعِها الذي هِيَ بهِ من عُقولِها وأَحلامِها وبَسطة حُكمِها وبُحبوحةِ عِزّها ، وما أَكرمَها اللهُ بهِ من وِلَايةِ آبائكَ وَوِلايتكَ .

وأَمّا الأُممُ الّتي ذكَرْتَ فأيُّ أُمّةٍ تقرنُها بالعَربِ فَضَلَتْها .

قالَ كسرى : بماذا .

قالَ النُّعمانُ : بعزّها ومَنَعَتِها وحُسنِ وجوهِها وبَأْسِها وسَخائها وحِكمةِ أَلسِنَتِها وشِدَّةِ عُقولها وأَنفتِها وَوَفائها .

فأَمّا عزُّها ومَنعتُها فانَّها لم تزَل مُجاوِرَةً لِآبائكَ الّذين دوَّخوا البلادَ ووَطَّدوا المُلكَ وقادوا الجُندَ ، ولم يَطْمَعْ فيهم طامعٌ ولَم يَنلْهُم نائلٌ . حصونُهُم ظُهورُ خَيلِهِمْ ، ومهادُهمُ الأرض ، وسُقوفُهمُ السَّماءُ ، وجُنَّتُهمُ السُّيوفُ . وعُدَّتُهمُ الصَّبرُ . إِذْ غيرُهم مِنَ الامم إِنّما عزُّها الحِجارةُ والطِّينُ وجزائرُ البُحُورِ .

وأَمّا حُسنُ وُجوهِها وأَلوانِها ، فقَد يُعرَفُ فَضْلُهُمْ في ذلكَ على غيرِهم مِنَ الهندِ المُنحرفةِ . والصِّينِ المُنحفةِ . والتُّركِ المُشوَّهةِ . والرُّومِ المُقشَّرةِ[١] .

وأَمّا أَنسابُها وأَحسابُها فلَيست أُمّةٌ مِنَ الامم إِلّا وقد جَهلَت آباءَها وأُصولَها وكثيراً مِن أَوّلِها وآخِرها ، حتّى أَنَّ أَحدَهم يُسأَلُ عمن وراءَ أبيهِ دُنيا فلا يَنسُبُهُ ولا يعرفُهُ . وليسَ أَحدٌ منَ العَرَبِ إِلَّا يُسمّي آباءَهُ أَباً فأَباً .

١ * الهند المنحرفة : لعله اراد المنحرفة المزاج ، الكثيرة الامراض ◉ الصين المنحفة : اي المهزولة ، قال ذلك لصفرة لون اهل الصين ◉ الروم المقشرة : اي كأنَّ جلدها نزع عن وجهها دلالة على ابيضاضها المفرط .

أَحاطوا بذلكَ أَحسابَهُم ، وَحفظوا بهِ أَنسابَهُم فلا يدخلُ رَجلٌ في غيرِ قومهِ . وَلا يَنتسبُ إلى غيرِ نَسَبهِ ، ولا يدَّعي إلى غيرِ أَبيهِ .

وأَما سَخاؤُها ، فانَّ أَدناهُم رجلًا ، الذي تكونُ عندهُ البكرَةُ أوِ النَّابُ[1] . عليها بلاغُهُ في حُمولتِهِ وَشِبَعِهِ وريِّهِ . فيطرُقُهُ الطَّارِقُ الذي يكتفي بالفِلذَةِ ويجتزئُ بالشَّربَةِ ، فيعقرُها لهُ ، ويرضى أَن يخرُجَ عن دُنياهُ كلِّها . فيما يُكسبُهُ حُسنَ الأُحدوثَةِ وطيبَ الذِّكرِ .

وأَمَّا حكمةُ أَلسنتِهِم ، فانَّ اللهَ تعالى أَعطاهم في أَشعارِهِم ورَونقِ كلامهم وحسنهِ ووزنِهِ وقوافِيهِ ، معَ معرفتهم بالإِشارةِ وضربِهم الأَمثال وإبلاغهم في الصِّفاتِ ، ما ليس لشيءٍ من أَلسنةِ الأَجناسِ .

ثمَّ خيلُهُم أَفضلُ الخيلِ ، ونساؤُهم أعفُّ النِّساءِ ، ولباسُهُم أَفضلُ اللِّباسِ ومعادِنُهُم الذَّهبُ والفضَّةُ ، وحجارةُ جبالِهِم الجَزْعُ[2] ، ومطاياهُمُ التي لا يُبلغُ على مثلها سُفُنٌ ، ولا يُقطعُ بمثلها بلدٌ قَفرٌ .

وأَمَّا دينُها وشريعتُها ، فانَّهم متمسِّكونَ بهِ حتى يبلُغَ أَحدُهم من نُسكهِ بدينهِ أَنَّ لهم أَشهرًا حُرُمًا[3] وبلدًا مُحرَّمًا وبيتًا محجوجًا ينسُكونَ فيهِ مناسِكهم ، ويذبحونَ فيه ذبائِحهم ، فيلقى الرَّجلُ قاتلَ أَبيهِ أو أَخيهِ ، وهو قادرٌ على أَخذِ ثأْرهِ وإدراكِ رُغمِهِ منهُ . فيحجُزُهُ كرَمُهُ ويمنعهُ دينُهُ عن تناوُلِه بأَذًى .

وأَمَّا وفاؤُها فانَّ أَحدهُم يَلحظُ اللَّحظةَ ويومئُ الإِيماءَ فهي ولثٌ[4] وعُقدَةٌ لا يحلُّها إلَّا خُرُوجُ نفسهِ . وإنَّ أَحدَهُم ليرفعُ عودًا منَ الأَرضِ فيكونُ رَهنًا بدَينهِ فلا يَغلَقُ رَهنُهُ ولا تُخفَرُ ذِمَّتُهُ[5] وإنَّ أَحدهم ليبلُغهُ أَنَّ رجلًا استجارَ بهِ وعسى أَن يكونَ نائياً عن دارهِ فيُصابُ ، فلا يَرضى حتَّى يُفنيَ

١ * البكرة : مؤنث البكر : ولد الناقة او الفتي منها ◉ الناب : الناقة المسنة .

٢ * الجزع : الخرز اليماني .

٣ * الاشهر : الحرم اربعة هي : ذو القعدة وذو الحجة ومحرّم ورجب . كانت العرب لا تستحل فيها القتال الّا طيّئ وخثعم ◉ المناسك هي فروض الحج وتعبداته ينسكون بها لله اي يتطوّعون بقربه .

٤ * الولث : الوعد وهو اكثر استعمالًا في الوعد الضعيف . يقول انهم ينجزون وعدهم ولو كان هذا الوعد ضعيفًا غير موجب .

٥ * يرفع عودًا .. فلا يغلق رهنه ولا تخفر ذمته : اي وان رفع عودًا من الارض وجعله بمنزلة رهن فلا بد ان يفتك هذا الرهن ولا يرضى بالتكاث عهده .

تلك القبيلةَ التي أَصابتْهُ ، أَو تفنى قبيلتُهُ لما أُخفرَ[١] من جوارِهِ . وإِنَّهُ لَيلجأُ إِليهمِ المجرمُ المُحدِثُ[٢] . من غيرِ معرفةٍ ولا قرابةٍ ، فتكونُ أَنفسُهُم دونَ نفسهِ وأَموالُهم دونَ مالِهِ .

وأَمَّا قولكَ أَيُّها الملكُ : يئدونَ أَولادَهم[٣] ، فانَّما يَفعلُهُ بعضُ جَهلَتِهم بالاِناثِ أَنفَةً من العارِ .

وأَمَّا قولُكَ : إِنَّ أَفضلَ طعامِهم لُحومُ الاِبلِ على ما وَصفتَ مِنها ، فما تَركوا ما دونَها إِلَّا احتقارًا لهُ ، فعَمَدوا إِلى أَجَلِّها وأَفضَلِها . فكانَتْ مَراكبهُمْ وطعامَهُم ، معَ أَنَّها أَكثرُ البهائِمِ شُحُوماً وأَطيبُها لُحوماً ، وأَرقُّها أَلبانًا وأَقلُّها غائلةً ، وأَحلاها مُضغَةً ؛ وإِنَّهُ لا شيءَ مِنَ اللُّحمانِ يُعالجُ بما يُعالَجُ بهِ لَحمُها إِلَّا استَبانَ فَضلُها عليهِ .

وأَمَّا تَحارُبُهُم وأَكلُ بَعضِهم بعضاً وتَركُهُمُ الانقيادَ لرُجلٍ يسوسُهُم ويَجمَعُهم ، فإِنَّما يفعلُ ذلكَ مَن يفعلُهُ من الاُمم اذا آنست من نَفسِها ضُعفاً وتَخوَّفت نُهوضَ عَدوِّها إِليها بالزَّحفِ ؛ وإِنَّه إِنَّما يكونُ في المَملكةِ العَظيمَةِ أَهلُ بيتٍ واحدٍ يُعرفُ فَضلهم على سائِرِ غَيرِهم ، فَيلقونَ إِليهم أُمورَهُم ويَنقادُون لهم بأزِمَّتهم ؛ وأَمَّا العربُ فإِنَّ ذلكَ كثيرٌ فيهم ، حتى لقد حاوَلوا أَن يَكونوا مُلوكًا أَجمعينَ معَ أَنفتِهِم من أَداءِ الخَراجِ والعُشرِ والصَّبرِ على القَسرِ[٤] .

امَّا اليمنُ التي وَصفها الملكُ فلمَّا أَتى جدَّ الملكِ الذي أَتاهُ عِندَ غَلَبةِ الجيشَ لهُ على مُلكٍ مُتَّسِقٍ وأَمرٍ مُجتَمعٍ ، فأَتاهُ مسلوباً طَريدًا مُستصرخاً قد تَقاصرَ عن إِيوانِهِ ، وصَغُرَ في عَينهِ ما شُيِّدَ من بَنائِهِ . ولولا ما وَترَ[٥] بهِ مَن يَليهِ من العرَبِ لمالَ إِلى مَجالٍ ، ولَوَجدَ مَن يُجيدُ الطِّعانَ ويَغضبُ للأَحرار من غَلَبةِ العبيدِ الأَشرار .

١ * اخفر من جواره : نقض عهد جوار من استجار به .

٢ * المحدث : المرتكب الجنايات .

٣ * يئدون اولادهم : يدفنونهم احياء . كان بعض عرب الجاهلية يفعلون ذلك ببناتهم في سني الجدب او اذا خافوا العار والهوان لهنّ .

٤ * القسر : الارغام ، الظلم .

٥ * وتر به : اخذ بثأره . اي لو لم ينتصر اسيف بن ذي يزن العرب الذين

قال : فَعجِبَ كسرى لما أجابَهُ النُّعمانُ بهِ وقالَ : إنَّكَ لأَهلٌ لِموضعِكَ من الرِّئاسةِ في أَهلِ إقليمِكَ ، ولِما هو أَفضلُ . ثمَّ كساهُ من كُسوَتِه وسرَّحَهُ إلى مَوضعِهِ من الحِيرَةِ .

فلمَّا قدِمَ النُّعمانُ الحِيرةَ ، وفي نفسِهِ ما فيها مِمَّا سَمِعَ من كسرى من تَنَقُّصِ العربِ وتَهجِينِ أمرِهم ، بعثَ إلى أكثمَ بن صيفيٍّ وحاجبِ بن زُرارَةَ التَّميميَّيْنِ وإلى الحارثِ بن عبَّاد وقَيسِ بن مَسعودٍ[١] البكرِيَّينِ ، وإلى عمرو ابن مَعدي كربَ الزُّبيديِّ والحارثِ بن ظالمٍ المُرّيِّ ، فلمَّا قَدِموا عليه في الخَورْنَقِ قال لهم : قد عرَفتم هذه الأَعاجمَ وقُربَ جِوارِ العرَبِ منها ؛ وقد سَمِعتُ من كسرى مَقالاتٍ تخوَّفتُ أن يكونَ لها غورٌ[٢] او يكونَ أنَّما أَظهرَها لِأَمرٍ أرادَ أن يَتَّخِذَ بهِ العربَ خوَلًا كبعضِ طَماطِمَتِهِ[٣] في تأدِيتِهم الخَراجَ إليه ، كما يَفعلُ بمُلوكِ الأُممِ الذينَ حولَهُ .

فاقتصَّ عليهم مَقالاتِ كسرى وما ردَّ عليه . فقالوا : أيُّها الملكُ وَفَّقكَ اللهُ ما أحسنَ ما رَددتَ وأبلغَ ما أجبتَ به ! فمُرنا بأمرِكَ وادْعُنا إلى ما شئتَ قالَ : إنَّما أنا رجلٌ مِنكم وإنَّما مَلكتُ وعَزَزتُ بمَكانِكم وما يُتخوَّفُ من ناحِيتِكم .

وليسَ شيءٌ أحبَّ إليَّ مِمّا سدَّدَ اللهُ به أَمرَكم وأصلحَ به شأْنَكم وأَدامَ به عِزَّكم . والرَّأيُ أن تَسيروا بجماعَتِكم ، أيُّها الرَّهطُ ، وتَنطلِقوا إلى كسرى فإذا دَخلتم نَطقَ كلُّ رُجلٍ مِنكم بما حَضرَهُ ليعلمَ أنَّ العربَ على غيرِ ما ظنَّ أو حدَّثتهُ نفسُهُ ، ولا يَنطِقْ رجلٌ مِنكم بما يُغضِبُهُ ، فإنَّهُ ملكٌ عظيمُ السُّلطانِ كثيرُ الأعوانِ مُترَفٌ مُعجبٌ بنفسِه .

كانوا في سجون كسرى وجواره لرجم خائبًا من عند كسرى لكنه كان وجد نصرًا في غير فارس . وفي هذا اشارة الى قصة سيف بن ذي يزن فانه لما قدم على كسرى مستنصرًا متظلمًا من الجيش لم يُرد ابرويز ان يسعفه الا انه اخيرًا اخرج من السجون من كان فيها من العرب وحشدهم وارسلهم لمساعدة بن ذي يزن .

١ * قيس بن مسعود : هو قيس بن مسعود ابن قيس بن خالد الشيباني البكري ذو الجدين كان صاحب مسلحة كسرى على الطف وكان له مهارة ترعى فوق المنجشانية على ستة اميال من البصرة في مكان يعرف بروضة الخيل وهو حدٌّ بين العجم والعرب

٢ * الغور : القعر من كل شيء وفلان بعيد الغور اي حقود .

٣ * الطماطمة : واحدها طمطم : الذي في لسانه عجمة . اراد بهم الاجانب .

ولا تَنخَزِلوا[١] لهُ انْخِزالَ الخاضِعِ الذّليلِ. وَليكنْ أمرٌ بين ذَلكَ تَظْهَرُ بهِ وثاقةُ حُلومِكمُ وفضلُ مَنزِلتِكم وعظيمُ أخطارِكمْ؛ وليكن أوّلَ من يَبدأُ منكمْ بالكلامِ أكثمُ بنُ صَيْفِيٍّ لسناءِ حالِهِ. ثُمَّ تَتابعوا على الأمرِ من مَنازِلكمُ التي وضعتُكمْ بها. فإنّما دعاني الى التَّقْدمةِ إليكم عِلْمي بجميلِ كلِّ رجلٍ مِنكمْ على التَّقَدُّمِ قَبلَ صاحبِهِ. فلا يكوننَّ ذلكَ منكم فيجدُ في آدابِكم مَطعناً[٢]. فانّهُ مَلكٌ مُترَفٌ وقادرٌ مُسلَّطٌ.

ثُمَّ دعا لهم بما في خزائنهِ من طرائفِ حُللِ المُلوكِ، لكلِّ رجلٍ منهم حُلَّةً وعَمَّمهُ عِمامةً وختَّمهُ بياقوتةٍ، وأمرَ لكلِّ رَجلٍ منهم بنَجيبةٍ مُهريَّةٍ وفرسٍ نَجيبةٍ، وكتبَ معهُم كتاباً: أمّا بعدُ فإنَّ الملكَ ألقى إليَّ من أمرِ العرَبِ ما قد عَلمَ، وأجبتُهُ بما قد فَهمَ، بما أحبَبْتُ أن يكون منهُ على عِلْمٍ. ولا يَتَلَجلَجْ[٣] في نفسِهِ أنَّ أُمَّـةً من الأُممِ التي احتَجَزَت دونَهُ بمِلكتِها وحمتْ ما يَليها بفضلِ قُوَّتِها تبلُغُهَا في شيءٍ مِنَ الأمورِ التي يتعزَّزُ بها ذَوو الحَزمِ والقُوَّةِ والتَّدبيرِ والمكيدَةِ.

وقد أوفدتُ أيُّها الملكُ رَهطاً من العرَبِ لهم فَضلٌ في أحسابِهم وأنسابِهم وعقولِهم وآدابِهم، فَلْيَسْمَعِ الملكُ وَليغامِضْ[٤] عن جَفاءٍ، إن ظهرَ مِن مَنطقِهم؛ وَليُكرِمْني بإكرامِهمْ وتَعجيلِ سَراحِهمْ. وَقَدْ نَسبتُهم في أسفلِ كتابي هذا إلى عشائرِهم.

فَخرَجَ القَوْمُ في أُهبتِهم. حتّى وقَفوا ببابِ كسرى بالمدائنِ، فدَفعوا إليهِ الكتابَ. فقَرَأَهُ وأمرَ بانزالِهم إلى أن يَجلسَ لهم مجلساً يَسمَعُ منهم. فلَمّا أَنْ كانَ بعدَ ذلكَ بأَيّامٍ، أمرَ مَرازِبتَهُ[٥] وَوُجوهَ أهلِ مَملكتِهِ.

١ • تنخزلوا: اي لا يرد مقالكم تذلل. يقال: انخزل عن الكلام اي انقطع. او تكون انخزل تصحيف انخذل اي صار مخذولاً.

٢ • اي لا يسيئنكم ذلك ولا يفعل في نفوسكم كي لا يجد كسرى فيكم مطعنًا.

٣ • لا يتلجلج في نفسه: يقول لا يخالجنّ نفس كسرى انه ينال شيئًا يأنف منه اهل الحزم من امة العرب التي استقلت بملكها عن دولة فارس بل كانت عضدًا وسندًا لغيرها.

٤ • يغامض: يتساهل.

٥ • مرازبته: رؤساء الدولة، واحدها مرزبان.

فحضروا وَجلَسوا على كَراسِيَّ عن يمينِه وشمالِه . ثمَّ دعــا بهم على الوِلاءِ والمَراتِبِ التي وَصفهمُ النُّعمانُ بها في كتابهِ ، وأَقــامَ التَّرْجمانَ ليُؤَدِّيَ إليهِ كلامَهُمْ ، فأَقامَ كلٌّ منهم خُطبةً أَخذَت بمجامِعِ قَلْبِ المَلكِ ...

فلَمَّا انتَهَوْا عنِ الكلامِ ، قالَ كسرى : قــدْ فَهِمتُ ما نَطَقَتْ بِهِ خُطباؤُكمْ وتَفَنَّنَ فيــهِ متكلِّمُكم ، ولولا أَنِّي أَعلمُ أَنَّ الأَدَبَ لم يُثقِّفْ أَوَدكم[١] ولم يُحكِم أمرَكم ، وأَنَّهُ ليسَ لكم ملكٌ يَجمعُكم فتَنْطقونَ عندهُ مَنطقَ الرَّعيَّةِ الخاضعَةِ الباخِعةِ[٢] فَنطَقتم بما استولى على أَلسِنَتِكم وغَلبَ على طباعِكم . لم أُجز لكم كثيرًا ممَّا تكلَّمتُم بهِ وإني لأَكرَهُ أَنْ أَجبَهُ وُفودي أَو أُحنِقَ صُدورهم .

والذي أُحبُّ هُوَ إصلاحُ مُدَبِّرِكم وتَأَلُّفُ شواذِّكم والإِعذارُ الى اللهِ فيما بيني وبَيْنَكم .

وقَد قَبلتُ ما كان في منطقِكم من صوابٍ وَصَفَحْتُ عمَّا كان فيــهِ مِن خَلَلٍ ، فانصرفوا الى ملكِكُم فأَحسِنوا مُوازَرَتَهُ وَالتزموا طاعَتَهُ ، واردعوا سُفهاءَكم ، وأَقيموا أوَدهم ، وأَحسِنوا أدَبَهم فإنَّ في ذلكَ صلاحَ العامَّــةِ .

١ . الاود : الاعوجاج .
٢ . الباخعة : الخاضعة

ابن رشيق القيرواني

٩٩٩ ؟ - ١٠٦٤

هو ابو علي الحسن بن رشيق . قال ابن بسَّام : إنه وُلد بالمسيلةِ ونأدّب بها قليلًا ، ثم ارتحل الى القيروان ؛ وقال غيره : إنه وُلد بالمهديّة ، وكان ابوه مملوكًا روميًا من موالي الأزد ، يتعاطى صنعة الصياغة في المحمديّة ، فتعلّمها ابنه ، وقرأ الادب ، وقال الشعر ؛ ثم تاقت نفسه الى التزيّد من الادب وملاقاة اهله فرحل الى القيروان ، ودرس على ابي عبدالله القزاز النحوي القيرواني وغيره ، فتمكن منه وشهر به ، ومدح صاحب القيروان . ولم يزل فيها الى ان هجم العرب عليها وقتلوا اهلها وخرَّبوها ، فانتقل الى صقلية ، واقام بقرية صغيرة يقال لها : مازر ، الى ان مات .

كان ابن رشيق نقّادة مشهورًا ، سار في نقده على اسلوب التحليل اللفظي والمعنوي ، وهو اسلوب انفرد به في زمانه . وكان متعمّقًا في الادب وفنونه ، واسع الاطلاع على اخبار العرب وكلامهم ، وهذا ما سنّى له تصنيف كتابه « العمدة » في صناعة الشعر ونقده وعيوبه .

قال ابن خلدون : ان كتاب العمدة « هو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة واعطاها حقّها ، ولم يكتب فيها احد قبله ولا بعده مثله . »

آثاره

لابن رشيق آثار كثيرة من كتب ورسائل ، يهمّنا منها كتاب العمدة . وهو اجلّها واشهرها . قسمه صاحبه الى ابواب في فضل الشعر ، واشعار الخلفاء وفي من رفعه الشعر او وضعه ، والقدماء والمحدثين ، والتكسّب ، وانواع البيان والبديع ، وايام العرب والزجر والقيافة وغيرها .

طبع في القاهرة في جزءين سنة ١٩٠٠

في الشعر

باب في القدماء والمحدثين

كلُّ قديمٍ من الشعراء فهو محدَثٌ في زمانهِ بالإضافة الى من كان قبلَه . وكان ابو عمرو بن العَلاء يقولُ : لقد أحسنَ هذا المُولَّدُ ، حتّى هممتُ أن آمُرَ صِبيانَنا بروايتهِ ؛ يَعني بذلك شعر جريرٍ والفرزدق . فجعلَه مُولَّدًا بالإضافةِ الى شعر الجاهلية والمُخضرمين ، وكان لا يَعُدُّ الشعرَ إلا ما كان للمُتقدِّمين .

قال الأصمعيُّ : جلستُ اليه ثماني حِجَج ، فما سمِعتُهُ يحتجُّ ببيتٍ اسلاميّ .

وسُئل عن المُولَّدين فقال : ما كان من حسنٍ فقد سُبقوا اليه ، وما كان من قبيحٍ فهو من عندِهم ؛ ليسَ النَّمطُ واحدًا . ترى قِطعةَ ديباجٍ وقطعةَ مِسْحٍ وقطعةَ نَطعٍ[1] .

هذا مذهبُ ابي عمروٍ واصحابِه كالأَصمعيّ وابن الأعرابي ، اعني أن كلَّ واحد منهم يَذهبُ في اهلِ عصرِه هذا المذهبَ ، ويُقدِّمُ مَن قبلَهم . وليسَ ذلك الشيء إلا لحاجتِهم في الشعر الى الشاهدِ وقلّةِ ثِقتِهم بما يأتي به المولَّدون، ثم صارت لجاجة[2] .

فأما ابنُ قتيبةَ فقال : لم يَقصُرِ اللهُ الشعرَ والعلمَ والبلاغـةَ على زمنٍ دون زمنٍ ، ولا خصَّ قوماً دونَ قومٍ ، بل جعلَ اللهُ ذلك مشتركاً مقسوماً بين عِبادِهِ ، في كلِّ دهرٍ ، وجعلَ كلَّ قديمٍ حديثاً في عصرهِ . . .

١ * المسح : البلاس يقعد عليه ، الكساء من شعر ◉ النطع : بساط من جلد يُفرش تحت المحكوم عليه بالعذاب او بقطع الرأس .

٢ * اللجاجة : التمادي في العناد .

وممّا يؤيدُ كلامَ ابنِ قتيبة كلامُ عليٍّ ، رضي الله عنه ؛ لولا أن الكلامَ يُعادُ لنفِدَ ، فليس احدُنا احقَّ بالكلامِ من أحد ، وإنما السَّبقُ والشَّرفُ معاً في المعنى ، على شرائطَ . . . وقولُ عنترة : هل غادرَ الشعراءُ من متردَّم[١] . يدُلُّ على أنّه يعدُّ نفسَهُ مُحدَثاً ، قد أدركَ الشعرَ بعد ان فرغَ الناسُ منه ، ولم يغادروا له شيئاً ؛ وقد أتى في هذه القصيدةِ ا بما لم يَسبُقه اليه متُقدِّمٌ ، ولا نازعه اياه متأخِّر . . . وعلى هذا القياسِ يُحمَلُ قولُ ابي تمّام ، وكان إماماً في هذه الصِّناعةِ ، غيرَ مُدافع :

يقولُ من تَقرَعُ أسماعَه : كم تركَ الأوّلُ للآخِر

فنقضَ قولَهم : ما تركَ الأوّلُ للآخِرِ شيئاً . وقال في مكانٍ آخرَ فزادَه بياناً وكشفاً للمُراد :

فلو كانَ يَفنى الشِعرُ ، أفناه ما قَرَت حياضُك منه في العصورِ الذَّواهبِ ،[٢]
ولكنه صَوبُ العقولِ ، إذا انجلَت سحائبُ منه أُعقِبَت بسحائبِ .[٣]

وإنما مثَلُ القدماءِ والمُحدَثين كمَثَلِ رجلينِ ابتدأ هذا بناءً ، فاحكمه واتقنَه ، ثم أتى الآخر ، فنقَشه وزيّنه ، فالكلفةُ ظاهرةٌ على هذا ، وإن حسنَ ، والقدرةُ ظاهرةٌ على ذلك ، وان خَشُن . .

وسمعتُ القاضي ابا الفضلِ جعفرَ ابنَ احمدَ النَّحويَّ ، وقد سُئلَ عن ذي الرُّمّةِ وابي تمّامٍ ، فاجاب بجواب يقرُبُ مَعناه من هذا لم احفظه .

وقال ابو محمدٍ الحسنُ بن علي بن وكيع ، وقد ذكرَ اشعارَ المولَّدين : إنما تُروى لعذوبةِ الفاظِها ورِقّتِها وحلاوةِ معانيها وقرب مأخذِها ، ولو سلكَ المتأخرون مسلَكَ المتقدِّمين في غلَبةِ الغريب على اشعارهم ، ووصف المَهامه والقفار ، وذكرِ الوحوشِ والحشراتِ ، ما رُويت . لأَنَّ المتقدِّمين أولى بهذه

١ ـ المتردم : الموضع الذي يرقع . واراد عنترة : هل ترك لنا المتقدّمون من كلام يُلصَقُ بعضه ببعض ، ويُلفق ؟ اي قد سبقونا الى القول فلم يدعوا مقالاً لقائل .

٢ ـ قرى الماء : جمعه في الحوض .

٣ ـ الصوب : المطر .

المعاني ، ولا سيّما مع زُهدِ الناسِ في الأَدب ، في هذا العصرِ وما قاربه ، وإنّما تُكتَبُ اشعارُهم لقُربها من الأفهامِ ، وأن الخَواصّ ، في معرفتها ، كالعَوامّ . فقد صار صاحبُها بمنزلةِ صاحبِ الصَّوتِ المُطربِ يَستميلُ أُمّــةً من الناسِ الى استماعِه ، وإن جَهِل الأَلحانَ وكسرَ الأوزانَ . وقائلُ الشعر الحُوشيّ[١] بمنزلةِ المغنّي الحاذقِ بالنَّغمِ ، غيرِ المُطربِ الصَّوتِ ، يُعرِضُ عنه إلّا من عرَفَ فضلَ صنعتِه ، لم يصلُح لمجالسِ اللذّاتِ ، وانما يُجعَلُ مُعلّماً للمُطرباتِ من القَينات ، يقوّمُهنّ بحذقِه ، ويستمتعُ بحُلوقِهن ، دونَ حَلقِه ، ليَسلَمن من الخطَإِ في صِناعتِهن ، ويُطرِبن بحُسنِ أصواتِهن .

وهذا التمثيلُ الذي مثّلَه ابنُ وكيعٍ من احسنِ ما وقعَ ، إلّا انَّ أوَّله من قولِ ابي نُواسٍ :

صِفةُ الطُّلولِ بلاغةُ القِــدْمِ ، فاجعَل صِفاتِكَ لابنةِ الكَرمِ ؛
لا تُخـدَعنَّ عن التي جُعِلت سَقَمَ الصَّحيحِ ، وصِحّةَ السُّقمِ !
تَصِفُ الطلولَ على السَّماعِ بها ، أفذو العِيانِ كأَنتَ في الحُكمِ ؟
واذا وَصفتَ الشيءَ مُتَّبِعـاً ، لم تَخلُ من غلطٍ ومن وَهمِ !

ولم أرَ في هذا النوعِ أفضل من فصلٍ أتى به عبد الكريمِ بنُ ابرهيمَ ، فإنه قالَ : قد تختلِفُ المقاماتُ والأزمنةُ والبلادُ . فيحسُنُ ، في وقت ، ما لا يَحسُنُ في آخر ، ويُستحسَنُ عند اهلِ بلدٍ ، ما لا يُستحسنُ عنـد اهلِ غيرِه ، ونَجِدُ الشعراءَ الحُذّاقَ تقابلُ كلَّ زمانٍ بما استُجيدَ فيه وكثُرَ استعمالُه عند أهلِه ، بعدَ ان لا تَخرُجَ من حسنِ الاستواءِ وحـدِّ الاعتدال وجودةِ الصَنعةِ ؛ وربّما استُعمِلت في بلدٍ ألفاظٌ لا تُستعمَلُ كثيرًا في غيرِه ، كاستعمالِ اهلِ البصرةِ بعضَ كلامِ اهلِ فارسَ في اشعارِهم ونَوادرِ حكاياتِهم . قال : والذي اختارُه أنا ، على التجريدِ والتحسينِ ، الذي يختارُه علماء الناسِ بالشعرِ ، ويبقى غابرُه[٢] على الدّهرِ ، ويبعُـدُ عن الوحشيِّ المُستكرهِ ، ويَرتفِعُ عن

١ * الحوشيّ من الكلام : الوحشي الغريب . ٢ * الغابر : الماضي ، الباقي (ضدّ) .

المولَّدِ المُنتَحل ، ويَتضمَّنُ المثلَ السائرَ والتشبيه المُصيبَ ، والاستعارةَ الحسنةَ .

قال صاحبُ الكتاب: وانا أرجو أن اكونَ ، باختيارِ هذا الفصلِ واثباتِه ههنا ، داخلًا في جملةِ المميِّزين ، إن شاء اللهُ ، فليسَ من أتى بلفظٍ محصورٍ ، يَعرِفهُ طائفةٌ من الناسِ دونَ طائفةٍ ، لا يخرُجُ من بلدِه ولا يتصرَّفُ من مكانِه ، كالّذي لفظُه سائرٌ في كلِّ أرضٍ ، معروفٌ بكلِّ مكانٍ ؛ وليسَ التَّوليدُ والرِّقَّةُ ان يكونَ الكلامُ رقيقاً سفسافاً[١] ، ولا بارداً غثّاً[٢] ، كما ليستِ الجزالةُ[٣] والفصاحةُ ان يكونَ الكلامُ حوشيّاً خشناً ولا أعرابيّاً جافياً ، ولكن حالٌ بين حالين .

ولم يتقدّمِ امرؤ القيسِ والنابغةُ والاعشى الّا بحلاوةِ الكلامِ وطلاوتِه[٤] . مع البُعد من السَّخف والرَّكاكة ، على أنهم لو أغربوا لكان ذلك محمولًا عنهم . إذ هو طبعٌ من طِباعِهم ، فالمولَّدُ المحدَثُ على هذا ، اذا صحَّ ، كان لصاحبِه الفضلُ بحسن الاتّباعِ ومعرفةِ الصَّوابِ ، مع انه ارقُّ حَوكاً واحسنُ ديباجة .

بابُ الشعر والشعراء

طبقاتُ الشعراءِ اربعٌ : جاهليٌّ قديمٌ ، ومُخَضرَمٌ ، وهو الـذي ادرك الجاهلية والاسلامَ ، واسلاميٌّ ، ومُحدَثٌ ؛ ثم صار المحدَثون طبقاتٍ : أُولى وثانيةً على التدريجِ ، وهكذا في الهبوط الى وقتِنا هـذا . فليَعلَمِ المُتأخّرُ مِقدارَ ما بقيَ له من الشعرِ ، فيتصفَّحُ مِقدارَ من قبلَه لينظرَ كم بين المخضرم والجاهلي ، وبين الاسلامي والمخضرم ، وأنَّ المحدَثَ الاوّلَ ، فضلًا عمّن دونَه ، دونَهم في المنزلة ، على أنه اغمضُ مسلكاً وارقّ حاشيةً . فإذا رأى أنه ساقةُ الساقةِ[٥] ، تحفَّظَ على نفسِه ، وعلِمَ من اين يُؤتى ولم تغرُره حلاوةُ لفظِه ولا

١ ٭ السفساف من الكلام: ما لا معنى له ؛ والرديء من كل شيء .

٢ ٭ الغث : ضد السمين .

٣ ٭ الجزالة : ضد الركاكة ، اي سخافة الالفاظ والمعاني .

٤ ٭ الطلاوة : الحسن والبهجة .

٥ ٭ الساقة : مؤخرة الجيش ، وقوله ساقة الساقة : اي هو في مؤخرة المؤخرة .

رشاقةُ معناه ، ففي الجاهليةِ والاسلامِ من ذهبَ بكلِّ حلاوةٍ ورَشاقةٍ ، وسبقَ الى كلّ طلاوةٍ ولَباقة .

قال ابو الحسنِ الاخفشُ : يقالُ : ماءٌ خِضرِمٌ اذا تَناهى في الكثرةِ والسَّعَة ، فمنه سُمِّي الرجلُ الذي شهِدَ الجاهلية والإسلامَ مُخضرماً ، كأنه استولى على الأمرين .

قَال : ويُقال أُذنٌ مُخضْرَمَة إذا كانت مَقْطوعةً ، فَكأنَّــه إنقطعَ عنِ الجاهِلِيَّةِ إلى الإسلام .

وحكى ابن قُتَيبة عن عبدِ الرَّحمانِ عن عمِّه قال : أسلمَ قومٌ في الجاهليةِ على إبلٍ قطعوا آذانَها ، فسُمِّي كلُّ من أدركَ الجاهليةَ مُخضرَماً ؛ وزعمَ أنه لا يكون مخضرماً حتى يكونَ إسلامُه بعد وفاةِ النبيِّ ، صلى الله عليهِ وسلّمَ ، وقد أدركَه كبيرًا ولم يُسلم . وهذا عنــدي خطأٌ ، لان النابغة الجَعديَّ ولبيدًا قد وقعَ عليهما هذا الاسمُ .

وأنشد بعضُ العُلَماء ، ولم يَذكُرْ قائلَه :

الشعراءُ ، فاعلمنَّ ، أربَعــه : فشاعرٌ لا يُرتجى لَنفعــه ،
وشاعرٌ يُنشِدُ وسط المَجمَعَه ، وشاعرٌ آخرُ لا يُجرى معَــه ،
وشاعرٌ يقالُ : خَمرٌ في دَعَه .

وهكذا رَويتُها عن أبي محمد بن ابي سَهلٍ ، رَحِمَه الله ، وبعضُ الناسِ يَروِيها على خِلافِ ذلك .

وقد قيل : لا يَزَالُ المرءُ مَستورًا ، وفي مَندوحةٍ[1] ، ما لم يصنع شعرًا ، أو يُؤَلفْ كتاباً ، لأَن شعرَه تَرجمان عِلمِه ، وتأليفَه عُنوانُ عقلِه .

وقالَ الجاحظُ : من صنعَ شعرًا ، أو وضع كتاباً ، فقد استهدفَ[2] ، فإن احسنَ ، فقدِ استَعطفَ ، وإن أساءَ فقدا استَقذفَ[3] .

قال حسان ، وما ادراك ما هو :

١ * المندوحة : السعة والفسحة .

٢ * استهدف : كان هدفاً للنقد .

٣ * استقذف : جلب القذف ، الطعن الى نفسه .

وإنّ أشعرَ بيتٍ ، انت قـائلُه ، بيتٌ يقال ، إذا انشدتَه ، صدَقا ؛
وإنّمـا الشعرُ لُبُّ المرءِ يَعرِضُه على المجالسِ ، إن كَيساً ، وان حُمُقا .[١]

وقالوا : الشعراء اربعةٌ : شاعرٌ خِنذيذٌ ، وهو الذي يَجمعُ الى جودةِ شعرِه روايةَ الجيّدِ من شعرِ غيرِه . وسُئل رؤبةُ عن الفُحولة ، قال : هم الرواةُ ؛ وشاعرٌ مُفلِقٌ ، وهو الذي لا روايةَ له ، إلا انه مُجوِّدٌ ، كالخنذيذ ، في شعره ؛ وشاعرٌ فقط ، وهو فوق الرديءِ بِدرجةٍ ؛ وشُعرورٌ ، وهو لا شيء . . .

وإنما سُمّيَ الشاعرُ شاعرًا لأنه يَشعُرُ بما لا يشعرُ له غيرُه ، فإذا لم يكن عند الشاعر توليدُ مَعنًى ولا اختراعُه ، او استظرافُ لفظٍ وابتداعُه ، او زيادةٌ فيما اجحفَ[٢] به غيرُه من المعاني ، أو نَقَّصَ مما اطالَه سواه من الالفاظ ، أو صرفَ مَعنى الى وجهٍ عن وجهٍ آخرَ ، كان اسمُ الشاعرِ عليه مَجازًا لا حقيقةً ، ولم يكن له إلّا فضلُ الوزنِ ، وليسَ بفضلٍ عندي مع التقصير . . .

وقال بعضُهم : الشعرُ شعرانِ : جيّدٌ مُحكَّكٌ ورديءٌ مُضحِكٌ ، ولا شيءَ اثقلُ من الشعرِ الوسطِ والغناء الوسط . . .

والشعرُ مَزلّةُ العقولِ ، وذلك أن احدًا ما صنَعه قطٌ ، فكتَمه ، ولو كان رديئاً ، وإنما ذلك لسرورِه به وإكباره إياه ، وهذه زيادةٌ في فضلِ الشعرِ ، وتنبيهٌ على قدرِه وحسنِ مَوقِعِه من كلّ نفسٍ .

وقال عبد الكريم : الشعرُ اصنافٌ : فشعرٌ هو خيرٌ كلُّه ، وذلك ما كان في بابِ الزُّهدِ والمواعظِ الحسنة والمَثَلِ العائدِ على من تمثَّلَ به بالخيرِ وما اشبهَ ذلك ؛ وشعرٌ هو ظرفٌ كلُّه ، وذلك القولُ في الأوصافِ والنعوتِ والتشبيه ، وما يُفتَنُّ به من المعاني والآدابِ ؛ وشعرٌ هو شرٌّ كلُّه ، وذلك الهجاء وما تسرَّعَ به الشاعرُ الى أعراضِ الناسِ ؛ وشعرٌ يُتكسَّبُ به ، وذلك أن يُحمَلَ الى كلِّ سوقٍ ما ينفقُ فيها ، ويُخاطِبَ كلَّ إنسانٍ من حيثُ هو ، ويأتي اليه من جهةِ فهمِه . . .

١ * الكيس : الفطنة ◎ الحمق : قلة العقل ، أو فساد فيه .
٢ * اجحف به : انقصه نقصًا فاحشًا .

وسمعتُ بعضَ الحُذّاقِ يقولُ: ليسَ للجُودةِ في الشعرِ صفةٌ، إنما هو شيءٌ يقَعُ في النفسِ عندَ المميّزِ، كالفِرِندِ في السيفِ، والمَلاحةِ في الوجهِ.

باب حدّ الشعرِ وبُنيته

البُنيةُ من اربعةِ اشياءَ، وهي: اللفظُ والوزنُ والمعنى والقافية، فهذا هو حدُّ الشعرِ، لأن من الكلامِ موزوناً مُقفًّى، وليس بشعرٍ لعدمِ الصَّنعةِ والبنيةِ، كاشياءَ اتَّزنت من القُرآنِ ومن كلامِ النبيّ، صلى الله عليهِ وسلَّم، وغيرِ ذالك مما لم يُطلق عليه انه شعرٌ؛ والمُتَّزِنُ ما عُرِضَ على الوزنِ فقَبِلَه.

وقال بعضُ العلماء بهذا الشأنِ: بُني الشعرُ على اربعةِ اركانٍ وهي: المَدحُ والهجاء والنسيبُ والرثاء.

وقالوا: قواعدُ الشعرِ اربعٌ: الرَّغبةُ والرَّهبةُ والطرَبُ والغضبُ، فمع الرغبة يكون المدح والشكر؛ ومع الرهبة يكون الاعتذارُ والاستعطافُ، ومع الطربِ يكون الشوقُ ورِقّةُ النسيبِ؛ ومع الغَضبِ يكونُ الهِجاء، والتَّوعّدُ والعتاب.

وقال الرُّمّاني عليُّ بن عيسى: اكثرُ ما تجري عليه اغراض الشعرِ خمسةٌ: النّسيبُ والمدحُ والهجاء والفخرُ والوصفُ، ويدخلُ التشبيه والاستعارةُ في بابِ الوصف.

وقال عبدُ الكريم: يجمع اصنافَ الشعرِ اربعةٌ: المديحُ والهجاء والحكمةُ واللّهوُ، ثم يتفرّعُ من كلّ صِنفٍ من ذالك فنونُ، فيكون في المديحِ المَراثي والافتخارُ والشكرُ؛ ثم يكون، من الهجاء، الذَّمُّ والعِتابُ والاستبطاء؛ ومن الحكمةِ الأمثالُ والتزهيدُ والمواعظُ؛ ويكون مِن اللّهوِ الغزلُ والطربُ وصفةُ الخمرِ والمخمورِ.

وقال قومٌ: الشعرُ كلُّه مدحٌ وهجاء، فإلى المَدحِ يرجعُ الرثاء والافتخارُ والتشبيبُ وما تعلّقَ بذلك من محمودِ الوصفِ كصفاتِ الحُمولِ والآثارِ والتشبيهاتِ

الحسانِ ، وكذلك تحسين الاخلاقِ ، كالأَمثالِ والحكمِ والمَواعظِ والزُّهدِ في الدنيا ، والقناعة ؛ والهجاءُ ضِدٌّ ذلك كلّه ، غيرَ ان العتابَ حالٌ بين حالين . فهو طرَفٌ لكلٍّ واحدٍ منهما ؛ وكذلك الإغراءُ ليس بمدحٍ ولا هجاء ، لأنك لا تُغري بإنسانٍ ، فتقولُ : إنه حقيرٌ ، ولا ذليلٌ ، إلَّا كان عليك وعلى المُغرى الدَّرَكُ[1] ، ولا تقصُدُ ايضاً بمدحِه الثَّناءَ عليه ، فيكونَ ذلك على وجهِه . . .

وقال عبدُ الصَّمد بنُ المُعَذَّلِ : الشعر كلُّه في ثلاثِ لفظاتٍ ، وليس كلَّ إنسانٍ يُحسِنُ تأليفَها ، فإذا مَدَحتَ قلتَ : انتَ ؛ وإذا هجَوتَ قلتَ : استَ ؛ وإذا رثيتَ قلتَ : كنتَ . . .

وقال بعض الحُذّاقِ من المتعقّبين[2] : اشعرُ الناسِ من تخلّصَ في مدحِ امرأةٍ ورثائها .

وقال ابن المعتزّ : قيل لمعتوهٍ ما احسنُ الشعرِ ؟ قال : ما لم يَحجُبه عن القلبِ شيءٌ .

باب اللفظ والمعنى

اللّفظُ جِسمٌ وروحُه المَعنى ، وارتباطُه به كارتباطِ الروحِ بالجسمِ ، يضعُفُ بضَعفِه ويَقوى بقوّتِه ؛ فاذا سَلِمَ المعنى واختلَّ بعضُ اللفظِ كان نَقصاً للشعرِ وهُجنةً[3] عليه ، كما يعرِضُ لبعضِ الاجسامِ من العرَجِ والشَّلَلِ ، والعَوَرِ ، وما أشبه ذلك ، من غيرِ ان تذهبَ الروحُ ؛ وكذلك إن ضَعُفَ المَعنى واختلَّ بعضُه كان للَّفظِ من ذلك أوفرُ حظٍّ ، كالذي يعرِضُ للاجسامِ من المرضِ بمرَضِ الارواحِ ، ولا تجدُ معنًى يختلُّ إلا من جهةِ اللفظِ وجريِه فيه على غيرِ الواجبِ ، قِياساً على ما قدَّمتُ من أدواءِ الجسمِ والأرواحِ ؛

١ * الدرك : التبعة .
٢ * المتعقبين : المتتبعين الامور ، الباحثين
٣ * الهجنة : العيب .

فإن اختلَّ المعنى كلّه وفسَدَ بقي اللفظُ مَواتاً لا فائدة فيه ، وإن كان حسنَ الطَّلاوةِ في السَّمعِ ، كما أن الميتَ لم يَنقُص من شخصِه شيءٌ في رأي العينِ ، إلّا انه لَا يُنتَفعُ به ولا يُفيدُ فائدةً .

وكذلك إنِ اختلَّ االفظُ جُملةً وتلاشى لم يَصِحَّ له معنًى ، لأنّا لا نَجِدُ روحاً في غيرِ جسمٍ البتَّةَ .

ثم للناسِ ، فيما بعدُ ، آراءٌ ومذاهبُ ، منهم من يؤثِرُ اللَّفظَ على المعنى ويجعَلُه غايتَه ووَكدَه ، وهم فِرَقٌ ، قومٌ يذهبون الى فخامةِ الكلامِ وجزالتِه ، على مذهبِ العربِ من غيرِ تصنّعٍ ، كقولِ بشارٍ :

اذا مـا غضِبنا غضبةً مُضَريّةً ، هتَكنا حِجابَ الشمسِ ، أَوقطَرت دما ؛ [١]
إذا ما أعَرنا سيدًا ، من قبيلةٍ ، ذُرى مِنبَرٍ صلّى علينـا وسلّما .

وهذا النوعُ أدلُّ على القوّةِ ، واشبهُ بما وقعَ فيه من موقِعِ الافتخار ؛ وكذلك ما مُدِحَ به الملوكُ يجبُ ان يكونَ من هذا النَّحتِ ؛ وفرقـةٌ أصحابُ جَلَبةٍ وقعقعةٍ بلا طائلٍ معنى ، إلّا القليلَ النادرَ ، كأبي القاسم بن هانىء ومن جرى مجراه ، فإنه يقولُ أوّلَ مُذهَبتِه :

أصاخَت ، فقـالت : وقعُ اجردَ شَيظمٍ ؛
وشامَت ، فقالت : لمعُ ابيضَ مُخذَمٍ ، [١]
ومـا ذُعِرَت إلّا لجرسِ حُليِّهـا ،
ولا رمَقت إلّا بُرى في مُخَـدَّمٍ [٢]

وليسَ تحتَ هذا كلِّه إلا الفسادُ وخلافُ المرادِ ؛ والـذي يُفيدنا ان تكونَ هذه المنسوبُ بها لبِست حُليَّها فتوهَّمَته ، بعد الإصاخـةِ والرَّمقِ ، وقعَ فرسٍ ، أو لمعَ سيف ، غيرَ أنها معزوّةٌ في دارها ، أو جاهلةٌ بما حملتـه

٢ * يقول : إذا ما غضبنا غضبة شريفة فضحنا نور الشمس بلمعان سيوفنا ، الى ان تكتسي سيوفنا بالـدم ، فيذهب لمعانها ، ويعود نور الشمس الى الظهور .

١ * اصاخت : اصغت ◎ الاجرد : صفة للفـرس ◎ الشيظم : الطويل من الخيول ◎ شامت : نظرت ◎ المخذم : السيف القاطع .

٢ * الجرس : الصوت الخفيّ ◎ رمقت : لمحت ◎ البرى ، واحدتها بُرة : الحلقة ◎ المخدّم : موضع الخلخال .

مِن زينتِها ، ولم يَخفَ عنّا مرادُه أنها كانت تترقَّبُه ، فما هذا كلُّه ؟

وكانت عندَ ابي القاسم ، من طبعه ، صَنعةٌ ، فإذا اخـذَ في الحلاوةِ والرقّةِ ، وعَمل بطبعِه وعلى سجيّتِه أشبهَ الناسَ ودخـلَ في جُملةِ الفضلاء ؛ وإذا تكلّفَ الفخامةَ وسلكَ طريقَ الصَّنعةِ أضرَّ بنفسِه وأتعبَ سامع شعرِه . ويقعُ له من الكلامِ المصنوعِ والمطبوعِ ، في الاحايينِ ، اشياءُ جيّـدةٌ ، كقولِه في المطبوعِ يصفُ شجعاناً :

لا يأكُلُ السِّرحانُ شِلوَ طعينِهم مِمَّا عليه من القَنا المتكسِّرِ .

فهذا كلُّه جيّدٌ بديعٌ ؛ وقد زادَ فيهِ على قولِ البحتري :

حَمَلت حمائلُه القديمةُ بَقـلةً من عهدِ عادٍ ، غضَّةً ، لم تذبُلِ

ويُروى من عهدِ تبع ؛ ومنهم من ذهبَ الى سهولةِ اللفظِ ، فعُني بهـا واغتُفِرَ له فيها الرَّكاكةُ واللِينُ المُفرِطُ ، كأبي العَتاهِيةِ وعبّاس بن الأحنفِ ، ومن تابَعهما ، وهم يرَون الغايةَ قولَ ابي العتاهية :

يا إخوتي ! إنّ الهوى قاتلي ، فسيّروا الأَكفـانَ من عاجلِ ،
ولا تكونوا في اتباع الهوى ، فإنّني في شُغُـلٍ شاغلِ ؛
عيني ، على عُتبةَ ، مُنهلَّـةٌ بدمعِهـا المُنسكِبِ السائلِ ؛
يا من رأى قبلي قتيلًا بكى ، من شِدّةِ الوَجدِ ، على القاتلِ ؛
بسَطتُ كفّي نحوكم سائـلًا ، مـاذا تَرُدّون على السائلِ ؟
إن لم تُنيلـوه ، فقولوا له قولًا جميـلًا بدَلَ النائلِ ؛
او كنتمُ ، العامَ ، على عُسرةٍ منـه ، فمَنّوهُ الى قابلِ .

وقد ذُكِرَ أن ابا العتاهيـةِ وابا نُواسٍ والحُسينَ بنَ الضَّحّاكِ الخليعَ اجتمعوا يوماً ، فقال ابو نُواسٍ : ليُنشد كلٌّ واحدٍ منكم قصيدةً لنفسِه في مُرادِه من غيرِ مدحٍ ولا هجاء ، فأنشد ابو العتاهية هذه القصيدةَ ، فسلّما له

وامتنعا مِنَ الإنشادِ بعدَه ، وقالا له : امّا مع سُهولةِ هذه الالفاظِ ومَلاحةِ هذه القصيدةِ فلا نُنشدُ شيئاً ، وذلك في بابِه من الغزَلِ جَيِّدٌ ايضاً لا يَفضُلُه غيرُه ؛ ومنهم من يؤثِرُ المعنى على اللفظِ ، فيطلُبُ صِحّتَه ، ولا يبالي حيثُ وقَعَ من هجنةِ اللفظِ وقُبحه وخشونته كابن الرومي وابي الطيّبِ ومن شاكلهما. هؤلاء المطبوعون . فأمّا المتصنِّعون فسيرِدُ عليك ذكرهم ان شاء الله .

واكثر الناسِ على تفضيلِ اللفظِ على المعنى ، سمعتُ بعضَ الحُذّاق يقولُ: قال العلماء : اللفظُ أغلى من المعنى ثمناً واعظمُ قيمةً وأعزُّ مطلباً ، فإن المَعاني موجودةٌ في طِباعِ الناسِ ، يستوي الجاهلُ فيها والحاذقُ ، ولكنَّ العملَ على جودةِ الأَلفاظِ وحُسن السَّبكِ وصِحّةِ التأليفِ ؛ ألا ترى لو أنّ رجلًا أرادَ في المدحِ تشبيه رجلٍ لما أخطأ ان يشبّهه في الجُود بالغَيثِ والبحرِ ، وفي الإقدامِ بالأَسدِ ، وفي المَضاءِ بالسيفِ ، وفي العزمِ بالسيلِ ، وفي الحُسنِ بالشمسِ ،

فإن لم يُحسِن تركيبَ هذه المعاني في احسنِ حِلاهـا من اللفظِ الجيّدِ الجامعِ للرقّةِ والجزالةِ والعُذوبةِ والطّلاوةِ والسُّهولةِ والحَلاوةِ لم يكن للمعنى قدرٌ . . .

وبعضُهم ، واظنُّه ابنَ وَكيعٍ ، مثّلَ المعنى بالصورةِ واللفظَ بالكُسوة ، فإن لم تُقابل القَصورُ الحسناءُ بما يُشاكلُها ويليقُ بها من اللّباسِ فقـد بُخِست حَقَّها وتضاءلت في عَينِ مُبصِرِها . . .

وللشعراءِ الفاظٌ معروفةٌ . وامثلةٌ مألوفةٌ لا ينبغي للشاعرِ ان يَعدوَها ولا ان يستعملَ غيرَها ، كما أنّ الكُتّابَ اصطلحوا على الفاظٍ باعيانِها ، سَمَّوها الكِتابيةَ لا يتجاوزونها الى سِواها .

باب في المطبوع والمصنوع

ومن الشعر مطبوعٌ ومصنوعٌ : فالمطبوعُ هو الاصلُ الذي وُضع اولًا ، وعليه المَدارُ ؛ والمصنوعُ ، وإن وقعَ عليه هذا الاسم ، فليس متكلَّفاً تكلُّفَ اشعار المولّدين ، ولكن وقعَ عليه هذا الاسمُ ، الذي سمَّوه صَنعةً من غيرِ قصدٍ ولا تعمُّلٍ ، ولكن بطباعِ القومِ عَفوًا ، فاستَحسنوه ومالوا اليه بعضَ الميلِ ، بعد ان عَرفوا وجهَ اختياره على غيره . . .

واستطرفوا ما جاء من الصنعةِ نحوَ البيتِ والبيتين في القصيدةِ بين القصائدِ ، يُستَدلُّ بذلك على جُودةِ شعرِ الرجلِ وصِدقِ حِسّه وصفاء خاطرِه؛ فأمّا اذا كثُرَ ذلك فهو عيبٌ يشهدُ بخلافِ الطَّبعِ وإيثارِ الكِلفةِ ، وليس يتَّجِهُ البتَّةَ أن يتأَتّى من الشاعرِ قصيدةٌ كلُّها ، أو اكثرُها مُتصنَّعٌ من غيرِ قصدٍ ، كالذي يأتي من اشعارِ حبيبٍ والبحتريِّ وغيرِهما ، وقد كانا يطلُبانِ الصنعةَ ويُولَعانِ بها : فأما حبيبٌ فيذهبُ الى حُزونةِ اللفظِ وما يملأُ الأَسماعَ منه مع التَّصنيعِ المُحكَم طوعاً وكُرهاً ، يأتي بالأَشياءِ من بُعدٍ ، ويطلبُها بكلفةٍ، ويأخُذُها بقوّةٍ ؛ واما البحتريُّ ، فكان أملحَ صنعةً واحسنَ مَذهباً في الكلامِ ، يسلُكُ منه دماثةً وسُهولةً مع إحكامِ الصنعةِ وقربِ المأخذِ ، لا يظهرُ عليه كلفةٌ ولا مشقّةٌ .

وما اعلمُ شاعرًا اكملَ ولا اعجبَ تصنُّعاً من عبدِ الله بنِ المُعتزِّ ، فانّ صنعتَه خفيَّةٌ . لا تَكادُ تظهرُ ، في بعضِ المواضعِ ، إلَّا للبصيرِ بدقائقِ الشعرِ ، وهو عندي ألطفُ اصحابه شعرًا ، واكثرُهم بديعاً وافتناناً ، واقربُهم قَوافيَ واوزاناً ، ولا أرى ، وراءَه ، غايةً لطالبيها في هذا البابِ ، غيرَ أننا لا نجدُ المُبتدِئَ في طلبِ التَّصنيعِ ومُزاولةِ الكلامِ اكثرَ انتفاعاً منه بمطالعة شعرِ حبيبٍ ومسلم بن الوليدِ لما فيهما من الفضِيلةِ لمُبتغيها ، ولأَنهما طرَّقا ، الى

الصَّنعةِ ومَعرفتِها ، طريقاً سابلةً . وأكثرا منها في اشعارهما تكثيراً سهَّلَها عند الناسِ ، وجسَّرهم عليها ، على ان مُسلماً اسهلُ شِعراً من حبيب ، واقلُّ تكلُّفاً ، وهو اوّلُ من تكلَّفَ البديعَ من المولَّدين . وأخذَ نفسَه بالصَّنعةِ وكثَّرَ منها ، ولم يكن في الأشعار المُحدَثةِ ، قبل مسلمٍ ، صريعٍ ، الّا النُبَذُ اليسيرةُ . وهو زُهيرُ المولدين ، كان يُبطئُ في صنعتِه ويُجيدُها ...

ولسنا نَدفعُ أن البيتَ ، اذا وقعَ مصنوعاً في غايةِ الجودةِ ، ثم وقعَ بيتٌ مصنوعٌ في نهايةِ الحسنِ ، لم تُؤثِّرْ فيه الكلفةُ ولا ظهرَ عليه التعمُّلُ ، كان المصنوعُ افضَلَها ، إلا اذا توالى ذلك وكثُرَ لم يُجز البتَّةَ ان يكونَ طبعاً واتّفاقاً ، إذ ليسَ ذلك في طِباعِ البشر .

وسبيلُ الحاذقِ بهذهِ الصناعةِ ، اذا غلبَ عليه حُبُّ التصنيعِ ، ان يَترُكَ للطبعِ مجالًا يَتَّسِعُ فيه .

باب في آداب الشاعر

من حُكمِ الشاعرِ ان يكونَ حُلوَ الشَّمائلِ ، حسَنَ الأَخلاقِ ، طلقَ الوجهِ ، بعيدَ الغَورِ ، مأمونَ الجانبِ ، سهلَ الناحيةِ ، وطِيءَ الأكنافِ . فإن ذلك مِمَّا يُحبّبهُ الى الناسِ ، ويُزيّنُه في عيونِهم ، ويقرّبُه من قلوبِهم ؛ وليكُنْ مع ذلكَ شريفَ النفسِ ، لطيفَ الحِسّ ، عَزوبَ الهمَّةِ ، نظيفَ البزّةِ ، أَنِفاً ، لِتهابَه العامّةُ ويدخُلَ في جُملةِ الخاصّةِ ، فلا تمجُه أبصارُهم، سمح اليدين ...

والشاعرُ مأخوذٌ بكلّ علمٍ ، مطلوبٌ بكلّ مَكرُمةٍ لاتّساعِ الشعرِ واحتمالِه كلّما حُمِّلَ من نحوٍ ولُغَةٍ ، وفِقهٍ وحسابٍ ، وفريضةٍ ، واحتياجِ اكثرِ هذه العلومِ الى شَهادتِه ، وهو مكتفٍ بذاتِه ، مُستغنٍ عما سواه ، ولأنه قَيدُ الاخبارِ وتجديدٌ للآثارِ ...

والمتأخِرُ ، من الشعراء ، في الزمان لا يضرُّه تأَخُرُه ، إذا أجادَ ، كما لا ينفعُ المُتقدِمَ تقدُّمه ، إذا قصَّرَ ، وإن كان له فضلُ السَّبقِ فعليه دركُ التقصيرِ ، كما ان للمتأخرِ فضلَ الإِجادةِ ، أو الزيادةِ ، ولا يكون الشاعرُ حاذقاً مجوِّدًا ، حتى يتفقَّدَ شعرَه ويُعيدَ فيه نظرَهُ . فيُسقِطَ رَدِيَّه ويُثبتَ جيّدُه ، ويكونَ سمحاً بالركيكِ منه ، مطَّرِحاً له ، راغباً عنه ، فإن بيتاً جيداً يقاومُ ألفَي رديء .

ابن شرف القيرواني

٩٩٩ - ١٠٦٧

هو ابو عبدالله محمد بن شرف القيرواني ، من احد بيوتات العرب الشريفة التي قدمت افريقية مع الجيش العربي الفاتح .

ولد في القيروان ، ونشأ فيها ؛ ولما زحف عرب الصعيد الى القطر التونسي ونشروا فيه الدمار والخراب ، اخليت القيروان ، فخرج ابن شرف منها الى المهديّة . واتّصل فيها بصاحبها معزالدين بن باديس ، وبابنه تميم يخدمها ويمدحها ؛ ثم رحل الى صقلية واتّصل بأميرها ، فإلى المرية وغيرها من عواصم الاندلس يتردد على ملوك الطوائف ، حتى القى عصا التسيار في اشبيلية وحظي عند اصحابها آل عباد ، ولبث فيها الى ان ادركته الوفاة .

كانت القيروان في عهد نشأة ابن شرف كعبة العلم ، يحجّها العلماء من جميع اصقاع المغرب ؛ وكانت الحركة الفكرية الادبية في أوجها فيها ، فاحتك ابن شرف بها ، وتخرّج عليها ، فخرج شاعرًا ، اديبًا ، ونقّادة مرهف الذوق ، دقيق الاحساس بالجمال الفني ، وبمظانّ القبح والسخف ، يرسل النقدة رفيقة اللذع ، صائبة الوقع .

وكان له شعر في التشوق الى بلاده ، وشكوى الزمان ، والغزل والوصف ، رقيقًا لطيف المعاني ، والصور ، عذب الالفاظ .

آثارُه

لابن شرف آثار كثيرة شعرية ونثرية ، يهمنا منهـا « رسائل الانتقاد » وهي في كراس ، عزاها صاحبهـا الى شخص خيالي دعاه ابا الريَّان الصلت بن السكن من سلامان ، وجعلها في مقامتين : الاولى اظهر فيها حسنات الشعراء المشهورين على اختلاف ازمانهم ، ورمى بعضهم بسهام نقد ناعمة ؛ والثانية اظهر فيها سيئاتهم : تهتكهم وكذبهم وفجورهم وما استهجن من كلامهم .

وقد اكتفينا بالمقامة الاولى منها .

جمع هذه الرسائل وعلق عليها الاديب التونسي حسن حسني عبد الوهاب ، وطبعت في دمشق سنة ١٩٠٢

المقامة الاولى

قال محمد : وجاريتُ ابا الريّانِ في الشعرِ ، والشعراءِ ومنازلهم في جاهليتهم واسلامهم ، واستكشفتُه عن مذهبِه فيهم ، ومذاهب طبقتهم في قديمهم وحديثهم ؛ فقال : الشعراء اكثر من الاحصاء ، واشعارُهم ابعدُ شِقّةً من الاستقصاء . فقلت : لا أُعتِبُك[1] باكثرَ من المشهورين ، ولا أذاكِرُك الا في المذكورين

قال : امّا الضِّلّيلُ مؤسِّسُ الأَساسِ ، وبُنيانُه عليه الناسُ . كانوا يقولون : اسيلةُ الخدِّ ، حتّى قالَ : اسيلةُ مجرى الدمع[2] ؛ وكانوا يقولون : تامّةُ القامةِ وطويلةُ القَامةِ ، وجيداء ، وتامّةُ العنق ، وأشباهُ هذا ، حتى قال : بعيدة مَهوى القُرطِ[3] ؛ وكانوا يقولون في الفرسِ السابقِ : يَلحقُ الغزالَ والظّليمَ . وشبهَه ، حتى قال : قيدُ الأوابد ؛ ومثل هذا كثيرٌ . ولم يكن قبلَه من فَطَنَ لهذه الإِشاراتِ والاستعاراتِ ، فامتثلوها بعدَها . وكانت الأَشعار قبلُ سَواذجَ ، فبقيت هذه جُددًا وتلك نَواهجَ ؛ وكلُّ شعرٍ بعدُ ، ما خلاها ، فغيرُ رائقِ النَّسجِ ؛ وإن كان النهج .

وامّا طرَفةُ ، فلو طال عمرُه لطالَ شعرُه وعلا ذكرُه . ولقد خُصَّ بأوفر نصيبٍ من الشعرِ على أيسرِ نصيبٍ من العُمرِ ، فملأ أرجاءَ ذلك النصيبِ بصنوفٍ من الحكمةِ ، واوصافٍ من علوّ الهمّةِ ؛ والطَّبعُ معلِّمٌ حاذقٌ ، وجوادٌ سابق .

١ * اعتبه : ازال عتبه وارضاه ؛ وربما كانت تحريف اتعبك .

٢ * لم يرو لامرئ القيس انه قال هذا ، وانما الاخطل اول من قاله :
اسيلةُ مَجرى الدّمع ، أمّا وشاحها
فيجري ، واما الحجل منها فلا يجري

٣ * اول من قال هذا هذا عمر بن ابي ربيعة :
بعيدة مهوى القرط ، أمّا لنوفل
ابوها ، واما عبد شمس وهاشمُ

واما الشيخُ ابو عقيلٍ[١] ، فشعره يَنطِقُ بلسانِ الجَزالةِ عن جِنانِ الأَصالةِ ، فلا تسمعُ له إلّا كلاماً فصيحاً ، ومعنًى مُبيناً فصيحاً ، وإن كان شيخُ الوقارِ والشرفِ والفَخارِ لبادئاتٍ في شعرِهِ ، وهي دلائلُه قبل ان يُعلَمَ قائلُه .

واما العبسي[٢] ، فمجيدٌ في اشعاره ، ولا كمعلّقتِه ، فقد انفردَ بها انفرادَ سهيلٍ ، وغبَّرَ في وجوه الخيلِ ، وجمعَ فيها بينَ الحلاوةِ والجَزالةِ ورقّةِ الغزلِ وغِلظةِ البَسالةِ ، واطالَ واستطالَ ، وأَمِنَ السآمةَ والكَلالَ .

واما زُهيرٌ ، فأيُّ زهيرٍ ؟ بين لَهواتِ زهيرٍ حِكَمُ فارسٍ ، ومَقاماتُ الفوارسِ ، ومَواعظُ الزُّهّادِ ، ومُعتَبَراتِ العبادِ ، ومدحٌ يُكسِبُ الفَخارَ ، ويبقى بقاءَ الأَعصارِ ، ومُعاتبات مَرةً تَحسُنُ ، ومرّةً تَخشُنُ ، وتارةً تكونُ هجوًا ، وطورًا تكادُ تكونُ شكرا .

وأمّا ابن حِلّزةَ ، فسَهل الحُزونِ[٣] ، قامَ خطيباً بالموزون ، والعادةُ ان يَسهُلَ شرحُ الشعرِ بالنثرِ ، وهذا اسهلُ السهلِ بالوعرِ ، وذلك مثل قولِه :

أبرَموا أمرَهم عِشاءً ، فلمّا أصبحوا اصبحَت لهم ضَوضاءُ :
من منادٍ ومن مجيب ومن تَصهالِ خيلٍ خلالَ ذاكَ رُغاءُ[٤]

فلو اجتمعَ كلُّ خطيبٍ ناثرٍ ، من اوّلٍ وآخرٍ ، يصِفون سَفْرًا نهضوا بالأسحارِ ، وعسكرًا تنادَى بالنهوضِ الى طلبِ الثارِ ، ما زادوا على هذا ان لم يُنتِقصوا منه ، ولم يقصِّروا عنه . وسائرُ قصيدتِه في هذا السِلك شِكايةٌ ، وطِلابُ نَصَفَةٍ وعِتابٌ في عِزّةٍ وأنفةٌ ، وهو من شعراء وائلَ ، واحدُ اسنّةِ هاتيك القبائل .

واما ابن كُلثومٍ ، فصاحبُ واحدةٍ بلا زيادةٍ ، أنطقَه بها عِزُّ الظَّفرِ وهِزةٌ فيها جِنُّ الأَثرِ[٥] ، فقَعقعَت رعودُه في ارجائها ، وجَعجَعَت[٦] رَحاه في

١ * ابو عقيل : لبيد العامري احد اصحاب المعلقات

٢ * العبسي : عنترة فارس بني عبس ، واحد اصحاب المعلقات .

٣ * الحزون ، واحدها الحزن : ما غلظ وارتفع من الارض .

٤ * هذان : هذان البيتان من معلقة الحارث ابن حلزة اليشكري يصف فيهما استعداد قومه للرحيل ◎ الرغاء : صوت الجمال وضجتها .

٥ * الهزة : الارتياح ، الجن من الشباب أوّله ◎ الاثر : البطر والمرح .

٦ * جعجعت : صوّتت ◎ رحاه : طاحونه .

أثنائِها ، وجَعَلتها تَغلِبُ قِبلَتَها ، التي تصلّي اليها ، ومِلَّتَها ، التي تعتمد عليها ، فلم يتركوا إعادتَها ، ولا خلعوا عِبادتَها ، الا بعدَ قولِ القائل :

ألهى بني تَغلِبٍ ، عن كلِّ مَكرُمَةٍ قصيدةٌ قالَها عمرو بنُ كُلثومِ .

على أنها من القصائدِ المُحقَّقات ، وإحدى المُعلَّقات .

واما النابغةُ زِيادٌ[١] ، فأشعارُه الجيادُ لم تَخرُج عن نارِ جَوانِحه ، حتى تَناهى نَضجُها ، ولا قُطِعت من مِنوالِ خَواطرِه ، حتى تَكاثَف نَسجُها ؛ لم تُهلهِلها مَيعةُ الشبابِ ولا وَهاءُ الاسبابِ ولا لومُ الاكتسابِ ، فشعره وسائطُ سلوكٍ[٢] ، وتيجانُ ملوك .

واما النابغة الجَعديُّ ، فنِتيُّ الكلامِ ، شاعرُ الجاهليّة والاسلام ؛ وكان شاعرًا في الافتخارِ والثَّناء ، قصيرَ الباعِ ، لشرَفِه ، عن تَناوُلِ الهجاءِ ؛ وكان مغلوباً فيه في الجاهلية ، وطريدَ ليلى الاخيلية .

واما العُشيُ[٣] ، باجمعِهم ، فكلُّهم شاعرٌ ، ولا كَميمونِ بن قيسٍ شاعرِ المدحِ والهجاءِ واليأسِ والرَّخاء ، والتصرُّفِ في الفنونِ والسَعيِ في السُّهولِ والحُزونِ . نَفَّقَ مدحُه بناتِ المُحلّقِ[٤] ، وكان في فقرِ ابن المُذلِق ، وابكى هجوُه عَلقمةَ[٥] كما تبكي الأمة .

واما حَسّانُ[٦] ، فقد اجتثَّ[٧] بواكرَ غسّان ؛ ثم جاءَ الاسلامُ وانكشف الإظلامُ ، فجاحَشَ[٨] عن الدينِ ، وناضلَ عن خاتمِ النبيّين ، فشعر وزاد ، وحسن وأجاد ، إلا ان الفضلَ في ذلك لربِّ العالمين. وتسديد الروح الأمين[٩] .

١ * النابغة الذبياني .

٢ * الوسائط ، واحدتها واسطة : الجوهرة الكبيرة تكون في وسط العقد ◎ السلوك ، واحدها سلك : خيط العقد .

٣ * العشي : جمع اعشى ، وهو لقب كثير من الشعراء .

٤ * المحلق : الكلابي ، وكان له ثماني بنات ، فقرى الاعشى فمدحه ، فاقبل الخطاب على بناته فزوجهنّ كلهنّ .

٥ * علقمة : هو علقمة بن علاثة هجاه الاعشى ميمون دفاعاً عن عامر ابن الطفيل .

٦ * حسان : هو حسان بن ثابت الانصاري .

٧ * اجتث : استأصل ◎ بواكر ، واحدتها باكورة : اول ما يدرك من الفاكهة .

٨ * جاحش : دافع .

٩ * الروح الامين : جبريل .

وأمّا دُرَيد بنُ الصِمّةِ ، فصِمّةُ صَمَم[1] ، وشاعرُ جُشَم ، وغَزلٌ هَرِم ، واوّلُ من تغزَّلَ في رثاء ، وهزَلَ في حُزنٍ وبُكاء ، فقال في مَعبَدٍ اخيه قصيدَته المشهورةَ يَرثيه :

أَرَثَّ جدِيدُ الحبلِ من أمِّ معبدِ ؟

وهي من شاجياتِ النَّوائحِ ، وباقيات المَدائحِ .

واماّ الرّاعي عُبيد ، فجُبِل على وصفِ الأبِل ، فَصارَ بالراعي يُعرف ، ونسِيَ ما له من الشرف .

واماّ زيد الخيلِ ، فخطيبُ سَجاعة ، وفارس شَجاعة ، مشغولٌ بذلك عمّا سِواه من المسالك .

واما عامرُ بن الطُّفَيل ، فشاعرُهم في الفَخار ، وفي حماية الجار ، واوصفهم لكريمة ، وأبعثَهم لحميد شيمة .

واما ابن مُقبلٍ ، فقديمٌ شعرُه ، وصليبٌ نجرُه ، ومُغلًى مدحُه ، ومُعلًى قِدْحُه .

واماّ جرولٌ[2] فحيثٌ هِجاؤه ، شريفٌ ثناؤه ، صحيحٌ بناؤه ، رُفِعَ شعرُه من الثَّرى وحُطَّ من الثُّريّا ، وأعادَ بلطافةِ فِكرهِ ومَتانةِ شعرهِ قبيحَ الالقابِ فخرًا يبقى على الأحقاب ، ويُتوارثُ في الاعقاب[3] .

واماّ ابو ذُؤَيب[4] ، فشديدُ أسرِ الشعر حكيمُه ، شغله فيه التجريبُ حديثُه وقديمُه ، وله المَرثيةُ النقِيَّةُ السَّبكِ ، المتينةُ الحَبكِ ، بكى فيها بنيه السبعةَ ووصف الحمار فطوَّلَ ، وهي التي اوّلها : أمِنَ المَنونِ وريبها تتفجّعُ ؟[5]

واما الاخطل ، فسَعدٌ من سُعودِ بني مروانَ ، صفَت لهم مرآةُ فِكرِه ، وظَفِروا بالبديع من شعره ، وكان باقِعةَ من حاجاه[6] ، وصاعقةَ من هاجاه

واما الدارِمي هُمام[7] ، فجوهرُ كلامِه واغراضُ سهامِه اذا افتخرَ بمُلكِ

١ * الصمة : النوع من صمّ ◉ الصمم : فقدان حاسة السمع .

٢ * جرول : الحطيئة .

٣ * اشارة الى مدحه بني انف الناقة بقوله :
قوم هم الانف، والاذناب غيرهم،
ومن يساوي بأنف الناقة الذنبا

٤ * ابو ذؤيب الهزلي من شعراء المراثي .

٥ * الشطر الثاني : والدهر ليس بمُعتبٍ من يجزع .

٦ * باقعة : داهية ◉ حاجاه : غالبه في الحجى ، العقل والفطنة .

٧ * الدرامي همام : الفرزدق .

ابن حنظلةَ وبدارم في شرَفِ المنزِلةِ ؛ واطولُ ما يكون مدًى اذا تطاولَ اختيارَ جريرٍ عليه بقليلِه على كثيرِه ، وبصغيرِه على كبيرِه ، فإنه يصادمُه حينئذٍ ببحرٍ مادٍّ[1] ويقاومُه بسيفٍ حادٍّ .

واما ابن الخَطَفى[2] فزُهدٌ في غزَل ، وحجرٌ في جدَل ، يسبحُ أوَّلًا في ماء عَذبٍ ، ويَطمحُ آخرًا في صخرٍ صُلبٍ ؛ كلبُ مُنابحةٍ . وكُبشُ مُناطحةٍ ، لا تفُلُّ غَربَ لسانِه مُطاولةُ الكِفاحِ ، ولا تُدمي هامتَه مُداومةُ النِّطاحِ ؛ جارى السَّوابقَ بمطِيَّه ، وفاخرَ غالب بعطِيّه[3] ؛ وبلّغَته بلاغتُه الى المُساواةِ ، وحملَته جُرأتُه على المُجاراة ؛ والناسُ فيهما فريقانِ ، وبينهما عندَ قومٍ فرقانٍ .

واما القَيسانِ[4] وطبقتُهما ، فطَبَقَةُ عَشَقةٍ تَوَقةٍ ، قد استحوذتِ الصَّبابةُ على افكارِهم ، واستفرغت دواعي الحبِ معاني اشعارِهم ، فكلُّهم مشغولٌ بهواه ، لا يَتعدّاه الى سواه .

واما كثيّر[5] ، فحسَنُ النسيب فصيحُه ، لطيفُ العِتابِ مليحُه ، شجيُّ الاغترابِ قريحُه ، جامعٌ إلى ذلك رَقائقَ الظُّرَفاء ، وجزالةَ مدحِ الخُلفاءِ .

واما الكُميتُ والرّماح ، ونُصيبٌ والطِّرِمّاح[6] ، فشعراءُ مُعاصرة ، ومناقضات ومفاخرة . فنُصيبُ امدحُ القومِ ، والطِّرِماحُ اهجاهم ، والرَّمّاحُ أنسبُهم ، والكميتُ أشبَّهم تشبيباً .

واما بشّارُ بن بُردٍ ، فأوّلُ المحدَثين ، وآخِرُ المُخضرمين ، وممن لحِقَ بالدَّولتين ؛ عاشق سَمع ، وشاعر جمع ؛ شعرُه ينفُقُ عند ربّاتِ الحِجال ، وعندَ فحولِ الرّجال ، فهو يلِين حتى يَستعطِف ، ويقوى حتى يَستنكف . وقد طالَ عمرُه ، وكثُرَ شعرُه ، وطَما بحرُه ونقَبَ في البلادِ ذكرُه .

واما ابن ابي حَفصة[7] ، فمن شعراء الدولَتين ، وممن حَظِيَ بالنِعمتَين ،

١ * مادّ : اسم فاعل من مدّ ماء البحر : علا .

٢ * ابن الخطفى : جرير .

٣ * غالب : والد الفرزدق : عطية والد جرير .

٤ * القيسان : قيس بن الملوح مجنون ليلى ، وقيس بن ذريح صاحب لبنى بنت الحباب .

٥ * كثير عزة شاعر اسلامي .

٦ * الاربعة من الشعراء الاسلاميين .

٧ * هو مروان بن ابي حفصة مخضرم الدولتين الاموية والعباسية

ووَصل الى الغِنى بالصِّلتَين ، وكان دَرِبَ المِعوَلِ ، ذَرِبَ المِقوَلِ[1] ، والدَ شُعَراءَ ، ومُنجِبَ فُصَحاء .

واما ابو نُواسٍ ، فأوّلُ الناسِ في خَرمِ القياسِ[2] ، وذلك أنّه تركَ السِّيرةَ الأُولى ، ونكّبَ عن الطريقِ المُثلى ، وجعل الجِدَّ هزلا ، والصَّعبَ سهلا ؛ فهَلهلَ المُسرَّد[3] ، وبَلبلَ المُنضَّد ، وخلخلَ المُنجَّد ، وتركَ الدَّعائم ، وبنى على الطَّامي والعائم ، وصادفَ الأفهامَ قد نَكَلَت ، واسبابَ العربية قد تخلخلت وانحلّت ، والفَصاحاتِ الصحيحةَ قد سُئِمت ومُلَّت ،فمالَ الناسُ الى ما عَرَفوه ، وعلقَت نفوسُهم بما ألِفوه ، فتَهادَوا شعرَه ، وأغلَوا سِعرَه ، وشُغِفوا بأسخفِه ،وكلِفوا بأضعفِه وكان ساعدُه أقوى ، وسِراجُه أضوا ، لكنّه عرضَ الأنفق ، واهدى الأوفق ،وخالفَ فشُهِر وعرِف ،وأغربَ فذُكِرَ واستُظرِف ؛ والعَوامُّ تختارُ هذه الأعلاق ،واسواقُهم أوسعُ الاسواق. فشعرُ ابي نُواسٍ نافقٌ عند هذه الأجناس ، كاسدٌ عند أنقدِ الناسِ ؛وقد فطَنَ الى استضعافِه ، وخافَ من استخفافِه ، فاستدركَ ، بنصيحِ طَردِه ، طَرَفي حدِّ اللسان وحَدِّه[4] ؛ وهو محدودٌ في كثرةِ التظاهر ، على من غضَّ منه بالحقِّ الظاهِر ، ليس إلّا لخفّةِ روح المُجون ، وسهولةِ الكلامِ الضَّعيفِ الملحون ،على جُمهورِ العوامِّ ، لا على خَواصِّ الأنامِ .

واماَّ صريعٌ[5] ، فكلامُه مُرصَّع ، ونِظامُه مُصنَّع ، وجُملةُ شعرِه صحيحة الأُصول ، مُصنَّعةُ الفُصول ، قليلةُ الفُضول .

واما العبَّاسُ بن الاحنفِ ، فمُعتزِلٌ بهَواه ومُعتزِلٌ عما سِواه ، دفعَ نفسَه عن المدح والهِجاء ، ووضعَها بين يدَي هَواه من النساء . قد رقَّقَ كلامَه ، وثقّفَت قوةُ الطَّبعِ نِظامَه ، فلَه رِقّةُ العشّاق ، وجُودةُ الحُذّاق .

واماّ دِعبلٌ[6] فمَديدٌ مُقبلٌ ، اليومَ مَدحٌ ، وغدا قَدحٌ ، يجيدُ في الطريقتَين.

١ * ذرب المقول : فصيح اللسان .

٢ * خرم القياس : الخروج على المعروف من قياس الشعر .

٣ * هلهل المسرّد : اراد به هنا نسج الشعر . ⊙ رقق

٤ * حدّ اللسان : حدّته . وقوله: وحدّه: لعله اراد العقوبة استعارها للسان الناقد ، فكانما نقده عقوبة للشاعر .

٥ * صريع هو مسلم بن الوليد الانصاري ، سماه الرشيد بصريع لقوله :

هل العيشُ إلّا ان تروحَ مع الصِّبا ، وتغدو صريعَ الكأسِ والاعين النُّجلِ ؟

٦ * دعبل الخزاعي شاعر عباسي عرف بالهجاء .

ويُسيء في الخليقتين ؛ وله اشعارٌ في العصبيّة ، وكانَ شاعرَ عُلماءَ ، وعالِمَ شُعراء .

واما عليُّ بن الجَهمِ ، فرشيقُ الفهمِ ، راشقُ السَّهمِ ، استوصلَ[١] شعرُه الشرفاءَ ، ونادمَ الخُلفاءَ ؛ وله في الغزلِ الرُّصافيّة ، وفي العِتاب الداليّة[٢] ، ولو لم يكن له سواهما لكان اشعرَ الناس .

واما الطائيُّ حبيب ، فمُتكلِّفٌ إلا أنه يُصيب ، ومُتعبٌ لكنّه له من الراحةِ نَصيب ؛ وشغلَه المُطابقةُ والتجنيس ، حبذَّ ذلك أو بيس[٣] . جزلُ المعاني ، مَرصوصُ المَباني ، مدحُه ورثاؤه ، لا غزلُهُ وهجاؤه ، طرَفا نقيض ، وخِطَبا[٤] سماء وحضيض . وفي شعرِه علمٌ جَمٌّ من النَّسَب ، وجُملةٌ وافرةٌ من ايام العَرب ؛ وطارت له امثال ، وحُفِظت له أقوال ، وديوانُه مقروٌّ ، وشِعرهُ مَتلوٌّ .

وأما البحتريّ ، فلفظُه ماءٌ ثجّاج[٥] ، ودرٌّ رَجراج ، ومعناه سِراجٌ وهّاج ، على اهدإِ مِنهاج ؛ يسبقُه شعرُه الى ما يجيشُ به صدرُه ، يُسرُ مُراد ، ولينُ قِياد ، إن شربتَه أرواك ، وان قدحتَه أوراك . طبعٌ لا تَكلُّفَ يُعييه ، ولا العِنادُ يُثنيه ، لا يَمَلُّ كثيرُه ، ولا يُستكلَفُ غزيرُه . لم يَهفَّ ايام الحُلُم[٦] ، ولم يصِف زمنَ الهرَم .

واما ابنُ المعتزِ ، فمِلكُ النِظام ، كما هو مَلِكُ الأنام ، له التشبيهاتُ المَثليّة ، والاستعاراتُ الشَّكليَّة ، والإشاراتُ السِحريّة ، والعباراتُ المَجريّة ، والتصاريفُ الصُّنوفية ، والطرائفُ الفنونية ، والافتخاراتُ الملوكية ، والهمّاتُ العُلويّة ، والغزلُ الرائق ، والعِتابُ الشائق ، ووصفُ الحسنِ الفائق .

وخيرُ الشِعرِ اكرمُه رجالًا ، وشرُّ الشعرِ ما قال العبيد[٧]

واما ابنُ الروميّ ، فشجرةُ الاختراعِ ، وثمرةُ الابتداع ؛ وله في الهجاء

١ * استوصل : طلب الصِّلة .

٢ * اراد : اراد بالرصافية قصيدته التي مطلعها :

عيون المها بين الرصافة والجسرِ ،
جلبن الهوى من حيثُ ادري ولا ادري ،

واراد بداليته قصيدته التي مطلعها :

قالوا حُبست ، فقلت ليس بضائري
حبسي ، واي مهنّدٍ لا يُغمدُ

٣ * بيس : أوذي .

٤ * الخطب : الخطّيب من خطب المرأة ، والكلام على الاستعارة .

٥ * ثجّاج : شديد الانصباب .

٦ * يهفّ : يخفّ ◎ الحلم : سن البلوغ .

٧ * الشعر للفرزدق يهجو نصيبًا .

ما ليس له في الإطراءِ ، فتحَ فيه ابواباً ، ووصلَ منه اسباباً وخلعَ منه اثواباً ، وطوّقَ فيه رِقاباً يبقينَ اعمارًا وأحقابا ، يطولُ عليها حِسابُه ، ويُحَقُّ بها ثوابُه ، ولقد كانَ واسعَ العطَن ، لطِيفَ الفِطَن ؛ إلا انّ الغالبَ عليه ضُعف المريرَةِ ، وقوةُ المرّة[1] .

واما كُشَاجم[2] فحكيمٌ شاعر ، وكاتب مـاهر ، له في التشبيهاتِ غَرائب ، وفي التأليفاتِ عجائب ، يُجيدُ الوصفَ ويُحقِّقُه ، ويسبُكُ المعنى فيرقِّقُه .

وامـا الصَّنوبري[3] ، ففصيح الكلامِ غريبُه ، مليحُ التشبيه عجيبُه ، مستعمِلٌ لشَواذِّ القوافي ، يَغسِلُ كُدرَتها بمياهِ فَهمِه الصَّافي ، فتَجلو وتَدِقّ ، وتعذُبَ وتَرِقّ ، وهو وحيدُ جِنسِه في صِفة الأزهار ، وأنواعِ الأنوار . وكان في بعض اشعارِه يَتخالع ، وفي بعضِها يتَشاجَع ، وقد مَدحَ وهجا ، ونَثرَ وشَجا ، وأعجبَ شِعرُه وأطرَب ، وشرّقَ وغرّب ؛ ومَدحَ بشِعره اميرَ الزّاب ، جعفرَ بنَ عليٍّ مُنفِقَ سُوقِ الآداب ، فوصلَه بالفِ دينار بَعثَها إليه مع ثُقاتِ التُّجّار .

واما الخبزُ رزّي[4] ، فخليعُ الشعرِ ماجنُه ، رائقُ اللفظِ بائنُه ، كثيرةٌ مَحاسنُه ، صحيحةٌ أُصولُه ومَعادنُه ، رائقةٌ البِزّة[5] ، مائلةُ العِزّة ، تُسليه عن الحُبِّ الخِيانه ، ويروقُه الوفاء والصِّيانه . وله ، على خُشونة خَلقِه ، وصُعوبةِ خُلقِه اختراعاتٌ لطيفـه ، وابتداعاتٌ ظريفه ، في الفاظٍ كثيفه وفصولٍ قليلةِ الفُضولِ نظيفه ، حتّى انّ بعضَ شعراءِ الشامِ ، اهتدمَ اشياءَ من مَبانيه ، واهتضمَ طرَفاً من مَعانيه ، وهو من مُعاصريه ، فقلّ من فطَن لمراميه .

واما ابو فِراسِ بنِ حَمدان ، ففارسُ هـذا الميدان ، إن شِئتَ ضَرباً

١ ⁎ المريرة : العزيمة ◎ المرة : اخلاط البدن .

٢ ⁎ كشاجم : من شعراء سيف الدولة صاحب حلب .

٣ ⁎ الصنوبري : ابو بكر احمد بن مروان الضبيّ ، شاعر عباسي اشتهر بروضيّاته .

٤ ⁎ الخبز رزّي : ويقال له ايضا الخبز ارزّي ، هو ابو القاسم نصر بن ميمون الشاعر البصري .

٥ ⁎ البزة : الثوب .

وطَعنا ، او لفظاً ومَعنى ، ملك زمانا ، وملك أوانا ، وكان اشعرَ النـاسِ في المملكة ، واشعرَهم في ذُلّ المَلَكة ؛ وله الفخريّاتُ التي لا تُعـارَض ، والأَسريّاتُ[١] التي لا تناقَض .

واما المتنبي ، فقد شُغلت به الألسُن . وسَهِرت في اشعارِه العيونُ والأعين ، وكَثُرَ الناسخُ لشعرِه ، والآخذ لذكرِه والغائصُ في بحرِه والمُفتّش في قَصرِه عن جُمانِه ودُرّه . وقد طال فيه الخُلف ، وكَثُر عنه الـكَشف ؛ وله شِيعةٌ تغلو في مدحِه ، وعليه خَوارجُ تتعايا في جَرحِه ؛ والذي اقولُ : إن له حسَناتٍ وسيّئات ، وحسناتُه اكثرُ عدداً ، وأقوى مدَداً ، وغرائبُهُ طائره ، وامثالُه سائره ، وعِلمُه فسِيح ، ومَيزُه[٢] صحيح ، يروم فيقدُر ، ويَدري ما يُوردُ وما يُصدِر .

قال ابو الرَّيانِ : هذا ما عندي في شعراء المَشرِق ، وقد سمَّيتَ لي من متأخري شعراء المَغرب من لعَمري لا يبعُـدُ عن مُعاصِرِهم ، ولا يُقصِّرُ عن سابقِهم : فأمّا ابنُ عبدِ ربّه القُرطبي ، وان بعُدَت عنك ديارُه ، فقد صاقبتنا اشعارُه ، ووقفنا على اشعار صبوتِه الانيقة ، وتكفيرات توبتِه الصَّدوقــه ، ومَدائحه المَروانية ، ومَطاعِنه العَبَّاسيّة ، وهو في كل ذلك فارسٌ ممارس ، مطاعِنٌ مُداعِس ، واطّلعَنا من شعرِه على علمٍ واسع ، ومــادّةٍ فَهم مُضِيء ناصِع ، ومن تلك الجَواهرِ نظَمَ عِقدَه ، وتركَه لمن يتجمّلُ به بعدَه .

واما ابن الهاني محمد الاندلسي ، وِلّادةُ القَيروانِ[٣] وفادةً وإفادة ، فرَعديّ الـكلام ، سَرديّ النِظام ، متينُ المَباني ، غيرُ مكينِ المَعاني ، يجفو بِمَطنِها عن الأَوهام . حتى تكونَ كنُقطةِ النِظام[٤] ؛ إلا أنه اذا ظهرت مَعانيه ، في جزالةِ مبانيــه ، رمى عن مِنجَنيق ، يؤثِّرُ في النِيق ؛ وله غزلٌ قفريّ ، لا عُذري ، لا يَقنَعُ فيه بالطَّيف ، ولا يَشفَعُ فيه بغيرِ السَّيف ، وقد نوّهَ به مِلكُ الزَّاب ، وعظَّمَ شأنَه بأجزلِ الثَّواب ، وكان سيفَ دولتِه ، في إعلاءِ

١ * اراد : اراد بالاسريات الروميات ، وهي القصائد التي نظمها وهو اسير .

٢ * ميزُه : تمييزه الاشياء .

٣ * ولّادة القيروان : كذا في الاصل ، ولا ندري ماذا اراد بذلك .

٤ * كنقطة النظّام : كذا في الاصل . وربما كان في الكلام تصحيف

مَنزِلتِهِ ، من رجلٍ يستعينُ على صَلاحِ دُنياه ، بفسادِ أُخراه ، لرَداءةِ عقلِه ، ورِقّةِ دينه ، وضُعفِ يقينِهِ ؛ ولو عقَلَ لم تضِق عليه معاني الشعرِ ، حتى يستعينَ عليها بالكُفر .

واما القَسطلي[1] فشاعرٌ ماهر ، عالمٌ بما يقولُ ، تشهدُ له العقولُ بأنه المؤخَّرُ بالعَصرِ ، المُقدَّم في الشِعر ، حاذقٌ بوضعِ الكلامِ في مواضعِه ، لا سيما إذا ذَكَرَ ما اصابَه في الفِتنة ، ودَهاه في ايّام المحنة ، وبالجُملة فهو أشعرُ اهلِ مَغربِهِ ، في أبعدِ الزمانِ وأقربِه .

واما عليٌّ التُونسيّ ، فشِعرُهُ المَوردُ العَذبُ ، ولفظُه اللؤلؤُ الرَّطب ، وهو بُحتريُّ الغرب ، يصفُ الحَمامَ ، فيروقُ الأنامَ ، ويشبّبُ ، فيعشَقُ ويحبّب ، ويَمدحُ فيَمنَحُ اكثرَ مما يُمنَح .

هذا ما عندي في المتقدّمين والمتأخرين ، على احتقار المُعاصر ، واستصغارِ المُجاور ، فحاشَ لله من الأوصافِ ، بقلّةِ الأنصافِ ، للبعيدِ والقريب ، والعدوّ والحبيب .

قلت : يا أبا الريّان ؟ اكثرَ اللهُ مثلَكَ في الإخوان ، ووقاكَ محذورَ الزمان ، ومرورَ الحِدْثان ، فلقد سُبِكتَ فهما ، وحُشِيتَ علما .

١ * القسطلي : هو ابن درّاج ، تقدّمت ترجمته في باب الشعر .

أبو بكر الطُرطوشي

١٠٥٩ - ١١٢٦

هو ابو بكر محمد بن الوليد الفهري ، الفقيه المالكي ، المعروف بابن رندقة . قال ابن خلكان : « ورندقة كلمة افرنجية سألت بعض الفرنج عنها فقال : معناها «رِد تعال»

ولد ابو بكر في طُرطوشة ، وهي مدينة من شرقي الاندلس في آخر بلاد المسلمين على ساحل البحر ، ونسب اليها . قرأ الفقه والادب في سرقسطة واشبيلية على ائمتها ، ثم رحل الى المشرق ودخل بغداد واخذ عن علمائها ، وسكن الشام مدة ودرس بها .

كان إماماً عالماً زاهداً ورعاً ، متقلّلا ؛ روى له المقّري في « نفح الطيّب » بعض مقاطع شعرية في الغزل والزهد ؛ توفي في الاسكندرية ودفن فيها .

آثاره

ترك الطُرطوشي مؤلفات عديدة اشهرها « سراج الملوك » الّفه في الفسطاط للوزير المأمون بن البطائحي . وهو كتاب في السياسة والادارة ، فيه مواعظ ونصائح ، واحكام . وقد اخذنا منه بعض قطع منها ما هو حكايات ولطائف ، ومنها ما هو في الزهد .

طبع هذا الكتاب في مصر .

حكايات ولطائف

الملك وسائق الحمار

مرَّ بعضُ الملوكِ بغُلامٍ يسوقُ حِمارًا غيرَ مُنبَعِثٍ[1] وقد عَنُفَ عليه في السَّوق فقالَ : يا غُلامُ ارفُق به . فقال الغُلامُ : أيُّها الملِكُ في الرِّفق بـه مَضرَّةٌ عليه . قال : وما مَضرَّتُهُ ؟ قال : يطولُ طريقُه ويَشتدُّ جوعُه ؛ وفي العُنفِ به إحسانٌ إليه . قال : وما الإحسانُ اليه . قال : يخفُّ حِملُه ويطولُ أكلُه . قال : فأعجبَ الملِكُ بكلامه وقال له : قد أمرتُ لك بألفِ دِرهَمٍ . فقال : رِزقٌ مَقدورٌ ، وواهبٌ مأجورٌ[2] . قال : وقد أمرتُ بإثباتِ اسمِك في جيشي . فقال : كُفيتُ مؤونةً[3] . ورُزِقتُ بها مَعُونةً . قال : لولا أنَّك حديثُ السِّنِ لاستوزرتُك . قال : لن يعدَمَ الفَضلَ من رُزِقَ العَقلَ . قال : فهل تصلُحُ لذلِك ؟ قال : إنما يكونُ المدحُ والذَّمُّ بعد التَّجربةِ ، ولا يَعرِفُ الإنسانُ نفسَهُ حتى يبلُوَها . قال: فاستوزرَه فوجدَه ذا رأيٍ صائِبٍ وفَهمٍ رحِيبٍ ومَشورَةٍ تَقَعُ مواقِعَ التَّوفِيقِ .

المنصور والمُعتدى عليه

رُويَ أنَّ رجلًا من العُقلاءِ غَصبَه بعضُ الوُلاةِ ضيعةً له واعتَدى عليه ، فَذهبَ إلى المنصورِ فقالَ له : أصلَحكَ اللهُ أذكرُ لك حاجَتي أم أَضربُ لك قبلها مثلًا ؟ فقال له : بَلِ اضرِب لي قبلَها مثلًا . فقال : أصلَحكَ اللهُ

١ * غير منبعث: لا ينقاد لصاحبه والانبعاث السرعة في السير .
٢ * رزق مقدور وواهب مأجور : اي انهُ لرزق قدره لي الله وليكافي واهبه .
٣ * كفيت مؤونة: اي تعباً . والمؤونة الثقل والشدة والقوت .

إنَّ الطفلَ الصَّغيرَ إذا نابه أَمرٌ يَكرَهُه ، فإِنَّه يَفرُّ الى أُمه لنُصرته ، إذ لا يَعرفُ غيرَها ، ظنًّا منهُ أَنَّه لا ناصرَ له فَوقها ؛ فـاذا ترَعرَعَ واشتدَّ كان فرارُهُ وشكواهُ إلى أَبيه ، لِعلمه بان أَباهُ أَقوى من أُمه على نُصرته ؛ فاذا بَلغَ وصارَ رجلًا وحَزَبَهُ أمرٌ شكا إلى الوالي ، لِعلمه بأَنَّه أَقوى من أبيه ؛ فإن زادَ عَقلُه واشتدَّت شَكيمَتُه[١] شكا إلى السُّلطان لِعلمه بأنه أَقوى مِمَّن سِواهُ ؛ فإن لم يُنصِفه السُّلطانُ شَكا إلى الله تعالى لعِلمه بأَنَّه أَقوى من السُّلطان.

وقد نَزَلت بي نازلةٌ ، وليس فَوقَك أَحدٌ أَقوى منكَ إلا اللهُ تعالى ، فإن أَنصَفتني ، وإلَّا رفَعتُ أَمرها الى الله تعالى . قال : بل نُنصِفُك . وأمرَ بأَن يُكتبَ إِلى واليه بردِ ضَيعَته إِليه .

السلطان وناصر الدولة

أخبرَني أبو الفَضلِ المُعتزُّ بمصرَ قال : كان بِمصرَ مُلوكُ آلِ حَمدان[٢] . وكان الرَّئيسُ ناصرَ الدَّولةِ[٣] . وكانَ يَشكو دُمَّلَةً فأَعيا الاطباءَ ولم يَجد له شِفاءً . ثمَّ إنَّ السُّلطانَ دسَّ على قَتله فأَرصدَ له رجلًا معه خَنجرٌ ، فلمّا جاءَ في بَعضِ دهاليزِ[٤] القَصرِ وَثبَ عليه الرَّجلُ وضربَه بالخَنجَرِ ، فَجاءَتِ الضَّربةُ أَسفَلَ من خاصِرَته فأَصابَ طَرَفُ الخَنجَرِ الدُّمَّلَةَ ، فَخَرجَ ما فِيها من الخِلْطِ. ثُمَّ عافاهُ اللهُ تَعالى وصحَّ وبَرِئَ كأَحسنِ ما كانَ .

النجاة بعون الله

رُويَ أنَّ سلطانَ صِقِلِيـةَ[٥] أرقَ ذاتَ ليلةٍ ومُنعَ النَّومَ ، فَأَرسلَ إلى قائدِ البحرِ وقالَ : أنفذِ الآنَ مَركباً إلى أَفريقيَّةَ يأتوني بأَخبارِهـا . فعمَّرَ القائدُ المركبَ[٦] وأَرسلَه لحينِه .

١ * الشكيمة : قطعة الحديد المعترضة في فم الفرس . واشتدت شكيمته على المجاز اي اشتدت عزيمته اوصار ذا حدٍّ وإباء فلا ينقاد .

٢ * ملوك آل حمدان دخلوا مصر مع الخليفة المتقي سنة ٩٤٢ م

٣ * ناصر الدولة : هو الحسن بن عبدالله ابن حمدان التغلبي اخو سيف الدولة

٤ * الدهليز : هو المدخل الى الدار فارسيٌّ معرّب .

٥ * صِقليّة : جزيرة كبيرة في شمالي افريقية وجنوبي ايطاليا .

٦ * عمّر المركب : جهّزه .

فلمّا أصبحوا إذا بالمركبِ في موضعِه لم يَبرح فقال له الملكُ : أليسَ قد فعلتَ ما أَمرتُك به ؟ قال : نَعمِ امتثَلْتُ أمرَكَ وأَنفذتُ المركَبَ ورجعَ بعدَ ساعةٍ وسيُحَدِّثُك مقدَّمُ المركبِ .

فَجاءَ مُقدَّمُ المركبِ ومعهُ رجلٌ فقالَ الملكُ : ما مَنعكَ أَن تَذهبَ حَيثُ أُمِرتَ . قالَ : ذهبتُ في المركبِ فبينما أَنا في جَوفِ اللّيلِ والبحّارونَ يجذِفُونَ فإذا أَنا بصوتٍ يقولُ : يَا اللهُ يَا اللهُ يا غِياثَ المُستغيثين ، يُكرّرها مِرارًا . فلمّا استقرَّ صوتُه في أسماعنا . ناديناهُ مِرارًا : لَبّيكَ لَبّيكَ .

وتوجَّهنا نحوَ الصَّوت فألفينا هذا الرَّجلَ غريقاً في آخرِ رمَقٍ من الحياةِ . فاخرجناهُ من البَحر وسألناهُ عن حاله فقالَ : كُنّا مُقلِعينَ من أفريقيَّة فغرقَت سَفينتُنا مُنذُ أيّامٍ وما زلتُ أسبحُ حتى وجَدتُ الموتَ فلم أَشعُرْ بالغوث إلّا من ناحِيتكم .

فَسبحانَ من أَسهرَ سلطاناً وأرّق جبّارًا في قصرهِ لغريقٍ في البحر وظُلمةِ الوَحشةِ ، حتى استخرَجه من تلكَ الظُّلُماتِ الثلاث: ظلمة اللّيل وظلمة البحر وظُلمةِ الوحشَةِ . لا إِله إلّا أنتَ سُبحانَكَ يا أَرحمَ الرَّاحِمينَ .

الروم بموت احد الخلفاء

لَمّا ماتَ بَعضُ الخلفاءِ تَخشْخَشَتِ[١] الرُّومُ واحتَشدت ، واجتَمَعت مُلوكُها وقالوا : الآنَ يَستقلُّ المُسلمونَ بعضُهم ببَعضٍ ، فَتمكّننا الغِرّةُ فيهم والوَثبةُ اليهم .

وضرَبوا في ذلكَ مُشاوَراتٍ وتَراجعوا فيه بالمُناظَراتِ[٢] . وأَجمعوا على أنّه فُرصةُ الدَّهرِ . وثُغرةُ النَّحرِ[٣]

وكانَ رجلٌ منهمْ من ذوي الرَّأيِ والمعرفةِ غائباً عنهُم فقالوا : مِنَ

١ * تخشخشت الروم : لبست السلاح .
٢ * تراجعوا فيه بالمناظرات : تفاوضوا في ذلك .
٣ * ثغرة النحر : كناية عن السهولة .

الحَزمِ عرضُ الرَّأْيِ علَيهِ . فلمَّا أخبروهُ بما أَجمعوا عليه قالَ : لا أَرى ذٰلكَ صَواباً . فسأَلوهُ عن علَّةِ ذٰلكَ . فقالَ : غدًا أُخبرُكم إن شاءَ اللهُ .

فلمَّا أَصبَحوا غدَوْا عليه للوَعدِ وقالوا : لَقَد وعَدتنا . قالَ : نَعم . فأَمرَ باحضارِ كلبَينِ عَظيمَينِ قد أَعدَّهما . ثُمَّ حرَّشَ بينهما وألَّبَ كلَّ واحدٍ منهُما على الآخرِ فتواثَبا وتهارَشا حتى سالَت دماؤُهما . فلمَّا بَلغَ الغايةَ فتحَ بابَ بَيتٍ عندَهُ وأَرسلَ منهُ على الكلبَينِ ذِئباً عندهُ قد أَعدَّهُ . فلمَّا أَبصراه تَركا ما كانا علَيه وتأَلَّفَت قلوبُهما. ووثَبا جميعاً على الذِّئبِ فنالا منه ما أرادَ .

ثُمَّ أقبلَ الرَّجلُ على أهلِ الجمعِ فقالَ لهم : مَثَلُكم معَ المُسلِمينَ مثلُ هذا الذِّئبِ مَعَ الكلابِ لا يزالُ الهَرجُ والقِتالُ بَينهُم وتأَلَّفوا على العدوِّ . فاستَحسنوا قَولَه وتفرَّقوا عن رأْيه .

الرشيد والذكي

يُحكى أَنَّ رجلًا استأْذنَ هارونَ الرَّشيدَ فقالَ : إنِي أَصنعُ ما تَعجزُ الخلائقُ عَنه . فقال الرَّشيد : هاتِ . فأَخرجَ أُنبوبةً فَصبَّ منها إبَرًا عِدَّةً . ثُمَّ وضعَ واحدةً في الارضِ . وقامَ على قَدَميه وجعلَ يَرمي إبرةً إبرةً من قامَته ، فتقَعُ كلُّ إبرةٍ في عينِ الإبرةِ الموضوعةِ حتى فرغَ دَستَهُ[١] . فأَمرَ الرَّشيدُ بِضربه مائةَ سَوطٍ ثُمَّ أمرَ لهُ بمائةِ دينارٍ . فَسُئلَ عن جمعِهِ بَينَ الكرامَةِ والهوانِ فقالَ : وصلتُهُ لِجوْدَةِ ذكائه . وأَدَّبتُهُ لكي لا يَصرِف فرطَ ذكائه في الفُضولِ[٢] .

الايثار[٣]

من عَجائبِ ما ذُكر في الإيثارِ ما حَكاهُ أبو مُحمَّدٍ الأَزدي[٤] قال : لَمَّا احترق المَسجدُ بِمروَ[٥] ظَنَّ المسلمُونَ أنَّ النصارى أَحرقوهُ فأَحرقوا خاناتِهم .

١ * الدست : اي اللعبة والخداع .

٢ * الفضول : ما لا فائدة فيه .

٣ * الايثار : هو في اللغة الاختيار وقد ورد هنا بمعنى التفضيل .

٤ * ابو محمد الازدي: هو صاحب احكام القرآن . ولد في البصرة وتوفي سنة ٨٩٦ م

٥ * مَرو : هي اشهر مدن خراسان وقصبتها وتسمى مرو الشاهجان . وهي قديمة العهد بناها احد ملوك الفرس الاقدمين .

فقَبَضَ السُّلطانُ على جماعَةٍ من الذينَ أحرقوا الخاناتِ . وكتبَ رِقاعاً فيها القَطْعُ والجَلدُ والقَتلُ ونَثَرَها عليهم فَمن وقعَ عليه رُقعةٌ فُعلَ به ما فيها .

فوقَعت رُقعةٌ فيها القَتلُ بيدِ رجُلٍ فقالَ : واللهِ ما كنتُ أُبالي لولا أُمٌّ لي .

وكانَ بِجنبه بعضُ الفِتيانِ فقالَ لهُ : في رُقعَتي الجلدُ وليسَ لي أُمٌّ . فخُذْ أنتَ رُقعتي وأعطِني رُقعتَكَ ! ففعَلَ ، فقُتلَ ذلكَ الفتى وتخلّصَ هذا الرّجلُ .

الزهد

زهد النعمان بن امرئ القيس

إنَّ النُّعمان بنَ امرئ القيس الأكبرِ الذي بنى الخَورَنقَ والسَّديرَ[١] أشرفَ على الخَوَرنق يوماً فأعجبَه ما أُوتيَ منَ المُلكِ والسَّعةِ ونُفوذ الامر وإقبال الوجوه عليه فقالَ لاصحابه : هل أُوتيَ أحدٌ مثل ما أُوتيتُ ؟

فقال له حكيمٌ من الحكماءِ أصحابه : هذا الّذي أُوتيتَ شيءٌ لم يزُل ولا يزُول ام شيءٌ كان لمن قبلَكَ زال عنهُ وصار إليكَ ؟

قال : بَل شيءٌ كان لمن قبلي زالَ عنهُ وصارَ إليَّ وسيزولُ عني .

قالَ : فسُررتَ بشيءٍ تَذهبُ عنكَ لذَّتُهُ وتبقى تَبِعَتُهُ .

قالَ : فأينَ المهرَبُ ؟

قالَ : إمَّا أن تُقيمَ وتَعمَلَ بطاعة الله أو تَلبسَ أمساحاً وتلحَقَ بجبَلٍ تعبُدُ ربَّك فيهِ وتَفرُّ من النَّاسِ حتى يأتيَكَ أجلُكَ .

قالَ : فاذا فعلتُ ذلك فما لي ؟

١ * الخَورنق : قصر بالحيرة بناه النعمان الاكبر، واللفظة فارسية قيل اصلها خورنكاه ومعناه دار اللذة واللهو ◉ السدير : قصر بالحيرة قريب من الخورنق كان النعمان الاكبر اتخذه لبعض ملوك العجم وقد ذكره شعراء الجاهلية . وقيل اسمه السدير فارسي معناه القباب المتداخلة وقيل بل هو عربي سمي بذلك لكثرة شجره ونخيله .

قالَ : حياةٌ لا تموتُ . وشبابٌ لا يَهرَمُ . وصحّةٌ لا تسقَمُ ومُلكٌ جديدٌ لا يَبلى .

قالَ : أيُّ خيرٍ فيما يفنى ؟ واللهِ لأَطلُبنَّ عيشاً لا يَزولُ أبدًا .

فانخلعَ من مُلكه ولبسَ الأَمساحَ وساحَ في الارض . وتَبعَه الحكيمُ وَجعلا يَسيحانِ وَيعبُدانِ الله تعالى حتى ماتا .

عدي بن زيد والنعمان

رُويَ أَنَّ النُّعمانَ بن المُنذرِ خرَجَ مُتصيِّدًا ومعهُ عديٌّ بن زيدٍ فمرَّا بشجَرةٍ ، فقالَ عديٌّ بن زيدٍ : أيُّها الملكُ أتدري ما تَقولُ هذه الشَّجَرَةُ ؟ قالَ : لا ! قالَ : فانها تقولُ :

مَن رآنا ، فليُحدِّث نفسهُ : أنّه موفٍ على قُربِ زوالْ !
رُبَّ ركبٍ قد أَناخوا حَولنا ، يَشربون الخمر بالماءِ الزُّلال ،
عمِروا الدَّهرَ بعيشٍ حَسَنٍ ، أَمنوا دهرَهم غيرَ وجالِ[1]
عَصفَ الدَّهرُ بهم ، فانقَرضوا ؛ وكذاكَ الدَّهر حالًا بَعدَ حال !

قالَ : ثمَّ جاوزَا الشَّجَرَةَ . فمرَّا بمقبرةٍ ، فقال له عديٌّ : أتدري ما تقولُ هذه المقبرةُ ؟ قالَ : لا ! قالَ : فانها تَقولُ :

أَيُّها الرَّكبُ المُخبُّونَ على الأَرضِ ، المُجدُّونا ،
كما أنتم كذا كنَّا ، كما نحنُ تكونونا .

فقالَ النُّعمانُ : قَد عَلمتُ أَنَّ الشَّجَرَةَ والمقبرةَ لا تتكلّمانِ ، وقد عَلمتُ أَنك إنما أَردتَّ عظَتي فجزاكَ اللهُ عني خيرًا ؛ فما السَّبيلُ الذي تُدرِكُ به النَّجاةُ ؟ قالَ : دع عبادةَ الأَوثانِ واَعبُدِ اللهَ وحدهُ ! قالَ : وفي هذا النَّجاةُ ؟ قالَ : نعم . قال فتركَ عبادةَ الأَوثان وتَنَصَّرَ حينئذٍ وأَخذَ في العِبادةِ والاجتهادِ .

١ * الوجال ، واحدها وجل : الخائف .

الإدريسي

١٠٩٩ - ١١٥٣

هو ابو عبدالله بن محمد الادريسي العلوي ، المعروف بالشريف الادريسي؛ ولد في سبتة ، من بلاد الاندلس ، وتثقف في قُرطُبة ، وبرع في علم الهيئة والجغرافية والطب والحكمة والشعر ؛ وكان يحب الاسفار فجاب الآفاقَ ، وطاف في بلاد الروم واليونان ومصر ومرّاكش وفرنسة وجزيرة بريطانية ، واختزن معلومات وذكريات كثيرة .

ولما عاد الى بلاده دعاه الى جزيرته رُجار (روجيرو) ملك صقليّة ، فقرّبه وبالغ في اكرامه ، واعطاه لقب امير ، وكان يقف له حين يدخل عليه .

وكانت مملكة رجار قد اتّسعت ، فاحب ان يعرفها ، ويعلم حدودها ومسالكها برًّا وبحرًا ، وفي اي اقليم هي ، وما يخصّها من البحار والخلجان ، وان يعرف غيرها من الاقطار، فكلّف الادريسي ، فوضع له جغرافيته « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » وهي كناية عن مجموعة اسفار وذكريات ، اجمع النقّاد الاوربيون على انه لا يوجد جغرافية افضلَ منها ، ولا مورد يستقي أثرًا منها ، ودعوا صاحبها استرابون[1] لشدّة اعجابهم به وتقديرهم لعمله .

١ * استرابون : جغرافي يوناني شهير ، ولد في اماسيا نحو سنة ٥٨ ق . م . ومات نحو سنة ٢٥ ب . م .

آثارُهُ

للادريسي كتابه الجغرافي : « نزهة المشتاق في اخبار الآفاق » عرف هذا الكتاب في اواخر القرن السادس عشر ، وطبع في روما سنة ١٥٩٢ ، ونشره باللاتينية في باريس سنة ١٦١٩ العالمان المارونيان جبرائيل الصهيوني ويحنا الحصروني .

ترجمه الى الايطالية برناردينو بالوي سنة ١٦٠٠ ، وترجمه ونشره بالايطالية والعربية ، مع تفسير ، ميشال اماري وجلستينو سيكياباريلّي سنة ١٧٢٦ . وترجمه الى الفرنسية اميدي جوبير وطبعته الشركة الجغرافية في باريس ما بين سنة ١٨٣٦ و١٨٤٠

من المقدمة

الارضُ والقسمُ المسكونُ منها

ان الذي تحصَّلَ من كَلامِ الفلاسفةِ ، وجِلّةِ العلماء ، واهلِ النظرِ في علمِ الهيئةِ(١ ، أنّ الارضَ مدوّرةٌ كتدويرِ الكُرَةِ ، والماءَ لاحقٌ بها وراكدٌ عليها ركوداً طبيعياً لا يفارقُها ؛ والارضُ والماءُ مستقِرّان في جَوفِ الفلكِ كالمُحّةِ في جَوفِ البيضةِ ،ووضعُها وضعٌ متوسطٌ ، والنسيمُ محيطٌ بهما من جميعِ جهاتِهما ، وهو جاذبٌ لهما الى جهةِ الفلكِ أو دافعٌ لهما ، واللهُ اعلمُ بحقيقة ذالك .

والأَرضُ مستقرّةٌ في جوفِ الفلكِ ، وذلك لشِدةِ سرعةِ حركةِ الفلكِ ؛ وجميعُ المخلوقات على ظهرِها . والنسيمُ جاذبٌ لما في ابدانِهم من الخِفّةِ ؛ والارضُ جاذبةٌ لما في ابدانِهم من الثِّقلِ بمنزلةِ حجرِ المغناطيسِ ، الذي يجذبُ الحديدَ اليه .

والارضُ مقسومةٌ بقِسمين ، بينَهما خطُ الاستواءِ ، وهو من المشرقِ الى المغربِ ؛ وهذا هو طولُ الارضِ ، وهو اكبرُ خطٍ في الكُرَةِ ، كما ان مِنطقةَ البروجِ اكبرُ خطٍّ في الفلكِ .

واستدارةُ الكرةِ في موضع خطِّ الاستواء ثلاثمائة وستون درجةً ؛ والدرجةُ خمسة وعشرون فرسخاً ؛ والفرسخُ اثنا عشر الفَ ذراعٍ ؛ والذراعُ

١ * علم الهيئة : هو من العلوم المدوّنة من اصول الرياضي ، وهو علم يبحث عن احوال الاجرام البسيطة العلوية والسفلية من حيث الكمية والكيفية والوضع والحركة اللازمة لها وما يلزم منها .

اربعةٌ وعشرون إصبعاً ؛ والاصبعُ ستُّ حباتِ شعيرٍ مصفوفةٍ مُلصقةٍ بطونُ بعضِها لظهورِ بعض . فتكونُ بهذه النسبةِ احاطةُ الارضِ مائةَ الفِ الفِ ذراعٍ واثنين وثلاثين ألفَ الفِ ذراع ؛ وتكون من الفراسخِ اثني عشر الفَ فرسخ ؛ هذا بحساب اهل الهند . واما هرمس[١] فانه قدَّر إحاطةَ الأرضِ. وجعلَ لكلِّ جُزءٍ مائةَ ميلٍ ، تكونُ بذلك ستةً وثلاثين الفَ ميلٍ ؛ وتكونُ من الفراسخِ اثني عشرَ الفَ فرسخٍ. وبينَ خطِّ الاستواءِ وكلِّ واحدٍ من القُطبين تسعون درجةً ، استدارتُها عَرضاً مثلُ ذلك . إلّا أنّ العمارةَ في الارضِ بعد خطِّ الاستواء اربعٌ وستون درجةً ؛ والباقي من الارضِ خلاءٌ لا عمارةَ فيه لشدّةِ البردِ والجمودِ .

والخلقُ ، بجملتهِ ، على الرُّبعِ الشّماليِّ من الارضِ ، وايضاً ، فان الرُّبعَ الجنوبيَّ وهو الذي فوقَ خطِّ الاستواءِ ، غيرُ مسكونٍ ولا معمورٍ لشدّة الحرّ به ، وممرِّ الشمسِ ، وهي في أسفلِ فلكِها ، على سَمتِه[٢] . فجفّت مياهُه ، وعُدِمَ حيوانُه ونباتُه لعدمِ الرطوبةِ ، لأنّه لا يكونُ الحيوانُ والنباتُ ابدًا إلّا حيثُ تكونُ المياهُ والرطوباتُ .

والأرضُ ، في ذاتِها ، مستديرةٌ ، لكنّها غيرُ صادقةِ الاستدارةِ ، فمنها منخفضٌ ومرتفعٌ . والماءُ يجري فيها من أرفعِها الى أخفضِها ، والبحرُ المحيطُ يُحيطُ نصفَ الكُرَةِ إحاطةً متّصلةً دائرتُها كالمِنطَقةِ لا يظهرُ منها الا نصفُها . فكأنّها عندَ الصِفةِ ، بيضةٌ مُغرَقةٌ في الماءِ ، والماءُ في طَستٍ ، فكذلك الارضُ نصفُها مُغرَقٌ في البحرِ ، والبحرُ يُحيطُ به الهواءُ ، والهواءُ دافعٌ لها ، أو جاذبٌ ، كالذي قلناه قبلَ هذا .

وهذا الربعُ المسكونُ من الارضِ قَسَمَته العلماءُ سبعةَ اقاليمَ ، كلٌّ اقليمٍ منها مارٌّ من المغربِ الى المشرقِ على خطِّ الاستواءِ ، وليست هذه الاقاليمُ بخطوطٍ طبيعيّةٍ لكنها خطوطٌ وهميّةٌ ، محدودةٌ ، موجودةٌ بالعِلمِ النُجوميّ .

١ * هرمس : رياضي وفلكي وفيلسوف Eratosthène ايراتوستين . مشهور من مدرسة الاسكندرية ولد في سيرين سنة ٢٧٦ ق . م . وترك نفسه يموت جوعًا وهو في الرابعة والثمانين من سنه .

٢ * السمت : الطريق والمحجّة ، والمراد هنا ان نورالشمس ينحدر عليه خطًا مستقيمًا .

وفي كلِّ اقليمٍ منها عدّةُ مدُنٍ وحصونٍ وقُرى ، وامَمٌ لا يُشبِهُ بعضُها بعضاً ، وايضاً فإنَّ في كلِّ إقليمٍ مِنها جبالًا شامخةً ، ووهادًا متصلةً ، وعيوناً وانهارًا جاريةً ، وبُرَكاً راكدةً ، ومعادنَ ونباتاتٍ وحيواناتٍ مختلفةً .

آثار ايطاليه

مدينةُ بَلِرم

مدينةُ بَلِرمَ ، وهي المدينةُ السنيّةُ العُظمى ، والمحلّةُ البهيّةُ الكُبرى . والمِنبَرُ الاعظمُ الأَعلى على بلادِ الدنيا ؛ وإليها ، في المفاخرِ ، النهايةُ القُصوى ؛ ذاتُ المحاسنِ الشرائفِ ، ودارُ المُلكِ في الزمانِ المؤتنفِ[1] والسالفِ . ومنها كانَت الاساطيلُ والجيوشُ تغدو للغزوِ وتروحُ ، كما هي الآنَ عليهِ من ذلك .

وهي على ساحلِ البحرِ في الجانبِ الغربيِّ ؛ والجبالُ الشواهقُ ، العظامُ ، مُحدِقةٌ بها ، وساحِلُها بهيجٌ ، مُشرِقٌ ، فَرِجٌ[2] ، ولها حُسنُ المباني التي سارت الرُكبانُ بنَشرِ محاسِنِها في بناياتِها ودقائقِ صِناعاتِها ، وبدائعِ مُختَرَعاتِها ، وهي على قسمين : قصرٍ ورَبَضٍ[3] .

فالقصرُ هو القصرُ القديمُ ، المشهورُ فَخرُه في كلِّ بلدٍ وإقليمٍ ، وهو ، في ذاتِه ، على ثلاثةِ أسمِطَةٍ[4] ؛ فالسِماطُ الاوسطُ يَشتمِلُ على قصورٍ مُنيفةٍ ، ومنازلَ شامخةٍ ، شريفةٍ ، وكثيرٍ من المَساجدِ والفَنادقِ والحمَّاماتِ ، وحوانيتِ التجّارِ الكِبارِ ؛ والسِماطانِ الباقيانِ فيهما ايضا قصورٌ ساميةٌ ، ومبانٍ فاخرةٌ ، عاليةٌ ، وبهما من الفنادقِ والحمَّاماتِ كثيرٌ ، وبهِ الجامعُ الأَعظمُ الذي كانَ بيعةً في الزَّمنِ القديمِ ، وأُعيدَ في هذه المُدّةِ على حالتِهِ في سالفِ

١ * المؤتنف : من ائتنفه : استأنفه ، اخذ به وابتدأه .
٢ * الفرج : المنكشف ، المفتوح .
٣ * الربض : ما حول المدينة من بيوت ومساكن .
٤ * السماط : الصف .

الأزمانِ . وصفتُه الآن تَغرُبُ عنه الاذهانِ لبديعِ ما فيه من الصَنعةِ ، والغرائبِ المُفتَعلةِ والمُنتَخَبَةِ ، والمُختَرعةِ من اصنافِ التَّصاويرِ ، وأجناسِ التزاويقِ والكِتاباتِ .

فأمّا الرَبَضُ فمدينةٌ أخرى تُحدِقُ بالمدينةِ من جميعِ جهاتِها ، وبه المدينةُ القديمةُ المسمّاة بالخالصةِ ، التي بها كان سُكنى السُّلطانِ والخاصّةِ في ايامِ المُسلمين ؛ وبابُ البحرِ ، ودارُ الصِناعةِ ، التي هي للإِنشاءِ .

والمياهُ ، بجميعِ جهاتِ مدينةِ بَلِرم ، مُختَرِقةٌ ، وعيونُها جاريةٌ متدفِّقةٌ ، وفواكهُها كثيرةٌ ، ومَبانيها ومتنزَّهاتُها حسنةٌ تَعجِزُ الواصفين ، وتَبهَرُ عقولَ العارفين ، وهي بالجُملةِ فِتنةٌ للناظِرين .

والقصرُ المذكورُ من اكبرِ القصورِ مَنعةً ، وأعلاها رِفعةً ، لا يُنالُ بقتالٍ ، ولا يُطاقُ على حالٍ ؛ وبأعلاهُ حصنٌ مُحدَثٌ للملكِ المعظَّم رُجارَ ، مبنيٌّ بالفُصوصِ الجافيةِ ، والحجارِ المنحوتةِ الضَّخمةِ ؛ وقد أُحكِمَ نَسَقُه . وأُعلِيت رِقَقُه[١] . وأُوثِقَت مَنائرُه ومَحارسُه ، وأُتقِنَت قصورُه ومَجالسُه ، وشُيِّدَت بُنيانا ، ونُمِّقَت باعجبِ المُستَغرَباتِ ، وأُودِعَت بدائعَ الصِفاتِ ؛ فشهِدَ لها بالفضلِ المسافرون ، وغالى في وصفِها المتجوّلون ، وقطَعوا قَطعاً ألّا مَبانيَ اعجبُ من مَباني المدينةِ ، ولا مكانَ اشرفُ من مَغانيها ، وأن قصورَها مشارقُ القُصورِ ، وأن دورَها مَنازهُ الدُّورِ .

والرَّبَضُ المُحدِقُ بالقَصرِ القديمِ ، المتقدِّمِ ذِكرُهُ ، هو في ذاتِه كبيرُ القُطرِ ، كثيرُ الفنادقِ ، والديارِ ، والحَمّاماتِ ، والحَوانيتِ ، والأَسواقِ ، وله سُورٌ يُحيطُ به ، وخَندَقٌ وفصيلٌ ، وله ، في داخِلِه ، بساتينُ كثيرةٌ ، ومتنزَّهاتٌ عجيبةٌ ، وسِقاياتُ ماءٍ عذبةٌ ، جاريةٌ ، مجلوبةٌ اليها من الجبالِ المُحدِقةِ ببُقعتِها . وبخارجِ الربضِ ، من الجهةِ الجنوبيةِ منها ، نهرُ عبَّاسٍ ، وهو نهرٌ جارٍ ، عليه جُمَلٌ من الأَرحاءِ الطاحنةِ ما لا يحتاجُ معها الى غيرِها .

١ * الرقق : واحدتها الرقة: الارض التي يغطّيها الماء ثم ينصبّ عنها .

رِومة

ومدينةُ رومةَ رُكْنٌ من أركانِ النَّصارى ، وذلك أَنّها كُرسيٌّ ، وبالاسكندريةِ ايضاً كرسيٌّ ، وببَيتِ المقدِسِ كرسيٌّ ، لكنه مُحدَثٌ لم يكن في أيامِ الحَوارِيّين ، فاتُّخذَ بَعدَهم لتَعظيمِ بيتِ المقدِسِ .

ومدينةُ رومةَ مدينةٌ عَظيمةُ الدورِ ، يُذكَرُ أَنَّ مُحيطَها تِسعةُ اميالٍ ، ولها سُورانِ من حِجارةٍ ، وعَرْضُ السُّورِ الداخلِ اثنا عشرَ ذراعاً ، وسَمكُهُ اثنانِ وسبعونَ ذِراعاً ، وعرضُ السورِ الخارجِ ثمانيةُ اذرعٍ ، وسَمكُه اثنان واربعون ذراعاً ، وفيما بينَ السُّورينِ نَهرٌ مُغطًّى ببَلاطاتِ نُحاسٍ ، طولُ البَلاطةِ منها ستةٌ واربعون ذراعاً ؛ وسوقُها معترِضٌ ما بين البابِ الشرقيِّ الى البابِ الغربيِّ .

وهناك أُسطُواناتُ حجرٍ في نِهايةٍ من الغِلَظِ ، طول كُلِّ عُمودٍ منها ثلاثون ذِراعاً ، وممَّا يلي جانبي العمودِ الاوسطِ منها عمودانِ من نُحاسٍ اصفرَ روميٍّ ، وقَصَبَةُ العمودِ وقاعدتُه ورأسُه مفرَغٌ منه ، وعليها حوانيتُ تُجَّارٍ ، وفي مقدَّمِ هذه الأُسطواناتِ والحوانيتِ نهرٌ يَشقُّها من المشرقِ الى المغربِ ، قاعُه كلُّه مفروشٌ ببَلاطِ النّحاسِ ، لا يستقِرُّ به شيءٌ يُرسي فيه ، وبهذا النهرِ تؤرِخُ الرومُ ، فتقولُ : تاريخُ عامِ الصِّفرِ ؛ والمراكبُ تدخُلُ المدينةَ على هذا النهرِ بأَوساقِها ، فتأتي المراكبُ بما فيها حتى تقفَ على حوانيتِ التُّجّارِ .

وفي داخلِ المدينةِ كنيسةٌ عظيمةٌ ، بُنيَت على اسمِ بطرسَ وبولسَ الحَوارِيَّينِ ، وهما في قبرَين . وطولُ هذه الكنيسةِ ثلاثُ مائةِ ذراعٍ ، وعرضُها مائتا ذراعٍ ، وارتفاعُ سَمكِها مائةُ ذراعٍ . واركانُها من نُحاسٍ مُفرَغٍ ، وسَمكُها كذلك مُغطًّى بالنّحاسِ الاصفرِ .

وبرومةَ الفٌ ومائتا كنيسة ، واسواقُها وشوارعُها مفروشةٌ بالرُّخامِ الابيضِ والازرقِ ، وفيها الفُ حمَّام ، وفيها كنيسةٌ جليلةُ البناءِ ، بُنيت على

صِفَةَ كنيسةِ بيتِ المقدسِ طولًا وعرضاً ، فيها مَذبحٌ يُقَرَّبُ عليه القُربانُ ، طولُه عَشَرَةُ اذرعٍ ، وظَهرُه كلُّه مرصَّعٌ بالزمرُّدِ الاخضرِ . ويَحمِلُ هذا المذبحَ اثنا عشر تِمثالًا من ذَهبٍ ابريزٍ ، طولُ التِمثالِ منها ذراعان ونصفٌ ، وأعينُها يواقيتُ حمرٌ . ولهذه الكنيسةِ ابوابٌ مصفَّحةٌ بالذَّهبِ الابريزِ ، غيرَ ما لها من الابوابِ الخارجةِ المصفَّحةِ بصَفائحِ النحاسِ ، وابوابِ الخشبِ المنقوشِ .

وفي مدينةِ رومةَ قصرُ الملكِ المسمّى البابةَ ، وليسَ فوقَ البابةِ فوقٌ في القَدرِ ، والملوكُ دونَه ، ويُقيمونَه مَقامَ الباري عزّ وجلَّ ، يحكُمُ بالحقِّ ، ويتحرَّى المَظالمَ ، ويَرْفُقُ بالضُّعفاءِ والمساكينِ . ويَنفي الضَّيمَ عن المهتضَمِين ؛ وحكمُه نافذٌ ماضٍ على جميعِ ملوكِ الرُّومِ ، ولا يَقدِرُ احدٌ منهم يَرُدُّ عليه .

ومدينةُ رومةَ اكبرُ من ان توصفَ ، أو يُحاطُ باوصافِ محاسِنها كثْرةً وحسناً .

آثار آسيوية

بيت لحم

سِرتُ من بَيتِ المقدسِ الى مدينةِ بَيتَ لحمَ ، فَوَجدتُ على طَريقي عَينَ سِلوان[١] ، وهِيَ العينُ التي أبرأَ فيها السيّدُ المسيحُ الضَّريرَ الأعمى ، ولم تَكنْ لهُ قبلَ ذلكَ عينانِ . وبقُربِها بُيوتٌ كثيرةٌ مَنقورةٌ في الصَّخرِ ؛ وفيها رجالٌ قد حَبسوا أنفُسَهُم فيها عِبادةً . وأمّا بيتَ لحمُ ، وهُو الموضعُ الذي وُلدَ فيهِ السَّيدُ المسيحُ ، فبينَه وبينَ المقدسِ ستَّةُ أميالٍ . وفي وسطِ الطَّريقِ قبرُ راحيلَ أمِّ يُوسُفَ وأمِّ ابنِ يامِنَ ولدَي يعقُوبَ . وهو قبرٌ

١ ★ عين سلوان : محلة ظاهر شرقي اورشليم وجنوبها ، تحتها عين عذبة تسقي جنانًا كانت قديمًا تعرف بجنان الملك وهي العين التي ابرأ فيها السيد المسيح الضرير الاعمى .

عليهِ اثنا عَشرَ حجرًا ، وفوقَهُ قُبّةٌ معقودةٌ بالصَّخرِ . وبَيتَ لَحمُ هناكَ وفيها كنيسةٌ حَسنةُ البناءِ[١] مُتقَنةُ الوضعِ فسيحةٌ مزيَّنةٌ الى أبعدِ غايةٍ ، حتى أنهُ ما أُبصرَ في جميعِ الكنائسِ مثلُها بناءً . وهي في وطاءٍ من الأرضِ ، ولها بابٌ من جهةِ المَغربِ ، وبها من أعمدةِ الرُّخامِ كلٌّ مليحةٍ . وفي رُكنِ الهيكلِ ، في جهةِ الشِّمالِ ، المغارةُ التي وُلدَ بها السَّيّدُ المسيحُ ، وهي تحتَ الهيكلِ . وداخلَ المغارةِ المذودُ الذي وُجِدَ بهِ . وإذا خرجتَ من بيتَ لحمَ نظَرتَ في الشرقِ منهُ كنيسةَ الملائكةِ ، الذينَ بَشَّروا الرُّعاةَ بمولدِ السَّيّدِ المسيحِ .

بيروت[٢]

مدينةٌ على ضفّةِ البحرِ ، عليها سورُ حجارةٍ ، كبيرةٌ واسعةٌ . ولها بقربةٍ منها جَبلٌ فيه معدنُ حديدٍ جيّدٍ ، يُقطعُ ويُستخرجُ منهُ الكثيرُ ، ويُحمَلُ الى بلادِ الشّامِ . وَبها غَيضَةُ أشجارِ صَنوبرٍ ، ممَّا يلي جَنوبَها ، تتَّصلُ الى جبلِ لبنانَ . وتَكسيرُ هذهِ الغَيضَةِ[٣] اثنا عشرَ ميلًا في مثلها ؛ وشُربُ أهلها مِنَ الآبارِ . ومنها الى دمشقَ يومانِ .

قالَ ابنُ بَطوطةَ : ومدينةُ بيروتَ حَسَنَةُ الأسواقِ . وجامِعُها بَديعُ الحُسنِ . وتُجلَبُ مِنها الى ديارِ مِصرَ الفَواكهُ والحديدُ .

قالَ أبو الفِداء : وهيَ على ساحِلِ البحرِ وهيَ ذاتُ بُرْجَينِ ولها بَساتينُ ونَهرٌ وهيَ خَصِبَةٌ .

١ * هذه الكنيسة تعرف بكنيسة الولادة شيدتها في القرن الرابع بعد المسيح القديسة هيلانة ام قسطنطين الملك سنة ٣٢٧م

٢ * بيروت : معناها بالعبرانية الابار وقد كثرت فيها . هي من اقدم بلاد الشام عهدًا . وكان لاهلها في الازمنة القديمة الباع الطويل في الصناعات كصبغ الارجوان وشغل الانسجة . وكانت تمتد الى لحف جبل لبنان جنوبًا والى نهرها شرقًا وكان شرب اهلها من مياه تأتيها في قنوات محكمة العمل تخرق ما فوقها من الجبال وتمرّ على قناطر في اوديتها . ولكل ذلك آثار الى اليوم

٣ * التكسير : عند اهل الهندسة هو المساحة .

وكانَ بها مَقامُ الأَوزاعيّ [١] الفَقيهِ ؛ ولها مِيناءٌ جَليلٌ ؛ وبَينَها وبَينَ مَدينةِ جُبَيل [٢] ثمانيةَ عَشَرَ ميلًا .

دمشق

مَدينةٌ مِن أَجلِّ بلادِ الشَّامِ ، وأَحسَنِها مكاناً ، وأعدَلِها هَواءً ، وأَطيَبِها ثرًى ، وأَكثرِها مِياهاً ، وأَغزرِها فَواكهَ ، وأَعَمِّها خِصباً وأَوفرِها مالًا ، وأَكثرِها جُندًا ، وأَشمخِها بناءً . ولها جِبالٌ ومزارعُ تُعرَفُ بالغوطةِ ، وطولُ الغُوطةِ مرحَلتانِ في عرضِ مرحَلةٍ ، بها ضِياعٌ كالمُدُنِ .

ومَدينةُ دمشقَ جامعةٌ لصُنُوفٍ من محاسِنَ وضُروبٍ منَ الصِناعاتِ ، وانواعٍ من الثِّيابِ الحريرِ ، كالخزِّ والديباجِ [٣] النَّفيسِ ، الثَّمينِ ، العجيبِ الصِّفةِ ، والقديمِ المِثالِ ، الذي يُحمَلُ منها الى كلِّ بَلدٍ ، ويُتَّجَرُ به منها الى كلِّ الآفاقِ والأَمصارِ المُصاقبةِ لها والمُتباعدةِ عَنها .

ولدِمَشقَ في داخلِها ، على أَوديَتِها أَرحاءٌ كثيرةٌ .

وأَما الحلاواتُ [٤] فيها منها ما لا يُوجَدُ بغيرِها ، ولا يُوصَفُ كثرةً وطيباً وجَودَةً . وصِناعاتُها نافِقةٌ . وتجاراتُها رائجةٌ ، وهِيَ من أَغنى البِلادِ الشَّاميَّةِ . ومنها الى مدينةِ بَعلَبَكَّ في جهةِ الشَّرقِ مَرحلَتانِ .

صيدا

مَدينةُ صيدا في البلادِ الشَّاميَّةِ على ساحلِ البحرِ المالحِ ؛ فيها سُورُ

١ * الاوزاعي : هو عبد الرحمان بن عمر بن محمد الاوزاعي الامام المشهور كان امام اهل الشام في عصره بلا مدافعة ولا مخالفة . يسير اهل الشام والمغرب على مذهبه قبل انتقالهم الى مذهب مالك . كان مولده ببعلبك ثم سكن دمشق خارج باب الفراديس ثم تحول الى بيروت فسكنها مرابطاً الى ان مات .

٢ * جبيل : مدينة قديمة العهد ذكرت في التوراة باسم جبلة . وكان القدماء يسمونها ببيلوس ويعظمونها لهيكل فيها اقاموه ذكرًا للزُّهرة .

٣ * الخز والديباج : الخزّ ما نسج من الصوف والحرير او الحرير فقط ◉ الديباج : معرّب هو ما كان سداه ولحمته من الابرسيم ثم كثر حتى اشتقت العرب منه فقالوا دبج اي نقش وحبر وجمع الديباج دبابيج وديابيج .

٤ * الحلاوات : واحدتها حلاوة : ما يعقد من الدبس والشيرج والسكر .

حِجارةٍ يُنْسَبُ إلى امرأةٍ كانت في الجاهليَّةِ . وهيَ مدينةٌ كبيرةٌ عامرةُ الاسواقِ رخيصةُ الأسعارِ ، مُحدِقةٌ بها البَساتِينُ والأَشجارُ ، غزيرةُ المياهِ ، واسِعَةُ الكُوَرِ ، لها أَربَعَةُ أَقاليمَ هيَ مُتَّصِلةٌ بجبَلِ لُبنانَ : إقليمٌ يُعرفُ باقليمِ جَزّينَ ، وفيهِ مَجرَى وادي الحرّ ، وهوَ مَشهورٌ بالخصْبِ وكثرةِ الفَواكهِ ؛ وإقليمُ السَّرَبَةِ ، وهو إقليمٌ جليلٌ ؛ وإقليمُ كَفرفيلا ؛ وإقليمُ الرَّامي ، وهوَ نهرٌ يَشُقُّ جبالَها ويَصُبُّ الى البحرِ . وجميعُ هذهِ الأربعةِ أَقاليمَ تَشتَمِلُ على نَيِّفٍ وسِتِّمائةِ ضَيعةٍ . وشُربُ أَهلها مِن ماءٍ يَجري اليها من جَبلِها في قناةٍ .

ومن مدينةِ صيدا الى حصنِ النَّاعمةِ[1] وهو كالمدينة الصَّغيرةِ عشرونَ ميلًا . والنَّاعمةُ مدينةٌ حَسَنَةٌ ، وأكثرُ نباتِ أَرضها شَجَرُ الخُرنوبِ ، الذي لا يُعرفُ بمعمورِ الأَرضِ مثلُهُ قَدرًا ولا طِيباً . ومِنها يُتَجَهَّزُ بهِ الى الشَّامِ والى ديارِ مِصرَ . وإليها يُنسَبُ الخُرنوبُ الشَّاميُّ ، وان كانَ الخرنوبُ في الشَّامِ كثيرًا ، فهوَ بالنَّاعمةِ أكثرُ وأَطيبُ . ومِن حِصنِ النَّاعمةِ الى طَرَفِ بَيروتَ أربعةٌ وعشرونَ ميلًا .

يافا

بَلدةٌ صَغيرَةٌ في فلسطينَ ، كثيرةُ الرَّخاءِ ، ساحِليَّة منَ الفُرَضِ المشهَورَةِ . ومدينةُ يافا كانت حِصناً كبيرًا فيهِ أَسواقٌ عامرةٌ . ووُكلاءُ التُّجّارِ ، وميناءٌ كبيرٌ فيهِ مَرسى المراكبِ الواردةِ الى فِلَسطينَ والمُقلعَةِ منها الى كلِّ بلدٍ . وبَينَها وبينَ الرَّملةِ سِتَّةُ أَميالٍ وهيَ في الغربِ عن رَملةَ .

١ * حصن الناعمة . كان قديمًا قلعة حريزة بين بيروت وصيدا بقرب نهر الدامور تبعد نحو ستة اميال عن البحر وهي اليوم قرية صغيرة فوقها دير كبير للرهبان البلديين .

آثار افريقية

أغمات

أغماتُ في مكانٍ أفيحَ طيِّبِ التُّرابِ كثيرِ النَّباتِ والأعشابِ ؛ والمياهُ تخترقهُ يميناً وشمالًا . وحولها جنَّاتٌ محدقةٌ وبساتينُ وأشجارٌ ملتفَّةٌ . وهي طيِّبةُ المُقامِ صحيحةُ الهواءِ . وبها نهرٌ ليسَ بالكبيرِ يشُقُّ المدينَةَ ويأتيها من جنوبيِّها ، ويخرُجُ من شماليِّها ، وربَّما جمدَ بها النَّهْرُ في الشّتاءِ حتى يجتازَ الأطفالُ عليهِ .

قالَ : وهذا شيءٌ عاينَّاهُ بها غيرَ مرَّةٍ . وتُسمَّى هذهِ أغماتُ وريكةَ .

قالَ ابنُ سعيدٍ : ومدينةُ أغماتَ في شماليّ جبلِ دَرَنٍ[1] ، وهي كانت حاضرةَ البلادِ قبلَ بُنيانِ مرَّاكُشَ ؛ وهيَ ذاتُ مياهٍ وفواكهَ كثيرَةٍ ؛ وهيَ في الجَنوبِ بِمَيلَةٍ الى الشَّرقِ عن مرَّاكُشَ ؛ وهي من أقصَى المَغْرِبِ .

قالَ ابنُ سعيدٍ أيضاً : كانت كُرسيَّ مُلْكِ أميرِ المُسلمينَ يوسُفَ بنِ تاشفين[2] قبلَ أن يختطَّ مدينَةَ مرَّاكشَ ، ويَبْنِيَهَا وهيَ مدينةٌ قديمةٌ .

١ * جبل دَرَن : جبل عظيم مشهور ببلاد المغرب شاهق لا يزال الثلج عليه ويظهر من مرّاكُش وبينهما مرحلتان واوّل هذا الجبل عند البحر المحيط الاوقيانوس في اقصى المغرب فيمتد مشرقاً الى بحر الروم بازاء صقلية .

٢ * يوسف بن تاشفين : هو ابو يعقوب يوسف بن تاشفين اللمتوني كان رجلًا شجاعاً عادلًا مقداماً اختطَّ بالمغرب مدينة مرّاكُش وكان موضعها مكمنًا للصوص . كان ولّاه ابو بكر بن عمر الملثمي . ثم قوي امره وعلا قدره ببلاد الغرب وتلقب باميرالمؤمنين بعد وفاة ابي بكر بن عمر . ثم انتزع بلاد الاندلس من ملوكها فصار امرها اليه . توفي سنة ١١٠٧

ابن جُبَير

١١٤٤ - ١٢١٧

هو ابو الحسين محمد بن احمد بن جُبير الكناني ، الاندلسي ، الشاطبي ، البَلَنسي ، وُلد في بَلَنسيةَ ، وسمع من ابيه في شاطبة ، وأخذ القراءات عن ابي الحسن بن ابي العيش. كان من علماء الاندلس في الفقه والحديث والمشاركة بالاداب . وصفه لسان الدين بن الخطيب في كتابه « الاحاطة في اخبار غرناطة » بأنه « كان اديباً بارعاً شاعراً مجيداً سريّ النفس كريمَ الأخلاق » ولكنّ شهرته لم تقم الا على كتابه المعروف « برحلة ابن جبير » وصف فيه وصف ناقد ما شاهده في رحلاته الثلاث من الاندلس الى المشرق ، والى ايطاليا ، من عجائب البلدان ، وغرائب المشاهد ، وبدائع المصانع ، والاحوال السياسية والاجتماعية والاخلاقية .

وقد تحوّل في رحلته الثالثة الى مصر والاسكندرية فاقام يحدّث هنالك الى ان تُوفي .

آثارُهُ

لابن جبير كتاب رحلته المعروف برحلة ابن جبير طبع لأوّل مرة في ليدن سنة ١٨٥٢ مع مقدّمة للمستشرق رايت. واعيد طبعه هنالك في سنة ١٩٠٧ ، وفي صدره ترجمة لمؤلفه. وترجم الى الايطالية سنة ١٨٩٦ وترجم القسم المختص منه بصقليّة الى الفرنسية وطبع في باريس سنة ١٨٤٦

ذكر جامع دمشق

باني الجامع الاموي

هو من اشهرِ جوامعِ الاسلامِ حسناً واتقانَ بناء وغَرابةَ صَنعةٍ واحتفالَ تنميقٍ وتزيين ؛ وشهرتُه المُتعارَفةُ ، في ذلك ، تُغني عن استغراقِ الوصف فيه.

ومن عجيبِ شأنِه أنّه لا تَنسُجُ به العنكبوتُ ، ولا تدخلُهُ ، ولا تُلمُّ به الطيرُ المعروفةُ بالخطَّافِ . انتدَب لبنائِه الوليدُ بنُ عبدِ الملك رحمه اللهُ ، ووجّه الى ملِكِ الرومِ بالقسطنطينيةِ يأمُرُهُ بإشخاصِ اثني عشرَ الفاً من الصُنّاعِ من بلادِهِ ، وتقدَّمَ اليه بالوعيدِ في ذلك إن توقَّفَ عنه ، فامتثلَ أمرَهُ مُذعناً بعدَ مُراسلةٍ جرت بينهما في ذلك . فشرَعَ في بنائـِهِ ، وبلغتِ الغايةُ في التأنّقِ ، وأُنزِلَت جُدرُهُ كلُّها بفُصوصٍ من الـذّهبِ المعروفِ بالفُسَيفساء ، وخُلطَت بها انواعٌ من الأصبغةِ الغريبةِ قد مُثِّلَت أشجـارًا ، وفُرِّعَت اغصاناً منظومةً بالفصوصِ ببدائعَ من الصَّنعةِ الأنيقةِ المُعجزَة وصفَ كلِّ واصفٍ ، فجاء يَغشى العيونَ وميضاً وبصيصاً . وكان مَبلغُ النفقةِ فيه مائةَ صندوقٍ في كل صندوق ثمانيةٌ وعشرون الفَ دينارٍ ومائتا الفِ دينارٍ ، فكان مبلغُ الجميعِ احدَ عشرَ الفَ الفِ دينارٍ ومائتي الفِ دينارٍ .

والوليدُ هذا هو الذي أَخذَ نِصفَ الكنيسةِ الباقيةِ منه في ايدي النصارى ، وأدخلها فيه ، لانـه كانَ قسمينِ : قسماً للمسلمين وهو الشرقيُّ ، وقسماً للنصارى ، وهو الغربيُّ ، لان ابا عبيدةَ بنَ الجرَّاح ، رضه ، دخلَ البلدَ من الجهةِ الغربيةِ ، فانتهى الى نصفِ الكنيسة . وقد وقعَ الصلحُ بينـهُ وبينَ

١ * اخذت كل القطع باختصار .

النصارى ؛ ودخلَ خالدُ بنُ الوليد ، رضه ، عَنْوةً من الجانبِ الشرقيّ ، وانتهى الى النصفِ الثاني ، وهو الشرقيُّ ، فاجتازَهُ المسلمون وصيَّروهُ مسجدًا ، وبَقيَ النصفُ المصالَحُ عليه ، وهو الغربيُّ ، كنيسةً بأيدي النَّصارى الى أن عوَّضهم منه الوليدُ بمالٍ عظيمٍ أرضاهم به ، فقبلوه . ويقالُ إنَّ أَوَّلَ من وضع جِدارَه القِبليّ هودُ النبيُّ عم . . .

وله اربعةُ ابوابٍ : بابٌ قبليٌّ ويعرف ببابِ الزِّيادة ، وله دِهليزٌ كبيرٌ متّسعٌ له اعمدةٌ عظامٌ ، وله مَرأًى رائعٌ ، ومنه يُفضى الى دارِ الخَيلِ ؛ وعن يِسارِ الخارجِ منه سِماطُ الصفّارين ، وهي كانت دارَ معاويةَ رضه ، وتعرف بالخضراء ؛ وبابٌ شرقيٌّ ، وهو اعظمُ الابوابِ ويعرفُ ببابِ جيرونَ ؛ وبابٌ غربيٌّ ، ويعرف ببابِ البريدِ ؛ وبابٌ شماليٌّ ، ويعرف بباب الناطِفيّينَ ؛ وللشرقيِّ والغربيِّ والشماليِّ ايضاً ، من هذه الابوابِ ، دهاليزُ مُتَّسِعَةٌ يُفضي كلُّ دِهليزٍ منها الى بابٍ عظيمٍ ، كانت كلُّها مداخلَ للكنيسةِ ، فبَقيت على حالِها .

واعظمُها منظرًا الدِّهليزُ المُتَّصِلُ ببابِ جيرونَ ، يُخرَجُ من هذا البابِ الى بَلاطٍ طويلٍ عريضٍ قد قامت امامَه خمسةُ ابوابٍ مقوَّسةٍ لها ستةُ اعمدةٍ طِوالٍ ، وفي وجهِ اليسارِ منه مشهدٌ كبيرٌ حفيلٌ . كانَ فيه رأسُ الحسين ابنُ عليٍّ ، رضهما ، ثم نُقِلَ الى القاهرةِ .

ذكر مشاهدهِ المكرَّمة

فأوَّلها مشهدُ رأسِ يَحيى بنِ زكرياء ، عليهما السلامُ ، وهو مدفونٌ بالجامعِ المكرّمِ في البَلاطِ القبليِّ ، قُبالةَ الركنِ الأيمنِ من المقصورة الصحابية[١] . رضهم . وعليه تابوتُ خشبٍ مُعترِضٍ من الأُسطُوانةِ ، وفوقَه قِنديلٌ ، كأنَّهُ من بلُورٍ مُجوَّفٍ ، كأنَّه القدَحُ الكبيرُ لا يُدرى أَمِن زُجاجٍ عِراقيٍّ أَم صُوريٍّ هو ، ام مِن غيرِ ذلك .

ومولِدُ إبرهيمَ ، صلَّى اللهُ عليه وعلى نبيّنا الكريمِ ، وهو بصَفحِ[٢] جبلِ

١ ٭ هي اول مقصورة وضعت في الاسلام وضعها معاوية بن ابي سفيان .

٢ ٭ الصفح : الجانب .

قاسِيونَ عندَ قريةٍ تُعرفُ ببَرزةَ ، وهي من اجملِ القُرى ؛ وهذا الجبلُ مشهورٌ بالبركةِ في القديمِ ، لِأَنَّه مَصْعَدُ الانبياءِ ، صلواتُ اللهِ عليهم ، ومَطْلِعُهم ، وهو في الجهةِ الشَّماليةِ من البلدِ ، وعلى مِقدارِ فرسخٍ ؛ وهناك المَولِدُ المباركُ وهو غارٌ مُستطيلٌ ضيّقٌ ، وقد بُنيَ عليهِ مَسجِدٌ كبيرٌ ، مُرتفِعٌ ، مُقسَّمٌ على مساجدَ كثيرةٍ كالغُرفِ المُطلّةِ ، وعليه صَومَعةٌ عاليةٌ ، ومن ذلك الغارِ رأى صلعمُ الكوكبَ ، ثم القمَر ، ثم الشمسَ حسبما ذكَرَهُ اللهُ تعالى في كتابهِ ، عزَّ وجلَّ ، وفي ظهرِ الغارِ مقامُه الذي كان يَخرُجُ اليهِ .

وهذا كلُّهُ ذكَرَه الحافظُ ، محدِّثُ الشامِ ، ابو القاسمِ بنُ هِبةِ اللهِ بن عساكِرَ الدِّمَشقي في تاريخهِ . . . وذكَر ايضاً أنَّ بينَ بابِ الفَراديسِ ، وهو أحدُ أبوابِ البلدِ ، وفي الجهةِ الشَّماليةِ من الجامعِ المباركِ ، على مقرَبةٍ منه الى جبلِ قاسيونَ ، مدفنُ سبعينَ الفَ نبيٍّ ، وقيلَ : سبعون الفَ شهيدٍ ، وإنَّ الانبياءَ المدفونين به سبعُمائةِ نبيٍّ ، واللهُ اعلمَ . . .

وبجبلِ قاسيونَ لجهةِ الغربِ على مِقدارِ مِيلٍ ، أو أزيدَ ، من المَولِدِ المباركِ ، مغارةٌ تُعرفُ بمغارةِ الدَّمِ ، لانَّ فوقَها ، في الجبلِ ، دَمُ هابيلَ قتيلِ اخيهِ قابيلَ ابني آدمَ ، صلَّى الله عليه ، يَتَّصِلُ من نحو نصفِ الجبلِ الى المغارةِ ،وقد ابقَى اللهُ منه في الجبلِ آثارًا حُمرًا في الحجارة تُحكُّ فتستحيلُ ، وهي كالطريقِ فى الجبلِ ، وتنقطِعُ عِند المغارةِ . وليسَ في النصفِ الأَعلى من المغارةِ آثارٌ تُشبِهُها ، فكانَ يُقالُ : إنها لونُ حجارةِ الجبلِ ، وإنما هي الموضِعُ الذي جَرَّ القاتلُ لأَخيهِ حيث قتلَه ، حتى انتهى الى المغارةِ . وهي من آياتِ اللهِ تعالى ، وآياتُه لا تحصى .

ابواب دمشق واحوالها

لهذه البلدةِ ثمانيةُ ابوابٍ : بابٌ شرقيٌّ وفيه مَنارةٌ بيضاءُ يقالُ : إنَّ عِيسى ، عم ، يَنزِلُ فيها لِما جاءَ في الأَثرِ أَنَّه ينزِلُ بالمَنارةِ البيضاءِ شرقيَّ دِمشقَ . ويَلي هذا البابَ بابُ توما ، وهو ايضاً في حَيِّزِ الشرقِ ؛ ثم بابُ

السَّلامةِ ؛ ثم بابُ النَراديسِ ، وهو شماليٌّ ؛ ثم بابُ الفرجِ ؛ ثم بابُ النَّصرِ ، وهو غربيٌّ ؛ ثم بابُ الجابيةِ كذلك ؛ ثم بابُ الصغيرِ ، وهو بينَ الغربِ والقبلةِ ، والَمسجِدُ الجامعُ مَائلٌ الى الجهةِ الشماليةِ من البلدِ .

والبلدُ ليسَ بمفرطٍ في الكِبَرِ ، وهو مائلٌ للطُولِ ، وسِكَكُهُ ضيِّقةٌ ، مظلمةٌ ، وبناؤه طينٌ وقصَبٌ ؛ طبقاتٌ بعضُها فوقَ بعضٍ ولذلك ما يُسرِعُ اليهِ الحريقُ .

وهو كلُّه ثلاثُ طبقاتٍ ، فيحتوي من الخَلقِ على ما تحتوي ثلاثُ مدنٍ لأنَّه اكثرُ بلادِ الدنيا خَلقاً ، وحسنُه كلُّه خارجٌ لا داخلٌ . وفي داخلِ البلدِ كنيسةٌ لها عندَ الرومِ شأنٌ عظيمٌ تُعرَفُ بكنيسة مريمَ ، ليسَ بعدَ بيتِ المقدسِ عندهم افضلُ منها ؛ وهي حفيلةُ[1] البناء ، تتضمَّنُ من التصاويرِ امرًا عجيباً تَبهتُ الأفكارَ ، وتستوقِفُ الابصارَ ؛ ومرآها عَجيبٌ ، وهي بأيدي الروم ، ولا اعتراضَ عليهم فيها .

وبهذه البلدة نحوُ عشرين مدرسةً . وبها مارستانٌ قديمٌ وحديثٌ ، والحديثُ احفلُها[2] واكبرهما ، وجرايتُهُ في اليوم نحوَ الخمسةَ عشرَ دينارًا ، وله قَوَمَةٌ بايديهم الازمَّةُ المحتويةُ على اسماء المرضى وعلى النفقاتِ التي يحتاجون اليها في الادويةِ والاغذيةِ وغيرِ ذلك . والاطبَّاءُ يُبكِرون اليه في كلِّ يومٍ ويَتفقَّدون المَرضى ، ويأمُرون بإعدادِ ما يُصلحُهم من الأَدويةِ والأَغذيةِ ، حسبَما يَليقُ بكلِّ انسانٍ منهم . والمارستانُ الآخَرُ على هذا الرسمِ لكنَّ الإحتفالَ في الجديدِ اكثرُ . وهذا القديمُ هو غربيُّ الجامعِ المكرَّمِ ؛ وللمجانينِ المعتَقلين ايضاً ضَربٌ من العِلاجِ ، وهم في سلاسلَ موثقون .

اخصب جبال الدنيا

وكلٌّ من وفَّقَهُ اللهُ بهذهِ الجهاتِ ، من الغرباءِ للانفرادِ ، يَلتزِمُ ، إن حبَّ ، ضيعةً من الضياع ، فيكونُ فيها طيِّبَ العيشِ ناعمَ البالِ ، ويَنثالُ

١ * حفيلة البناء : اي بناؤها كثير مبالغ فيه .

٢ * احفلها : املأهما بالمجانين .

الخبزُ عليه من اهلِ الضيعةِ ، ويلتزِمُ الأَمانَةَ ، أو التعليمَ ، أو ما شاءَ ؛ ومتى سئِمَ المُقامَ خرَجَ الى ضيعةٍ أُخرى ، أَو يَصعَدُ الى جبل لبنانَ او الى جبلِ الجُوديِّ ، فيلقَى بها المُريدينَ المُنقطِعينَ الى الله عزَّ وجلَّ ، فيُقيمُ معهم ما شاءَ ، ويَنصرِفُ الى حيثُ شاءَ .

ومن العجبِ أَنَّ النَّصارى المجاورين لجبلِ لبنانَ ، اذا رأُوا به احدَ المُنقطعين من المسلمين ، جلَبوا لهُم القوتَ ، وأَحسنوا اليهم ، ويقُولون هؤلاء ممن انقطعَ الى اللهِ ، عزَّ وجلَ ، فتَجِبُ مُشاركتَه .

وهذا الجبلُ من أخصبِ جبالِ الدُّنيا ، فيه انواعُ الفَواكهِ ، وفيه المياهُ المطَّرِدَةُ ، والظِّلالُ الوارِفةُ . وقلَّ ما يخلو منَ التَّبتيلِ[1] والزَّهادةِ ، واذا كانت معاملةُ النَّصارى لضِدِّ مِلَّتِهم هذه المعاملةَ ، فما ظنُّك بالمُسلمين بعضِهم معَ بعضٍ .

الدنيا لمن غلب

ومن أعجبِ ما يحدُثُ به أَنَّ نيرانَ الفِتنةِ تَشتعلُ بين الفِئتينِ مُسلمين ونصارى ، وربَّما يَلتقي الجمعانِ ، ويقع المَصافُّ بينَهم ، ورِفاقُ المُسلمين والنصارى تختَلِفُ بينَهم دونَ اعتراضٍ عليهم . شاهدُنا في هذا الوقتِ الذي هو جُمادى الأُولى ، من ذلك خُروجُ صلاحِ الدينِ ، بجميعِ عسكرِ المسلمين لمُنازلةِ حِصنِ الكَركِ ، وهو من اعظمِ حُصونِ النصارى ، وهو المُعترِضُ في طريقِ الحجازِ والمانعُ لسبيل المسلمين على البَرِّ ، بينَه وبينَ القُدسِ مسيرةُ يومٍ أو أشفُ[2] قليلًا ، وهوَ سَرارةُ ارضِ فِلَسطين. وله نظَرٌ عظيمُ الاتّساعِ ، متَّصِلُ العِمارةِ ، يُذكَرُ أَنَّه ينتهي الى اربعمائةِ قَريةٍ ، فنازَله هذا السلطانُ وضيَّق عليه ، وطالَ حصارُه ، واختلافُ القَوافلِ مِن مصرَ الى دمشقَ ، على بلادِ الافرنجِ ، غيرُ مُنقطعٍ ، وتُجَّارُ النصارى ايضاً لا يُمنَعُ احدُهم منهم ولا يُعتَرَضُ ؛ وللنصارى على المسلمين ضريبةٌ يُؤَدونها في بلادِهم ، وهي من

١ * التبتيل : الانقطاع الى الله .
٢ * اشف : اكثر .

الإهانةِ على غايةٍ ، وتُجّارُ النصارى ايضاً يُؤدون في بلادِ المسلمين على سِلَعِهم ، والاتّفاقُ بينَهم ، والاعتدالُ في جميعِ الاحوالِ ، واهلُ الحربِ مشتغلون بحربِهم ، والناسُ في عافيةٍ والدُّنيا لمن غلَب .

هذه سيرةُ اهلِ هذه البلادِ في بلادِهم . والفِتنةُ الواقعةُ بين امراءِ المسلمين وملوكهم كذلك ، ولا تَعترِضُ الرعايا ولا التجّارَ فالأَمن لا يفارِقُهم في جميع الاحوالِ سلماً أو حرباً ، وشأنُ هذه البلادِ في ذلك اعجبُ من ان يُستوفى الحديثُ عنهُ .

ذكر مدينة صور

مدينةٌ يُضرَبُ بها المثَلُ في الحَصانةِ ، لا تُلقي لطالبيها بيدٍ طاعةً ولا استكانةً ، قد أَعدَّها الفرنجُ مَفزَعاً لحادثةِ زمانِهم ، وجعلوها مَثابةً لأَمانِهم ، هي انظفُ من عكّاً سِككاً وشوارعَ ، واهلُها الينُ طِباعاً وأجرى ، الى برِّ غُرباءِ المسلمين ، شَمائلَ ومَنازعَ ، فخلائقُهم اسجحُ[1] . ومنازلُهم اوسعُ وأفسحُ ، واحوالُ المسلمين بها اهونُ واسكنُ .

وأما حَصانتُها ومَنعتُها فاعجبُ ما يُحدَّثُ به ، وذلك أَنها راجعةٌ الى بابين : احدُهما في البرِّ والآخرُ في البحر ، وهو يُحيطُ بها الّا مِن جهةٍ واحدةٍ ، فالذي في البرِّ يُفضَى اليهِ بعدَ وُلوجِ ثَلاثةِ ابوابٍ ، أو اربعة ، كلّها في ستائرَ مشيّدةٍ ، محيطةٍ بالبابِ ؛ واَمّا الذي في البحر ، فهو مَدخلٌ بينَ بُرجينِ مشيّدَين الى مِيناء ، ليسَ في البلاد البحريّة اعجبُ وضعاً منها ، يُحيطُ بها سورُ المدينةِ من ثلاثةِ جوانبَ ، ويُحدِقُ بها من الجانبِ الآخرِ جِدارٌ معقودٌ بالجصِّ ، فالسُّفُنُ تَدخُلُ تحتَ السورِ وتُرسي فيه ؛ وتَعترِضُ ، بين البرجين المذكورَين ، سِلسِلةٌ عظيمةٌ ، تمنَعُ عندَ اعتراضِها الداخلَ والخارجَ ، فلا مَجالَ للمراكِبِ إلّا عندَ إزالتِها .

---

١ * اسجح : الطف .

وعلى ذلك البابِ حرّاسٌ وأُمناء لا يدخُلُ الداخلُ ، ولا يخرُجُ الخارجُ الا على أعينِهم ، فشأنُ هذه الميناء شأنٌ عجيبٌ في حُسن الوَضعِ .

ومن مشاهدِ زَخارفِ الدنيا ، المُحدَّثِ بها ، زِفافُ عَروسٍ ، شاهدناه بصُورَ في احدِ الايام عِندَ مينائِها ؛ وقد احتفلَ لذلك جميعُ النصارى رجالاً ونساءً ، واصطفُّوا سِماطَينِ ، عند باب العروس[1] المُهداةِ ، والبُوقات تُضرَبُ والمَزاميرُ ، وجميعُ الآلاتِ اللهَويّةِ ، حتى خَرَجَت تتهادى بين رَجُلَينِ يُمسِكانها من يمينٍ وشمال ، كأنَّهما من ذوي أرحامِها ، وهي في أبهى زيٍّ وافخرِ لِباسٍ ، تسحَبُ أذيالَ الحريرِ المذهَّبِ سحباً على الهيئةِ المعهودةِ من لِباسِهم ، وعلى رأسِها عِصابةُ ذَهَبٍ قد حُفَّت بشبكةِ ذهبٍ منسوجةٍ ، وعلى لَبَّتِها مثلُ ذلك مُنتَظِمٌ ، وهي رافلةٌ في حَلْيِها وحُلَلِها ، تمشي فِترًا في فِترٍ ، مشيَ الحَمامةِ ، أو سَيرَ الغَمامةِ . نعوذُ باللهِ من فِتنةِ المناظرِ ؛ وأمامَها جِلَّةُ رجالِها من النصارى في افخرِ مَلابِسِهم البهيَّةِ ، تَسحَبُ أذيالَها خلفَهم ، ووراءَها اكفاؤها ونظراؤُها من النصرانيّاتِ يَتَهادَين في انفسِ المَلابسِ ويَرفُلنَ في أرفلِ الحِلى . والآلاتُ اللَهويّةُ قد تقدَّمَتهم ، والمسلمون وسائرُ النصارى من النُظّارِ قد عادوا في طريقِهم سِماطَينِ يتطلَّعون فيهم ، ولا يُنكِرونَ عليهم ؛ فساروا بها حتى ادخلوها دارَ بعلِها ، واقاموا يومَهم ذلك في وليمةٍ .

مدينة بلارمة

وبَلارْمَةُ هذهِ مَسكَنُ مَلِكِهِمْ غِلْيامَ[2] . وهيَ أَحفَلُ مُدُنِ صِقلّيَّةَ وبَعدَها مِسّينَةُ . وشأنُ مَلكِهِم هذا عجيبٌ في حُسن السِّيرَةِ ، وهو كثيرُ الثِّقةِ بالمسلمينَ ، هُم أَهلُ دولتِه والمُرتَسِمونَ بخاصَّتِه[3] ، وعليهم يلوحُ رونقُ مَملَكتِه ، لأنَّهم مُتَّسِعونَ بالملابسِ الفاخِرَةِ والمراكبِ الفارهةِ . وما منهم الّا ومَن لهُ الحاشِيةُ والخَوَلُ والأَتباعُ .

١ * العروس : تستعمل للمذكر والمؤنث، فيقال رجل عروس ، وامرأة عروس .

٢ * غليام : هو غليوم الثاني الملقب بالصالح ملك من سنة ١١٦٦ الى ١١٨٩ على صقلية حارب الروم، ظفر بهم .

٣ * المرتسمون بخاصتهِ : اي اهل بطانتهِ .

ولهذا الملكِ القُصورُ المُشيَّدةُ والبساتينُ الأَنيقــةُ ولاسيما بحضرةِ مُلكهِ المدينةِ المذكورةِ .

ولهُ بمسّينةَ قصرٌ أبيضُ كالحمامةِ مُطِلٌّ على ساحــلِ البحرِ . وليسَ في مُلوكِ النصارى أترفُ في المُلكِ ولا أنعمُ ولا أرفهُ منــهُ . وهو يَتَشَبَّهُ في تَرتيبِ قوانينِ المُلكِ ووَضعِ اساليبهِ وتقسيمِ مَراتبِ رجالهِ وتَفخيمِ أُبَهةِ المُلكِ وإظهارِ زينَتهِ بملوكِ المُسلمينَ ، ومُلكهُ عظيمٌ جدًّا .

ولهُ الأَطِبَّاءُ والمُنجِّمونَ وهو كثيرُ الاعتناءِ بهم شديدُ الحِرصِ عليهم، حتى انهُ متى ذُكِرَ لهُ أنَّ طبيباً او مُنَجِّماً اجتازَ ببلدهِ أَمرَ بامساكهِ وأَدرَّ لهُ أرزاقَ معيشَتهِ .

ومن عجيبِ شأْنهِ المُتحدَّثِ بهِ أَنَّهُ يَقرأُ ويكتبُ بالعربيَّةِ وعلامتُهُ، على ما أعلمنا بهِ أَحدُ خدمَتهِ المُختصّينَ بهِ : أَلحمدُ للهِ حقَّ حمدهِ .

فلمَّا كان ليلةُ الثّلاثاءِ الثاني عشر لرمضانَ ركبنا في زَورقٍ مُتوجّهينَ الى مدينةِ بَلارْمَةَ . وسرنا قريباً من السّاحلِ بحيث نُبصرُهُ رأيَ العَينِ . وأرسل اللهُ علينا ريحًا شرقيَّةً رُخاءً طيّبةً زَجَتِ الزَّورقَ أَهنأَ تزجيةٍ[1] . وسرنا نُسرّحُ اللّحظَ في عمائرَ وقُرًى مُتَّصلةٍ وحصونٍ ومعاقلَ في قُنَنِ الجبالِ مُشرِفَةٍ .

وأَبصرنا عن يمينِنا في البحرِ تِسعَ جزائرَ[2] قد قامَت جبالًا مُرتَفِعةً على مَقرُبَةٍ، مِن بَرِّ الجزيرةِ، اثنتانِ منها تَخرُجُ منها النّارُ دائمًا . وأبصرنا الدُّخانَ صاعدًا مِنها ويَظهرُ بالليلِ نارًا حَمراءَ ذاتَ أَلسُنٍ تَصعَدُ في الجوّ ، وهو البُركانُ المشهورُ خبرُهُ .

وأُعلمنا أَنَّ خروجها من منافسَ في الجبلَينِ المذكورينِ يَصعدُ منهــا نَفَسٌ ناريٌّ[3] بقوَّةٍ شديدةٍ تكون عنه النارُ، وربما قُذِفَ فيها الحجرُ الكبيرُ فتُلقي به الى الهواءِ لقوةِ ذلك النَّفَس وتمنعهُ من الاستقرار والانتهاءِ الى القعرِ[4] وهذا من أعجبِ المَسموعاتِ الصحيحةِ .

١ * زجت الزورق : دفعتهُ دفعًا ليِّنًا

٢ * تسع جزائر : يريد الجزائر المعروفة بالايوليّة في شمالي جزيرة صقلية اسمها ليباري وفلكانو وسالينا واسترنبولي وبناريا وفليكوري واليكوري وليسكابيانكا وباسيلوزّو . امّا استرنبولي وفلكانو فلا يزالان يقذفان من منافسهما .

٣ * نفس ناري : ليس هذا النَّفَس الناري الّا الغــاز المستعمل اليوم للاستصباح . وهو بالبراكين كثيرٌ لاختلاط الهيدروجين بالكربون .

٤ * يريد ان هذا النَّفَس الناري الخارج من البركان بقوتهِ يرمي بالحجار ويمنعها ان تستقر في محلها وان تغوص الى قعر البركان .

وأمّا الجبلُ الشامخُ[١] الذي بالجزيرةِ المعروف بجبل النّار فشأنهُ عجيبٌ ، وذلك أنَّ نارًا تخرُجُ منه في بعضِ السّنين كالسَّيل العرمِ . فلا تمرُّ بشيءٍ إلا أحرقتهُ حتى تنتهيَ الى البحرِ . فتركبُ ثبجَهُ[٢] على سفحهِ حتى تغوصَ فيه . فسُبحان المُبدعِ في عجائبِ مخلوقاتهِ .

ذكر بلارمة

هيَ بهذهِ الجزائرِ أمُّ الحضارةِ . والجامعةُ بين الحسنَين غضارةً ونضارةً . فما شئتَ بها من جمالِ مَخبرٍ ومَنظرٍ . ومُرادِ عيشٍ يانعٍ أخضرَ . عتيقةٌ أنيقةٌ . مُشرقةٌ مؤنقةٌ . تتطلّعُ برأى فتّانٍ . وتتخايلُ بين ساحاتٍ وبسائطَ كلُّها بُستانٌ . فسيحةُ السككِ والشوارعِ . تروقُ الأبصارَ بحسنِ منظرها البارعِ . عجيبةُ الشّانِ . قُرطبيّةُ البنيانِ . مبانيها كلُّها بمنحوتِ الحَجرِ المعروفِ بالكذّانِ[٣] . يَشقُّها نهرٌ مَعينٌ ويَطّرِدُ في جنباتِها أربعُ عيونٍ قد زُخرفت فيها لملكها دنياهُ فاتّخذها حاضرةَ مُلكهِ الافرنجيّ . تنتظم بلبّتها قصورهُ انتظامَ العُقود في نحورِ الكواعبِ . ويتقلّبُ من بساتينها وميادينها بين نُزهةٍ وملاعبَ . فكم له فيها من مقاصيرَ ومصانعَ . ومناظرَ ومطالعَ . وكم له بجهاتها من دياراتٍ قد زُخرفَ بُنيانها ، ورُفّه بالاقطاعاتِ[٤] الواسعةِ رُهبانُها ، وكنائسَ قد صيغَ من الذهبِ والفضّةِ صُلبانُها . . .

وللمسلمين في هذه المدينةِ أرباضٌ قد انفردوا فيها بسكناهم عن النصارى . والاسواقُ معمورةٌ بهم وهُم التُّجّارُ فيها ويُصلّونَ الأعيادَ بخطبةٍ ودُعاؤهم فيها للعبّاسيّين .

ولهم بها قاضٍ يرتفعونَ اليه في أحكامهم .

ولهذه المدينةِ شَبَهٌ بقُرطُبَة أنَّ لها مدينةً قديمةً تُعرفُ بالقصرِ القديمِ هي في وَسطَ المدينةِ الحديثةِ . وعلى هذا المثال وضعُ قُرطُبةَ . وبهذا القصرِ ديارٌ كأنّها القصورُ المُشيَّدةُ . لها مناظرُ في الجوّ مُظلمةٌ تُحارُ الأبصارُ في حُسنها .

١ ـ الجبل الشامخ : يريد جبل اتنا ذا البركان المشهور .

٢ ـ الثبج : ما بين الكاهل والظهر ووسط كل شي .

٣ ـ الكذان : الحجارة الرخوة السهلة النحت .

٤ ـ الاقطاعات : يريد الاموال الموقوفة على الكنائس .

كنيسة بلارمة

ومن أَعجبِ ما شاهدناهُ بها من أُمور النَّصارى كنيسةٌ تُعرفُ بكنيسةِ الانطاكي[١] أبصرناها يومَ الميلادِ وهو يومُ عيدٍ لهم عظيمٍ . وقد احتفلوا لها رجالًا ونساءً فابصرنا من بُنيانِها مرأًى يعجزُ الوصفُ عنهُ ويقعُ القَطعُ بانّهُ أَعجبُ مصانعِ الدنيا المُزخرفةِ . جُدرُها الدَّاخلةُ ذهبٌ كلُّها وفيها من أَلواحِ الرُّخامِ المُلوَّنِ ما لم يُرَ مثلهُ قطُّ قد رُصِّعت كلُّها بفُصوصِ الذَّهبِ وكُلِّلت بأَشجارِ الفُصوصِ الخضرِ ونُظِمَ أَعلاها بالشَّمسيَّاتِ[٢] المذهَّباتِ من الزُّجاجِ ، فتَخطَفُ الابصارَ بساطِعِ شُعاعِها وتُحدِثُ في النُّفوسِ فتنةً .

وأُعلمنا أَنَّ بانيها الذي تُنسبُ اليه أَنفقَ فيها قناطيرَ من الذَّهب وكانَ وَزيرًا لجدِّ هذا الملكِ .

ولهذه الكنيسة صَومَعَةٌ[٣] قد قامت على أَعمدةٍ سَوارٍ من الرخامِ وعليها قُبَّةٌ على أُخرى ، سَوارٍ كُلُّها ، فتعرَفُ بصومَعَةِ السَّواري وهيَ من أَعجبِ ما يُبصَرُ من البنيانِ .

وزِيُّ النَّصرانيَّاتِ في هذه المدينةِ زِيُّ نساءِ المُسلمينَ . فَصيحات الأَلسنِ مُلتحفاتٌ مُتنقّباتٌ . خرَجنَ في هذا العيدِ المذكور وقد لبسنَ ثِيابَ الحريرِ المُذَهّبِ والتَحفنَ اللُّحُفَ الرَّائقةَ وانتقّبنَ بالنُّقَبِ المُلوَّنةِ ، وَانتَعَلنَ الأَخفافَ المُذهّبةَ ، وبَرَزنَ لكنائسهنَّ حاملاتٍ جميعَ زينةِ المُسلمينَ من التَّحلّي والتَّخضُّبِ والتَعطُّرِ . . .

وكان مُقامُنا بهذهِ المدينةِ سَبعةَ أَيَّامٍ . ونزلنا بها في أَحد فنادقها التي يَسكنها المُسلمون . . .

١ * كنيسة الانطاكي : هي اليوم تدعى المرطورانا باسم احد الاتقياء الذي انشأ بجوار الكنيسة ديرًا للراهبات وقد تولى على قسم منها الخراب . وكانت تسمى قديمًا الانطاكي وهو اسم بانيها جرجس بن مخائيل الانطاكي وكان نصرانيًا هاجر من المشرق وقد تعلم اللسان وبرع في الحساب وتهذب في شام بانطاكية وخدم تميم بن المعزّ بن باديس ثم انتقل بعد وفاته الى خدمة روجار الثاني ملك صقلية فاصطنعه وولّاه على اسطوله توفي سنة ١١٥٧ م

٢ * يريد بالشمسيات ان نوافذها العليا كانت تمثل شموسًا .

٣ * يريد بناء مرتفعًا فوق باب مدخلها على شكل كنائس القرون المتوسطة به تقرع الاجراس ومنه يستشرف على كل المدينة .

ابن العَذاري المرّاكُشيّ

(القرن الثالث عشر)

لا يعرف عن هذا المؤرّخ سوى انّه مَراكُشيّ ، وانه كتب تاريخه « البيان المُغرِب في اخبار المَغرِب » في القرن الثالث عشر (السابع الهجري) ويقول المستشرق دُزي في مقدّمته لهذا الكتاب : انه استحال عليه ان يجد شيئاً عن مؤلفه ، او ان يعثر على ما يفسّر الاسم الذي اعطاه اياه ابن الخطيب ، حتى انه لم يجد الّا لفظة عَذاري مستعملةً استعمال اسم علم ، ولا يَعلمُ اسمُ ابيه هي ام اسم اسرته.

بيد ان تاريخه يحتوي معلوماتٍ تاريخية خطيرةٍ ، وإنه لا كثر التواريخ تفصيلًا لأَخبار أُمويّي الاندلس ، وقد ادخل فيه قطعاً اخذها عن تاريخ الطّبري ، وعن مؤرخٍ اندلسي يدعى عَريب بن سعد القُرطبي.

آثـارُه

ليس لابن العذاري الا كتاب «البَيان المُغرِب في أخبار المَغرِب» اعتنى بتصحيحه وطبعه في ليدن سنة ١٨٤٨ المستشرق الالماني رَينهَرت دُزي (Dozy) .

وطبعته في سنة ١٩٥٠ مطبعة المناهل في بيروت على نسق حديث ، ضبطت فيه بعض الالفاظ بالشكل ، وصُحّح ما كان في النسخة القديمة من خطأ وتحريف مطبعيّ .

وهذا الكتاب في جزءَين : الاول في تاريخ المغرب ، والثاني في تاريخ الاندلس ، وقد طبع الجزء الاول منه على حدة المستشرق الفرنسي ليڤي پروڤنسال (Lévi-Provençal) . مصحّحاً ومضبوطًا ، واشار في طبعته هذه الى مجلد آخر من هذا التاريخ لم يطبع بعد .

فتح افريقية

ولاية عبدالله بن ابي سرح

هو عبدُ الله بن سعد بن ابي سَرْح العامري ، وكان يكتبُ الوحيَ لرسول الله صَلعَم ، فارتدَّ عن الاسلام ولِحقَ بالمشركين بمكة .

وكان معاوية بن ابي سفيانَ بمكةَ قد اسلمَ وحسُنَ اسلامُه ، فاتّخذه رسولُ الله صَلعم كاتباً للوحي بعد ابن ابي سرح ، فلمّا فتح النبيّ صَلعم مكةَ استجارَ عبدالله بن ابي سرح بدارِ عثمانَ رَضه فأخذ له عثمانُ الامانَ من النبيِّ صَلعم ، وكان ابن ابي سرح أخاً لعثمانَ من الرضاعة ، فحسُن اسلامُه من ذلك الوقت ، فلما افضَت الخلافةُ الى عثمانَ رَضه ولّاهُ على مُلكِ مصرَ وجُندِها فكان يبعَثُ المسلمين في جرائدِ الخيلِ فيُغيرون على اطرافِ افريقيَّةَ . فكتبَ الى عثمانَ يُخبِرُهُ بما نالَ المسلمون من عدوِّهم ، فكانَ ذلك السببَ في توجيهِ الجيشِ اليهِ وتقديمِه عليه ودخولِه به للغزوِ في افريقيَّة .

فخرجَ عبدُ الله بن ابي سرح من مصرَ في عشرين الفاً الى إفريقيّة ، وصاحبُها بِطريقٌ يقال له جُرجِير ، وكان سلطانُه من إطرابلسَ الى طنجة ، فبعثَ عبدُالله السّرايا في آفاقِ افريقيَّةَ ، فغنموا من كلِّ وجهٍ . والتقى عبدُ الله مع البِطريقِ[1] ، ضُحى النهارِ ، بموضعٍ يعرف بسُبَيْطِلَةَ ، وكان جُرْجِير صاحبُ إفريقيَّةَ والمغربِ في مائة وعشرين الفاً ، فضاقَ المسلمون في امرِهم واختلفوا على ابن سعدٍ في الرأي . فدخل فُسطاطَه مفكّرًا .

١ * البطريق : القائد من قواد الروم .

قال عبدُ الله بن الزُّبير : فرأيتُ عَورةً من جُرجير ، والناسُ على مَصافّهم ؛ رأيتُه على بِرْذَونٍ اشهبَ(١) ، خلفَ اصحابه ، منقطعاً عنهم ، معه جاريتانِ تُظلِّلانه من الشمسِ بريشِ الطواويس ، فأتيتُ فُسطاطَ(٢) عبدِالله بنِ سعد ، فطلبتُ الإذنَ عليهِ ، فقال لي حاجبُه : دَعه ، فإنه يُفكّرُ في شأنِكم ، ولو اتّجهَ له رأيٌ لظهرَ أو دعا بالناسِ .

فقلت : إني محتاجٌ الى مُذاكرتِهِ .

فقال : إنه أمرَني ان أحبِسَ الناسَ عنه حتى يَدعوَني .

قال : فدرتُ حتى كنتُ من وراءِ الفُسطاطِ ، فرأى وجهي ، فأومأ إليَّ برأسِه أن تعال ! فدخلتُ عليه ، وهو مُستلقٍ على فراشه ، فقال : ما جاء بك يا ابن الزُّبير ؟

قلت : رأيتُ عورةً(٣) من عدوِّنا فرجوتُ أن تكونَ فُرصةً هيأها اللهُ لنا وخشيتُ الفوتَ .

فقامَ من فَورِه وخرجَ حتى رأى ما رأيتُ ، فقال : أيُّها الناسُ انتدبوا مع ابنِ الزُّبيرِ الى عدوِّكم !

فتسارعَ اليَّ جماعةٌ اخترتُ منهم ثلاثين فارساً ، ثم قلت : إني حاملٌ ، فاصرِفوا عن ظَهري من ارادني ، وأنا كافيكم ما امامي ، إن شاءَ اللهُ تعالى .

قال : فحملتُ في الوجهِ ، الذي هو فيه ، حتى خرَقتُ صُفوفَهم الى ارضٍ خاليةٍ فضاء بيني وبينهم ، فما حسِبَ إلّا أني رسولٌ ، حتى رأى ما بي من أثرِ السِّلاحِ فقدَّرَ أني هاربٌ اليه ، فلمّا ادركتُه طعنتُه ، فسقطَ ، فرميتُ بنفسي عليه ، والقَت جاريتاه عليه انفسَهما فقطعتُ يدَ إحداهما واجهزتُ عليه ؛ ورفعتُ رأسَه على رُمحي ، وجالَ اصحابُه ، وحمَلَ المسلمون في ناحيتي ، وظفروا ، وانهزمَ الرومُ وقتلَهم المسلمون كيف شاؤوا . وثارت الكمائنُ

١ * البرذون ، في المغرب : التركيّ من الخيل ◎ الاشهب : ما كان لونه ابيض يتخلله السواد .

٢ * الفسطاط : بيت من شَعر .

٣ * عورة : اي خللًا في الجيش .

من كل جهةٍ ومكانٍ ، وسَبَقَتْ خيولُ المسلمين ورجالُهم الى حُصن سُبَيطلةَ ، فمنعوهم من دخولِهِ ، وركّبهم المسلمون يميناً وشمالًا في السهلِ والوعرِ ، فقتلوا أنجادَهم وفُرسانهم ، واكثروا فيهم الإسارَ ، حتى لقد كنتُ أرى في موضعٍ واحدٍ اكثرَ من الفِ اسيرٍ .

وبعث ابنُ ابي سرحٍ السرايا والغاراتِ من مدينة سُبَيطلة ، فبلغَت خيولُه قصورَ قَفْصةَ ، فسَبَوا وغنِمُوا .

قال : أذلّت تلك الوقعةُ الرومَ بافريقيَّةَ ، واصابَهم رُعبٌ شديدٌ ، فلجأوا الى الحصونِ والمعاقِل ، ثم طلبوا من عبدالله بن سعد ان يَقبلَ منهم ثلاثمائة قنطارٍ من الذهب ، على ان يكُفَّ عنهم ، ويَخرُجَ من بلادِهم . فقبِلَ ذلك منهم ، وقبضَ المالَ . وكانَ في شرطِ صُلحِهم أنَّ ما أصاب المسلمون قبلَ الصُّلحِ فهو لهم ، وما اصابوه بعدَ الصلحِ ردّوه عليهم .

ولاية حسان بن النعمان افريقية

وفي سنة ٧٨ قدم حسَّانُ بنُ النعمانِ افريقيَّة ، اختاره لها عبدُ الملك بنُ مروان ، وقدَّمه على عسكر فيه اربعون الفاً . أقامَه اولًا في مصرَ بالعسكر عُدَّةً لما يحدُثُ ، ثم كتبَ اليه يأمُرُه بالنهوضِ الى افريقيَّةَ ، ويقولُ له : إني قد اطلقتُ يدكَ في اموالِ مِصرَ فأعطِ من معَك ومن وردَ عليك ، وأعطِ الناسَ ، واخرُجْ الى بلادِ افريقيَّة على بَرَكَةِ اللهِ وعونه .

حسان وفتح قرطاجنة

نسبه : هو حَسَّانُ بنُ النُّعمانِ بنُ عديٍّ بنِ بكرٍ بنِ مُغيثٍ بن عمرو ، مُزيقيا بنِ عامرٍ بنِ الازد . قدِمَ إفريقيّـةَ في عسكرٍ عظيمٍ ، فلم يدخُلِ المسلمون قطُّ افريقيّةَ بمثلِ ما دخلها حسانُ بن النعمان . فلما حصَلَ بالقيروانِ سألَ اهل افريقيةَ : من اعظمُ الملوكِ بها قدرًا ؟

فقالوا : صاحبُ قُرطاجَنَّةَ دارِ مُلكِ افريقيـةَ . فسار حسَّانٌ حتى نزَلَ

عليها ، وكانَ بها من الرومِ خلقٌ لا يُحصى كثرةً ، فخرجوا إليه مع ملكهم فقاتلهم حسّانٌ حتى هزمهم وقتلَ اكثرَهم ، ثم نازلها حتى افتتحها ، وهي كانت دارُ الملكِ في افريقية .

ذكر قرطاجنّة افريقية

ويسمّيها اهلُ تونسَ اليومَ المُعلّقةَ ؛ وكانت قرطاجنةُ مدينةً عظيمةً تضربُ امواجُ البحرِ سورَها ، وهي من مدينةِ تونسَ على اثني عشر ميلًا ؛ وكان بينَها قُرى عامرةٌ ، وكانَ البحرُ لم يَنحرِف الى تونسَ . وإنما انحرفَ بعدَ ذلك .

وفي هذهِ المدينةِ آثارٌ عظيمةٌ ، وابنيةٌ ضخْمةٌ ، واعمدةٌ ناتئةٌ . تدلُّ على عِظَمِ قُدرةِ الأُممِ الداثرة . واهلُ تونسَ ، إلى الآنِ ، لا يزالون يَطّلِعون ، في خرابِها ، على أعاجيبَ ومصانعَ لا تنقطِعُ بطولِ الأزمانِ لمتأملٍ . فلما وصلَ حسّانٌ اليها . وقتلَ فُرسانَها ورجالَها . اجتمعَ رأيُ من بَقِيَ بها على الفِرارِ منها ، وكانت لهم مراكبُ كثيرةٌ ، فمنهم من مضَى الى صِقِلّيةَ ، ومنهم من مضَى الى الأندلسِ . فلما انصرفَ عنها حسّانٌ ، وعلِمَ اهلُ بَواديها واقاليمها هُروبَ المِلكِ عنها ، بادَروا اليها ، فدخلوها فرحلَ اليها حسانٌ ونزَلَ عليها ، فحاصرها حِصارًا شديدًا ، حتى دخلَها بالسيفِ . فقتَلهم قتلًا ذريعاً وسباهم ونهَبهم .

وأرسلَ لِمن حوالَيها ، فاجتمعوا اليه مسارعين ، خوفاً من عظمِ سطوته وشدّةِ بأسِه ، فلما أتوه ، ولم يبقَ منهم احدٌ ، أمرَ بتخريبِ قرطاجنّةَ وهدمَها ، فخرّبها ، حتى صارت كأمسِ الغابرِ .

ثم بلغَه أن النصارى اجتمعوا وامدَّهم البربرُ . وكانوا بعسكرٍ عظيمٍ ، في بلادِ مَطفُورةَ ، فرحلَ اليهم حسانٌ . حتى لقِيَهم وقاتلَهم ، حتى هزمَهم وقتلَ الرومَ والبربرَ قتلًا ذريعاً ، وحملَ عليهم أعنّةَ خيلِه ، فما تركَ من بلادهم إلّا وطِئَه ولجأَ الرومُ هاربين ، خائفين ، الى مدينةِ باجّةَ ، فتحصّنوا بها ، وهرب البربرُ الى اقليم بُونةَ ، وانصرفَ حسّانٌ الى القيروانِ .

حسّانٌ والملكةُ الكاهنةُ وهزيمتُها له

لمّا دخلَ حسّانٌ القيروانَ أراحَ بها اياماً ، ثم سألَ اهلَهـا عمّن بَقيَ من اعظمِ ملوكِ إفريقيّةَ ليسيرَ اليه ، فيبيدَه ، أو يُسلِمَ ، فـدلّوه على امرأةٍ بجبلِ اوراسَ ، يقال لها الكاهنةُ ، وجميعُ من بافريقيّةَ مِن الرومِ ، منهـا خائفون ، وجميعُ البربرِ لها مُطيعون ، فإن قتَلتَها دانَ لك المَغربُ كلّه ، ولم يبقَ لك مضاهٍ ولا مُعانِد .

فدخلَ بجيوشِه اليها ، وبلَغَ الكاهنةَ خَبرُه ، فرَحلت من الجبلِ في عددٍ لا يُحصى ، ولا يُبلَغُ بالاستقصا . وسَبقَته الى مدينةِ باغايةَ فاخرَجت منهـا الرومَ ، وهدَمَتها . وظنّت أنَّ حسّاناً يُريدُ مدينةً يَتحصّنُ بها منها . فبلَغَ خَبرُها حسّاناً ، فنَزلَ بِوادي سَكتاتَةَ ، فرَحلت الكاهنةُ ، حتي نزَلَت على الوادي المذكور ، فكانَ هو يشرَبُ من أعلى الوادي ، وهي من اسفلِه .

فلما تَوافَتِ الخيلُ دنا بعضُهم من بعضٍ ، فأبى حسّانٌ أن يقـاتِلَها آخرَ النهارِ ، فباتَ الفريقان ليلَتَهم على سروجِهم . فلما اصبحَ الصباحُ التقى الجمعان فتقاتلوا قتالًا لم يُسمع بمثلِه ، وصبر الفريقان صبرًا لم يَنسُبه احدٌ الى بعضِه ، فضلًا عن كلّه ، الى أنِ انهزمَ حسّانُ بنُ النعمانِ ومن معـه من المسلمين الشجعانِ ، وقَتلتِ الكاهنةُ العربَ قتلًا ذريعاً ، وأسرت ثمـانين رجلًا من اعيانِ اصحابِه ، وسُمِّيَ ذلك الوادي واديَ العَذارى ، واتّبعته الكاهنةُ ، حتى خرَجَ من عملِ قابِسَ .

فكتبَ حسّانٌ الى اميرِ المؤمنين ، عبدِ الملكِ ، يُخبِرُه بذلـك ، وأَنَّ أُممَ المغربِ ليس لها غايةٌ ، ولا يقفُ احدٌ منها على نهايةٍ ؛ كلّما بادَت أُمّةٌ خلَفَتها أُممٌ ، وهم من الحَفلِ والكَثرةِ كسائمةِ النَّعَمِ[1] .

فعادَ اليهِ جوابُ اميرِ المؤمنين يأمره أن يُقِيمَ حيثُما وافاهُ الجوابُ . فوردَ

[1] * سائمة النعم : الابل الراعية

عليه في عَمَلِ بَرقةَ ، فاقامَ بها . وبنَى هنالك قُصورًا تُسمّى الى الآن بقُصور حسَّانٍ .

ومَلَكتِ الكاهنةُ المغرِبَ كلَّه بعدَ حسَّانٍ خمسَ سنين ؛ فلما رأت إبطاءَ العرَبِ عنها قالَت للبربرِ : إنَّ العرَبَ إنّما يَطلبُون من افريقيَّةَ المدائنَ والذَّهبَ والفِضَّةَ ، ونحنُ إنَّما نُريدُ منها المَزارعَ والمَراعيَ ، فـلا نَرى الحكمَ إلّا خرابَ بلادِ افريقيةَ كلِّها ، حتّى يَيئسَ مِنها العربُ ، فـلا يكونَ لهم رجوعٌ اليها الى آخرِ الدهرِ .

فوَجَّهت قَومَها الى كلِّ ناحيـةٍ يَقطَعون الشَّجرَ ويَهدِمون الحُصونَ ، فذكَروا أنَّ إفريقيَّةَ كانت ظِلًّا واحدًا من إطرابلُسَ إلى طنجـةَ ، وقُرى مُتَّصِلةً ، ومَدائنَ منتظمةً ، حتّى لم يكن ، في اقاليمِ الدنيا ، اكثرَ خيراتٍ ، ولا أوصلَ بركاتٍ ، ولا اكثرَ مدائنَ وحصونًا ، من اقليمِ افريقيَّةَ والغربِ ، مسيرةَ الفَي ميلٍ في مثلِه ، فخرَّبتِ الكاهنةُ ، انهَا اللهُ ، ذلـك كلَّه وخرَجَ يَومئذٍ من النَّصارى والأفارقةِ خلقٌ كثيرٌ . مُستغيثين مما نزل بهم من الكاهنة ، فتفرَّقوا على الاندلسِ وسائرِ الجُزُرِ البحريةِ .

وكانتِ الكاهنةُ ، حين أَسرت ثمانين رجلًا من اصحابِ حسَّانٍ ، احسنَت اليهم ، وأرسلَت بهم اليه ، وحبَسَت عندَها خالدَ بنَ يزيدَ . فقالَت له يومًا ! ما رأيتُ في الرجالِ اجملَ منك ولا اشجعَ ؛ وأنا أُريدُ ان أُرضِعَك ، فتكونَ أخًا لولديَّ .

وكان لها ابنانِ احدُهما بربريٌّ والآخرُ يونانيٌّ . وقالت له : نحنُ ، جميعَ البربر ، لنا رِضاعٌ ، اذا فَعَلناه نتوارثُ به . فعَمَدت الى دقيقِ الشعيرِ فلَتَّته بزيتٍ وجعَلَته على ثَديَيها ، ودَعَت ولَدَيها وقالَت : كُلا معـه على ثَديَيَّ ، وقالَت لهم : قد صِرتُم أخوةً .

مقتل الكاهنة الملكة

ثمَّ أَنَّ حَسَّانًا تَوافَت عليه فُرسانُ العربِ ورجالُها من قِبَلِ اميرِ المؤمنين ، فدَعا برجلٍ يَثِقُ به وبعثَه الى خالدِ بن يزيـدَ بكتابٍ ، فقرأه وكتبَ في

ظهرهِ : انّ البربرَ متفرقون لا نِظامَ لهم ولا رأيَ عندَهم ، فاطوِ المراحلَ ، وجُدَّ في السَّيرِ . وجعلَ الكِتابَ في خُبزةٍ ، وجعلَها زادًا للرجلِ . ووجَّهه بها الى الاميرِ حسَّانٍ ، فلم يغِبْ عنه الّا يسيرًا ، حتى خرَجَت الكاهنةُ ناشرةً شعرَها ، تضرِبُ صدرَها وتقولُ : ويلَكم ، يا معشَرَ البربرِ ، ذهَبَ مُلكُكم فيما يأكلُه الناسُ !

فافترقوا ، يميناً وشمالًا ، يطلُبون ذلك فستَره الله تعالَى ، حتى وَصلَ حسَّاناً ، فكسَرَ الخُبزةَ ، وقرأ حسانٌ الذي كتَبه اليه خالدٌ ، فوجدَه قد أَفسَدتهُ النارُ ، فقال له حسانٌ : ارجِع اليه !

فقالَ الرجلُ : إنّ المرأةَ كاهنةٌ لا يَخفى عليها شيءٌ من هذا .

فرَحلَ حسانٌ إليها ، وبلغَ الكاهنةَ خبرُه ، فرَحلت من جبلِ اوراسَ في خَلقٍ عظيمٍ ، ورحَلَ اليها حسانٌ . فلما كان الليلُ قالت لابنَيها : إني مقتولةٌ . واعلَمَتهم أنها رأت رأسَها مَقطوعاً ، موضوعاً بين يدي ملِكِ العربِ الاعظمِ ، الذي بعثَ حسّاناً .

فقالَ لها خالدٌ : فارحلي بنا وخلّي له عن البلادِ .

فامتنَعَت ورأته عارًا لقومِها .

فقالَ لها خالدٌ واولادُها : ما نحنُ صانعون بعدَكِ ؟

فقالت : أمّا انتَ يا خالدُ فتُدرِكُ مُلكاً عظيماً عندَ الملِكِ الاعظمِ ، وامّا أولادي فيُدرِكون سُلطاناً مع هذا الرجلِ الذي يقتُلُني ، ويَعقُدون للبربرِ عِزًّا .

ثم قالت : اركبوا واستأمِنوا اليه[1] !

فركبَ خالدٌ واولادُها في الليلِ ، وتوجَّهوا الى حسَّانٍ ، فأخبَرهُ خالدٌ بخبرِها وأنَّها علِمَت قتلَها ، وقد وجَّهت اليك أولادَها . فوكَّلَ بهما من يحفظُهما ؛ وقدَّمَ خالدًا على اعنَّة الخيلِ ، وخرَجت الكاهنةُ ناشرةً شعرَها ، فقالَت : انظرُوا ما دَهمكم فإني مقتولةٌ .

١ * استأمنوا : اطلبوا الامان.

ثم التحمَ القتالُ واشتدَّ الحربُ والنزالُ ، فانهزمت الكاهنةُ واتّبعها حسانُ حتى قتلها .

وكان مع حسانٍ جماعةٌ من البربرِ استأمنوا اليه ، فلَم يقبَل أمانَهم ، الا ان يُعطوه من قبائلهم اثني عشرَ الفاً ، يجاهدون مع العربِ ، فأجابوه وأسلموا على يدَيه . فعقَدَ لولدَي الكاهنةِ ، لكلِّ واحدٍ منهما على ستةِ آلافِ فارسٍ ، واخرَجهم مع العربِ يجولون في المغربِ ، يقتُلون الرومَ ومن كفَر من البربرِ ، وانصرفَ حسانٌ الى مدينةِ القيروانِ بعدَ ما حسُنَ اسلامُ البربرِ وطاعتُهم . وذلك في شهر رمضانَ سنة ٨٢[١] . وفي هذهِ السنةِ استقامَت بلادُ افريقيَّة لحسانِ بن النعمان فدوَّنَ الدواوينَ وصالحَ على الخراجِ ، وكتَبه على عجمِ افريقيةَ ، وعلى من أقامَ معَهم على دينِ النَّصرانيَّةِ .

واقامَ حسانٌ بعدَ قتلِ الكاهنةِ لا يغزو احدًا ، ولا يُنازعُه احدٌ ، ثم عزلَه عبدُ العزيز بنُ مروانَ الوالي على مصر ، وكانَ الوالي على مصرَ يولّي على افريقية .

فتح الاندلس

ذكرَ عيسى بنُ محمدٍ ، من وُلدِ ابي المهاجرِ ، في كتابهِ ، في السببِ في دخولِ طارقٍ الاندلسَ ، وهو : أنَّ طارقاً كانَ والياً لموسى على طَنجةَ ، وكانَ يوماً جالساً ، إذ نظرَ الى مَراكبَ قد طلَعَت في البحرِ ، فلمّا أرسَت خرَجوا اليها فنزعُوا ارجلَها[٢] ، وانزلُوا اهلَها ، فقالوا : اليكم جئنا عامدين[٣] ؛ وعظيمُهم معهم يقال له يُليانُ ، فقال طارقٌ : ما جاءَ بك ؟ فقال له : ان ابي ماتَ فوثَب على مُلكِنا ومَملكتِنا بطريقٌ يقالُ له أُذَريقِ ، فاهانَني ، واذلَّني . وبلغَني أمرُكم فجئتُ اليكم ادعوكُم الى الاندلسِ واكونُ دليلًا لكم .

١ * ٧٠١ م
٢ * لعلّه اراد بارجلها مجاذيفها .
٣ * عامدين : قاصدين .

فاجابَه طارقٌ الى ذلك ، واستنفرَ البربرَ ، وذلك اثني عشرَ الفاً ، فحملَهم يُليانُ في المراكِبِ فَوجاً بعد فوجٍ .

وذكَرَ غيرُه أن السببَ في ذلك أنّ طنجةَ وسَبتَة والخضرا[1] وتلك الناحيةَ كانت في مملكةِ صاحبِ الاندلسِ ، على نحوِ ما كانَتِ السواحلُ كلُّها بالعَدْوةِ ، وما قرُبَ منها الرومِ ، ويسكنُونها إذ كانَ البربرُ يرغبون عن سُكنى المدنِ والقُرى ، وإنما بغيتُهم سُكنى الجبالِ والصحاري ، اذ كانوا اصحابَ إبلٍ وسوائمَ ؛ وكان النصارى في صُلحِهم .

وكانت السُّنَّةُ في الاندلسِ ، في ملوكِ النصارى ، أن يستخدموا بني بطارقتِهم وكبارِ رجالِهم ، فالرجالُ منهم يخدُمون خارجاً ، والنساءُ جوارٍ يَخدُمنَ داخلًا ، وهكذا سُنَّتُهم ، الى اليومِ ، في الرجالِ خاصَّةً يخدُمون صِبياناً يتأدّبون بادبِهم ويتعلمون سُنَّتَهم ، فإذا ادركُوا ، أو كبُروا ألحقوهم برجالِهم وأهليهم .

وكان ملِكُ الاندلسِ من القُوطيّين يُسمَّى لُذَريق قد مدَّ يَده الى ابنة يليانَ ، وكانت عندَه ، فأرسلت الى أبيها ، ودسَّت اليه ، فلما بلغَه ذلك أحفظَه[2] وكتمه ، وارتصدَ له الأيامَ ، ونصبَ له الغَوائلَ ، حتى كانَ من دخولِ العربِ المغرِبَ ما كانَ .

وأرسل لُذَريق الى يليانَ في بُزاةٍ وطيورٍ وغيرِها ، فارسلَ اليه لأُورِدَنَّ عليك طيرًا لم تَسمَع قطُّ بمثلِها ؛ وهو يَنوِي الغدرَ به ، فحينئذٍ دعا طارقاً الى ما كانَ عليه من جَوازِ[3] البحر .

واختلَفتِ الرواياتُ في قِتالِ طارقٍ اهلَ الاندلسِ ، فقيل إنّ لُذَريقَ زَحفَ الى طارقٍ بجميعِ اهلِ القُوّةِ من اهلِ مملكتِه بنفسِه ، وهو على سريرِ مُلكِهِ ، على بَغلَينِ يَحملانِه ، وعليه تاجه وجميعُ الحِليةِ[4] ، فخرج اليهم

١ * الجزيرة الخضراء

٢ * احفظه : اغضبه .

٣ * جواز : اجتياز ، قطع .

٤ * الحلية : ما يُتزيّن به من مصوغ المعدنيات .

طارقٌ بجميعِ اصحابِـه ، رَجّالةً ليسَ فيهم راكبٌ الا القليلَ ، فاقتَتلوا قتالًا شديدًا ، حتّى ظنُّوا أنه الفَنا ، ثمّ صرَفَ اللهُ وجوهَ اعدائِهِ ، فانهزَموا ، وأدركَ[1] لُذريقَ ، فقُتلَ في وادي الطّين . ومضَى فدخَلَ قُرطُبةَ ؛ وفتحَ اللهُ الاندلسَ على المسلمين . هكذا ذكرَ عيسى في كتابهِ .

وذكرَ الرازيّ أنّه لما بَلَغَ لُذريقَ خبرُ طـارقٍ ومن معه ، ومكانُهم الذي هم فيه ، بعثَ اليهِ لُذريقُ ابنَ أختٍ له يُسمَّى بنجَ . وكان اكبرَ رجالِه ، فكانوا عندَ كلّ لِقاءِ يَهزِمون ويَقتُلون ، وقُتـلَ بَنجُ ، وهُزِمَ عسكرهُ ، فقَوِيَ المسلمون ، وركّبوا الرّجالةَ الخيـلَ ، وانتشروا بناحيتِهم التي جازوا اليها .

ثم زحفَ لُذريق اليهم بجميعِ عساكرهِ ورجالهِ واهل مملكتهِ ، وهو على سريرِ مُلكهِ ، كما تقدمَ ، فلمّا انتهى الى الموضعِ الذي فيه طارقٌ خرَجَ اليه ، فاقتَتلوا على وادي لـكّةَ ، من كُورةِ شَذونَة ، يومَهم ذلـك ، وهو يومُ الاحدِ ، لليلتين بقِيَتا من رمضـانَ ، من حينَ بزَغتِ الشمسُ الى أن توارت بالحِجابِ ؛ ثم اصبحوا يومَ الاثنينِ على الحربِ ، حتى الى المساء ، وتمادَت ايامُهم كذلك الى يومِ الاحدِ الثاني ، فتمّت ثمانيةَ ايامٍ ، وقتَلَ اللهُ لذريقَ ومن معَه وفتحَ للمُسلمين الاندلسَ ولم يُعرَف للذريقَ موضِعٌ ، ولا وُجدَت له جُثةٌ ، وإنّما وُجِد له خُفٌّ مفضَّضٌ ، فقـالوا : انه غرِقَ ، وقالوا : إنه قُتِلَ ، واللهُ اعلمُ .

ما افتتَحه طارقُ سنة ٩٢[2] من الهجرة

أوّلُ فتُوحاتِه جبلُ الفَتحِ ، المُسمَّى بجبلِ طارقٍ ، وذلـك لمّا جازَ المسلمون ونزَلُوا في المَرسى ، وهم عربٌ وبربرٌ ، حاولوا الطُّلوعَ في الجبـلِ ، وهو حجارةٌ ، حَرِشٌ[3] ، فوطّؤوا[4] للدوابِّ بالبَراذعِ ، وطَلَعوا عليهـا ، فلما

١ ـ الضمير عائد الى طارق.

٢ ـ ٧١٠ م

٣ ـ الحرش : الخشن.

٤ ـ وطؤوا : مهّدوا.

حَصَلوا في الجبلِ بنَوا سُورًا على انفسِهم يسمَّى سورَ العربِ ، وقيـل إنَّهم فتَحوا ، من حينِهم ، حُصنَ قَرطاجنَّةَ ، وكانَ في سفحِ هذا الجبلِ من نَظَرِ[١] الجزيرةِ الخَضرا ، فلما بلَغَ ذلك ملوكَ الانـدلسِ نفَروا الى لذريقَ ، وكان جبَّارًا طاغيةً ، فاستنفرَ النَّصرانيةَ ، فقيل إنه بعَث الى المُسلمين الجيشَ بعثًا بعدَ بعثٍ ، فكانوا يُهزَمون ويُقتَلون .

جواز موسى بن نصير الى الاندلس

وفي سنة ٩٣[٢] جـاز موسى بنُ نصيرٍ الى الأندلس ، فعبرَ البَحر غاضباً على طارقٍ ، ومشَى على خَيرِ طريقةٍ ، وفتحَ فُتوحاً كثيرةً .

واتفقَ الاكثرون على أن لقاءَهما كان على طُلَيطلةَ ، فخرجَ اليـه طارقٌ معظِماً ، ومبادرًا لطاعتِه ، فوبّخه موسى ، وغضِبَ عليه ، وقيل : إنه وضَع السَّوطَ على رأسِه . وقِيل : إنه ضرَبه اسواطاً كثيرةً وحلَقَ رأسَه ثم سارَ به الى طليطلةَ ، وقال له أحضِر لي ما اصبتَ ، وبالمائدة[٣] ، فأتاه بها وقـد اقتلعَ رِجلًا من أرجُلِها ، فقال لهُ : اينَ الرجلُ ؟ فقالَ : هكذا وَجدتُها . فأمرَ مُوسى ، فعَمِلَ لها رِجلًا من ذهب ، وادخَلها في سفَطٍ[٤] .

واختلفتِ الرواياتُ عن موسى : لِمَ فعَلَ ذلك مع طارقٍ ؛ فمنهم من قال : إنما فعلَه بَغياً ونَفاسةً عليه ، واستدَلُّوا على ذلك بادِّعائه خِصالَ طارقٍ وأخذ المائدةِ عندَ الخليفة ؛ ومنهم من عذَرَه وقال : انما فعَلَ ذلك به لتقدُّمِه دونَ رأيِه ، وهو مَولاه ، وعلى توغُّلِه بالمسلمين وتغريرِه بهم .

انصراف موسى الى دمشق

وفي سنة ٩٥[٥] انصرفَ مُوسى ، منَ الاندلسِ الى افريقيَّةَ ، بما أفاءَ الله

١ * من النظر نظر : اي قريب مقدار مَرمى

٢ * ٧١١ م

٣ * وبالمائدة : اي وائتني بالمائدة .

٤ * السفط : الصندوق

٥ * ٧١٣ م

عليه ، فاجازَ الاموالَ ، من الذَّهَبِ والفِضَّـةِ والجَوهرِ ، في المراكبِ الى طنجةَ ، ثم حملَها على العَجلاتِ . ووَلَّى على الاندلسِ ابنَه عبدَ العَزيزِ .

قال الرقيقُ : كانَت وسَقَ مائة عجلةٍ واربعَ عشرةَ عجـلةً ؛ وكانت المائدةُ من ذَهبٍ يشوبُه شيءٌ من فضةٍ مطوَّقةٍ بثلاثةِ اطواقٍ : طوقٍ ياقوتٍ، وطوقٍ زَبَرجَدٍ ، وطوقٍ لُؤلُوءٍ ، وحُمِلت يوماً على بغلٍ عظيمٍ ، أفرهَ[1] واقوى ما وُجِدَ فما بلغَ المَرحلةَ ، حتّى تفتَّحت قوائمُهُ .

واختلفَ الناسُ هَل دخلَ موسى القَيروانَ في هذه الوُجهةِ أم لا ؟ ثم رحل عنها مع بقيَّةِ أولادهِ : مروانَ وعبدِ الأعلى وغيرِهما ، ومعه اشرافُ الناسِ ، حتى انتهى الى مِصرَ مُتوجّهاً الى فلسطينَ ، فتلقَّـاه آل روحِ بنِ زِنباعَ ، ونحرُوا له خمسين بعيرًا ، ثم خرجَ وتركَ عندهم بعض اهلِـه وصِغارَ وَلَدِهِ ، وأعطى رَوح بنَ زِنباعَ عطاءً جزْلًا ، ثم وافاه كتابُ الخليفةِ ، الوليـدِ بنِ عبدِ الملِكِ ، يأمرُه بشدِّ السَّيرِ اليه ، ليُدرِكَه في قَيد الحياةِ ، وكان مريضاً . ووافاه كتابٌ من سليمانَ بنِ عبدِ الملِكِ ، وليِ عهدِ أخيه الوليـدِ ، يأمرُهُ بالتأنّي والتربُّصِ ، فـاسرعَ موسى ، ولم ينظُر في كتابِ سليمانَ ، الى أن وَصلَ الى الوليدِ قبلَ موتِه بثلاثةِ ايامٍ ؛ فقال سليمانُ لَئن ظَفِرتُ به لاصلبنَّه . فدفعَ موسى الأَموالَ والمائدةَ والدُرَّ والياقوتَ والتِيجانَ والذهبَ والفضةَ الى الوليدِ بنِ عبد الملك .

وقال المسعوديُّ في كتابِه المُسمَّى بعجائبِ البلادِ والزَّمنِ ، قال : لمـا فتحَ طارقٌ طُلَيطلةَ وجد فيها بيتَ المُلوكِ ، ففتَحه فوَجَدَ فيـه زَبورَ داودَ عم[2] في ورَقاتِ ذَهبٍ ، مكتوبةٍ بماءِ ياقوتٍ محلولٍ ، من عجيبِ العمَلِ ، الذي لم يكَد يُرى مثلُه ؛ ومائدةَ سليمانَ عم ، وقد تقدّمَ وصفُها ، ووجـدَ فيه اربعةً وعشرين تاجاً منظومةً بعددِ ملوكِ القُوطيّين بالاندلسِ ، اذا تُوُفِّي احدُهم جُعلَ تاجه بذلك البيتِ ، وفعَلَ الملـكُ بعدَه لنفسهِ غيرَه ، جرَت

١ * افره : النشط . ٢ * عم : اي عليه السلام .

عوائدُهم على ذلك . ووجدَ فيه قاعــةً كبيرةً مملوءةً بإكسيرِ الـكيمياء[١] ، فجعلَ ذلك كلّه الى الوليدِ بنِ عبدِ الملكِ .

وفي سنة ٩٦[٢] تُوُفّي الوليدُ بنُ عبدِ الملك ، في جُمادى الآخرةِ ، ووَلِيَ الخِلافةَ سليمانُ ، فغضِبَ على موسى غضباً عظيماً وأمرَ عليه فأُوقِفَ في يومٍ شديدِ الحرِّ في الشمسِ ، وكان رجــلًا بادناً ، ذا نسَمَةٍ[٣] ، فوقف حتى سقطَ مغشيًّا عليه .

وقال له سليمانُ كتبتُ إليك ، فلم تنظُر كِتابي ، هلمّ مائةَ الفِ دينارٍ !

فقال : يا اميرَ المؤمنين ! قد اخذتُم ما كانَ معي من الاموالِ ، فمن اينَ لي مائةُ الفٍ .

فقال سليمان : لا بدَّ من مائتَي الفٍ . فاعتذرَ ، فقال لا بدَّ من ثلثمائةِ الفِ دينارٍ ، وأمر بتعذيبِه ، وعزَمَ على قتلِه فاستجــارَ بيزيدَ بنِ المُهلّبِ ، وكانَت له حُظوةٌ عند سليمانَ ، فاستوهَبَه منه ، وقال : يُؤدِّي ما عندَه .

وقيل : إن موسى افتُدي من سليمانَ بالفِ الفِ دينارٍ . وكانَ مولِــدُ موسي ابن نصيرٍ سنة١٩[٤] ووفاته سنة ٩٨[٥] فكان عمره ٧٩ سنة . ومما ذكر في وفاتِه أنّه حجَّ مع سليمانَ ، فلما وصَلا المدينة قال موسى بن نصير لاصحابه : ليموتَنَّ ، بعدَ غدٍ ، رجلٌ قد ملأَ ذكرُهُ المشرِقَ والمغرِبَ .

عبد الرحمن بن معاوية ودخوله الى الاندلس

قال الرواةُ : وفي سنة ١٣٦[٦] ابتدأ عبدُ الرحمنِ بنُ معاويةَ بمــداخلةِ مَواليه من الأَمويّةِ بِالأندلسِ . وفي هذه السنةِ تفرّقَ وَلَدُ معاويةَ وولَــدُ هِشامٍ ، وكان مَن فيه بقيةٌ من ولَدِ مروانَ واميةَ ، فخرجَ عبدُ الرّحمنِ بنُ

١ * الاكسير ، في زعمهم : ما يلقى على الفضة وغيرها فيحوّله الى ذهب خالص .

٢ * ٧١٤ م

٣ * النسمة : الربو ، ضيق في الصدر .

٤ * ٦٤٠ م

٥ * ٧١٦ م

٦ * ٧٥٣ م

معاويةَ مختفياً من موضعٍ الى موضعٍ ، وهمُّه الأندلسُ ، لما كانَ في نفسِه من أمرِها ، ومن الأَثرِ المرويِّ عنه فيها ، فوصَلَ الى مِصرَ ، ثم سارَ منهـا الى برقةَ ، فبَقِي فيها مستترًا مدةً ، ثم رحَل عنها فأوغلَ في المغرِب .

قالَ بدرٌ مَولاه : فأدركتُه في الطريقِ ، وجَّهتْني اليـه أُمُّ الأَصبَغِ ، اختُه ، شقيقتُه ، بدينارَينِ وشيءٍ من جَوهرٍ ، يستعينُ بها على النفَقةِ والوُصولِ ، فوَصل الى إفريقيَّةَ ، وصاحبُها عبدُ الرحمنِ بن حَبيبٍ ، ومعَه يهوديٌّ قد خدمَ مسلَمةَ بنَ عبدَ الملكِ ، وسمِعَه يحدّثُه بخبرِ القُرَشيِّ ، الذي يـكونُ من بني اميةَ يتغلَّبُ على الاندلسِ ، اسمُه عبدُ الرحمنِ ، ذو ضَفرتَينَ[1] ؛ فنظرَ الى عبدِ الرحمنِ ، فوَجده بضفرتَين ، فقالَ لليهوديِّ : ويحَـك ! هذا هو المذكورُ وأَنا قاتلُه !

فقالَ له اليهوديُّ : إن يكُ ذلك لم تَقتُلْهُ .

ثم صارَ ابنُ حبيبٍ يقتُلُ الواصِلين اليهِ من بني اميةَ ، ويأْخُذُ اموالَهم ، فهربَ عبدُ الرحمنِ عن القَيروانِ . ونَحا يُريدُ الاندلُسَ ويشغَلُ نفسَهُ بهـا ، لما كانَ عندَه من الروايةِ في عِلم الحِدثانِ من قِبَلِ مسلمةَ بنِ عبـد الملكِ ، أَخِي جدّه وغيرِه ؛ فسار حتّى أَتى بلادًا من قبائلِ العربِ ، فنالَـه عندهم تضييقٌ ، وأَخبارٌ يطولُ ذِكرُها ؛ ثم هربَ من عندِهم حتى اتى نَفزَةَ ، وهم أَخوالُه ، فإن امّه كانت من سبيِهم .

قال بدرٌ : فجُزتُ إلى الاندلسِ واجتمعتُ بعبيدِ الله بن عثمانَ ، بساحلِ أَلبيرةَ ، في آخِر سنة ١٣٦[2] ، ثم انصرَفتُ في سنة ١٣٧[3] بعدَهـا ، وأَقمتُ عندَه مُدةً ، ثم كرَرتُ منصرفاً الى الاندلسِ في موالي عبدِ الرحمنِ .

حدّثَ عبدُ الرحمن قال : دخلتُ الاندلسَ ، وانا اضبَطُ جَليَّـةَ مسلمةَ ابنِ عبدِ الملك ، فإنّه اتى جَدِّي هشاماً يوماً ، فوجـدَني عنده صبيًّا ، فأمرَ

١ * ضفرتين : جديلتين .
٢ * ٧٥٣ م
٣ * ٧٥٤ م

جَدّي بتَنْحِيَتي ، فقال له مسلمةُ : دعه ، يا اميرَ المؤمنين ! فإنَّه صاحبُ بني امية ، ومُحيي دولتِهم بعدَ زوالِها ؛ فلم أزلْ أعرِفُ لي مزيّةً من جَدّي بعدُ.

وفي سنة ١٣٨[1] ، دخلَ عبد الرحمن بنُ معاويةَ الاندلسَ ، في غُرة ربيع الاول ، وهو ابو المالوك ، وكان خروُجه من المَركبِ بموضعٍ يُعرَفُ بالمَنكبِ ، ثم نزَلَ بقَريةِ طرَشَ ، من كُورةِ البيرةَ ، فأقبلَ اليه جماعةٌ من الأمويين ، وقد أُعِدَّ لِلأَميرِ ما يَصلحُهُ منَ المركَبِ والمنزِلِ والملبَسِ ، فغلُظَ امر ابن معاويةَ ، وأَقبلَ الناسُ من كلِّ مكانٍ اليه .

فكتبَ يوسفُ[2] الفِهريُّ الى جماعةِ الامويين يحذِرُهم ويخوِّفُهم ، فقالوا له : إنَّما اقبلَ ابنُ معاويةَ إلينا والى جماعةِ مَواليهِ يُريدُ المالَ ، ليسَ فيما يظُنُّ الاميرُ ، أَصلَحه اللهُ ، ولا فيما رُفِعَ اليهِ ؛ واعتذرُوا إليهِ بما أمكنَهم . وأَقبلَ وجوهُ الناسِ الى ابنِ معاويةَ وقالوا له : خِفنا مَكرَ الصُّميلِ[3] ، ولم نأمن غائلتَه ، فعرَّفنا الفِهريُّ بكذا وكذا .

وكانَ ابنُ معاويةَ يبيتُ في الجبالِ . ومضَى يوسفُ بنُ بَختٍ الى جُند الأُردُنِّ ، فأخذَ بَيعةَ جميعِهم ، ومضَى عبدُ الله بنُ خالدٍ إلى جُندِ حِمصَ ، ومضَى تَمامُ بنُ عَلقمَةَ الى اهلِ فَلسطينَ ، وأَقبلَ الناسُ من كلِّ مكانٍ .

فلما ضاقَتِ الاحوالُ بالفِهريِّ ، ولم يأتِه من الأجنادِ الا اليسيرُ ، ادار له الصُّميلُ الرأيَ ، وأمرَه بالمكرِ بابنِ معاويةَ والمُخادعةِ له ، ورَجا ذلك منه[4] لِحداثةِ سنِّه ، وقالَ له[5] : هو قريبُ عهدٍ بزوالِ نِعمةٍ ، فهو يَغتنِمُ ما تدعُوه اليه . ثمَّ انتَ ، بعدَ ذلك ، متحكِّمٌ فيه وفي الذين سعوا له . فاجمعَ رأيَه على تأنيسِه بأن يزوِّجه ابنتَه ويُسكِنَهُ في ايِّ الجُندينِ يُحبُّ : دمشقَ او الاردُنِّ ، أو يَسكُنَ بينَهُما ، ويصيرَ اليهِ أَمرُ الكُورتَينِ ؛ وبعثَ

١ * ٧٥٥ م

٢ * يوسف بن عبد الرحمن الفهري الاندلسي . ولّاه اهل الاندلس عليهم بعد ان تفاقم الخلاف بينهم واتفقوا عليه . قتل في طليطلة سنة ٧٥٩

٣ * الصميل بن حاتم : احد قواد الفهري ، مات في حبس عبد الرحمن بن معاوية .

٤ * الضمير عائد الى عبد الرحمن .

٥ * الضمير عائد الى الفهري .

اليهِ بِكُسوتَين ومَطِيَّتَين وخمسمائةِ دينارٍ ، ووجّه اليه كاتبَه خالدَ بنَ يزيدَ وقالَ له : اعرِفْ أمرَه ، وأيَّ جُندٍ عندَه ، وتأمَّل أخبارَه واخبارَ من معَه.

فخرَجَ في الليلِ ، مع أصحابِه ، واصبحُوا على ابن معاوية بالمال والكُسوةِ والمطيّتين ؛ ووجّه ايضاً الى بدرٍ فرساً ومائة دينار وكسوة ، فقبلَ ابنُ معاوية الهديَّةَ ، وكرِهَ التزويجَ . فتكلَّم خالدٌ بكلامٍ غليظٍ لابنِ معاويةَ إذ أبى التزويجَ ، فأمرَ به ، وضُمَّ الى وِثاقٍ ، وردَّ غيرَه الى يوسفَ ولم يرُدَّ عليه جواباً .

وكان يوسفُ قد كتبَ الى ابنِ معاويةَ كِتاباً ، وهذِه بعضُ فُصولٍ منه :

« أمّا بعدُ ، فقَد انتهى إلينا نزولُك بساحلِ المنكِبِ وتأبُّشُ[١] مَن تأبَّشَ اليكَ ، ونزَعَ نحوكَ من السُّرّاقِ واهلِ الخَترِ[٢] والغَدرِ ونَقضِ الأيمانِ المُؤكَّدةِ ، التي كذَبوا اللهَ فيها ، وكذَبونا ، وبهِ جلَّ وعلا نَستعينُ عليهم ، ولقد كانوا معنا في ذَرى[٣] كنَف ورفاهيةِ عيشٍ ، حتى غَمِصوا[٤] ذلكَ ، واستبدلُوا بالأَمنِ خوفاً ، وجنَحوا الى النَقضِ . واللهُ من ورائِهم محيطٌ . فإن كنتَ تُريدُ المالَ وسَعَةَ الجنابِ ، فإنّا أولى بك بحيثُ تُريدُ ؛ ثم لكَ عهدُ اللهِ وذِمّتُه بي ألَّا اغدرَكَ ، ولا امكِّنَ منكَ ابنَ عمّي ، صاحبَ افريقية ، ولا غيرَه » . في كلامٍ كثيرٍ .

قالَ ابنُ عِيسى فحدَّثني تَمّامُ بن علقمةَ أن عبدَ الرحمنِ لمّا أتاه كتابُ الفِهريّ بما فيه وبتزويجهِ ابنتَه ، اشارَ عليهِ كلٌّ من أتاه من العربِ والأُمويين ألّا يقبلَ ذلِكَ منه ، إلّا أن يَعتزِلَ له عن المُلكِ ويبايعَه ، وإلّا حاكمَه الى اللهِ ، وقالوا له : إنّه يمكُرُ بك ، ولا يفِي لك بشيء ، لأَنَّ وزيرَهُ ومالكَ امرِه الصُّمَيلُ ، وهو غيرُ مأمونٍ .

قال : فلما انكشفَ امرُنا عندَه بما أظهَرنا من الإبايةِ[٥] ، وبتجسّسِ

١ • تأبّش : تجمّع .
٢ • الختر : الخداع .
٣ • ذرى جانب ، ناحية .
٤ • غمص النعمة : لم يشكرها .
٥ • الإباية : الإباء .

كاتبهِ خالدِ بنِ يزيدَ ، رأينا أنْ نشهَرَ امرَنا ، فخَرجنا الى جِدار بنِ عمر ، والى جُندِ الأردُن ، واجتَمعنا اليهِ ، فأتيناه في ثلاثمائةِ فارسٍ من جماعةِ الأمويين ؛ وممَّن اقبلَ اليهِ من وجوه العربِ ، ثم كاتبنا اهلَ قِنَّسرينَ وفلِسطينَ ، فلما اقبلَت الينا رسلُهم بما اردنا ، نهضنا اليهم ، وكنّا قد وطَّنَّا على الموتِ وعزَمنا على ان نُقتلَ دونَه وعقَدنا له لِواءً ، وأقمنا معه ستةَ اشهرٍ نُبرِمُ له امورَه ، ونكاتبُ له الناسَ وكنَّا خرَجنا اليهِ في زيٍّ حسنٍ ، عندَ خروجِنا اليهِ بساحلِ البحرِ ، ثم انتقلَ من إلبيرةَ الى كورةِ ريَّةَ ، الى شَذُونةَ ، الى مُورور، الى كورةِ إشبيليةَ ، والناسُ يتلقَّونه بالبِشرِ والتَّرحيبِ، ويُعطونه من الانقيادِ والطاعةِ أَوفى نصيبٍ .

قال تمّامٌ : فدخَلنا ريّةَ في ستِّمائةِ فارسٍ ، وخرَجنا منها في الفَي فارسٍ ، وخرَجنا من إشبيليةَ إلى قُرطُبةَ في ثلاثة آلافِ فارسٍ . فلما اجتَمعَت لنا الجموعُ وبلَغَنا ما يُريدُ الفِهريُّ من الخُروجِ الينا ، كتَّبَ الاميرُ عبدُ الرحمنِ الكتائبَ وعبَّأَ الأجنادَ وخرجَ اليه ، ودعا برجلٍ من الأنصارِ ، فعقَدَ لِواءَه، وارتحلَ في جُنودِهِ ، حتى احتلَّ بقريةٍ على نهرِ قُرطُبةَ ، يومَ الاثنينِ لِستٍّ خلونَ من ذِي الحِجّةِ . وخرجَ الفِهريُّ الى المَصارةِ ، وأقاما ثلاثةَ ايامٍ متناظرَينِ ، والنهر حاجزٌ بينَهما بحَمْلِه ، ثم اصبحَ النهرُ ، يومَ الخميسِ ، وقد حسَر ماؤُه ، فعبَّأَ الاميرُ عبدُ الرحمنِ كتائبَه ، وتهيَّأَ للحربِ ، فقدَّمَ على قبائلِ العربِ احدًا من قُوَّادهِ ، وعلى البربرِ كذلك ، وهو ابرهيمُ بنُ شجرةَ ، وترَجَّلَ حُماةُ بني اميّةَ ، فحفُّوا بالاميرِ ، والأَميرُ على فرسِهِ متنكِّباً قوسَه ، فجاوزَ ، واقتربَ من المَصارةِ ، فتجاوزَ العسكرانِ وتقاربَ المُضطَربان ، وأقاما بقيةَ يومِهما في سكونٍ وهدوٍّ ، والرُسلُ تختلِفُ من قِبلِ يوسفَ يَرجون عقدَ الصُّلحِ .

فلما اصبحَ يومُ الجمعةِ التقَى الجمعانِ ، واستمرَّتِ الحربُ والقتالُ ، فمشَى العَلاءُ بن جابرٍ العُقيليُّ الى الصُّمَيلِ فقالَ له : يا ابا جَوشَنَ اتَّقِ اللهَ ،

فواللهِ ما أشبّهُ هذا اليومَ الا بيومِ المرجِ[١] ، وإن عارَه لخفّاقٌ علينا الى اليومِ ، فان الامورَ يُهتدى لها بالأقرانِ والأمثالِ : أمويٌّ وفِهريٌّ وقيسٌ واليَمن ؛ وهذا يومُ عيدٍ ويومُ جمعةٍ ، ويومُ المرجِ ايضاً يومُ جمعةٍ ، والامرُ واللهِ علينا ، لا شكَّ في ذلك ، فاتّقِ اللهَ واغتنِم بنا الامرَ انكونَ فيه أعِزّاءَ لا أتباعاً .

وكان العَلاءُ هذا من وجوهِ قيسٍ . ثم انهزم الفِهريُّ وأصحابُه ، واستقبلَ القصرَ ، فاعترضَ له عبدُ الأعلى بنُ عَوسجةَ ، وحالَ بينَهُ وبين دخولِه ، وردَّه عنه ، فولّى منهزماً الى سفحِ جبلِ قرطبةَ ، واستولى الاميرُ عبدُ الرحمنِ يومَه ذلك ، على المُلكِ ، وتمّت لـه بَيعةُ العامّةِ بقرطبةَ ، وتمادى يوسفُ الفِهريُّ في الفِرار ، الى إلبيرةَ .

خلافةُ عبد الرحمن

نسبُه : عبدُ الرحمن بنُ معاويةَ بنِ هِشامِ بن عبدِ الملك بنِ مروانَ بنِ الحكَمِ بنِ ابي العاصِي بنِ اميةَ . كنيتُه أبو المُطرِّفِ . امُّه بربريّةٌ من سَبيِ المغربِ ، تُسمّى رَاحاً او رَداحاً ، وفي عبدِ شمسِ بنِ عبدِ منافٍ يَلتقِي نسبُه بنسبِ رسولِ اللهِ صَلعَم . مَولِدُه بموضعٍ يُعرَفُ بديرِ حُسينةَ ، من دمشقَ ، سنة ١١٣[٢] . مـاتَ ابوه وتَركه صغيرَ السِنّ . وتُوفّي يومَ الثُلثاءِ لِستٍّ بقينَ من ربيعِ الآخرِ ، وقيلَ لعشرِ خلونَ من جُمادى الأُولى سنةَ ١٧٣[٣] ، ودُفِنَ بقَصرِ قُرطبةَ ، وقد بلغَ ٥٩ سنةً ، وقيل ٦٠ سنةَ ، فكانت مُدّةُ خَلافتِه ٣٣ سنةً و٤ اشهر ونصفاً . ودخلَ الاندلسَ ، وهو ابنُ ٣٥ سنةً ، أو نحوَها . بُويعَ له بقُرطبةَ ، يومَ الاضحى ، من سنة ١٣٨[٤] . . . نَقشُ خاتِمه : عبدُ الرحمنِ بقَضاءِ اللهِ راضٍ . صِفتُه : طويلُ القَدِّ ، أصهبُ ، أعورُ ، خفيفُ العارضينِ ، بوجهِه خالٌ . لَـه ضَفيرتانِ ، وكانَ يُسمّى صقرَ بني اميةَ . ولدُه الذكورُ ١١ ، والإناثُ ٩ .

١ * يوم المرج : هو يوم مرج راهط الذي انتصر فيه الامويون على قيس عيلان والزبيرية سنة ٦٨٤ ، وكان قائدهم الضحاك بن قيس الفهري ، فقتل في المعركة واستقام الامر لمروان بن الحكم الخليفة المرواني الاول .

٢ * ٧٣١ م

٣ * ٧٨٩ م

٤ * ٧٥٥ م

صقر قريش

وذُكِرَ أنّ أَبا جعفرٍ المنصورَ قال يوماً لبعض جلسائه : أخبِروني ! مَن صقرُ قريشٍ من الملوك ؟

قالوا : ذاك اميرُ المؤمنين ، الذي راضَ الملوكَ وسكَّنَ الزلازلَ وأبادَ الأعداءَ وحسم الادواءَ .

قال : ما قلتُم شيئاً !

قالوا : فمعاويةُ .

قال : لا !

قالوا : فعبدُ الملك بنِ مروانَ .

قال : ما قلتُم شيئاً !

قالوا : يا اميرَ المؤمنين ! فمن هو ؟

قال : صقرُ قريشٍ عبدُ الرحمن بنُ معاويةَ ، الذي عبرَ البحرَ وقطعَ القفرَ ودخلَ بلدًا اعجمياً منفردًا بنفسه ، فمصَّرَ الامصارَ ، وجنَّدَ الاجنادَ ودوَّنَ الدواوينَ وأقامَ مُلكاً عظيماً ، بعدَ انقطاعِه ، بحُسنِ تدبيرِه وشِدّةِ شكيمتِهِ . ان معاويةَ نهضَ بمَركبٍ حملَه عليه عُمَرُ وعثمانُ وذلَّلا له صَعبَه ؛ وعبدُ الملكِ ببيعةٍ أُبرمَ عَقدُها ؛ واميرُ المؤمنين بطَلَبِ عِزَتِه[1] واجتماعِ شِيعتهِ ؛ وعبدُ الرحمن منفردٌ بنفسِه ، مؤيدٌ برأيهِ ، مُستصحِبٌ لعَزمهِ ، وطَّدَ الخِلافَة بالاندلسِ ، وافتتحَ الثغورَ ، وقتلَ المارقينَ ، وأذلَّ الجبابرةَ الثائرين .

فقالَ الجميعُ : صدقتَ واللهِ يا اميرَ المؤمنين .

عبد الرحمن عالم شاعر

وكانَ الامامُ عبدُ الرحمنِ من اهلِ العلمِ ، وعلى سِيرةٍ جميلةٍ من العَدلِ ، ومن قوله :

١ * عِزَتِه : من تعصب له من الناس .

ايّها الراكبُ الميمّمُ أرضي ، أقرِ من بعضيَ السلامَ لبعضي !
إنَّ جِسمي ، كما تراه ، بارضٍ ، وفؤادي ومالكيه بأرضٍ ؛
قُدّرَ البينُ بيننا ، فافترَقنا ، وطوى البينُ عن جُفوني غَمضي ؛
قد قضَى الله بالبِعادِ علينا ، فعَسى باقترابِنا سوفَ يقضي !

وله من الشعرِ كثيرٌ مشهورٌ . وذكر الرازيُّ أنَّ الإمامَ عبدَ الرحمن ، أولَ نزوله بمُنيةِ الرُّصافةِ واتّخاذهِ لها ، نظَرَ فيها الى نخلةٍ فهاجَت شجَنَه وتذكَّرَ وطنَه فقال بديهةً :

تبدَّت لنا ، وسطَ الرُّصافةِ ، نخلةٌ ، تناءَت بأرضِ الغربِ عن بلَدِ النخلِ ؛
فقلت : شبيهي في التغرُّبِ والنوى ، وطولِ التَّنائي عن بنيَّ وعن اهلي !
نشأتِ بأرضٍ انتِ فيها غريبةٌ ، فمثلُكِ في الإقصاءِ والمُنتأى مِثلي ،
سقاكِ غَوادي المُزنِ من صوبِها الذي يسحُّ ، ويَستمري السِّماكين بالوَبلِ !

وكان رحمه الله قد عقَدَ العَهدَ لابنيهِ هِشامٍ وسليمانَ فوَلِيَ بعدَهُ هشامٌ .

ابن بطوطة

١٣٠٤ - ١٣٧٧

هو ابو عبدالله بن محمد بن ابرهيم اللواتي الطَنجيّ ، المعروف بابن بطوطة ، والملقب بشمس الدين . ولد في طنجة ، ومكث فيها الى ان بلغ الثانية والعشرين ، فخرج حاجاً الى مكة ، وانساق بحبه للاسفار الى الطوافِ في مختلف بلدان العالم.

وقد لقي في اسفاره الاكرام كما كابد المشاقّ والامراض . ورحلاته ثلاث استغرقت زهاء تسع وعشرين سنةَ ، دوّن فيها جميع ما شاهده من عجائب الدنيا ومغاربها ؛ ولكن الهنود سلبوه في بعض اسفاره ، ففقد كل ما كان قد دوّنه.

ولما عاد الى فاس كان امير مراكش السلطان ابو عنان من بني مرين ، فاقام في حاشيته يحدّث الناس بما رآه ، فأمره السلطان ان يكتب هذه الاخبار ، فاملاها على كاتب السلطان محمد بن جُزَيّ الكلبي ، وسماها : تحفة النظّار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار» ولبث في فاس محفوفاً بالتجلّة والاكرام الى ان مات.

لم يكن ابن بطوطة عالماً ، ولا مفكرًا ، ولا منشئًا بليغًا ، وانما كان جوّابَ آفاقٍ ، دقيقَ الملاحظة ، يرغب في الاطلاع على كل شيء غريب ، فصوّر كل ما شاهده ، وروى كل ما حُدّث به في اسلوب فكه توخّى به الامانة ، حتى لقّبه دوزي « بالرحّالة الامين ».

وامانته هذه جعلته يدوّن كل ما روي له من الخرافات على علّاتها ، بيد انها تخريفات لذيذة ؛ وكثيرًا ما كان يقدّم للخرافة « بيزعمون » او يتبعها « بهذا في زعمهم » تنصّلا من تبعتِها ، لعدم ثقته بصحتها.

ولا نكران ان قصة رحلاته من اظرف القصص القديمة واجزلها فائدة.

آثارُهَ

لابن بطوطة كتاب «تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار» ويعرف برحلة ابن بطوطة . ترجم الى الفرنسية والانكليزية والالمانية ، وطبع طبعات كثيرة في باريس ومصر . وخُصَّت به ثلاثة اجزاء من «الروائع» ظهرت ، في طبعتها الاولى ، سنة ١٩٢٧ ، والرابعة سنة ١٩٥١

أعجب ما رآه

منار الاسكندرية وعمودُها

قصَدتُ المَنارَ في هذه الوُجهةِ ، فرأَيتُ احدَ جوانبه متهدِّماً . وصِفَتُه أنّه بناءٌ مربَّعٌ ، ذاهبٌ في الهواءِ ، وبابُه مرتفِعٌ على الأَرضِ . وإزاءَ بابهِ بناءٌ بقدَرِ ارتفاعِه ، وُضعَت بينهما ألواحُ خشبٍ يُعبَر عليها الى بابهِ ؛ فاذا أُزيلَت ، لم يكن له سبيلٌ .

وداخلَ الباب موضعٌ لجلوسِ حارسِ المنارِ ، وداخلَ المنار بيوتٌ كثيرةٌ ؛ وعرض المَمَرّ بداخِلهِ خمسةُ أَشبارٍ ؛ وعرضُ الحائطِ عشَرَةُ اشبارٍ ؛ وعرضُ المنارِ ، من كلّ جهةٍ من جهاتِهِ الاربعِ ، مـائةٌ واربعون شِبرًا . وهو على تلٍ مرتفعٍ ؛ ومسافةُ ما بينه وبين المدينة فرسخٌ[1] واحدٌ ، في برٍّ مستطيلٍ يحيطُ به البحرُ من ثلاثِ جهاتٍ ، الى ان يتَّصلَ البحرُ بسُورِ البلَـدِ ، فلا يمكنُ التوصُّلُ الى المنارِ في البَرِّ ، إلّا من المدينةِ . وفي هـذا البرِّ المتَّصلِ بالمنار ، مقبرَةُ الاسكندرية .

وقصدتُ المنارَ عند عودي الى بلادِ المغربِ ، عامَ خمسين وسبعمائةٍ[2] ، فوجدتُه قد استولى عليه الخرابُ بحيثُ لا يمكن دخولُه ، ولا الصُعودُ الى بابهِ . وكان الملكُ الناصرُ ، رَحِمَه اللهُ ، قد شرَعَ في بناءِ منارٍ مثلَه بإزائِهِ ، فعاقه الموتُ عن إتمامهِ .

ومن غرائبِ هذه المدينةِ عَمُودُ الرُّخامِ الهـائلُ الذي بخارِجها ، المُسمّى

١ * الفرسخ : ثلاثة اميال عربية . ٢ * ١٣٤٩ م

عندهم بعمودِ السَّواري ؛ وهو متوسّطٌ في غابةِ نَخلٍ ، وقد امتاز عن شجَراتها سُموًّا وارتفاعاً ؛ وهو قطعةٌ واحدةٌ ، مُحكَمَةُ النَّحتِ ، قد اقيم على قَواعِد حجارةٍ مرتَبعةٍ . أمثالَ الدكاكينِ[1] العظيمةِ ، ولا تُعرَفُ كيفيَّةُ وَضعِه هنالك ، ولا يُتَحقَّقُ من وَضعه .

لحية الشيخ جمال الدين

وبها (اي دمياط) زاويةُ الشيخِ جمالِ الدينِ الساوي ، قُدوةِ الطائفةِ المعروفة بالقَرَندريّةِ ، وهم الذين يحلقون لِحاهم وَحواجبَهم .

يُذكَرُ أَنَّه لما قصدَ مدينةَ دِمياطَ لزِمَ مَقبرَتَها ؛ وكان بها قاضٍ يُعرَف بابن العميدِ ، فخرجَ يوماً الى جنازةٍ بعضِ الأعيانِ ، فرأى الشيخَ جمالَ الدين بالمقبرةِ ، فقالَ له : انتَ المُبتَدِعُ ؟ فقال له : وأنتَ القاضي الجاهلُ ! تمُرُّ بدابّتِك بينَ القُبورِ ، وتعلَمُ أَنّ حُرمةَ الانسانِ ميتاً ، كحرمتِه حيًّا . فقال لِه القاضي : واعظمُ من ذلك حَلقُك لِلحيتِك ! فقال له : إياي تَعني ؟ وزعقَ الشيخُ ثم رفعَ رأسَه ، فإذا هو ذو لحية سوداءَ عظيمةٍ ، فعَجِبَ القاضي ومن معَه ، ونزَلَ اليه عن بغلتِه ؛ ثم زعقَ ثانيةً ، فاذا هو ذو لحيةٍ بيضاءَ ، حسنةٍ ؛ ثم زعقَ ثالثةً ، ورفعَ رأسَه ، فإذا هو بلا لحيةٍ كهيئتِه الأولى .

فقبَّلَ القاضي يدَه ، وتَتَلمذَ له ، وبنى له زاويةً حسنةً ، وصحِبَه ايامَ حياتِه ، ثم ماتَ الشيخُ فدُفِنَ بزاويتِه . ولما حضَرتِ القاضي وفاتُه ، أوصى بان يُدفنَ ببابِ الزاويةِ حتى يكونَ كلُّ داخلٍ الى زيارةِ الشيخِ يطَأُ قبرَه .

زوايا مصر

واَمّا الزَّوايا فكثيرةٌ ، وهم يسمّونها الخَوانِق[2] ، واحدتها خانقة . والامراءُ في مصر يتنافسون في بناءِ الزوايا . وكلُّ زاويةٍ بمصرَ معيّنةٌ لطائفةٍ من

١ * الدكاكين : واحدتها دكان : بناء يسطّح اعلاه كالمصطبة، ويجلس عليه ◉ والدكان : الحانوت ، فارسية معربة .

٢ * الخوانق كالأديار عند النصارى .

الفقراء[١] ، واكثرُهم الاعاجمُ ، وهم أهلُ أدبٍ ومعرفةٍ بطريقةِ التصوّفِ . ولكلِّ زاويةٍ شيخٌ وحارسٌ ، وترتيبُ امورِهم عجيبٌ :

ومن عوائدِهم في الطَّعامِ أنّه يأتي خديمُ الزاويةِ الى الفقراء صباحاً ، فيُعينُ لهُ كلٌّ واحدٍ ما يشتهيه من الطعامِ ؛ فاذا اجتمعوا للاكل ، جعلوا ، لكلِّ انسانٍ ، خبزَه ومرَقه في اناء ، على حِدَةٍ ، لا يُشاركُهُ فيه احدٌ .

وطعامُهم مَرّتانِ في النَّهار . ولهم كُسوةُ الشتـاءِ ، وكسوةُ الصيفِ ، ومرتَّبٌ شهريّ من ثلاثين دِرهماً للواحـدِ في الشهرِ ، الى عشرين . ولهم الحَلاوةُ من السكّرِ في كلِّ ليلةِ جمعـةٍ ، والصابونُ لغسلِ اثوابهم ، والأُجرةُ لِدُخولِ الحمّامِ ، والزيتُ للاستصبـاحِ . وهم اعزابٌ ؛ وللمتزوِّجين زَوايا على حِدةٍ .

ومن المشترَطِ عليهم حضورُ الصَّلواتِ الخمسِ ، والمبِيتُ بالزاويةِ ، واجتماعُهم بقُبّةٍ داخلَ الزاويةِ .

مُنية[٢] خصيب

وهي مدينةٌ كبيرةُ الساحةِ . متَّسعةُ المساحةِ ، مبنيَّةٌ على شاطئِ النيل ، وحقٌّ حقِيقٌ لها على بلادِ الصَّعيدِ التَّفضيلُ : بها المدارسُ والزوايا والمساجدُ ، وكانت في القديم مُنيةَ لخصيبٍ عاملِ مصر .

يُذكَرُ أن احدَ الخُلَفاءِ من بني العَبّـاس ، رضيَ الله عنهم ، غضِبَ على اهلِ مصرَ ، فآلى ان يُوليَ عليهم احقرَ عبيـدهِ واصغرَهم شأناً ، قصداً لارذالهم[٣] ، والتنكيلِ بهم . وكانَ خصيبُ احقرَهم ، إذ كان يتولّى تسخينَ الحمّام . فخلَع عليـه وامّره على مصر ، وظنّ أنه يسيرُ فيهم سِيرةَ سُوءٍ ، ويقصُدهم بالأذاةِ ، حسبما هو المَعهودُ ممّن وَليَ من غيرِ عهـدٍ بالعِزّ . فلمّا استقرّ خصيبٌ بمصر سارَ في أهلِها أحسنَ سيرةٍ ، وشُهرَ بالكرمِ والإيثارِ .

١ ـ الفقراء : واحدهم فقير : المتعبد الذي يعيش من حسنات المؤمنين .

٢ ـ المنية : الغاية والمراد ، وكل ما يُتمنى .

٣ ـ اراد بإرذالهم احتقارهم وامتهانهم .

فكان أقاربُ الخلفاء وسواهم يقصُدونه ، فيُجزلُ العطاءَ لهم ، ويعودون إلى بغدادَ شاكرين لما ولّاهم .

وإنّ الخليفةَ افتقدَ بعضَ العبّاسيّين ، وغابَ عنه مدّةً ، ثمّ أتاه ، فسأله عن مغيبهِ ، فأخبَرَه أنه قصَد خصيباً ، وذكَرَ له ما اعطاه خصيبٌ ، وكان عطاءً جزيلًا . فغضِبَ الخليفةُ وأمرَ بسملِ عينَي خصيبٍ وإخراجهِ من مصرَ الى بغدادَ ، وان يُطرحَ في أسواقِها . فلما وردَ الامرُ بالقبضِ عليه ، حِيلَ بينه وبين دخولِه منزلَهُ ، وكانت بيدِه ياقوتةٌ عظيمةُ الشأنِ ، فخبّأها عندَه ، وخاطَها في ثوبٍ له ليلًا ، وسُمِلَت عيناه ، وطُرحَ في اسواقِ بغدادَ .

فمرَّ به بعضُ الشعراءِ ، فقال له : يا خصيبُ ! إني قصَدتُك من بغدادَ الى مصرَ ، مادحاً لك بقصيدةٍ ، فوافقتُ انصرافَك عنها ، وأُحِبُّ ان تَسمعَها ، فقال : كيفَ بِسَماعِها ، وأنا على ما تراه ؟ فقال : إنّما قصدي سماعَك لها ، وأمّا العطاءُ فقد أعطيتَ الناسَ واجزلتَ ، جَزاكَ اللهُ خيرًا : قال : فافعل ! فأنشدَه :

أنتَ الخصيبُ ، وهذه مصرُ ، فتدفّقا ، فكلاكما بحرُ !

فلما أتى على آخرِها ، قال له : افتُق هذه الخياطةَ ! ففعلَ ذلك ، فقال له : خُذِ الياقوتةَ ! فأبى ؛ فأقسَم عليه ان يأخذَها ؛ فأخذَها وذهبَ بها الى سوقِ الجوهريّين . فلمّا عرضَها عليهم قالوا له : إنّ هذه لا تَصلُح الّا للخليفةِ . فرفعوا أمرَها الى الخليفةِ ، فأمرَ الخليفةُ باحضارِ الشاعرِ . واستفهمَه عن شأنِ الياقوتةِ ، فأخبرَه بخبرِها ؛ فتأسّفَ على ما فعلَه بخصيبٍ ، وأمرَ بمثوله بين يديه ، واجزلَ له العطاءَ ، وحكّمه فيما يُريدُ ؛ فرغبَ ان يُعطيَه هذه المنيةَ ، ففعل ذلك . وسكنَها خَصِيبٌ الى ان تُوُفّيَ ، وأَورثَها عَقِبَه الى أَن انقرَضوا .

قُبّةُ الصخرةِ

وهي من أعجبِ المَباني وأتقنِها ، وأغربِها شكلًا . قد توفّرَ حظُّها من

المحاسنَ ، وأَخذَت من كلِّ بديعةٍ بطرَفٍ . وهي قائمةٌ على نَشَزٍ في وسط المسجد[١] ، يُصعَدُ اليه في درَجٍ رُخامٍ .

ولها اربعةُ ابوابٍ ، والدائرُ بها مفروشٌ بالرُّخامِ ايضاً ، مُحكَمُ الصَّنعةِ ، ما يُعجِزُ الواصفَ . واكثرُ ذلك مُغشًّى بالذهبِ ، فهي تتلألأُ نورًا ، وتلمَعُ لَمعانَ البرقِ ، يَحارُ بصرُ متأمِّلها في محاسِنِهـا ، ويَقصُرُ لسانُ رائيها عن تمثيلِها .

وفي وسَطِ القبَّةِ الصخرةُ الكريمةُ ، التي جاءَ ذكرُهـا في الآثار ؛ فان النبيَّ ، صلعم ، عرَّجَ منها الى السماءِ . وهي صخرةٌ صمَّاءُ ، ارتفاعُهـا نحو قامةٍ ، وتحتَها مغارةٌ في مقدارِ بيتٍ صغيرٍ ، ارتفاعُها نحوُ قامةٍ ايضاً ، يُنزَلُ اليها على درجٍ ، وهناك شكلُ محرابٍ .

وعلى الصخرةِ شُبَّاكان اثنانِ ، مُحكَما العَملِ ، يُغلَقانِ عليها : احدُهما ، وهو الذي يَلي الصخرةَ ، من حديدٍ بديعِ الصنعةِ ، والثاني من خشبٍ .

وفي القبَّةِ درَقةٌ كبيرة من حديدٍ ، معلَّقةٌ هنالك ، والناس يزعُمون أَنها درقةُ حمزةَ بنِ عبدِ المطّلِبِ ، رضه .

جبل لبنان

وسافرتُ الى جبلِ لبنانَ ، وهو من اخصبِ جبالِ الدنيا ، فيه اصنافُ الفواكهِ ، وعيونُ المـاءِ ، والظِّلالُ الوارفة ؛ ولا يخلو من المنقطعين الى الله تعالى ، والزُّهّادِ والصالحين ، وهو شهيرٌ بذلك . ورأَيتُ به جماعةً من الصالحين قد انقطعوا الى الله تعالى ، ممّن لم يَشتهِر اسمُه .

اخبرني بعضُ الصّالحين ، الذين لقِيتُهم بهِ قال : كنَّا بهـذا الجبلِ مع جماعةٍ من الفقراءِ ، ايامَ البَردِ الشديدِ ، فأَوقدْنا نارًا عظيمةً ، وأَحدَقنا بها . فقال بعضُ الحاضرينَ : يَصلُح لهذه النارِ ما يُشوى فيها . فقال احدُ الفقراءِ

١ * النشز : المرتفع ⊙ المسجد : اراد المسجد الاقصى في بيت المقدس

ممّن تَزدريه الاعينُ ، ولا يُؤبه به : اني كنتُ عند صَلاةِ العصرِ بمتعبّدِ ابرهيمَ بنِ أدهمَ . فرأيتُ بقربةٍ منه حمارَ وحشٍ قد أحدقَ الثّلجُ به من كلّ جانبٍ ؛ واظُنُّه لا يقدِرُ على الحِراكِ ، فلو ذهبتم اليه لقَدَرتم عليه ، وشويتم لحمَه في هذه النار .

قال : فقُمنا اليه في خمسةِ رجالٍ ، فألفيناه كما وُصِفَ لنا ، فقَبضناه ، وأتينا به أصحابنا ، فذبحناه ، وشوينا لحمه في تلك النارِ . وطَلَبنا الفقيرَ الذي نبَّهَ عليه ، فلم نجِده ، ولا وقَعنا له على اثرٍ ، فطال عَجبُنا منه .

مسجد عليّ في البصرة

شهدتُ مرةً ، بهذا المسجِدِ ، صلاةَ الجمعةِ ، فلما قامَ الخطيبُ به الى الخُطبةِ وسرَدَها ، لَحنَ[1] فيها لحناً كثيراً جليّاً . فعَجِبت من امرهِ ، وذكرتُ ذلك للقاضي حُجّةِ الدينِ . فقال لي : إن هذا البلدَ لم يَبقَ به من يَعرفُ شيئاً من علمِ النّحوِ . وهذه عِبرةٌ لمن تفكّرَ فيها ، سُبحانَ مغيّرِ الأشياءِ ، ومقلّبِ الامورِ ! هذه البصرةُ التي الى أهلِها انتهت رئاسةُ النحوِ ، وفيها اصلُه وفرعُه ، ومن أهلِها إمامُهُ الذي لا يُنكرُ سَبقُه ، لا يُقيمُ خطيبُها خطبةَ الجمعةِ، على دَوبهِ عليها .

ولهذا المسجدِ سبعُ صَوامِعَ ، إحداها الصَّومعةُ التي تتحرَّكُ ، بزعمِهم ، عندَ ذِكرِ عليٍّ بن ابي طالبٍ ، رضه . صَعِدتُ اليها من اعلى سطحِ المسجد ، ومعي بعضُ اهلِ البصرةِ ، فوَجدتُ في رُكنٍ من اركانها مَقبِضَ خشَبٍ . مسمَّرًا فيها كأنّه مقبضُ مَلمسةِ البناءِ ، فجعلَ الرجلُ ، الذي كانَ معي ، يدَه في ذلك المقبضِ ، وقال : بحقّ رأسِ اميرِ المؤمنين عليٍّ ، رضه تحرَّكي ! وهزَّ المقبضَ ، فتحرّكتِ الصَّومعةُ . فجعَلتُ انا يدي في المقبضِ ، وقلتُ له : وأنا اقولُ بحقّ رأسِ ابي بكرٍ ، خليفةِ رسولِ الله ، صلعم ،

١ * اللحن : الخطأ في الاعراب.

تحرَّكي ! وهزَزتُ المقبضَ ، فتحرَّكتِ الصَّومعةُ . فعجِبوا من ذلك . واهلُ البصرةِ على مذهبِ السُّنَّةِ والجماعةِ ، ولا يخافُ من يفعَلُ مثلَ فِعلي عندَهم .

النّارَجيل

وهو جَوزُ الهندِ ، وهذا الشجرُ من أغربِ الأشجارِ شأناً واعجبِها أمرًا ، وشجرُه يشبهُ شجرِ النَّخلِ لا فَرقَ بينهما إلَّا ان هذه تُثمِرُ جوزًا ، وتلك تثمِرُ تمرًا . وجوزُها يُشبِهُ رأسَ ابنِ آدمَ ، لأنّ فيها شبهَ العينينِ والفمِ ، وداخلَها شبهُ الدِّماغِ ، اذا كانت خضراءَ ، وعليها لِيفٌ شبهُ الشَّعرِ . وهم يصنعون منه حِبالًا يَخيطون بها المراكبَ عِوَضاً عن مساميرِ الحديدِ ؛ ويصنعون الحبالَ منه للمراكب . والجَوزةُ منها ، وخصوصاً التي بجزائرِ ذيبةِ المَهْلِ ، تكونُ بمقدارِ رأسِ الآدميِّ .

ويزعُمون ان حكيماً من حكماءِ الهندِ ، في غابرِ الزمانِ ، كان متَّصِلًا بملِكٍ من الملوكِ ، ومعظَّماً لديه ؛ وكان للملكِ وزيرٌ بينَه وبين هذا الحكيم مُعاداةٌ ، فقال الحكيم للملك : إنّ رأسَ هذا الوزيرِ ، اذا قُطِعَ ودُفِن ، تخرُجُ منه نخلةٌ تُثمِرُ بثَمَرٍ عظيمٍ يعودُ نفعُه على اهلِ الهندِ وسواهم من اهلِ الدنيا . فقال له الملك : فإن لم يظهَر من رأسِ الوزيرِ ما ذكَرتَه ؟ قال : إن لم يظهَر فاصنَع برأسي كما صنعتَ برأسِه . فأمرَ الملك برأسِ الوزيرِ فقُطِع، واخذَه الحكيمُ وغرسَ نواةَ تمرٍ في دِماغِه ، وعالجها حتى صارت شجرةً ، واثمرَت بهذا الجوز . وهذه الحكايةُ من الأكاذيبِ ، وإنما ذكرناها لشُهرتِها عندهم .

الأخِيَّةُ الفِتيانُ

واحِدُ الأَخِيَّةِ أَخِيٌّ على لفظِ الأَخِ ، اذا اضافَه المُتكلِّمُ الى نفسِه . وهم بجميعِ البلادِ التُّركمانيَّةِ الروحيَّةِ ، في كلِّ بلدٍ ومدينةٍ وقريةٍ . ولا يوجدُ في الدنيا مثلَهم أشدَّ احتفالًا بالغرباءِ من الناسِ ، وأسرعَ الى إطعامِ

الطعامِ وقضاءِ الحوائجِ ، والأخذِ على ايدي الظَّلَمةِ ، وقتلِ الشُّرَطِ ومن لَحِقَ بهم من اهلِ الشَّرِّ .

والأَخيّ ، عندهم ، رجلٌ يجتمعُ اهلُ صِناعتِه وغيرُهم من الشبّانِ الأَغرابِ والمتجرِّدين ، ويقدّمونه على أنفسِهم ؛ وذلك هي الفتوَّةُ ايضاً ؛ ويبني زاويةً ، ويجعَلُ فيها الفُرشَ والسُّرُجَ وما يُحتاجُ اليه من الآلاتِ . ويخدُمُ أَصحابُه بالنهارِ في طلبِ مَعائشِهم ، ويأتون اليه ، بعد العصرِ، بما يُنفَقُ في الزاويةِ ؛ فإن وردَ في ذلكَ اليوم مسافرٌ على البلدِ ، أنزلوه عندَهم ، وكانَ ذلك ضيافَته لديهم ، ولا يزالُ عندَهم حتى يَنصرِفَ . وإن لم يَرِد واردٌ ، اجتمعوا هم على طعامِهم ، فاكلوا وغنّوا ورقصوا ، وانصرفوا الى صِناعاتِهم بالغُدوِّ ، وأَتَوا ، بعدَ العصرِ ، الى مُقدَّمِهم ، بما اجتمعَ لهم .

ويُسمَّون بالفِتيانِ ويُسمَّى مقدَّمُهم ، كما ذكرنا ، الأخيّ . ولم أرَ في الدنيا أجملَ افعالاً منهم . ويُشبِهُهم في أفعالِهم اهلُ شيرازَ ، إلّا ان هؤلاءِ احبُّ في الواردِ والصّادرِ ، واعظمُ اكراماً له وشفقةً عليه .

وفي الثاني من يومِ وصولِنا الى هذه المدينةِ (أنطاليا) أتى احدُ هؤلاءِ الفتيانِ الى الشيخِ شِهابِ الدينِ الحَمَويّ ، وتكلّمَ معه باللّسانِ التركيّ ، ولم اكُن يومئذٍ أفهمُه ، وكانَ عليه اثوابٌ خَلِقةٌ ، وعلى رأسِه قَلَنْسُوةُ لِبدٍ . فقال لي الشيخُ : أَتعلَمُ ما يقولُ هذا الرجلُ ؟ فقلت : لا أعلمُ ما قال ! فقالَ لي : إنه يدعوكَ الى ضيافتِه ، انتَ واصحابُك . فعجِبتُ منه ، وقلت له : نعم ! فلما انصرفَ قلتُ للشيخِ : هذا رجلٌ ضعيفٌ ، ولا قُدرةَ له على تضييفِنا ، ولا نريدُ ان نكلّفَه . فضحِك الشيخُ وقال لي : هذا أحدُ شيوخِ الفتيانِ الأخيَّةِ ، وهو من الخرّازين[١] ، وفيه كرَمُ نفسٍ ؛ وأَصحابُه نحوُ مائتينِ من اهلِ الصناعاتِ ، قد قدَّموه على انفسِهم ، وبنَوا زاويةً للضيافةِ ، وما يجتمعُ لهم بالنهارِ انفقوه بالليل .

١ * الخرازين، واحدها خرّاز : الاسكاف

فلمَّا صلّيتُ المغربَ ، عادَ إلينا ذلك الرجلُ ، وذهبنا معه الى زاويته ، فوَجدنا زاويةً حسنةً ، مفروشةً بالبُسطِ الروميَّةِ ، الحِسانِ ، وبها الكثيرُ من ثُرَيّاتِ الزُّجاجِ العِراقيّ .

وفي المجلسِ خمسةٌ من البياسيس ، والبَيسوسُ شبهُ المنارةِ من النّحاسِ ، وله ارجلٌ ثلاثٌ ، وعلى رأسِه شبه جلّاسٍ من النّحاسِ ، وفي وسَطِهِ أنبوبٌ للفتيلةِ ، ويُملأُ من الشحمِ المُذابِ ، وإلى جانبه آنيةٌ نحاسٍ مِلاءٌ بالشحمِ ، وفيها مِقراضٌ لإصلاحِ الفتيلِ . وأحدُهم موكّلٌ بها ويُسمَّى عندهم الجراجي[1] .

وقد اصطفَّ في المجلسِ جماعةٌ من الشبّانِ ، ولباسُهم الأقبيةُ[2] ، وفي أرجُلهم الأخفافُ ، وكلٌّ واحدٍ منهم متحزّمٌ ، على وسَطِهِ سكّينٌ في طول ذراعينِ ؛ وعلى رؤوسِهم قَلانسُ بيضٌ من الصُّوفِ ، بأعلى كلِّ قلنسُوَةٍ قطعةٌ موصّلةٌ بها ، في طولِ ذراعٍ وعرضِ إصبعين . فإذا استقرَّ بهم المجلسُ نزعَ كلٌّ واحدٍ قلنسوَته ، ووضعَها بين يديهِ ، وتبقى على رأسه قلنسوةٌ أخرى من الزَّردَخاني[3] وسواه ، حسنةُ المنظَرِ ، وفي وسطِ مجلسِهم شبهُ مرتبةٍ موضوعةٍ للواردِين .

ولما استقرَّ بنا المجلسُ عنـدهم ، أَتَوا بالطعامِ الكثيرِ ، والفاكهةِ ، والحَلواءِ . ثم أخذوا بالغِناءِ والرقصِ ؛ فراقنا حالُهم ، وطالَ عجبُنا من سَماحِهم ، وكرمِ أنفُسِهم ، وانصرفنا عنهم آخرَ الليلِ ، وتركناهم بزاويتِهم .

نساءُ الهندِ وحرقُهنّ انفسَهنّ

رأيتُ الناسَ يَهرَعون من عسكرِنا ، ومعَهم بعضُ اصحابِنا ، فسألتُهم : ما الخبرُ ؟ فأخبروا أن كافرًا من الهنودِ ماتَ ، وأُجّجَتِ النارُ لحرقِه ، وامرأته

١ ـ الجراجي : الموكّل بالقنديل .
٢ ـ الاقبية ، واحدها قباء : ما يسمّى بالغنباز .
٣ ـ الزردخاني : ضرب من الحرير الشفاف .

تحرُقُ نفسَها معه ، ولمّا احترقا ، جاءَ اصحابي ، وأخبروا أنها عانقتِ الميتَ حتى احترَقَت معه .

وبعدَ ذلك كنتُ ، في تلك البلادِ ، أرى المرأةَ ، من كُفَّارِ الهنودِ ، متزيّنةً ، راكبةً ، والناسُ يتبعونها من مُسلمٍ وكافرٍ ، والأطبالُ والابواقُ بين يَدَيها ، ومعها البراهمةُ ، وهم كُبراءُ الهنودِ . وإذا كانَ ذلك ببلادِ السلطانِ ، استأذنوا السلطانَ في إحراقِها ، فيأذَنُ لهم ، فيُحرقونها .

ثمّ اتّفقَ مرةً أني كنتَ بمدينةٍ ، اكثرُ سُكّانِها الكُفّارُ ، تُعرَفُ بأمجَري ، واميرُها مسلمٌ من سامرةِ السِّندِ ، وعلى مَقرَبَةٍ منها الكفّارُ العُصاةُ ، فقطعوا الطريقَ يوماً ، وخرَجَ الاميرُ المسلِمُ لقتالِهم ، وخرجت معه رعيّةٌ من المسلمين والكفّارِ ؛ ووقعَ بينهم قتالٌ شديدٌ ماتَ فيه ، من رعيّةِ الكفّارِ ، سبعةُ نفرٍ . وكان لثلاثةٍ منهم ثلاثُ زوجاتٍ ، فاتّفَقنَ على إحراقِ انفُسِهن .

وإحراقُ المرأةِ ، بعدَ زوجِها ، عندهم امرٌ مندوبٌ اليه ، غيرُ واجبٍ ؛ لكنَّ من احرقَت نفسَها ، بعدَ زوجِها ، أحرزَ اهلُ بيتِها شرفاً بذلك ، ونُسِبوا الى الوَفاءِ . ومن لم تُحرِق نفسَها ، لبِست خَشِنَ الثيابِ ، واقامَت ، عندَ اهلها ، بائسةً ، ممتَهَنَةً ، لعدمِ وفائِها ؛ ولكنها لا تُكرَه على احراقِ نفسِها .

ولما تعاهدتِ النُسوةُ الثلاثُ ، اللائي ذكرناهنّ ، على احراقِ انفسِهن ، أقمنَ ، قبلَ ذلك ، ثلاثةَ ايامٍ ، في غِناءٍ وطربٍ ، وأكلٍ وشربٍ ، كأنهن يودِّعن الدنيا ، ويأتي اليهنّ النساءُ من كلِّ جهةٍ . وفي صبيحةِ اليومِ الرابعِ ، أُتِيت كلُّ واحدةٍ منهنّ بفرسٍ ، فركِبَته ، وهي متزّينةٌ ، متعطِّرةٌ ، وفي يُمناها جوزةُ نارَجيلٍ تلعبُ بها ، وفي يُسراها مرآةٌ تنظُرُ فيها وجهَها . والبراهمةُ يحفّون بها ، واقارُبها معها ، وبين يديها الأَطبالُ والأَبواقُ والأَنفارُ[1] .

١ ـ الانفار ، واحدها نفير : البوق

وكلُّ إنسانٍ من الكفَّارِ يقولُ لهـا : أبلِغي السلامَ إلى أبي ، أو أخي ، أو امّي ، أو صاحبي . وهي تقول : نعم ! وتضحك اليهم .

وركِبتُ مع أصحابي لأرى كيفيَّـةَ صُنعِهن في الاحتراقِ ، فسِرنا معهن نحوَ ثلاثةِ اميالٍ ، وانتهينا الى موضعٍ مُظلِمٍ ، كثيرِ الميـاهِ والأشجارِ ، مُتكاثفِ الظِّلالِ ، وبين اشجارِه اربعُ قِبـابٍ ، في كلِّ قُبّةٍ صنمٌ من الحجارةِ ، وبين القبابِ صِهريجٌ[١] ماء قد تكاثفت عليه الظِّلالِ ، وتزاحمت الأشجار ، فلا تتخلّلُها الشمسُ ؛ فكأنّ ذلك الموضِعَ بُقعةٌ من بُقَعِ جهنّمَ ، اعاذَنا اللهُ منها .

ولما وَصَلتُ الى تلك القبابِ ، نزَلن الى الصِهريجِ وانغَمسن فيـه ، وَجرَّدن ما عليهن من ثيابٍ وحُليٍّ ، فتصدَّقن به .

وأُتِيت كلُّ واحدةٍ منهن بثوبِ قُطنٍ خشنٍ ، غيرِ مُخيط ، فربطَت بعضَه على وسَطِها ، وبعضَه على رأسِها وكتفَيها . والنيرانُ قـد أُضرِمت على قربٍ من ذلك الصهريجِ ، في موضعٍ منخفضٍ ، وصُبَّ عليها رُوغن كُنجُت ، وهو زيتُ الجُلجُلانِ[٢] ، فزاد في اشتعالِها . وهنالـكَ نحوُ خمسةَ عشرَ رجلًا بأيديهم حِزمٌ من الحطبِ الرقيقِ ، ومعهم نحوُ عشَرةٍ بأيديهم خشبٌ كِبارٌ . واهلُ الأطبالِ والابواقِ وقوفٌ ينتظرون مجيءَ المرأةِ ، وقـد حُجبتِ النارُ بِملحفَةٍ يُمسِكُها الرجالُ بايديهم ، لئلا يُدهِشُها النظرُ اليها . فرأيتُ احداهنَّ لما وَصلَت ، الى تلك المِلحفةِ ، نزعَتهـا من ايدي الرجالِ بعُنفٍ ، وقالت لهم ، وهي تضحكُ ، أبالنارِ تخوِّفونني ؟ أنا أعلمُ انهـا نارٌ محرقةٌ[٣] » ثم

١ * الصهريج : حوض الماء .

٢ * الجلجلان : حب السمسم .

٣ * ذكر المؤلف قبل هذه الجملة العبارة الهندية التي فاهت بها المرأة ، وهي « مارا ميترساني آز أطش من ميدانم أو أطش است رهاكني مارا » وترجمها بما اوردناه من قولها .

جمعَت يديها على رأسِها خدمةً للنارِ ، ورمت بنفسِها فيها . وعندَ ذلك ضُربتِ الاطبالُ والأنفارُ والابواقُ ، ورمى الرجالُ ما بأيديهم من الحطبِ عليها ، لئلا تتحركَ ؛ وارتفعتِ الاصواتُ ، وكثُرَ الضجيجُ .

ولما رأيتُ ذلك كِدتُ اسقُطُ عن فرسي ، لولا اصحابي تداركوني بالماء فغَسلوا وجهي.

ابن خلدون

١٣٣٢ - ١٤٠٦

هو عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، كنيته ابو زيد ولقبه وليّ الدين. ولد في تونس وتعلم فيها صناعة العربية والفقه والعلوم العقلية ، والمنطق والحكمة . ثم اتصل بالسلطان ابي عنان فقرّ به وولاه الكتابة ، ولكن منافسيه اتّهموه بما أوغر قلب السلطان عليه فحبسه ، ولم يخرج من الحبس الا بعد موت السلطان وتولي ابنه ، فعاد الى منصبه. ثم رحل الى الاندلس فادناه ابن الاحمر صاحب غرناطة ، وبعثه سفيرًا سياسيًا الى ملك قشتالة .

وتقلب ابن خلدون في مناصب رفيعة سياسية لم تتحقق آماله فيها ، فرحل الى مصر ، ودرّس في الازهر ، ثم تولّى قضاء المالكية ، فاستقدم اهله وولده اليه فغرقت بهم السفينة فكان الخطب شديدًا عليه.

ولما حاصر تيمورلنك دمشق قصده ابن خلدون بغية انقاذ دمشق من عاديته ، فأكرم وفادته وكلّفه ان يضع له كتابًا عن افريقية ، ولكن دمشق لم تنج من الحرق والتدمير .

ثم عاد ابن خلدون الى مصر ، ولبث في القضاء المالكي الى ان توفاه الله.

كان ابن خلدون عالمًا عبقريًا متزن التفكير دقيق الملاحظات النفسية والسياسية . تفرّد بما ابتكره من فلسفة الاجتماع وفلسفة التاريخ ، وبما استنبطه من مبادئ للعدل الاجتماعي والاقتصاد السياسي . وما مقدمته ، المعروفة بمقدّمة ابن خلدون ، الا « خزانة علوم اجتماعية وسياسية واقتصادية وادبية ».

آثاره

لابن خلدون آثار كثيرة ، لم يصل الينا منها الا تاريخه الموسوم بكتاب «العبر» والا مقدّمة هذا التاريخ ، وهي تقع في اكثر من ثلاثمائة صفحة . وقد اخترنا منها بعض قطع لهذا الكتاب .

طبعت هذه المقدمة طبعات كثيرة في بيروت ومصر ونقلها المستشرق ديسلان (de Slane) الى الفرنسية وطبعت في باريس سنة ١٨٦٠ وخُصّ بها ثلاثة اجزاء من « الروائع » (١٣، ١٤، ١٥) ظهرت ، في طبعتها الاولى ، سنة ١٩٢٨ ، والاخيرة ١٩٥٠

فن التاريخ

مغالط المؤرخين والنقَلة

اعلم أنّ فنّ التاريخ فنٌّ عزيزُ المذهبِ جَمُّ الفوائد ، شريفُ الغـايةِ ، إذ هو يُوقفنا على احوالِ الماضينَ من الأممِ في اخلاقِهم ، والأنبياء في سِيَرِهم ، والملوكِ في دولِهم وسياستِهم ، حتى تَتِمَّ فائدةُ الاقتداءِ في ذلك لمن يرومُه في احوالِ الدِّين والدنيا ، فهو محتاجٌ الى مآخذَ متعدِّدةٍ ، ومعارفَ متنوّعةٍ ؛ وحُسنِ نظرٍ وتثبُّتٍ يُفضيان بصاحِبهما الى الحقِّ ، وينكِبّانِ به عن المزلّاتِ[1] والمَغالطِ ، لأنّ الأخبارَ ، اذا اعتُمِدَ فيها على مجرّدِ النقلِ ، ولم تُحكّم اصولُ العادةِ ، وقواعدُ السياسةِ ، وطبيعةُ العُمرانِ ، والاحوالُ في الاجتماعِ الانساني ، ولا قِيسَ الغائبُ منها بالشاهدِ ، والحاضرُ بالذاهبِ ، فربّما لم يؤمَن فيها من العُثورِ ومزلّةِ القدمِ والحَيدِ عن جادّةِ الصِّدقِ .

وكثيرًا ما وقعَ للمؤرخين والمفسّرين ، وائمّةِ النقلِ ، المغالطُ في الحكاياتِ والوقائعِ لاعتمادِهم فيها على مجرّدِ النقلِ ، غثًّا او ثميناً . لم يَعرِضوهـا على اصولِها ولا قاسوها باشباهِها ، ولا سبَروها بمعيـار الحكمَة ، والوقوفِ على طبائعِ الكائناتِ ، وتحكيمِ النظرِ والبصيرةِ في الأَخبار ، فضلّوا عن الحقّ ، وتاهوا في بَيداءِ الوهمِ والغلطِ ، ولاسيما في إحصاء الاعـدادِ من الاموالِ والعساكرِ ، إذا عرَضت في الحكاياتِ ، اذ هي مَظِنّةُ الكذبِ ، ومطيّـةُ الهَذَرِ ، ولا بدَّ من ردِّها الى الاصولِ وعرضِها على القواعد .

١ * المزلات : المزالق ، واحدتها مزِلّة

جيوش بني اسرائيل

وهذا كما نقلَ المسعودي وكثيرٌ من المؤرّخين في جيوشِ بني اسرائيلَ وأن موسى، عليه السلامُ، أحصاهم في التِيهِ، بعد أن أجازَ من يُطيقُ حملَ السلاحِ. خاصّةً من ابن عشرين فما فوقها، فكانوا ستمّايةِ ألف، أو يَزيدونَ، ويذهَلُ، في ذلك، عن تقديرِ مصرَ والشامِ، واتّساعِهما لمثلِ هذا العددِ من الجيوشِ؛ فلكلِّ مملكةٍ من الممالك حِصَّةٌ من الحاميةِ تتّسعُ لها، وتقومُ بوظائفِها، وتضيق عمّا فوقَها، تشهَدُ بذلك الفوائدُ المعروفةُ. والأحوالُ المألوفةُ.

ثمّ إن مثلَ هذه الجيوشِ، البالغةِ الى مثلِ هذا العددِ، يَبعُدُ ان يقعَ بينها زحفٌ، أو قِتالٌ، لِضيق ساحةِ الأرضِ عنها، وبُعدِها، اذا اصطفَّت، عن مَدى البصرِ مرّتينِ، أو ثلاثاً، أو أزيدَ، فكيفَ يقتتِلُ هذان الفريقانِ، او تكونُ غلَبةُ احدِ الصفّينِ، وشيءٌ من جوانبه لا يشعُرُ بالجانبِ الآخرِ؛ والحاضرُ يشهَدُ لذلك، فالماضي أشبهُ بالآتي من الماء بالماء.

نكبةُ البرامكة

ومن الحكاياتِ، المدخولة[1] للمؤرخين، ما ينقلونه كافّةً في سببِ نكبةِ الرشيدِ البرامكة من قصّةِ العباسةِ اختِهِ مع جعفرِ بنِ يحيى بنِ خالدٍ مولاه . . .

وانّما نكبَ البرامكةَ ما كان من استبدادِهم على الدولةِ، واحتجانِهم أموالَ الجبايةِ، حتى كان الرشيدُ يطلُبُ اليسيرَ من المالِ، فلا يصلُ اليهِ، فغلبوهُ على امرهِ، وشاركوه في سلطانِه، ولم يكن لـه معهم تَصرُّفٌ في أمورِ مُلكِهِ، فعظُمت آثارُهم، وبعُدَ صيتُهم، وعمَروا مراتبَ الدولةِ وخِططَها بالرُؤساء من وُلدِهم وصنائعِهم، واحتازُوها. عمّن سواهم، من وزارةٍ وكتابةٍ وقيادةٍ وحجابةٍ وسيفٍ وقلمٍ. يقالُ: إنه كان بدارِ

١ * المدخولة: المعيبة.

الرشيدِ من ولَدِ يحيي بن خالـدٍ خمسةٌ وعشرون رئيساً ، بين صاحبِ سيفٍ وصاحبِ قلمٍ ، زاحموا فيها أهلَ الدولةِ بالمناكبِ ، ودفعوهم عنها بالرّاحِ ، لمكانِ ابيهم يحيي من كفالة هارون ، وليّ عهدٍ وخليفةً ، حتى شبَّ في حجرهِ ودرجَ من عِشّه ، وغلبَ على امرِه ؛ وكان يدعوه يا أبتِ ، فتوجّـه الإيثارُ ، من السلطانِ ، اليهم ، وعظُمتِ الدالّةُ منهم ، وانبسطَ الجاهُ عندَهم ، وانصرفَت نحوَهمُ الوجوهُ ، وخضعَت لهم الرّقابُ ، وقُصرت عليهم الآمالُ ، وتخطّت اليهم من اقصى التخوم هـدايا الملوك وتُحَفُ الأمراءِ ، وسُيّرت الى خزائنهم ، في سبيلِ التزلُّفِ والاستمالَةِ ، أموالُ الجبـايةِ ، وأفاضوا ، في رجالِ الشيعةِ وعظماءِ القَرابةِ ، العطـاءَ ، وطوّقوهم المِنَنَ ، وكسَبوا ، من بيوتاتِ الأشرافِ ، المعدمَ ، وفكّوا العاني ، ومُدِحوا بما لم يُمدَح به خليفتُهم ، وسنّوا لعُفاتهم ، الجوائزَ والصِلاتِ ، واستولَوا على القُرى والضِياعِ من الضَّواحي والأمصارِ ، في سائرِ الممالكِ ، حتى آسفوا البِطانةَ ، وأحقدوا الخاصّةَ ، ودبَّت الى مِهادهم الوثيرِ ، من الدولةِ ، عقاربُ السِّعايةِ ، حتّى لقـد كان بنو قُحطُبةَ ، أخوالُ الرشيدِ ، مِن اعظمِ الساعين عليهم ، لم تعطِفهم ، لِما وقرَ في نفوسِهم من الحسدِ ، عواطفُ الرّحِمِ ، ولا وزعَتهم أواصرُ القرابة .

وقارنَ ذلكَ ، عنـد مخدومِهم ، نَواشئُ الغَيرةِ ، والاستنكافُ من الحَجْرِ ، والأنَفةُ ، وكامنُ الحُقودِ التي بعَثَتها منهم صغائرُ الدالّـةِ ، وانتهى بها الإصرارُ على شأنِهم الى كبائرِ المخالفةِ ، كقِصّتِهم في يَحيي بن عبدِ اللهِ ابنِ الحسنِ بن علي بنِ ابي طالبٍ ، اخي محمـدٍ المهديّ ، الملقّبِ بالنفسِ الزكيّةِ ، الخارجِ على المنصور .

ويحيي هذا هو الذي استنزَله الفضلُ بن يحيي ، من بلادِ الدّيلم ، على أمانِ الرشيدِ ، بخطِّه ، وبذلَ لهم فيه الفَ الفِ درهمٍ ، على ما ذكَره الطَّبَريُّ ، ودفَعه الرشيدُ الى جعفرٍ ، وجعلَ اعتقالَه بدارِه ، والى نظرِه ، فحبَسه مدّةً ، ثم حملَته الدالّةُ على تخليةِ سبيلِهِ ، والاستبداد بحِلّ عقالِه ، حرماً لدماءِ اهلِ البيتِ بزعمِهِ ، ودالّةً على السلطانِ في حكمه .

وسألَه الرشيدُ عنه ، لمّا وُشِيَ بهِ اليه ، ففطَنَ ، وقال : أطلقتُه . فأبدى له وجهَ الاستحسانِ ، واسرَّها في نفسِه ، فأوجدَ السبيلَ بذلكَ على نفسِه وقومِه ، حتى تُلَّ عرشُهم ، وأُلقيت عليهم سماؤهم ، وخُسِفَتِ الارضُ بهم وبدارِهم ، وذهبت سلفاً ومثلاً ، للآخرين ، أيّامُهم . ومن تأمّلَ اخبارَهم ، واستقصى سِيَرَ الدَّولةِ وسِيَرَهم وجدَ ذلك مُحقّقَ الأثرِ ، مُمهّدَ الاسبابِ .

حقيقةُ التاريخ

اعلم أنّه لمَّا كانت حقيقةُ التاريخِ أنّه خبرٌ عن الاجتماعِ الإنسانيِّ ، الذي هو عُمرانُ العالمِ ، وما يَعرِضُ لطبيعَةِ ذلك العُمرانِ من الأَحوالِ ، مثلَ التوحُّشِ والتأنُّسِ والعصبيّاتِ واصنافِ التغلُّباتِ للبشرِ بعضهم على بعضٍ ، وما ينشأُ ، عن ذلك ، من المُلكِ والدُّولِ ومراتبِها ، وما ينتحلُه البشرُ باعمالِهم ومساعيهم من الكسبِ والمَعاشِ والعلومِ والصَّنائعِ ، وسائرِ ما يحدُثُ ، في ذلك العُمران ، بطبيعتِه من الأَحوالِ .

ولمَّا كان الكَذِبُ متطرِّقاً للخبَرِ بطبيعتِهِ ، ولها اسبابٌ تقتضيه ، فمنها التشيُّعاتُ للآراءِ والمذاهبِ ، فإن النفسَ ، اذا كانت على حالِ الاعتدالِ في قُبولِ الخبرِ أعطته حقَّه من التمحيصِ والنَّظَرِ ، حتى تتبين صدقه من كذبِه ، وإذا خامرَها تشيُّعٌ لرأيٍ ، أو نِحلةٍ ، قبِلَت ما يوافقُه من الأَخبارِ ، لأَوّلِ وهلةٍ ، وكان ذلك الميلُ والتَّشيُّعُ غطاءً ، على عينِ بصيرتِها ، عن الانتقادِ والتَّمحيصِ ، فتقَعُ في قُبولِ الكذبِ ونقلِهِ . ومنها الذُّهولُ عنِ المقاصدِ ، فكثيرٌ منَ الناقلين لا يعرفُ القصدَ بما عاينَ ، او سمِعَ ، وينقُلُ الخبرَ على ما في ظنِّه وتخمينِه ، فيقعُ في الكذبِ .

ومنها توهُّمُ الصِّدقِ ، وهو كثيرٌ ، وانما يجيءُ في الأَكثرِ من جهةِ الثقةِ بالناقلين .

ومنها الجَهلُ بتطبيقِ الأَحوالِ على الوقائعِ لأَجل ما يُداخلُها من

التلبيسِ[1] والتَّصنُّعِ ، فينقلُها المخبرُ كما رآها ، وهي بالتصنُّعِ على غيرِ الحقِّ في نفسِه .

ومنها تقرُّبُ الناسِ ، في الاكثرِ ، لأَصحابِ التجِلّةِ والمراتبِ ، بالثناء والمدح ، وتحسينِ الاحوالِ ، وإشاعةِ الذِّكرِ بذلك ، فيستفيضُ الإِخبارُ بها ، على غيرِ حقيقةٍ ، فالنفوسُ مُولعةٌ بحبِّ الثناء ، والناسُ متطلعون الى الدنيا واسبابها من جاهٍ ، أَو ثروةٍ ، وليسوا في الأكثرِ براغبين في الفضائلِ ، ولا متنافسين في أهلِها .

ومن الاسبابِ المقتضيةِ له ايضاً ، وهي سابقةٌ على جميعِ ما تقدّمَ ، الجهلُ بطبائعِ الأَحوالِ في العُمرانِ ، فانَ كلَّ حادثٍ ، ذاتاً كانَ ، او فعلًا ، لا بدَّ له من طبيعةٍ تخصُّه في ذاتهِ ، وفيما يعرِضُ له من أَحوالهِ ، فاذا كانَ السامعُ عارفاً بطبائعِ الحوادثِ والاحوالِ ، في الوجودِ ، ومقتضياتِها ، أعانَه ذلك ، في تمحيصِ الخبرِ ، على تمييزِ الصدقِ من الكذبِ ، وهذا ابلغُ في التمحيصِ من كلِّ وجهٍ يعرِضُ .

الاسكندرُ ودوابُّ البحر

وكثيرًا ما يعرِضُ ، للسامعين ، قبولُ الاخبارِ المستحيلة ، وينقلونها وتؤثَرُ عنهم ؛ كما نقله المسعوديُّ عن الاسكندرِ لمَّا صدَّته دوابُّ البحرِ عن بناءِ الاسكندرية ، وكيف اتّخذَ تابوتَ الخشبِ ، وفي باطنه صُندوقُ الزُّجاجِ ، وغاصَ فيه الى قعرِ البحرِ ، حتّى كتبَ صورَ تلك الدوابِّ الشيطانيةِ ، التي رآها ، وعمِلَ تماثيلَها من اجسادٍ معدنيَّةٍ ، ونصبَها حِذاءَ البُنيانِ ، ففرَّت تلك الدوابُّ حينَ خرجَت وعايَنَته ، وتمَّ له بناؤُها ، في حكايةٍ طويلةٍ من احاديثِ خُرافةٍ مُستحيلةٍ : من قِبَلِ اتّخاذهِ التابوتَ الزُّجاجَ ، ومصادمةِ البحرِ وامواجهِ بجُرمهِ ؛ ومن قِبَلِ أنَّ الملوكَ لا تحمِلُ انفسَها على مثلِ هذا الغررِ ، ومن أعتمده منهم ، فقد عرَّضَ نفسَه للهلكةِ ،

[1] التلبيس : الخلط .

وانتقاضِ العِقدةِ[١] ، واجتماعِ الناسِ الى غيرِه ، وفي ذلك إتلافُـه ، ولا ينتظرون به رجوعَه ، من غروره ذلك ، طرفةَ عينٍ ؛ ومن قِبَلِ أنّ الجنّ لا يُعرَفُ لها صُوَرٌ وتماثيلُ تختصُّ بها ، إنما هي قادرةٌ على التشكُّلِ ؛ وما يُذكَرُ من كثرةِ الرؤوس لها ، فإنما المُرادُ به البَشاعةُ والتهويلُ لا أنه حقيقةٌ . وهذه كلُّها قادحةٌ في تلك الحكايةِ ، والقادحُ المُحيلُ لها ، من طريقِ الوجودِ ، أبينُ من هذا كلِّه ، وهو أنّ المُنغمِسَ في الماءِ ، ولو كانَ في الصُّندوقِ ، يَضيقُ عليه الهواءُ للتنفُّسِ الطبيعيِّ ، وتسخُنُ روحُه بسرعةِ تقلُّبِهِ ، فيفقِـدُ صاحبُهُ الهواءَ الباردَ المعدّلَ لِمزاجِ الرئةِ والروحِ القلبيِّ ، ويَهلِكُ مكانَه . وهذا هو السببُ في هلاكِ أهلِ الحمّامـات ، اذا أُطبِقَت عليهم عن الهواءِ البارِدِ ، والمتدلّين في الآبارِ والمطاميرِ[٢] العميقَةِ المهوى . إذا سَخَنَ هواؤهـا بالعُفونةِ . ولم تُداخِلها الرياحُ . فتخلخِلُها[٣] ، فإن المتدلّي بها يهلِكُ لحينِهِ . وبهذا السببِ يكونُ موتُ الحوتِ ، اذا فارقَ البحرَ ، فإنّ الهواءَ لا يكفيه في تعديلِ رئتِهِ ، إذ هو حارٌّ بإفراطٍ ، والماءُ الذي يعـدِّلُه باردٌ ، والهواءُ الذي خرجَ اليه حارٌّ ، فيستولي الحارُّ على روحِه الحيواني ، ويهلِـك دفعةً . ومنه هلاكُ المصعوقين وامثالُ ذلك .

مدينة النّحاس

وكما نقلَه المسعوديُّ ايضاً في حديثِ مدينةِ النّحاسِ ، وأنها مدينـةٌ ، كلُّ بنائِها نحاسٌ بصحراءِ سِجِلْماسةَ ، ظَفَرَ بها موسى بن نُصيرٍ في غزوتِه الى المغربِ ، وأنها مُغلقةُ الأبوابِ ، وأنّ الصاعدَ اليها من أسوارِها ، إذا اشرفَ على الحائطِ ، صفَّقَ ورمى بنفسِهِ ، فلا يرجِعُ آخرَ الدهرِ ؛ في حديثٍ مستحيلٍ عادةً ، من خُرافاتِ القُصّاصِ . وصحراءُ سِجلماسَةَ قـد نفضَها[٤] الرُّكّابُ والأَدِلّاءُ ، ولم يقِفوا لهذهِ المدينةِ على خبرٍ . ثمّ ان هـذه الأحوالَ ، التي

١ * انتقاض العقدة: اراد به ارفضاض الناس عنه.

٢ * المطامير : واحدتها المطمورة : الحفيرة تحت الارض تُخبَّأُ فيها الحبوب.

٣ * تخلخلها : تفرّق اجزاءها.

٤ * نفضها : لظرَ جميع ما فيها حتى يتعرّفه.

ذكروا عنها ، كلُّها مستحيلٌ عادةً ، منافٍ للامورِ الطبيعيَّةِ في بناءِ المدنِ واختِطاطِها ، وإن المعادنَ غايةُ الموجودِ منها أن يُصرفَ في الآنيةِ والخُرثيّ[1] ، واما تشييدُ مدينةٍ منها ، فكما تراه من الاستحالةِ والبُعدِ ؛ وامثالُ ذلك كثيرٌ ، وتمحيصُه انما هو بمعرفةِ طبائع العُمرانِ ، وهو احسنُ الوجوهِ وأوثقُها في تمحيصِ الأخبارِ وتمييزِ صدقِها من كذبِها ، وهو سابقٌ على التمحيصِ بتعديلِ الرُّواةِ ، ولا يُرجَعُ الى تعديل الرُّواةِ ، حتى يُعلَمَ ان ذلكَ الخبرَ في نفسِه ممكنٌ ، او ممتنعٌ . وأمّا اذا كان مستحيلًا ، فلا فائدةَ للنَّظرِ في التعديلِ والتجريحِ[2] .

الاجتماعُ الانساني

ان الاجتماعَ الانسانيَّ ضروريٌّ ، ويعبّرُ الحكماءُ عن هذا بقولهم : الانسانُ مدنيٌّ بالطبعِ ، اي لا بدَّ له من الاجتماعِ الذي هو المدنيّةُ في اصطلاحِهم ، وهو معنى العمرانِ . وبيانُه أنّ اللهَ ، سبحانه ، خلقَ الانسانَ ، وركّبَه على صورةٍ لا يصِحُّ حياتُها وبقاؤها الّا بالغِذاءِ ، وهَداه الى التماسِه بفِطرتِه ، وبما رُكّبَ فيه من القُدرةِ على تحصيلِه . إلّا أن قُدرةَ الواحدِ من البشرِ ، قاصرةٌ عن تحصيلِ حاجتِه من ذلك الغذاءِ ، غيرُ مُوفيةٍ له بمادّةِ حياتِه منه ، ولو فرضنا منه اقلَّ ما يمكنُ فرضُه ، وهو قوتُ يومٍ من الحِنطةِ مثالًا ، فلا يحصَلُ إلّا بعِلاجٍ كثيرٍ من الطّحنِ والعَجنِ والطَّبخِ ؛ وكلُّ واحدٍ من هذه الاعمال الثلاثةِ ، يحتاجُ الى مواعينَ وآلاتٍ لا تتمُّ الا بصناعاتٍ متعدّدةٍ من حدّادٍ ونجّارٍ وفاخوريٍّ . هَب أنّه يأكُله حبًّا من غيرِ عِلاجٍ ، فهو ايضاً يحتاجُ ، في تحصيلِه حبًّا ، الى اعمالٍ اخرى اكثرَ من هذه الزّراعةِ والحِصادِ والدِّراسِ ، الذي يُخرِجُ الحَبَّ من غِلافِ السُّنبُلِ ؛ ويحتاجُ كلُّ واحدٍ من هذه الى آلاتٍ متعدّدةٍ ، وصنائعَ كثيرةٍ اكثرَ من الأُولى بكثيرٍ ؛ ويستحيلُ ان توفِّي بذلك كلّه ، أو بعضِه ، قدرةُ الواحدِ ، فلا بدَّ من اجتماعِ

١ * الخرثي : اردأ المتاع وسقطه .
٢ * تجريح الكلام : ردّه واسقاطه .

القُدَرِ الكثيرةِ من أبناءِ جنسهِ ، ليحصَلَ القوتُ له ولهم ، فيحصَلَ ، بالتعاوُنِ ، قَدْرُ الكِفاية ، من الحاجةِ ، لأكثرَ منهم بأضعافٍ.

وكذلك يحتاجُ كلٌّ واحدٍ منهم ايضاً ، في الدِّفاعِ عن نفسه ، الى الاستعانةِ بابناءِ جنسه ، لأنَّ اللهَ ، سبحانه ، لمَّا ركَّبَ الطِّباعَ في الحيواناتِ كلّها ، وقسَمَ القُدَرَ بينها ، جعَلَ حظوظَ كثيرٍ من الحيواناتِ العُجمِ ، من القُدرةِ ، اكملَ من حَظِّ الإنسانِ : فقدرةُ الفرسِ ، مثلًا : اعظمُ من قدرة الإنسانِ ؛ وكذا قدرةُ الحمارِ والثَّورِ ، وقدرةُ الأسدِ والفيل ، اضعافٌ من قدرته .

ولما كان العُدوانُ طبيعيًا في الحيوانِ جعلَ ، لكلِّ واحدٍ منها ، عُضوًا يختصُّ بمدافعتهِ ما يصِلُ اليه من عاديةِ غيرِه ، وجعلَ للإنسانِ ، عوضاً عن ذلك كلّه ، الفكرَ واليَدَ : فاليدُ مهيَّئةٌ للصنائعِ ، بخدمةِ الفكرِ ؛ والصنائعُ تحصِلُ له الآلاتِ ، التي تنوبُ لهُ عن الجوارحِ المُعدَّةِ في سائرِ الحيواناتِ للدِّفاعِ ، مثلَ الرماحِ ، التي تنوبُ عن القرونِ الناطحةِ ، والسيوفِ النائبةِ عن المخالبِ الجارحةِ ، والتِّراسِ النائبةِ عن البَشَراتِ الجاسيةِ[1] ، الى غيرِ ذلك مما ذكَرَه جالينوس[2] في كتابِ منافعِ الأعضاء . فالواحدُ من البشرِ لا تقاومُ قدرتُه قدرةَ واحدٍ من الحيواناتِ العُجمِ ، ولاسيما المفترسةُ ، فهو عاجزٌ عن مُدافعتِها وحدَهُ بالجملةِ ، ولا تَفِي قدرتُه ايضاً باستعمالِ الآلاتِ المعدَّةِ للمدافعةِ لكثرتِها ، وكثرةِ الصنائعِ والمواعينِ المعدّةِ لها ، فلا بدَّ ، في ذلك كلّهِ ، من التعاوُنِ عليه بابناءِ جنسهِ ؛ وما لم يكن هذا التعاونُ ، فلا يحصلُ له قوتٌ ولا غِذاءٌ ، ولا تَتِمُّ حياتُه لِما ركّبَه اللهُ تعالى فيه من الحاجةِ الى الغذاءِ في حياتِه ، ولا يحصلُ له ايضاً دفاعٌ عن نفسه لفقدانِ السلاحِ ، فيكونَ فريسةً للحيواناتِ ويعاجلَه الهلاكُ عن مدى حياتِه ، ويبطُلَ نوعُ البشرِ . وإذا كان التعاونُ حصلَ له القوّةُ للغذاءِ ، والسلاحُ للمدافعةِ ،

١ * الجاسية : الصلبة .
٢ * جالينوس : طبيب يوناني مشهور .

وتمّت حكمةُ اللهِ في بقائهِ وحِفظِ نوعهِ . فاذًا هـذا الاجتماعُ ضروريٌّ للنوعِ الانساني ، وإلّا لم يكمل وجودُهم ، وما اراده الله من اعمارِ العـالمِ بهم واستخلافِه ايّاهم : وهذا هو معنى العُمران .

أثر الهواء في اخلاقِ الناس

من خُلقِ السُّودانِ ، على العمومِ ، الخِفّـةُ والطَيشُ وكثرةُ الطَّرَبِ ، فتجدُهم مولَعِين بالرقصِ على كلِّ توقيعٍ ، موصوفين بالحُمْقِ في كلِّ قُطرٍ ؛ والسببُ الصحيحُ ، في ذلك ، أنه تقرّرَ ، في موضِعه من الحِكمة ، أنّ طبيعةَ الفرحِ والسرورِ هي انتشارُ الروحِ الحيوانيِّ وتفشّيه ، وطبيعةَ الحُزنِ بالعكسِ ، وهو انقباضُه وتكاثُفُه ؛ وتقرّرَ أن الحرارةَ مُفشيةٌ للهواءِ ، والبُخارَ مخلخِلٌ له زائدٌ في كميّته ، ولهذا نجِدُ في المُنتشي ، من الفرحِ والسرورِ ، ما لا يُعبَّرُ عنه ، وذلك بما يداخلُ بُخـارَ الروحِ في القلبِ من الحرارةِ الغريزيّةِ ، التي تَبعثُها سَورةُ الخمرِ في الروحِ من مِزاجِه ، فيتفشّى الروحُ ، وتجيءُ طبيعـةُ الفرحِ ؛ وكذلك نجِدُ المتنعّمين بالحمّاماتِ ، إذا تنفّسُوا في هوائِها ، واتّصلت حَرارةُ الهواءِ في ارواحِهم ، فتسخّنت لذلك ، حدَثَ لهم فرحٌ ، وربّما انبعثَ الكثيرُ منهم بالغِناءِ الناشئِ عن السرورِ .

ولما كان السودانُ ساكنين في الإقليمِ الحارِّ ، واستولى الحرُّ على أمزجتِهم في أصلِ تكوينِهم ، كان في ارواحِهم ، من الحرارةِ على نسبـةِ ابدانِهم واقليمِهم ، فتكونُ ارواحُهم ، بالقياسِ الى ارواحِ الإقليمِ الرابعِ[1] ، اشدَّ حرًّا ، فتكونُ اكثرَ تفشّياً ، فتكون اسرعَ فرحاً وسرورًا ، واكثرَ انبساطاً ، ويجيءُ الطيشُ على أثرِ هذهِ .

وكذلك يلحقُ بهم قليلًا أهلَ البلادِ البحريّةِ ؛ فلما كان هواؤها متضاعفَ

١ * قسم القدماء شطر الارض الواقع شمالي خط الاستواء الى سبعة اقاليم . اما الشطر الجنوبي فكانوا يعتبرونه خلاء الا اقله ، وكان الاقليم الرابع يتناول من الارض ، فيما يتناوله ، طنجة ، وبلاد الاندلس ، وخليج البنادقة وخليج القسطنطينية وجزر غشكونية وسردانية وصقلية ، واسافل الشام وبلاد الارمن وجزيرة ابن عمر وغيرها .

الحرارةِ بما ينعكسُ عليه من اضواءِ بسيطِ البحرِ واشعَّتِه ، كانت حصَّتُهم من توابعِ الحرارةِ ، في الفرحِ والخفَّةِ ، موجودةً اكثرَ من بلادِ التُّلولِ والجبالِ .

وقد نجدُ يسيرًا ، من ذلك ، في اهلِ البلاد الجزيريّةِ ، من الإقليمِ الثالثِ[1] ، لتوفُّرِ الحرارةِ فيها وفي هوائها ، لانها عريقةٌ ، في الجنوبِ ، عن الأريافِ والتلول . واعتبر ذلك ايضاً باهل مصر ، فانها في مثلِ عرضِ البلادِ الجزيريةِ ، أو قريباً منها ، كيف غلب الفرحُ عليهم والخِفَّةُ والغفلةُ عن العواقبِ ، حتى انهم لا يدَّخِرونَ اقواتَ سِنَتِهم ولا شهرِهم ، وعامَّةُ مآكلِهم من أسواقِهم .

ولما كانت فاسُ ، من بلاد المغربِ ، بالعكسِ منها في التوغُّلِ في التلولِ الباردةِ ، كيفَ ترى أهلَها مُطرِقين إطراقَ الحزن ، وكيف افرطوا في نظرِ العواقبِ ، حتى ان الرجلَ منهم ليدَّخِرُ قوتَ سنتين من حبوبِ الحنطةِ ، ويباكرُ الاسواقَ لشراءِ قوتِه ليومِه ، مخافةَ ان يُرزأَ شيئاً من مُدَّخَرِه .

وتتبَّعْ ذلك في الاقاليمِ والبُلدانِ تجدْ ، في الاخلاقِ ، أثرًا من كيفيَّاتِ الهواءِ ، واللهُ الخلّاقُ العليمُ .

البدوُ اقدم من الحضر

قد ذكرنا ان البدوَ هم المقتصرون على الضروريّ في احوالهم ، العاجزون عما فوقَه ؛ وان الحضر المعتنون بحاجاتِ التَّرَف والكمالِ في احوالِهم وعوائدهم ؛ ولا شكَّ ان الضروريَّ اقدمُ من الحاجيِّ والكماليِّ ، وسابقٌ عليه ، لان الضروريَّ أصلٌ والكماليَّ فرعٌ ناشئٌ عنه ، فالبدوُ أصلٌ للمدنِ والحضرِ ، وسابقٌ عليهما ، لانَّ أولَ مطالبِ الإنسانِ الضروريُّ ، ولا ينتهي الى الكمالِ

١ * الاقليم الثالث كان يتناول المغربين الأقصى والاوسط وافريقية وقطعة من البحر الرومي ومصر وسواحل الشام ونجد واليمامة والعراق وبلاد فارس والهند والتبَّت وبلاد الترك وغيرها ، وكانت بعض اجزائه تختلط باجزاء الاقليم الرابع .

والترفِ الّا اذا كان الضروريُّ حاصلًا ، فخشونةُ البداوةِ قبلَ رِقّةِ الحضارةِ، ولهذا نجدُ التمدُّنَ غايةً للبدويِّ يَجري اليها وينتهي بسعيِهِ الى مقترَحِهِ منها ؛ ومتى حصلَ على الرِّياشِ ، الذي يحصلُ له به احوالُ الترفِ وعوائدُه ، عاج الى الدَّعةِ ، وامكنَ نفسَه الى قيادِ المدينةِ[1] .

وهكذا شأنُ القبائلِ المتبدّيةِ كلِّهم ؛ والحضريُّ لا يتشوَّفُ[2] الى احوالِ الباديةِ الّا لضَرورةٍ تدعوهُ اليها ، او لتقصيرٍ عن احوالِ اهل مدينتِه؛ ومما يشهدُ لنا أن البدوَ اصلٌ للحضرِ ، ومتقدِمٌ عليه ، إنّا إذا فتَّشنا اهلَ مِصرٍ من الأمصارِ وَجدنا أَوَّليَّةَ اكثرِهم من اهلِ البدوِ ، الذين بناحيةِ ذلك المِصرِ ، وفي قُراه ، وأَنّهم أيسروا ، فسكنوا المِصرَ ، وعدَلوا الى الدَّعةِ والتَّرفِ ، الذي في الحضرِ ، وذلك يدُلُّ على ان احوالَ الحضارةِ ناشئَةٌ عن احوالِ البداوةِ ، وأنّها اصلٌ لها فتَفَهَّمه .

ثم إنّ كلَّ واحدٍ من البدوِ والحضرِ متفاوتُ الاحوالِ من جنسه ؛ فرُبَّ حيٍّ اعظمُ من حيٍّ ، وقبيلةٍ أعظمُ من قبيلةٍ ، ومِصرٍ أوسعُ من مصرٍ ، ومدينةٍ اكثرُ عُمراناً من مدينةٍ ؛ فقد تبيَّنَ أن وجودَ البدوِ متقدِمٌ على وجودِ المدنِ والأَمصارِ ، واصلٌ لها ، بما أنّ وجودَ المدنِ والامصارِ من عوائدِ التَّرفِ والدَّعةِ ، التي هي متأخرةٌ عن عوائدِ الضرورةِ المَعاشيَّةِ ، والله اعلمُ .

اهل البدو اقرب الى الخير من اهل الحضر

وسببُه أَن النفسَ ، اذا كانت على الفطرة الأُولى ، كانت مُتهيّئةً لقبولِ ما يردُ عليها ، وينطبعُ فيها من خيرٍ وشرٍّ . قال صلّى الله عليه وسلّم :« كلُّ مولودٍ يولَدُ على الفِطرةِ ، فأبواهُ يهوّدانه ، او ينصِّرانه ، او يمجّسانه . » وبقَدْرِ ما سبق اليها من أَحدِ الخُلُقينِ تبعُدُ عن الآخرِ ، ويصعُبُ عليه اكتسابُه .

١ ＊ المراد انه استسلم الى حياة المدن

٢ ＊ تشوّف اليه : تطلع اليه.

فصاحبُ الخيرِ ، اذا سبقَت الى نفسه عوائدُ الخيرِ ، وحصَلت لـه مَلَـكَتُه ، بَعُد عن الشرّ ، وصَعُبَ عليه طريقُه . وكذا صاحبُ الشرّ إذا سبقت اليه ايضاً عوائده .

واهلُ الحضرِ لـكثرةِ ما يُعانون من فنون الملاذِ وعوائدِ الترَف ، والاقبال على الدّنيا ، والعُكوفِ على شَهواتهم منها ، قـد تَلوَّنَت انفُسهم بـكثير من مذموماتِ الخُلقِ والشرِ ، وبعُدَت عليهم طرقُ الخير ومَسالـكُهُ ، بقَدْرِ مـا حصلَ لهم من ذاك ؛ حتى لقد ذهَبت عنهم مَـذاهبُ الحِشمةِ في أَحوالِهم . فَتَجِدُ الـكثيرَ منهم يَقذَعون في أقوالِ الفَحشاءِ ، في مَجالِسهم ، وبينَ كُبرَائِهم ، وأَهلِ مَحارمِهم ، لا يصدُّهم عنه وازعُ الحِشمةِ لِمـا اخذتهم به من عوائدِ السُّوءِ في التَّظاهرِ بالفَواحشِ ، قولًا وعملًا .

واهلُ البدوِ ، وان كانوا مقبلينَ على الدّنيا مثلَهم ، إلّا أَنه في المقـدار الضَروريّ ، لا في التَّرَف ولا في شيءٍ من أَسبابِ الشَّهَواتِ واللَذّاتِ ودواعيها . فعوائدُهم في معاملاتِهم على نِسبتها ؛ وما يحصُل فيهم من مَـذاهبِ السُّوءِ ، ومذموماتِ الخُلق ، بالنسبةِ الى اهلِ الحضرِ ، اقلُّ بـكثير . فهم اقربُ الى الفطرة الاولى ، وابعـدُ عمَّا ينطبعُ في النفسِ من سُوءِ الملـكاتِ ، بـكثرةِ العوائدِ المذمومةِ وقُبحها ؛ فيسهُلُ عِلاجُهم عن عِلاجِ الحضرِ وهو ظـاهرٌ . وقد توَضَّح ، فيما بعدُ ، ان الحِضارةَ هي نِهايةُ العُمرانِ ، وخروجُه الى الفَسادِ ، ونهايةُ الشرِّ ، والبعدُ عن الخير . فقد تبيّنَ ان اهلَ البدوِ اقربُ الى الخيرِ من أَهلِ الحضرِ ؛ واللهُ يُحبُّ المتَّقين .

القِسمُ الثّاني

الأدبُ المشرقيّ في الانحطاط

تناوبت البلاد العربية ، منذ اكتساح المغول للممالك الاسلامية ، كوارث عديدة ، واحداث سياسية واجتماعية مختلفة ، باتت معها فريسة الجائحين ، ونهبة الناهبين ؛ وبات اهلها مروّعين ، ممزّقين تقتيلًا وتشتيتًا ؛ فانطفأت جذوة القرائح ، ومات الفنّ ، وارمد الوحي والابتكار، ودبّ الفساد في اللغة الفصحى بانتشار العناصر الاعجمية ، ونشرهم رطانتهم فيها .

ثم بسط العثمانيون سيطرتهم على البلاد العربية كلّها ، وجعلوا لغتهم التركية لغة رسمية ، وطفقوا يسعون الى تتريك العرب والقضاء على لغتهم وقوميتهم ، فقضوا على ما بقي من الفصحى ، وهيمنت التركية على لغة الكتابة ، ولغة المخاطبات .

وكان قد ظهر في اول هذا العهد الكالح بعض شعراء وناثرين هم على شيء من الشاعرية والفنّ ، مع تقليدهم وتصنّعهم ، ولكن لم يلبث هذان الفنّان ان تداولها من لم يؤتَ حظًّا من الشاعرية والبلاغة ، فابتذلا ، واسفّا ، وسادتها اللهجات العامية تداخلها الفاظ من شتى لغات الفاتحين ولهجات المكتسحين .

وهكذا خيّم الانحطاط بروقيه على العربية وادابها ، وانزوت الفصحى بنتاجها العبقري في بطون الطوامير المهملة ، تنتظر ان يقيض لها الله تعالى يومًا تنبعث فيه من اكفانها .

القسم الثاني

الباب الأول

في الشعر

الشابّ الظريف

١٢٦٢ - ١٢٨٩

هو محمد بن عفيف التّلمساني الشاعر ؛ ولد في مصر ، ومات في دمشق ، وهو في عنفوان شبابه .

كان مشهورًا برقّته ؛ قال فيه القاضي شهاب الدين بن فضل الله : « شعره رشيق الالفاظ لا يخلو من الالفاظ العامية . »

نسج الشاب الظريف شعره على منوال الاقدمين ، شأن شعراء زمانه ، وقليلًا ما تقرأ له قصيدة لا يذكرك فيها بشاعرٍ قديمٍ جاهليّ ، أو اسلامي ، او عباسي .

وكان كثير التصنّع ، مولعًا بالتلاعب بالالفاظ وقلبها ، بغية المخالفة لمعانيها . يتعمّد الجناس والطّباق ، فيأتي شعره بادي التكلّف ، على ان في بعضه عاطفة رقيقة .

شعره

للشاب الظريف ديوان صغير ، اكثره في الغزل ، طبع مرارًا .

غزل وشكوى

الحضور الغيّب

اهلاً بُمعتلِّ النسيمِ ومرحبا ، ومُذكِّري عهدَ الصَبابةِ والصِبـا ؛
حَمَلَ التحِيَّةَ من أُهيلِ المُنحنى ؛ وأَبانَ عنهم في المَقـالِ ، وأعربا ،
فعرفت عَرفَهُمُ بـهِ ، لكنَّني انكرتُ صَبرا من عهودي نَكّبا .
يا عاذلي ! كن عاذري في حبِّهم ، لم ألقَ للسُّلوانِ عنهم مذهبـا ،
لا تلحَ فيهم ، بعدما إلفُ الضَّنا يجد الغَرامَ بهم لذيـذاً طيّبا .
غبتم وانتم حاضرون بُمهجتي ، فبمُهجتي أفدي الحُضورَ الغُيَّبـا !

شكوى وفخر

تَدارَكُهُ قبلَ البينِ ، فاليومَ عهدُه ، وجُدْ معَه بالدمعِ ، فالدمعُ جُهدُه !
له كلَّ يومٍ ، في الوَداعِ ، مواقفٌ يذوبُ لها رِخوُ الجَلادِ وصَلـدُه .
خليليَّ من بانِ المُصلّى ورَنـدهِ ، سُقي بالحَيـا بانُ المُصلّى ورَندُه ![1]
علامَ رَمت قلبي هناك ظِبـاؤُه ، وقـد كنتُ قِدماً تَتَّقيني أسدُه ؟
بُليتُ بحظٍّ ، كلَّما رُمتُ مَقصـدًا يساقُ بهِ ، من جانبِ الدهرِ ، ضِدُّه .
أَجيرانَنا ! إنّا وإن برَّحَ الهوى ، وعزَّ علينا بُعـدُ من طالَ بُعدُه ،
لِنأسو جَراحاتِ الهوى بتعلّـلٍ ، يُشارُ بأطرافِ الأَمانيِّ شهـدُه .[2]

١ * الرند : نبات من شجر البادية طيّب الرائحة ، يشبه الآس

٢ * نأسو : نداوي ◎ التعلّل : التشاغل بالأمر ، ومنه التعلّل بالاماني ◎ يشار : من شار العسل استخرجه .

يلَذُّ بكم سَهلُ الغَرامِ وصعبُــه ؛ ويحلو بكم هَزلُ العِتابِ وجِدُّه ،
تعالَوا نُعيــدُ الوصلَ نحنُ وانتمُ ، فلا رأيَ منّا عندَ من دامَ صدُّه ،
ولا تفتحوا للعَتبِ باباً ، فربّمــا يَعِزُّ عليكم ، بَعدَ ذاك ، سَدُّه .
ومُنتقمٍ مني ، وذَنبيَ عِنــده مَقالي ، وهذا الحُرُّ قلبي عَبــدُه ،
سكِرتُ بأقداحٍ ، وعَيناه خَمرُها ؛ وهِمتُ ببُستانٍ ، وخَــدّاه وَردُه .
فما بالُه ، من بعد عُرفٍ ، تنكَّرت خَلائقُــه ، حتى تغيَّر عهدُه ؟
كذاكَ رأيتُ الدهرَ،إن يصفُ مَنْهلٌ ، تكدَّرَ من حَوضِ الحَوادثِ وِردُه !
أقولُ لقلبي ، والغَرامُ يقودُه ، وسيفُ التجنّي والتمنّي يَقُــدُّه ؛
اذا لم تَدُم ، للروحِ والجِسمِ،صحبةٌ ، فــأيُّ حبيبٍ دائمٍ لك وِدُّهُ ؟
سأسري ،وجِنحُ الليلِ يَطوي ظَلامَه ، وأسعى،وقلبُ الشمسِ يَلفَحُ وَقدُه ؛
أرومُ بعَزمي فوقَ ما دونَ نَيلِه ، لِواءُ المنايا خافقُ الظِلِّ بَنــدُه ؛[1]
وما شَرَفي إلّا بنفسي ، وإن يكُن لقومي فَخارٌ طاولَ النجمَ مجــدُه ؛
ولو كانَ تحصيلُ الفَخارِ بنِسبــةٍ ، تَساوى اذًا حدُّ الحُسامِ وغِمــدُه ؛
ولا ذَنبَ لي إلّا الكمالُ على الصِبا ، فمَن لي بعَيبٍ او بشَيبٍ أعــدُّهُ ؟

رأى فحبّ

للعاشقين بأحكامِ الغَرامِ رِضى ، فلا تكن ، يا فتى ، بالعَذلِ مُعترِضا !
روحي الفِداءُ لأحبابي ، وإن نقضوا عَهدَ الوفيِّ ، الذي للعَهدِ ما نقَضا .
قِف واستمِع سيرةَ الصَبِّ الذي قتلوا ، فمــاتَ في حُبهم لم يَبلُغِ الغَرضا :
رأى،فحبَّ،فرامَ الوَصلَ ، فامتنعُوا ، فسامَ صَبرًا ، فأعيَ نيلُه ، فقَضى .[2]

العاشقون رفاق

لا تُخفِ ما فعلَت بكَ الأشواقُ ، واشرَح هَواكَ ، فكلُّنــا عُشّاقُ !
قد كانَ يَخفى الحبُّ لولا دمعُك الـ جاري ، ولولا قلبُــك الخَفّاقُ ،

[1] البند : العلم الكبير.

[2] هذا البيت يستشهد بـه البيانيون على نوع من البديع اللفظي يقال له الترتيب.

فعَسَى يُعِينُكَ من شكوتَ له الهوى   في حمابِه ، فالعاشقون رفاق !
لا تجزعَنَّ ، فلستَ أوّلَ مُغرمٍ   فتكت به الوجناتُ ، والأَحداقُ ،
واصبر على هَجرِ الحبيب ، فربّما   عـاد الوِصالُ ، وللهوى أَخلاقُ !
كم ليلةٍ أسهرتُ أحداقي بِهـا ،   مُلقًى ، وللأفكارِ بي إحداقُ ،
يا ربِّ ! قد بَعُدَ الـذين أُحِبُّهُم   عني ، وقـد أَلِفَ الرِّفاقَ فِراقُ ،
واسودَّ حظي عنـدَهم ، لمَّا سرى   فيـه بنارِ صَبابتي إحراقُ ؛
عرَبٌ رأيتُ أصحَّ ميثاقٍ لهم   أن لا يَصِحَّ ، لـديهم ، مِيثاقُ .
وعلى النِّياقِ ، وفي الأكِلَّةِ مُعرِضٌ   فيه نِفـارٌ دائمٌ ، ونِفاقُ ،
ترنو العيونُ إليـهِ في إطراقِه ،   فإذا رَنا ، فلِكُلّهـا إطراقُ .

موشّح

١ بدرٌ عنِ الوصلِ في الهوى عدلا ، ما ليَ عنه ، إن جارَ ، أو عدَلا
مذهبٌ !

دور

٢ مُتَرَّكُ اللَّحظِ ، لفظُـه خَنِثُ ، إليـهِ تَصبو الحَشا ، وتَنبعِثُ ،
اشكو اليـه وليس يَكترِثُ ! [1]
دعا فؤادي لِأَن يذوبَ قِلا ، الموتُ ، واللهِ ، من مَقـاليَ لا ،
أقربْ ! [2]

دور

٣ لم يبقَ لي مقلةٌ ولا كَبِدُ ، والقلبُ فيه أَودى به الـكَمَدُ ،
وليس يُلقى لهجرِه أَمدُ !
لا تعجبوا إن غـدوتُ مُحتملا ، قلبيَ ، إن كانَ عنه سَلا ،
اعجبْ !

١ * خنث : فيه انخناث، تكسر وتثنٍ . وقوله مترّك اللحظ : اي انه ينظر بعين فيها جمال عيون الاتراك .

٢ * القلا : البغض

دور

٤ بالُحسنِ ، كلٌّ العُقولِ قد نَهَبا ، والُحزنِ ، كلٌّ القلوبِ قد وهبا ،
شمسٌ ، ولكنني لديه هَبا ،
فانظُر لذاكَ القُوامِ كيف جَلا غصناً ، وكَمْ بالجمالِ منه جَلا
غيهبْ !¹

شوكة الورد

١ قامَت حروبُ الزَّهرِ ما بينَ الرِّياضِ السُّندُسيّه ،
وأَتت جيوشُ الآس تغزو روضةَ الوردِ الجنيّه ،
لكنها كُسِرَت لأَنَّ الوردَ شَوكتُه قويّه .

يا ساكناً

١ يا ساكناً قلبيَ المُعنَّى ، وليسَ فيه سِواكَ ثاني ،
لأَيِّ شيءٍ كسرتَ قلبي ، وما التقى فيهِ ساكنانِ ؟

١ * الهبا : مسهّل الهباء : دقائق التراب ساطعة ومنثورة على وجه الارض ◉ كيف جلا : كيف ابرز واظهر ◉ جلا غيهب : كشف الظلام .

صَفِيّ الدّين الحلّي

١٢٧٧ - ١٣٣٩

هو ابو المحاسن عبد العزيز بن سرايا ، ويعرف بصفي الدين الحلّي ، ولد في الحِلّة ، من العراق ، واليها نُسب ؛ ومات في بغداد .

ولع صفي الدين بالشعر منذ شب عن طوقه ، وأخذ على نفسه ألّا يمدح إلا كريمًا ، وألّا يهجو إلا لئيماً ؛ فكأنه ، على حد قوله هذا ، لم يصنع شعره إلا فيما أوجب له ذكرًا .

ووقعت حروب وفتن في العراق ، حملته على الرحيل الى آل الأرتق ، ملوك ديار بكر بن وائل ، فمدح الملك المنصور نجم الدين ابا الفتح غازي بتسعٍ وعشرين قصيدةً ، كل منها تسعة وعشرون بيتًا ، على حرف من حروف المعجم ، بدأ كل بيت منها به وبه ختمه وسماها الارتُقيات .

ثم اتصل بالسلطان المؤيد عماد الدين اسماعيل بن الملك الافضل بن ايوب فمدحه ، ثم بابنه شمس الدين ابي المكارم .

ورحل بعدئذٍ ، خوف الفتن ، الى مصر فقرّبه ملكها الناصر ، فمدحه ودعا مدائحه فيه بالناصريات . وجمع ديوانه باشارة من رئيس وزرائه ناصر الدين محمد بن قلاوون .

كان صفي الدين كثير التصنّع والتكلّف لانواع البديع والتلاعب بالالفاظ . وقد دفعه ولعه بذلك الى نظم قصيدة طويلة سماها : « الكافية البديعيّة في المدائح النبويّة » جمع فيها انواع المحسّنات اللفظية والمعنوية ؛ وفتح بها طريق نظم البديعيات لمن جاء بعده .

وكان له ولع بتسميط قصائد الاقدمين فعله بقصيدة السموأل : «اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه» . وقد اشتهر بوصفه مظاهر الطبيعة وله زهرية جميلة مشهورة .

والحلي ، ولا ريب ، اشعر شعراء عهده ؛ وشعره قويّ السبك ، حسن الديباجة ، لم يسفّ فيه الى المبتذل والعامي شأن غيره من متشاعري ذاك العهد .

شعره

لصفي الدين ديوان شعر ، جمعه بنفسه ورتبه على اثني عشر بابًا ، جمع فيها مختلف اغراض الشعر التي نظم فيها . اخذنا منه بضع قصائد من الفخر والمدح والزهريات ، والمختلفات .

طبع هذا الديوان مرارًا .

الفخر والمدح

سلي الرماح

قال في صباه يفتخر بقومه واخذهم بثأر خاله صفيّ الدين بن محاسن من آل ابي الفضل ، وقد قتلوه بمسجده غدرًا .

سَلِي الرماحَ العَوالي عن مَعالينا ، واستشهدي البيضَ ، هل خابَ الرجا فينا ؟
وسائلي العُرْبَ والأتراكَ ما فعَلت ، في ارضِ قبرِ عبيدِ اللهِ ، ايدينا .
لمَّا سَعَينا ، فما رقَّت عَزائمُنا ، عما نروم ، ولا خابَت مَساعِينا .
يا يومَ وقعةِ زوراءِ العِراقِ ، وقد دِنَّا الأعادي ، كما كانوا يَدِينُونا ،
بضُمَّرٍ ما رَبطناها مُسوَّمَةً ، إلَّا لِنغزو بها من بات يَغزونا . [1]
وفِتيةٍ ، إن نَقُل أصغَوا مسامِعَهم لقَولِنا ، أو دَعَوناهم أجابونا ؛
قومٌ ، إذا استُخصِمُوا كانوا فراعنةً يوماً ، وإن حُكِّموا كانوا مَوازينا ،
تَدَرَّعوا العقلَ جِلباباً ، فإن حَمِيَت نارُ الوَغى خِلتَهم فيها مَجانينا ،
إذا ادَّعَوا جاءتِ الدنيا مُصدِّقةً ؛ وإن دَعَوا قالتِ الأيامُ : آمينا ؛
إنَّ الزَّرازيرَ لما قام قائمُها ، تَوَهَّمَت أنها صارت شَواهينا ؛ [2]
ظَنَّت تَأَنِّي البُزاةِ الشُّهبِ عن جَزَعٍ ، وما درَت أنه قد كان تَهوِينا ؛ [3]
بَيادِقٌ ظَفِرَت أيدي الرِّخاخِ بها ، ولو تَركناهمُ صادوا فَرازِينا ؛ [4]

١ * الضُمَّر : واحدها ضامر : القليل النحم ، الهضيم البطن ، نعت للخيول ◎ المسوّمة : من سوّم الخيل : ارسلها مطلقة الى المرعى

٢ * الزرازير ، واحدها زرزور : طائر اكبر من العصفور ، منه نوع لونه اسود ، وآخر منقط ببياض ◎ الشواهين ، واحدها شاهين : طائر من جنس الصقر طويل الجناحين .

٣ * البزاة ، واحدها باز : ضرب من الصقور .

٤ * البيادق ، واحدها بيدق ، وهو البيذق : الماشي راجلًا ، سميت به قطع من الشطرنج لانها عبارة عن المشاة في الحرب ◎ الفرازين ، واحدتها فرزان :

ذَلُّوا بأسيافِنا ، طولَ الزمانِ ، فَمُذْ تحكَّموا أظهروا احقادَهم فينـا ؛
لم يُغنِهِم مالُنا عن نهبِ أنفسِنا ، كأنَّهم في أمانٍ من تقاضينا ؛
أخلوا المساجدَ من أشياخِنا وبَغَوا ، حتى حملنا فأخلَينا الدَّواوينـا ،
ثمَّ انثَنينا ، وقد ظلّت صَوارمُنـا تَميسُ عُجباً ، ويَهتزُّ القَنا لِينـا ،
ولِلدِّماءِ ، على أثوابِنا ، عَلَقٌ ، بِنَشرِه ، عن عَبيرِ المِسكِ ، يُغنينا . [1]
فيا لَها دَعوةً ، في الأرضِ ، سائرةً ، قد أصبَحت في فمِ الأيّامِ تُلقينا :
أنّا لَقَومٌ أبَت أخلاقُنا ، شَرَفاً ، أن نبتدي بالأذى من ليس يُؤذينا .
بِيضٌ صَنائعُنـا ، سُودٌ وَقائعُنا ، خُضرٌ مَرابِعُنا ، حُمرٌ مَواضينـا ،
لا يَظهَرُ العَجزُ مِنّا دونَ نَيلِ مُنًى ، ولو رأينا المَنايا في أمانينـا ،
ما أعوَزَتنا فَرامينٌ نَصولُ بِها ، إلّا جعَلنا مَواضينـا فَرامينا . [2]
إذا جرَينا ، إلى سَبقِ العُلى ، طَلَقاً ، إن لم نكن سُبَّقاً كنّا مُصلّينـا ؛ [3]
تُدافِعُ ، القَدرَ المحتومَ ، هِمَّتُنا عنّا ، ونَخصِمُ طَرفَ الدَّهرِ لو شِينا ؛
نَغشَى الخُطوبَ بأيدينا ، فنَدفعُها ، وإن دَهَتنا دفَعناها بأيدينـا .
مَلْكٌ ، إذا فُوِّقت نَبلُ العدوِّ لنا ، رَمَت عَزائمُه من باتَ يَرمينـا ؛
عَزائمٌ ، كالنجومِ الشُّهبِ ثاقبةٌ ، ما زالَ يُحرِقُ فيهِنَّ الشياطينا ؛
أعطى ، فلا جُودُه قد كان عن غلَطٍ منه ، ولا أجرُه قد كان مَمنُونا .
كم من عدوٍّ لنـا أمسى بسَطوتِه ، يُبدي الخُضوعَ لنا ، خَتلًا وتسكينا ، [4]
كالصِلِّ يُظهِرُ لِيناً عند مَلمَسِه ، حتى يُصادِفَ في الأعضاءِ تَمكينا ، [5]
يَطوي لنا الغَدرَ في نُصحٍ يُشيرُ به ، ويَمزُجُ السُّمَّ في شَهدٍ ، ويَسقينا ؛
وقد نَغُضُّ ونُغضي عن قَبائحِـه ، ولم يكن عَجَزاً عنه تَغاضينا ،
لكن تَرَكناه ، إذ كُنّا على ثِقةٍ أنَّ الأميرَ يُكافيه ، فيَكفينا . [6]

الملكة في لعب الشطرنج ◎ الرخاخ : واحدتها رخة : القطعة من قطع الشطرنج .

١ * العلق : الدم المتجمد .

٢ * الفرامين ، واحدها فرمان : كتاب من السلطان كان يعطى الولاة ووكلاء الدول يعلن تنصيبهم وأموريتهم ، وربما أعطي في امتيازات مخصوصة وامور أخر ، فارسي معناه : أمر .

٣ * المصلّي ، من الخيل : الذي يأتي بعد السابق .

٤ * الختل : الخداع .

٥ * الصل : الحية .

٦ * في قوله : يكافيه ، ضرب من ملحقات الكناية يقال له المشاكلة ، والمراد يعاقبه .

مدح الملك الناصر

قال من قصيدة يمدح الملك ناصر الدين محمد بن قلاون
عند كسر الخليج ، وتقسيم مياهه لري ارض مصر

خلَعَ الربيعُ ، على غُصونِ البانِ ، ... حُلَلًا ، فَواضِلُها على الكُثبانِ ، [1]
ونمت فروعُ الدوحِ ، حتى صافحت ... كفَلَ الكثيبِ ذَوائبُ الأَغصانِ ، [2]
وتَتَوَّجت هامُ الغصونِ ، وضَرَّجت ... خَدَّ الرياضِ ، شَقائقُ النُّعمانِ ،
وتَنَوَّعت بُسطُ الرِّياضِ فزَهرُها ... مُتَبايِنُ الأَشكالِ والأَلوانِ :
من أبيضٍ يَقَقٍ ، وأصفرَ فاقعٍ ، ... أو أزرقٍ صافٍ ، واحمرَ قاني . [3]
والظِلُّ يسري ، في الخمائلِ خَطوُه ، ... والغصنُ يَخطرُ خِطرةَ النَشوانِ ؛
وكأَنَّما الأَغصانُ سُوقُ رَواقصٍ ، ... قد قُيِّدت بسَلاسلِ الرَّيحانِ .
والشمسُ تَنظُرُ ، من خِلالِ فُروعِها ، ... نَحوَ الحدائقِ نظرةَ الغَيرانِ ؛
والطَّلعُ في خِلَلِ الكِمامِ ، كأنه ... حِلَلٌ تَفتَّقُ عن نُحورِ غَواني ؛ [4]
والأَرضُ ، تُعجِبُ ، كيفَ تَضحَكُ ، والحيا ... يَبكي بدَمعٍ دائمِ الهَمَلانِ ،
حتى اذا افتَرَّت مَباسمُ زَهرِها ، ... وبَكى السَّحابُ بمَدمعٍ هَتَّانِ :
ظَلَّت حدائقُه تُعاتبُ جونَه ، ... فأجابَ مُعتَذرًا بغيرِ لِسانِ : [5]
طفحَ السُّرورُ عليَّ ، حتى أنه ... من عِظَمِ ما قد سرَّني ، أبكاني .
فاصرِف همومَك بالرَّبيعِ وفصلِه ؛ ... إنَّ الربيعَ هو الشَّبابُ الثاني .
إني وقد صفَتِ المياهُ ، وزُخرِفت ... جَنَّاتُ مِصرَ ، وأشرقَ الهَرَمانِ ،
واخضَرَّ واديها ، وحدَّقَ زَهرُهُ ، ... والنِّيلُ فيه كَكَوثَرٍ بجِنانِ ،
وبه الجواري المُنشَآتُ ، كأنها ... أعلامُ بِيدٍ ، أو فروعُ قِنانِ ، [6]

١ * الكثبان ، واحدها الكثيب : التلة من الرمل .
٢ * الدوح ، واحدها دوحة : الشجرة العظيمة ◎ الكفل : المؤخرة .
٣ * اليقق : الشديد البياض ◎ الفاقع : الخالص الصفرة .
٤ * الطلع : ما يبدو من التمر اول ظهوره ◎ الكمام ، واحدها الكم : غلاف الزهر ◎ الحلل ، واحدتها حلة : الثوب ◎ النحور ، واحدها نحر : اعلى الصدر ◎ الغواني ، واحدتهن غانية : المرأة التي تستغني عن التجمل بجمالها الطبيعي .
٥ * الجون : الخليج : ولعله يريد جون السحاب ، اي السحاب الاسود الحامل المطر . وربما كان تحريف جفن ، اي جفن السحاب ، على الاستعارة .
٦ * الجواري : السفن ، واحدتها جارية .

نَهَضَت بأجنحةِ القُلوعِ ، كأنّها ، عنــد المَسيرِ ، تَهُمُّ بالطَيَرانِ ؛
والماءُ يُسرِعُ بالتَدفُّقِ ، كلّما عجَلت علَيــه يدُ النسيمِ الوَاني ؛ [1]
حتى اذا كُسِرَ الخليجَ ، وقُسِّمَت أمواهُ لُجّتِــه على الخُلجانِ ، [2]
ساوى البلادَ ، كما تُساوي ، في النَّدى ، بين الأنامِ ، مواهبُ السلطانِ .
الناصرُ الملِكُ الذي ، في عَصرِهِ ، شكَرَ الظِّباءُ صَنيعــةَ السِّرحانِ ؛ [3]
ملِــكٌ إذا اكتحلَ الملوكُ بنُورِهِ ، خرّوا لهيبتِهِ الى الأذقــانِ ؛
واذا جرى بين الورى ذِكرُ اسمِه ، تُغنيه شُهرتُه عن ابنِ فُــلانِ .
من معشرٍ خزَنوا الثّناءَ ، وقطّعوا بغِنــا النُّضارِ جوائزَ الخُزّانِ ؛ [4]
قومٌ يرَون المَنَّ ، عند عَطائِهم ، شِركاً بوَصفِ الواحدِ المَنّانِ ؛
المُوقِدو ، تحتَ المَراجِلِ للقِرى ، فَضَلاتِ ما حَطَموا من المُرّانِ ؛ [5]
إن أخرسَت فُلَذُ العَقيرِ كِلابَهم ، دَعَوا الضُّيوفَ بألسنِ النيرانِ . [6]
أسدٌ روَت ، يوم الهياجِ ، اكفُّهم ، بدمِ الأُسودِ ، ثعالبَ الخُرصانِ ؛ [7]
قصَفوا القَنا في صَدرِ كلِّ مُدرَّعٍ ، والبيضُ في الأبدانِ والأبدانِ . [8]
مِلِــكٌ تعبَّدتِ الملوكُ لأمرِهِ ، وكذاك دولــةُ كلِّ ربِّ قِرانِ ، [9]
لا عيبَ في نُعماه ، إلّا أنّها يَسلو الغريبُ بهــا عن الاوطانِ . [10]
شاهَدتُه ، فشهِدتُ لُقمانَ الحِجى ؛ ونظَرتُ كِسرى العَدلِ في الإيوانِ ،
ورأيتُ منه سَماحةً وفصاحــةً ، اعــدى بفَيضِهما يدي ولساني .
يا ذا الذي شغَلَ الزّمــانَ بنفسه ، فــأصمَّ سمعَ طَوارقِ الحِدْثانِ ،
لو يُكتَبُ اسمُك بالصَّوارمِ والقنا ، أغنى عن التَّضرابِ والتَّطعــانِ .

١ * الواني : الضعيف ، العليل .

٢ * المراد بكسر الخليج توزيع مياه سدود النيل عند الفيضان .

٣ * السرحان : الذئب . يشير الى نشره الامان في بلاده

٤ * النضار : الذهب .

٥ * المرّان : قصب الرماح .

٦ * يريد : اذا التهى كلابهم باكل قطع لحم ما يعقرونه ، فلم تنبح ليهتدي الاضياف بنباحها ، اهتدى هؤلاء بالسنة النيران التي يوقدونها هداية لهم .

٧ * رواه : رواه : سقاه حتى ارتوى ، شبع ◎ الثعالب : رؤوس الاسنة ◎ الخرصان : الرماح القصيرة .

٨ * الابدان : واحدها بدن : جسم الانسان : الدرع القصيرة

٩ * القران : الحصون ، واحدها قرن . والقرن ايضاً اهل الزمان الواحد .

١٠ * في هذا البيت ضرب من البديع المعنوم يقال له : المدح في معرض الذي .

وكتيبةٍ ضَربَ العَجاجُ رِواقَها ، من فوقِ أَعمدةِ القَنا المُرّانِ ،
نَسَجَ الغُبارُ ، على الجيادِ ، مَدارِعاً مَوصولةً بِمَدارِعِ الفُرسانِ ؛
ودمٍ بأذيالِ الدُّروعِ ، كأنّه ، حَولَ الغَديرِ ، شَقائقُ النُّعمانِ ؛
حتى اذا استعرَ الوَرى ، وتتبّعت بيضُ الصِّفاحِ مَكامنَ الأَضغانِ ، [1]
فعلَت دروعُك ، عندَها ، بسيوفِهم ، فِعلَ السَّرابِ بِمُهجةِ الظَّمآنِ ،
وبَرَزتَ تلفُظُك الصُّفوفُ اليهمِ ، لفظَ الزِّنادِ سَواطعَ النّيرانِ ،
بأقبَّ يَعصي الكَفَّ ، ثمّ يُطيعُه ، فتَراهُ بينَ تسرُّعٍ وتَوانِ ، [2]
قد أكسبَته رياضةً سُوّاسُه ، فيكادُ تُركِضُهُ بغَيرِ عِنانِ ،
كالصَّقرِ في الطَّيَرانِ ، والطاووسِ في الـ خَطَرانِ ، والخُطّافِ في الرَّوَغانِ ،
لو قِيلَ : عجْ نحوَ السَّماءِ مُبادرًا ، وَطِئت يداه دَوابِرَ الدَّبَرانِ ، [3]
او قِيلَ : جُز فوقَ الصِّراطِ مُسارِعاً ، لمشى عليه مِشيةَ السَّرَطانِ . [4]
وفلَلتَ حَدَّ جُموعِهم بصَوارمٍ ، ككَراكَ نافرةً عن الأجفانِ ، [5]
ضَلّت ، فظَنَّت ، في مُقارعةِ العِدى ، أنَّ الغُمودَ مَعاقِدُ التِّيجانِ . [6]
يا ذا الذي خطَبَ المديحَ سَماحُه ، فَنَداهُ قبلَ نِدايَ قد لَبّاني ،
أقصَيتَني بالجودِ ثمَّ دَعوتَني ، فَنداكَ أبعَدني ، وإن أدناني ،
ضاعفتَ بِرَّك لي ، ولو لم تُولِني إلّا القَبولَ ، عَطيّةً ، لكفاني ،
فنأيتُ عنك ، ولستُ أوّلَ حازمٍ خاف النُّزولَ بمَهبِطِ الطُّوفانِ .
فجَميلُ صُنعِكمُ أجلُّ صَنائعاً ، وبديعُ فَضلِكمُ أدقُّ مَعانِ .

١ * مكامن الاضغان : كناية عن القلوب .

٢ * الفرس الاقب : الضامر البطن .

٣ * الدبران : كوكب نوره احمر ، وهو من برج الثور : والدوابر ، واحدتها دابرة : عرقوب الانسان ، استعاره للكوكب .

٤ * الصراط ، في الشرع : جسر ممدود على متن جهنم يقال انه ادقّ من الشعرة وأحد من السيف ، يدخل الجنة من استطاع اجتيازه ◎ السرطان ما نسميه السلطعون .

٥ * فللت : مزّقت ◎ كراك : نومك ◎ الاجفان ، واحدها جفن : غمد السيف وغطاء العين .

٦ * معاقد التيجان : كناية عن الرؤوس ◎ اي ان السيوف ضلت اغمادها فظنتها انها الرؤوس فاغتمدتها .

الأرتقيات

ناخذ من هذه القصائد القصيدة القافية انموذجًا يُغني عن سائرها

قِفي وَدِّعينا ، قبلَ وَشْكِ التَّفرُّقِ ، … فما انا من يَحيا الى حينَ نلتقي !
قَضَيتُ ، وما أودى الحِمامُ بمُهجتي ؛ … وشِبتُ وما حلَّ البَياضُ بِمَفرِقي .
قضَيتِ لنا ، في الذُّلِّ ، في مَذهَبِ الهوى ، … ولم تفرقي بين المُنعَمِ والشَّقي ؛
قرَنتِ الرِّضى بالسُّخطِ ، والقُربَ بالنَّوى ، … ومَزَّقتِ شَملَ الوَصلِ كلَّ مُمزَّقِ .
قبلتِ وَصايا البَحرِ ، من غيرِ ناصحٍ ، … وأحيَيتِ قولَ الهجرِ من غيرِ مُشفِقِ ؛
قطَعتِ زَماني بالصُّدودِ ، وزُرتِني … عَشيَّةَ زُمَّت ، للتَّرحُّلِ ، أَنيُقي . [1]
قضَى الدَّهرُ بالتفريقِ فاصطبري له ، … ولا تَذمُّمي أفعالَه وترَفَّقي ؛
قَبيحٌ بنا ذمُّ الزمانِ وإن جنى ، … إذا كان فيه مثلُ غازي ابنِ ارتُقِ ؛
قِوامٌ لدينِ اللهِ قد حَفِظَ الورى … بعينٍ ، متى تَنظُر الى الدهرِ يُطرِقِ ؛
قريبٌ ، إذا نُودي ، بعيدٌ اذا انتمى ، … عَبوسٌ ، إذا لاقى ، ضَحوكٌ اذا لَقي ؛
قَسى قلبُهُ جُودًا على المالِ فاغتدى … يَجورُ ، على أموالِه ، جورَ مُحنَقِ .
قَلائدُ اعناقِ الرجالِ هِباتُه ، … تَرى الناسَ منها كالحِمامِ المُطوَّقِ .
قضَى بتلافِ المالِ ، في مَذهبِ العَطا ، … فجادَ الى ان قالَ سائلُه : ارفقِ !
قضَت عنه قومٌ ، إذ رأت فَيضَ جودِهِ ، … ومن لم يَبِن عن مَهبِطِ السيلِ يَغرَقِ .
قويُّ السَّطا ، لو خاصمَ الدهرُ بأسَه ، … غدا خاسرًا ، في درعِهِ ، المُتمزِّقِ ؛ [2]
قصيرُ الخُطا نحو المَعاصي ، وإنها … طِوالٌ ، إذا ما جالَ في صَدرِ فيلَقِ .
قديرٌ ، على جَيشِ اللُّهى ، غيرُ قادرٍ ؛ … تَقيٌّ ، لأهوالِ الوغى ، غيرُ مُتَّقِ . [3]
قَنى الحمدَ ثوباً للفَخارِ ، وإنّه … على جِدَّةِ الأيامِ ، لم يَتخرَّقِ .
قُدِ العَزمَ ، وابقَ يا أبا الفَتحِ سالمًا ، … فقد خفَضَ الدهرُ الجناحَ لتَرتقي ؛

١ * زمت : وضعت لها الازمة، المقاود ◎ أنيقي ، واحدتها ناقة : انثى الجمل .

٢ * السطا : السطوة .

٣ * اللهى : العطايا ، واحدتها لهية . يقول : انه قدير ، ولكن غير قادر على جيش العطايا ، اي يغلبه هذا الجيش فيبدد امواله ، والمراد هنا الاشارة الى كرمه ، وهو تقيّ ، ولكنه لا يتقي ، لا يتجنب الاهوال : والمراد ، بهذا التلاعب في الالفاظ ، الجناس .

قد استبشرتْ منكَ اللَّيالي ، وإنّمـا   بَشاشتُهـا في غيرِكم للتملُّقِ .
قريبٌ من الداعي فمن يَبغِ نُصرةً ،   يَجِدْكَ ،ومن يَطلُبْكَ في الضيقِ يَلحَقِ ،
قَسَمتَ على الوُرّادِ رزقاً قَسَمتَهُ ،   وقلتَ لها : ممّا رزقناكِ أنفِقي !
قصَدناكَ ، يا نجمَ الملوكِ ، لأنّنـا   رأينا الورى،من بحرِ جودِكَ،تَستقي ؛
قطَعنا اليكَ البيدَ نُهدي مَدائحاً ،   جَواهرُهـا من بَحرِكَ المُتدفّقِ ؛
قَصائدُ ، في ابياتِهنَّ مَقاصِـدٌ ،   تَردَّدَ في أَحداقِهـا سِحرُ منطِقِ ؛
قَوافٍ ، اذا ما جُزنَ في سَمعِ ناقدٍ ،   فعَلن به فِعـلَ السُّلافِ المُعتَّقِ .
قدِمتُ بمدحي زائرًا ، فلقيتَني   بحُسنِ قَبولٍ ، للرَّجاءِ ، مُحقِّقِ ؛
قليلٌ ، الى ارضِ العراقِ ، تَطلُّعي ،   وجُودُكَ قيدٌ للمكارمِ مُوثِقي ؛
قَصرتُ بمغناكَ الحوادثَ ، إذ رأت   بحَبلِكَ ، من دونِ الأَنامِ ، تعلُّقي .

زهرياته واوصافه

ورد الربيع

قال من قصيدة ربيعية يصف الربيع وازهاره

وَرَدَ الربيعُ ، فمرحباً بوُرودِهِ ،   وبنُورِ بَهجتِـهِ ونَوْرِ وُرودِهِ ،
وبحُسنِ مَنظَرِهِ ، وطِيبِ نسيمِهِ ،   وأَنيقِ مَلبسِهِ ووشيِ بُرودِهِ .
فصلٌ ، إذا افتخرَ الزمانُ ، فإنه   إنسانُ مُقلتِهِ ، وبيتُ قصيـدِهِ ،
يُغني المِزاجَ ، عن العِلاجِ ، نسيمُهُ ،   باللُّطفِ عند هُبوبِهِ ورُكودِهِ .
يا حبَّذا أزهارُهُ وثِمـارُهُ ،   ونَباتُ ناجِمِـهِ ، وحَبُّ حصيدِهِ ،[1]
وتجاوُبُ الأَطيارِ في اشجارِهِ ،   كبناتِ مَعبدَ في مَواجِبِ عُودِهِ .[2]
والغصنُ قد كُسِيَ الغَلائلَ ، بعدَما   أخـذَت يدا كانونَ في تَجريدِهِ ،
نالَ الصِبا بعدَ المَشيبِ ، وقد جرى   ماءُ الشبيبةِ في منـابتِ عُودِهِ .

١ * الناجم : ما نجم من النبات ، برز من التراب .

٢ * معبد : مغنٍّ مشهور . وبناته : ألحانه

والوردُ في أَعلى الغصونِ، كأنه … ملِكٌ تحفُّ به سَراةُ جنودهِ؛
وكأنّما القَدّاحُ زَهرُ لآلئٍ، … هو للقضيبِ قِلادةٌ في جيدهِ؛ [١]
والياسَمينُ كعاشقٍ، قد شفَّه … جَورُ الحبيبِ بهجرهِ وصُدودهِ. [٢]
وانظُر لنَرجسهِ الشَّهِيِّ، كأنّه … طَرفٌ تنبَّه، بعد طُولِ هُجودهِ!
واعجب لأذَريونهِ وبَهارهِ، … كالتِّبرِ يَزهو باختلافِ نقودهِ! [٣]
وانظُر الى المَنظومِ من مَنثورهِ، … مُتنوِّعاً بفُصولهِ وعقودهِ!
أو ما ترى الغَيمَ الرقيقَ، وما بدا … للعينِ من اشكالهِ وطُرودهِ؟
والسُّحبَ تَعقُدُ في السماءِ مآتمًا، … والأرضَ في عُرسِ الزمانِ وعيدهِ؟
نَدبت، فشَقَّ لها الشَّقيقُ جُيوبَهُ، … وازرَقَّ سُوسَنُها لِلَطمِ خدودهِ. [٤]
والغَيمُ يَحكي الماءَ في جرَيانهِ، … والماءُ يَحكي الغَيمَ في تجعيدهِ؛
فابكُر الى روضٍ انيقٍ ظِلُّهُ، … فالعيشُ بين بسيطهِ ومديدهِ! [٥]

شيبةُ الزنبق

قد نَشَرَ الزَّنبقُ أعلامَه، … وقال: كلُّ الزَّهرِ في خِدمتي،
لو لم أَكن في الحسنِ سُلطانَه، … ما رُفِعت، من دونِه، رايتي!
فقهقَه الوردُ به هازئاً، … وقال: ما تحذَرُ من سطوتي؟
وقالَ للسُّوسَنِ: ماذا الذي … يقولُهُ الأشيبُ في حَضرتي؟
وامتعضَ الزنبقُ من قولهِ، … وقال للأزهار: يا عُصبتي!
يكونَ هذا الجيشُ بي مُحدِقاً، … ويضحكُ الوردُ على شَيبتي؟

عيون تنظر الى ربّها

رعَى اللهُ ليلتَنا بالحِمى، … وأمواهَ أعينهِ الزاخره؛

١ * القداح: نور النبات قبل ان يتفتح.
٢ * شفّه: اهزله، جعله شفافًا لشدة هزاله.
٣ * الاذريون: نبت يقال له بخور مريم.
٤ * السوسن: نبات من الرياحين برّي وبستاني.
٥ * في البيت تورية بين البسيط والمديد اي الارض الواسعة الممتدة، وبين وزني الشعر: البسيط والمديد.

وقد زينَ حسنُ سماء الغصونِ بأنجم أزهارِها الزاهره .
وللنَّرجسِ الغَضّ ، ما بيننا ، وجوهٌ بحضرتِنا ناضره ؛
كأنَّ تحدُّقَ أزهارِها عيونٌ ، الى ربّها ، ناظره .

غزله

ضعيفان يغلبان قويّا

١ يا ضعيفَ الجفونِ اضعفتَ قلباً ، كانَ قبلَ الهوى قويًّا مَليًّا ،
لا تُحاربْ بناظرَيك فؤادي ، فضعيفانِ يَغلِبانِ قويّا !

محاورة

١ قالت : كحَلتَ الجفونَ بالوَسنِ ! قلتُ : ارتقاباً لطَيفِكِ الحسَنِ ! [١]
قالت : تسلّيتَ بعدَ فِرقتِنا ! فقلت : عن مَسكَني وعن سكَني !
قالت : تشاغلتَ عن محبّتِنا ! قلتُ : بفَرطِ البكاءِ والحزَنِ !
قالت : تناسيت ، قلتُ : عافيتي ، ! قالت : تَناءيتَ ، قلتُ : عن وطني !
٥ قالت : تخلّيتَ ، قلت : عن جلَدي ! قالت : تغيّرتَ ، قلت : في بدني ! [٢]
قالت : أذَعتَ الأسرارَ ؛ قلت لها : صيّرَ سري هواكِ كالعلَنِ !
قالت : سررتَ الأعداءَ ! قلت لها : ذلكَ شيءٌ لو شئتِ لم يكنِ !
قالت : فماذا تروم ؟ قلت لها : ساعةَ سعدٍ بالقُربِ تُسعِدُني !
قالت : فعَينُ الرقيبِ تنظرُنا ؛ قلت : فإنّي للعينِ لم أبنِ ؛
١٠ أنحلتِني بالصدودِ منكِ ، فلو ترَصّدتني المَنونُ لم ترَني !

غرّني القمرُ

١ إلى مُحيّاكَ ضَوءُ البدرِ يَعتذِرُ ، وفي محبّتِك العشّاقُ قد عُذِروا ؛

١ * في هذه الابيات ضرب من البديع المعنوي يقال له : المراجعة .
٢ * الجلد : الصبر .

وَجنَّةُ الحسنِ، في خدَّيك، مُوثقةٌ ،   ونارُ حبِّـك لا تُبقي ولا تذرُ .
يا من يهزُّ دلالًا غصنَ قامتـهِ !   الغصنُ هذا ، فأينَ الظِلُّ والثَّمرُ ؟
خاطرتُ فيك بغَالي النفسِ أبذُلها ؛   إن الخطيرَ عليه يسهُـلُ الخطَرُ !
لما رأيتُ سوادَ الشَّعرِ منـكَ بدا ،   خِلتُ الظلامَ ، ولكن غرَّني القمرُ .[1]

خمرياته

غنت على قدح

ربَّ يومٍ قد رفَلتُ به ،   في ثيابِ اللهوِ والمرَحِ ،
اشرَقت شمسُ المُدامِ به ،   وجبينُ الصبحِ لم يَلُحِ ،
فظَللنـا بين مُغتبِقٍ ،   بحُميّاهـا ، ومُصطَبِحِ ،
وشدَت،في الدَّوحِ، صادحةٌ   بضروبِ السَّجعِ والمُلَحِ ،
كلما ناحت على شَجَنٍ ،   خِلتُها غنَّت على قدحِ .

الضحك المبكي

اقولُ لراووقٍ تَضمَّن راحَنـا :   بقلبك إكسيرُ السرورِ ، فلِمْ تبكي ؟[2]
فقال : همت عيني ، وسِنّي ضاحِكٌ ،   وقد تَدمَعُ العَينانِ من شدةِ الضَّحكِ !

١ * اراد بالقمر وجه الموصوف.   ٢ * الراووق : ما تروّق به الخمرة.

ابن نباتة

١٢٨٧ - ١٣٦٦

هو الشيخ جمال الدين بن نباتة المصري ، ولد في زقاق القناديل ، في مصر ، وتوفي فيها ، في البيمارستان المنصوري ، ودفن في تربة الصوفية.

كان كشعراء زمانه يسير على خطا الاقدمين ، ويتوكأ عليهم في معانيهم ، وتعابيرهم . وكان مولعاً بالمحسّنات اللفظية والمعنوية ولا سيما الجناس والتورية.

وشعره سهل رقيق ، فيه بعض تعابير ومعانٍ مبتذلة ؛ نعته ابن حجة الحموي بالسكر النباتي ، ولا ريب في انه اراد الجناس بين نباتة ونباتي . وقال عن مطالعه : انها ابهج من مطالع الشمس ، على انه اخذ عليه بعض الحشو في حسن الإبتداء.

شعره

لابن نباتة ديوان شعر كبير في المدح والرثاء والغزل وغيرها ، طبع في مصر سنة ١٩٠٥ ، مرتبًا على الحروف.

الرثاء والمدح

رثاء ولده

قال من قصيدة يرثي ولده عبد الرحيم

أسكنتَ قلبيَ لَحدَكَ ، لا خيرَ في العَيشِ بعدَكَ !
ما الدارُ بعدَكَ عندي أرى ، وإلّا فعندَكَ ؛
يَسيلُ أحمرُ دمعي ، لمّا تذكَّرتُ خدَّكَ ،
وقُدَّ بالهمِّ قلبي ، لما تذكَّرتُ قدَّكَ !
يا سائلَ الدمعِ إيهٍ ! فما أُجوِّزُ رَدَّكَ ؛[1]
اقصدتَني ، يا زماني ! كأنّني كنتُ قَصدَكَ ،[2]
وكانَ ما خِفتُ منه ، فأجهِدِ اليومَ جُهدَكَ !
عَبدَ الرحيمِ ، برُغمي ان تَسقيَ العينُ عهدَكَ !
فاجعلَ النومَ وِردي في الليلِ ، والدمعَ وِردَكَ .
اشقيتَ جَدّي بثُكلٍ ، بُنيَّ ، يا ثُكلَ جَدَّكَ ![3]
ابكي ، فيبكي ، كأنّا حَمائمُ النَّوحِ بعدَكَ !
ما كنتُ أَحمِلُ هجرًا ، فكيفَ أَحمِلُ فَقدَكَ ؟
وما تخيَّلتُ أنّي اشكو صَداكَ ، وصَدَّكَ ![4]
لَهفي عليكَ لُحسنٍ ، قد كانَ أسبلَ بُردَكَ !

[1] * في هذا البيت تورية بين السائل اي المستجدي ، والسائل اي الجاري .

[2] * اقصدتني : من اقصده ، اذا رماه فاصابه

[3] * يوجد جناس بين جدي ، اي حظي ، وجدك اي ابي ابيك .

[4] * يوجد جناس بين صداك اي موتك وهلاكك ، وصدك اي هجرك .

لهفي عليــك لَعقلٍ ، قد كانَ احسنَ عَقدَك !
لهفي عليــك لثغرٍ ، قد كانَ يفضُلُ عقدَك !
لم أنسَ لَثمكَ ، لمــّا أَحسَستُ، بالموتِ، بُعدَك !
أفٍّ لــقلبيَ ، إن لم يوَفِّ بالحُزنِ وُدَّك ؛
كنتَ الهـــلالَ لأُفقٍ ، فعارضَ الأُفقُ سَعدَك ،
وكنتَ فرعَ نَباتٍ ، فــأذبلَ الموتُ وَردَك !
لا غروَ إن باتَ دَمعي ، بالرَيِّ ، يُنجِزُ وَعدَك !
اصبحتُ في الحُزنِ وحدي، إذ كُنتَ في الحُسْنِ وحدَك .
فيا حيا الغَيثِ ! أجزِل لذابلِ العَطفِ رِفدَك ،
واجعَــل بُـكاك عليه نَداكَ ، والنَّوحَ رَعدَك ،
فأنتَ صاحبُ عَهدٍ ، فَوفِّ للحُسنِ عَهدَك !
ويا رحِيماً دعــاه ، واصِل برُحماك عبدَك !

مدح الملك المؤيد

قال من موشحة يمدح الملك المؤيد ابن ايوب

١ إِليَّ بـكأسِك الأشهى إليّا ؛ ولا تبخل بعَسجِدهــا عَليّا !

. . .

٢ مُعتَّقةٌ تُدار على النَدامــا ،
كأن على تَرائبِها نِظامــا ،
من الراحِ التي محَتِ الظّلاما ،

٣ أضاءَت ، وهي صاعدةُ الحميّا ، فقلتُ : عصيرُ عنقودِ الثرّيا .

. . .

أدِرهــا بين الحانٍ وزمرٍ ،
على دُرّينِ من زَهرٍ وقَطرٍ ،
كأنّ حديثَه في كلّ قُطرٍ ،
حديثُ ندى المؤّيد في يديّا ، يطيبُ روايــةً ، ويَضوعُ ريّا .

. . .

٤ الى الملِكِ المؤيِّدِ سارَ مِدحي ،

وخاضَ الى حِماهُ كلّ سَمحٍ ،
كما خاضَ النجومَ طلوعُ صُبحٍ ،
فيا لَندًى طوى الأَقطارَ طَيًّا ، وأنشرَ حاتمًا ، عندي ، وطيَّا .

. . .

حلفتُ بِبِشرِكَ الوَضّاح حقًّا ،
لقد فُقتَ الأنامَ عُلًى وسَبقا ،
فرِفقاً ! يا فتى العلياء رِفقا !
شويتَ جوانحَ القُرناء شَيًّا ، فليتَك لو لطفتَ بهنَّ شيًّا[1]

تهنئة وتعزية

قال من قصيده يهنيّ السلطان الافضل ويمدحه ويعزّيه بوالده المؤيد ، وفي ابياته هذه ضرب من البديع المعنوي يسمى الافتنان وهو الاتيان بفنين متضادّين في قصيدة واحدة

هَناءٌ مَحى ذاك العَزاءَ المُقدَّما ، فما عبَسَ المحزونُ ، حتى تَبسَّما ،
ثُغورُ ابتسامٍ في ثُغورِ مَدامعٍ ، شبيهانِ لا يَمتازُ ذو السَّبقِ منهما .
تَرُدُّ مَجاري الدمعِ ، والبِشرُ واضحٌ ، كوابلِ غيثٍ ، في ضُحى الشمسِ قد همى .
سقَى الغيثُ عنّا تُربَةَ الملِكِ ، الذي عَهِدنا سَجاياه أَبرَّ وأكرَما ،
ودامَت يدُ النُّعمى على الملِكِ ، الذي تدانَت له الدنيا وعَزَّ به الحمى .
مليكانِ : هذا قد هَوى لضَريحِهِ برُغمي ، وهذا للأَسرَّةِ قد سَما .
فَقَدنا ، لأَعناقِ البريّةِ ، مالِكاً ، وشِمنا ، لأَنواعِ الجميلِ ، مُتَمِّما
إذا الافضلُ المَلْك اعتبرتَ مَقامَه ، وجدتَ زمانَ المُلك قد عادَ مثلَما . .[2]
أعادَ مَعاني البيتِ ، حتى حسِبتُه بوَزنِ الثّنا والحمدِ ، بيتاً مُنظَّما ،
وناداهُ مُلكٌ ، قد تَقادمَ إرثُه ، فقامَ كما تَرضى العُلى ، وتقدَّما ؛
كأنّ ديارَ المُلك غابٌ ، اذا انقضى به ضيغمٌ ، أنشا به الدهرُ ضَيغما ؛
كأنّ عِمادَ البيتِ غيرُ مقوَّضٍ ، وقد قُمتَ يا أزكى الأنامِ وأحزَما ،

١ * يوجد جناس بين شيًّا مصدر شوى وبين شيًّا مسهّل شيء

٢ * في البيت اكتفاء والمراد مثلما كان .

نَهضتَ ، فما قُلنا : سيـادةُ مَعشرٍ تداعَت ، ولا بُنيانُ قومٍ تهدَّما .[1]
فإن يكُ من ايوبَ نجمٌ قدِ انقضى، فقد أطلَعت اوصافُـك الغرُّ أنجما ؛
وإن تكُ أوقاتُ المؤيَّدِ قد خلَت ، فقد جدَّدت عَليـاكَ وقتاً ومَوسِما .
عليكَ سلامُ اللهِ مـا ذَرَّ شارقٌ ، ورحمتُه مـا شاءَ أن يترَحَّما ؛
هوَ الغيثُ ولَّى بالثَّنـاءِ مُشيَّعاً ، وأبقـاكَ بحرًا للمواهبِ مُنعِما .
لكَ اللهُ مـا أبهى وأبهرَ طَلعةً ، وافضلَ أخلاقاً ، واشرفَ مُنتمى ؟
بكَ انبسطَت فيك التَّهاني ، وأنشأت ربيعَ الهنا ، حتى نسِينا المُحرَّمـا ،
وباسمِك في الدنيا استقرَّت محاسنٌ ، وبأسٌ ، كمـا يَمضي القَضاءُ محتَّما .
يَراعُـك يومَ السِلمِ يَنهلُ دِيمةً ؛ وسيفُك يومَ الحربِ ينهلُ في الدِما ؛
الكَ المُلكُ إرثاً واكتساباً ، فقد غدا كِلا طرَفيه ، في السيادةِ ، مُعلَما ،[2]
ومثلُـك إمّا للسريرِ مُنعَّماً يثوبُ ، وإمـا للجَوادِ مُطهَّما ؛[3]
فعِش الورى ، واسلَم سعيدًا مهنَّئاً ، فحظُّ الوَرى في ان تعيشَ وتسلما .

اغراض شتى

الكوكب الاعمى

ما بال ليلي لا يسيرُ ، كأنَّمـا وقفَت كواكبه من الإعياءِ ؟
وكأنما كَيوانُ ، في ، آفاقِه أعمى ، يُسائلُ عن عَصا الجوزاءِ[4]

اخبار الهوى

أُكتِمُ أخبارَ الهوى عن عَواذلي ، وللدَمعِ مني بالمَـدامعِ أنباءُ ؛
فيـا عجباً منّي لإنسانِ مُقلتي ، يحـدِّثُ أخباري ، وفي فمِهِ ماءُ ![5]

[1] * في : هذا البيت اشارة الى قول عبدة ابن الطبيب في رثاء قيس بن عاصم :
وما كان قيسٌ هُلكُه هُلكَ واحدٍ ، ولكنّه بنيانُ قومٍ تهدّمـا

[2] * المعلم : الموسوم بعلامة .

[3] * يثوب : يرجع ، يعود ◎ المطهّم : التامّ الحسن .

[4] * كيوان : اسم الكوكب زحل بالفارسية ◎ الجوزاء : برج في السماء .

[5] * شبه انفتاح جفني العين بالفم ، والدمع بالماء ◎ انسان المقلة : بؤبؤ العين .

نشرب من الالحاظ

١ بروحيَ هيفـاءَ المعاطفِ حلوةً ، تَكادُ بألحاظِ المحبّين تَشربُ ؛[١]
لقد عذُبَت الفاظُهـا وصِفاتُها ، على أنّ قَلبي في هَواهـا مُعذَّبُ .
تجاسرَ عُودُ اللهوِ ، يُشبِهُ صوتَها ، فمن اجلِ هذا اصبحَ العوْدُ يُضرَبُ ؛
واجرَت دموعَ العاشقين بلُعبِها ، فقال الأَسى : دَعها تخوضُ وتلعبُ !

الخال لا يرث

١ للهِ خالٌ على خـدِّ الحبيبِ ، له في العاشقين ، كما شاءَ الهوى ، عَبثُ ،
أورثتهُ حبَّةَ القلبِ القتيلِ به ، وكانَ عهديَ أنَّ الخـالَ لا يَرِثُ .

بين القلب والمقلة

١ يا قلبِ ! انتَ ومُقلتي ، مُتحـاربانِ كما أرى ،
هاتيكَ تمنعُك الهـدوَّ ، وانتَ تمنعُها الكرى ،
وانا الذي قاسيتُ بينكما، العـذابَ الاكبرا !
كفّا المَـدامعَ والأَسى ، فلقد كفى ما قد جرى ![٢]

خاتم الفم

١ أَفدي حبيباً ، ليسَ لي ، في حسنهِ الفتّانِ ، لائمْ ،
مُتنبِّهاً ، وكأنـه ، لفُتورِ ذاك اللّحظِ ، نائمْ ،
اشكو ذوائبَ شَعرهِ ، شكوى السليمِ الى الأَراقِمْ[٣]
سبحـانَ مالئ خدِّهِ تِبرًا ، وصائغِ فيهِ خاتمْ .

حنين الدم

١ بأبي غزالًا ، جالَ في وَجناتِه ماءُ النعيمِ ، ولونُه مُتعندِمُ ؛[٤]

١ * الهيفاء : الضامرة البطن الرقيقة الخصر .
٢ * في هذا البيت تورية بين جرى الدمع سال وجرى الامر حصل .
٣ * السليم : الملسوع ◎ الاراقم : الحيات واحدها ارقم .
٤ * متعندم : مصبوغ بالعندم ، محمرّ .

لا غروَ إن أهوى بوَجنتِه الى زَهرِ الشقيقِ، فطالما حَنَّ الدَّمُ .

طرف ضرير واذن صمّاء

عذولٌ لستُ اسمعُ منه عذلًا، على غَيداءَ مثلِ البدرِ تمًّا ؛
له طَرفٌ ضريرٌ عن سَناها، ولي أذنٌ، عن الفَحشاءِ، صَمّا .

الشيب يضحك على ذقنه

تَبسُّمُ الشيبِ بذَقنِ الفتى، يُوجِبُ سَحَّ الدَّمعِ من جَفنِهِ ؛
حسبُ الفتى، بعدَ الصِّبا، ذِلَّةً، أن يَضحَكَ الشَّيبُ على ذَقنِهِ .

نون المنون

كلُّ شهرٍ لنا هِلالٌ جديدٌ، مُبرِزٌ للفَنــاءِ كلَّ مَصونِ ،
يَقرأُ الناظرُ المُفكِّرُ فيــه، فوقَ طُرسِ السماءِ، نونَ المَنونِ . [١]

العيون العازلة

يا حبيبَ القلبِ أهلا بالهوى، فيك، وسَهلا ،
ما ألذَّ الوَجدَ عندي، في معانيــك وأحلى !
غزَلَت عينــاك لي ثوبَ سَقامٍ، ليس يَبلى ؛
فاقضِ لي ما انتَ قاضٍ، لستُ ممَّن يتسلَّى !
لا وشَعرٍ لــك داجٍ، وجبينٍ يتجــلَّى ، [٢]
لا تسلَّيتُ، ولا قُــلتُ لألحاظِــك مَهلا ،
لا ولا استدفعتُ صدًّا منك، واستَدعيتُ وصلًا ، [٣]
غيرَ أنّ العبــدَ يُنهي حالَــهُ، والرأيُ أعلى ! [٤]

١ * المنون : الموت .
٢ * الداجي : الاسود .
٣ * استدفعت : طلبت ان يدفع، ان يبعد .
٤ * ينهي حاله : يبلغ امره ◉ وقوله : ينهي والرأي اعلى هو مثل قولهم اليوم والامر لكم .

القِسمُ الثّانِي

الباب الثاني

في النَثرِ

القزويني

؟ - ١٢٨٣

هو زكرياً بن محمد بن محمود القزويني ؛ يرجع بنسبه الى أنَس بن مالك امام المدينة ومفتيها المشهور . ولد في قزوين في اوائل القرن الثالث عشر ، ورحل الى دمشق وهو شاب ، ثم تولّى قضاء واسط والحِلّة في زمن المستعصم العباسي ، وسقطت بغداد في يد المغول ، وهو في هذا المنصب .

كان عالمًا بالفلك والجغرافية الطبيعية ؛ وكتابه « عجائب المخلوقات » أوفى كتاب في هذا الموضوع ، في اللغة العربية .

ويستدلّ من مساق كلامه انه نقل اخبارًا وحكايات كثيرة عن الرواة والمخرّفين ؛ وكان يثبت الخرافات والمستحيلات ، على علّاتها ، يقبلها دون تمحيص ، ودون ان يحكّم عقله فيها وينتقدها ؛ على انه كان احيانًا يتخلّص من تبعتها بقوله « والله اعلم »

وهذه الخرافات اللذيذة ، المسلّية ، تطلعنا على اعتقادات الأقدمين واوهامهم ، التي لا يزال منها ، حتى اليوم ، شيءٌ كثيرٌ منتشرٌ بين الناس .

وكان في إنشائه يسهّل المهموز ، نهجاً على اسلوب العامة في كلامهم .

آثاره

للقزويني كتاب « عجايب المخلوقات وغرايب الموجودات » في الفلك والجغرافية الطبيعية قسم فيه المخلوقات الى علويّات وسفليات ؛ فالعلويات السماء وما فيها ، وهو علم الفلك . والسفليات الارض وما عليها ، وهو من قبل التاريخ الطبيعي .

طبع هذا الكتاب في غوتنغن سنة ١٨٤٩ ، وفي مصر ، على هامش كتاب الحيوان للدميري سنة ١٨٩١ . وترجم الى الفارسية واضيفت اليه صور الحيوانات .

بحر الصين او بحر الهند

جزيرة زانج وغرائبها

هي جزيرةٌ كبيرةٌ ، في حدودِ الصينِ ، أقصى بلادِ الهندِ ، يملكُها ملِكٌ يُسمَّى المِهراجَ .

قال محمدُ بنُ زكرياءَ الرازيُّ : للمِهراجِ جبايةٌ تبلُغُ ، كلَّ يومٍ ، مايَتي مَنٍّ من الذهبِ ، المنُّ ستمايةُ درهمٍ ، يَتَّخِذُ منها لَبِناً ، ويطرَحها في الماءِ ، والماءُ بيتُ مالهِ .

وقال ابنُ الفقيه : بها سكانٌ شبهُ الآدميين إلّا أنَّ اخلاقَهم بالوحشِ اشبهُ ؛ ولهم كلامٌ لا يُفهَمُ ؛ وبها اشجارٌ ؛ وهم يَطفِرون من شجرةٍ الى شجرةٍ .

قال : وبها نوعٌ من السَّنانيرِ له اجنحةٌ كاجنحةِ الخفافيش من اصل الأُذنِ الى الذَّنبِ ؛ وبها وُعولٌ كالبقرِ الجبليةِ ، الوانها حمرٌ ، منقَّطةٌ ببياضٍ ، واذنابُها كاذنابِ الظِباءِ ، ولحومُها حامضةٌ ؛ وبها دابَّةُ الزَّبادِ ، وإنها كالهِرِّ ، يُجلَبُ منها الزَّبادُ ؛ وبها فارةُ المِسكِ ؛ وبها جبَلٌ يُسمَّى النصبانَ فيهِ حيَّاتٌ عِظامٌ ، منها ما يَبتلِعُ الرجلَ والبقرةَ والجاموسَ ، ومنها ما يبتلِعُ الفيلَ ؛ وبها قِرَدَةٌ كامثالِ الجواميسِ وكامثالِ الكِباشِ ؛ وبها نوعٌ آخرُ ابيضُ الصدورِ اسودُ الظهرِ .

وقال زكرياءُ بن يحيي بن خاقان : بجزيرةِ الزَّانجِ صِنفٌ ، من البَبَّغاءِ ، بيضٌ وحُمرٌ وصُفرٌ ، يتكلم بأيِّ لغةٍ تكونُ ؛ وبها طواويسُ رُقطٌ

وخُضرٌ ؛ وبها جِنسٌ من الطَّيرِ ، يقال له الحَوارى ، اكبرُ من السُّودانيِّ ، واصغرُ من الفاختةِ ، اصفرُ المِنقارِ ، اسودُ الجَناحينِ ، ابيضُ البطنِ ، أَحمرُ الرجلينِ ، وهو افصحُ من الببَّغـاءِ ؛ وبها خَلقٌ على صورةِ الانسانِ يتكلمُ بكلامٍ لا يُفهَمُ ، يأكلُ الانسانَ ، بيضٌ وسودٌ وخضرٌ ، لها أَجنحةٌ تطيرُ بها .

وقال ماهانُ بنُ بحرٍ السيرافي : كنتُ في بعضِ جزايرِ الزَّانجِ ، فرأَيتُ وردًا كثيرًا احمرَ واصفرَ وازرقَ ، فلمَّا اردتُ حملَهـا رأَيتُ نارًا في المُلاةِ ، فاحرَقَت جميعَ ما فيها من الوردِ ولم تحترقِ المُلاةُ ، فسأَلتُ النـاسَ عنها ، فقالوا : إنَّ في هذا الوردِ منافع كثيرةً ، ولم يُمكِن اخراجُها من هذه الغيضةِ .

عجائب بحر الصين

قالوا : في هذا البحرِ عجـايبُ كثيرةٌ من الحيواناتِ ، وصورٌ عجيبةٌ واشكالٌ غريبةٌ ! منها ما ذكَرَهُ البحريون أن هذا البحرَ ، اذا كثُرَ موجُه ، ظهرَت فيه اشخاصٌ سودٌ ، طولُ الواحدِ منهم خمسةُ اشبار أَو اربعـةٌ ، كانهم أَولادُ الأَحابيشِ الصِغارُ شكلًا وقدًّا ، فيصعَدُونَ المركبَ ، ويكثُرُ منهم الصُّعودُ من غيرِ ضرر ؛ ومنها أُمَّةٌ يَلحَقون المَركبَ بالسِّباحةِ ، عِنـدَ هُبوبِ الريحِ ، والمركبُ في سرعةِ الريحِ ، ويبيعون العنبرَ بالحـديدِ ، ويحمِلونه بأفواهِهم الى جزيرةٍ فيها قومٌ سودُ الشعورِ ، مفلفـلةٌ ، يأكلون الناسَ ، ويشرِّحونهم تَشريحًا ؛ وهم امم لا يُحصى عددُهم يُشبِهون الزنوجَ ، يقال لهم مَجكوِي . وبقُربِهم قومٌ سودٌ ، اذا وصَلَ المركبُ اليهم يضطربُ البحرُ في الليلِ ، فيخرُجُ هؤلاءِ الى المركبِ .

ومنها ما حكى التُّجَّارُ أَنهم يرَون في هـذا البحرِ شيئاً على صورةِ طايرٍ من نُورٍ ، لا يستطيعُ الناظرُ ان ينظرَ اليه لانَّه يملأ بصرَه ، فإنِ ارتفعَ على أعلى الدَّقَلِ[1] يرَون البحرَ يسكُنُ ، والامواجُ تهدا ؛ ثم إنَّه يُفقَدُ ، فلا يُدرى كيفَ ذهَبَ ، وذلك دليلُ النجاةِ .

١ * الدقل : خشبة طويلة تشد في وسط السفينة ويمدّ عليها الشراع

ومنها دابّة تَستوطِنُ بعضَ الجزايرِ ، لها رؤوسٌ كثيرةٌ ، ووجوهٌ مختلفةٌ وانيابٌ مُعقّفةٌ ؛ ولها جَناحانِ ، تأكُلُ من دوابِّ البحرِ ؛ ومنها دابّةٌ تصيحُ صَيحاً شديداً هايلاً ، وتُقيمُ في الجزيرةِ ستّةَ اشهرٍ لا يُعلَمُ ايَّ شيءٍ تأكُلُ ؛ ومنها سمكةٌ تزيد على مايتي ذراعٍ ، يُخافُ على السفينةِ منها ، فاذا عرَفَ القومُ مرورَها ، ضربوا بالخشبِ وصاحوا لتهرُبَ من صوتِهم ، فاذا رفَعَت جناحَها يكونُ مِثلَ الشِراعِ في البحرِ ، واكثرُها يكونُ بقُربِ جزيرةِ الواقواق[1] .

ومنها سَلاحفُ كِبارٌ ، استدارةُ الواحدةِ عشرون ذِراعاً ، وربما تبيضُ واحدةٌ منها ألفَ بيضةٍ ، وتُوجَدُ هذه ايضاً بقُرب جزيرةِ واقواقَ .

دُردور[2] بحر فارس

بحرُ فارسٍ شُعبةٌ من بحرِ الهندِ الأعظمِ ، من اعظمِ شُعَبِها ، وهو بحرٌ مبارَكٌ ، كثيرُ الخيرِ ... ومن عجايبه حكايةٌ عجيبةٌ عن الدُّردورِ أوردَها صاحبُ كتابِ عجايبِ البحرِ قال :

حدَّثني رجلٌ من أصفهان قال : ركبَتْني دُيونٌ ونفقةُ عيالٍ عَجَزتُ عنها ، ففارقتُ اصبهانَ ، ودارت بي الدوايرُ ، حتى ركبتُ البحرَ في جمعٍ من التُّجّارِ ، فتلاطَمت بنا الأمواجُ ، حتى حصَلَ المركبُ في الدُّردورِ ، في بحرِ فارسَ المشهورِ ، فقال المُعلِّم[3] : يا قومُ ، هذا الدُّردورُ لا يَتخلَّصُ منه مَركبٌ ، إلّا ما شاءَ اللهُ .

فقال القومُ له : هل تعرفُ للخلاصِ طريقاً ؟

فقال : إن سَمحَ احدُكم بنفسِه لأصحابِه ، فأنا أبذُلُ جُهدي لعلَّ اللهَ يوفِّقُ لنا الخلاصَ .

١ * جزيرة الواقواق : تتصل بجزاير الزانج ، قيل سميت بهذا الاسم لان بها نوعاً من الشجر له ثمرة يسمع منها صوت كأنه يقول : واق واق ، واهلها يفهمون من هذا الصوت شيئاً يتطيرون به .

٢ * الدردور : موضع في البحر يجيش ماؤه دائراً في مكانه فيخاف الغرق فيه . وهذا الاسم مركب من در ، أمر من دار ، مكرر اشبعت الضم في القسم الثاني منه فتولد من اشباعها واو .

٣ * المعلم : رئيس السفينة .

فقلت : يا قومُ ، نحنُ كلُّنا في معرضِ الهَلاكِ ، وأنا رجلٌ سئمتُ من الحياةِ والشقاء وكنتُ اتمنّى الموتَ ؛ وكانَ في السفينةِ جمعٌ من الأصفهانيين ، فقلتُ لهم : احلفُوا لي أنّكم تقضُون دُيوني ، وتُحسِنون الى أولادي ، وأنا افديكم بنفسي . ففعلُوا ، فقلتُ للمعلّم : أنا اسمحُ بنفسي لأصحابي ، ماذا تأمرُني ؟

فقال : أن تقفَ في هذهِ الجزيرةِ — وكان بقُرب الدُّردورِ جزيرةٌ مسيرةُ ثلاثةِ ايامٍ بلياليها — ولا تفتُر عن ضربِ هذا الدّهل[1] البتّةَ .

فقلتُ لهم : افعلُ ذلك ؛ فحلفوا لي أيماناً مُغلّظةً[2] على ما شرطتهُ عليهم ، واعطوني من الماء والزّادِ ما يكفيني أياماً ؛ ثم وقفتُ على الجزيرةِ ، وشرعتُ بضربِ الدّهلِ ، فرأيتُ المياهَ تحرّكت، وجرَت بالمركبِ ، وأنا انظرُ اليه ، حتى غابَ عن بَصري .

فلما فرغتُ من المركبِ جعلتُ أتردّدُ في الجزيرةِ ، فإذا أنا بشجرةٍ عظيمةٍ لم أرَ اعظمَ منها ، وعليها شبهُ سطحٍ عريضٍ . فلما كانَ آخرُ النهارِ احسستُ بهدوٍّ شديدٍ ، فاذا طايرٌ عظيمٌ ، ابيض اللونِ ، لم أرَ حيواناً اعظَم منه ، جاءَ ووقعَ على ذلك السّطحِ ، فاختفيتُ منه خوفاً من ان يصطادني ، الى أن بَدا ضوءُ الصّباحِ ، فنفَضَ جناحيه وطارَ .

فلما كانتِ الليلةُ الثانيةُ جاءَ الطيرُ ووقعَ على عِشّهِ ، وكنتُ آيساً من حياتي ، ورضيتُ بالهلاكِ ، وعرَضتُ نفسي عليه حتّى وقفتُ بينَ يديه ، فلم يتعرَّض إليَّ بشيءٍ . وطارَ مُصبِحاً .

فلما كانتِ الليلةُ الثالثةُ ، قعَدتُ عندَه من غيرِ دَهشةٍ الى أن نفضَ جناحيه عندَ الفجرِ ، فتمسّكتُ برجلَيه ، فحمَلَني وطارَ بي اسرعَ طيرانٍ ، الى أن ارتفعَ النهارُ ، فنظَرتُ الى نحوِ الارضِ ، فما رأيتُ غيرَ لُجّةِ البحرِ ، فكِدتُ أترُكُ رجلَيهِ لشِدّةِ ما نالَني من الوَجعِ .

١ * الدهل : الشيء اليسير : وربما كان الصواب الدقل ، اي دقل السفينة ، أو ربما كان شيئاً اصطلح البحارة على تسميته بهذا الاسم .

٢ * مغلّظة : مؤكّدة .

ثمَّ حملتُ نفسِي على الصَّبرِ الى أَن نظَرتُ نحوَ الارضِ ، فرأَيتُ وَجهَ الارضِ والقُرى والعِماراتِ ، فدَنا من الارضِ ، وترَكني على صُبرةِ تِبنٍ في بَندرٍ[١] لبعضِ القُرى ، والناسُ ينظُرون إليَّ ، ثمَّ طارَ نحوَ الهواءِ وغابَ عنَّا ، فاجتمع الناسُ عليَّ ، وحمَلوني الى مِلكهم فأَحضرَ رجلًا يَفهَمُ لِساني قالَ لي : من أَنتَ ؟

فحدَّثتُهُ بحديثي كلِّه ، فتعجَّبوا منه ، وتَبرَّكوا بي ، وأمرَ لي الملكُ بمالٍ كثيرٍ ، وسألني أَن أُقيمَ عندهم .

فما مرَّ إلَّا أَيامٌ ، حتى مشَيتُ يوماً الى طَرفِ البحرِ لأتفرَّجَ ، فاذا قد وَصلَ مُركبُ أَصحابي ، والقومُ لمَّا رأَوني أسرعوا اليَّ سايلين عن حالي ، فقلتُ : يا قومُ ، بذَلتُ نفسي للهِ ، فاللهُ تعالى ، أنقذَني بطريقٍ عجيبٍ ، وجعلَني آيةً للناسِ ورزَقَني المالَ واوصلَني الى المَقصدِ قبلَكم .

الجزيرة المحترقة

وهي جزيرةٌ واغلةٌ في هذا البحرِ قلَّما يصلُ اليها من بلادنا احدٌ .

حكى بعضُ التجَّارِ قالَ : ركبتُ البحرَ ، فدارَت بي الدوايرُ حتى حصَلتُ في هذهِ الجزيرةِ ، فرأيتُ فيها خَلقاً كثيرًا ، فبقيتُ بها زماناً ، واستأنستُ بهم ، وتعلمتُ شيئاً من لُغتِهم . فاذا الناسُ في بعضِ اللَّيالي مجتمعون ناظرون الى كوكبٍ طلعَ من أُفقِهم ، ثم شرَعوا بالبكاءِ والوَيلِ والثُّبورِ[٢] ، فسألتُ بعضهم عن سببِ ذلك ، فقالَ : إنَّ هذا الكوكبَ يطلعُ في كلِّ ثلاثين سنةً مرةً ، فاذا وَصلَ الى سمتِ رؤوسِنا يحترقُ جميعُ ما في هذهِ الجزيرةِ .

فاشتغلوا باتّخاذِ المراكبِ ، وتأَهَّبوا للنَّقلِ ، فلما قرُبَ الكوكبُ من سمتِ رؤوسهم ركبوا في السفنِ واخذوا معَهم ما خفَّ حملُهُ ، وركبتُ أَنا

١ ، الصبرة : ما جمع من الطعام بلا كيل ولا وزن ◎ البندر : السوق

٢ ، الثبور : الهلاك .

ايضاً معهم ، فسرنا عنها مدةً ؛ فلما علموا انَّ الكوكبَ زالَ عن سمتِ رؤوسِهم ، عُدنا الى الجزيرةِ فوَجدنا جميعَ ما كانَ فيها رَمادًا ، فشرَعَ القومُ في استينافِ العِمارةِ .

وجوه كوجوه الكلاب

ومنها جزيرةُ سكسارَ ، وهي ما حكى عَنها يعقوبُ بنُ اسحاقَ السرَّاجُ ايضاً ، قال : رأينا رجلًا في وجههِ خُموشٌ ، فسألناه عن ذلك ، فقال :

خرَجنا في مركبٍ ، فالقَتنا الريحُ الى جزيرةٍ لم نستطِع ان نبرَحَ عنها ، فأَتانا قومٌ وجوهُهم وجوهُ الكِلابِ ، وسايرُ بدنهم كبدنِ الناسِ ، فسبقَ الينا واحدٌ ، ووقفَ الآخرون ، فساقَنا الى منازِلهم ، فاذا فيها جَماجمُ الناسِ واسوُقُهم وأَذرُعهم ، فأدخَلنا بيتاً ، فاذا فيهِ إنسانٌ أَصابَه ما اصابَنا ؛ فجعلوا يأتوننا بالفَواكهِ والمأكولِ ، فقالَ لنا الرجلُ : إنَّما يُطعِمونكم لتسمَنوا ، فمن سَمِنَ أكلوه .

قال : فكنتُ أُقصِرُ في الأَكلِ ، وكلُّ من سَمِنَ من أَصحابي أكلوه ، حتى بقِيتُ أنا وذلك الرجلُ ، فترَكوني لِهُزالي ، وتركوا الرجلَ لأَنه كان عليلًا . فقال لي الرجلُ : ان هؤلاءِ قد حضَرَ لهم عيدٌ يخرُجون اليه باجمعهم، ويمكُثون ثلاثاً ، فان اردتَ النجاةَ فانجُ بنفسِكَ ، وأَما أَنا فقَد ذَهبَت رِجلاي لا يُمكِنُني الهربُ . واعلم أنهم اسرعُ شيءٍ طلباً ، واشدُّ استنشاقا ، وأَعرفُ بالأَثرِ ، إِلَّا مَن دخلَ تحتَ شجرةِ كذا ، فإنهم لا يَطلُبونه ولا يقدُرون عليه .

قال : فخرجتُ اسيرُ بالليلِ واكمُنُ النهارَ تحتَ الشجرةِ ، فانقطَعوا عني ورجعوا . فلما تركوني أَمِنتُ ؛ فبينا انا اسيرُ في تلك الجزيرةِ ، إذ رُفِعت لي اشجارٌ كثيرةٌ ؛ فانتهيتُ اليها ، واذا بها من كلِّ الفَواكهِ ، وتحتَها رجالٌ كاحسنِ ما يكونُ صورةً ، فقعدتُ بينَهم ، وهم لا يفهمون كلامي ولا افهمُ كلامَهم .

فبينا انا جالسٌ معَهم إذ وضعَ رجلٌ منهم يدَه على عاتِقي ، فاذا هو على رَقبتي ، فلَوى رِجليه عليَّ ، فانهضَني ، فجعَلتُ أُعالِجه لأَطرَحه عن عُنقي ، فخَمَشَني في وَجهي ، وسخَّرَني كما يُسخِّرُ احدٌ مركوبَه ، فجَعلتُ أدورُ على الاشجارِ ، وهم يضحكون .

فبينما أنا اسيرُ به إذ اصابَ عينيهِ بعضُ عيدانِ الاشجارِ ، فعَمِيَ ، فعَمَدتُ الى شيءٍ من العِنَبِ ، فقطعتُه ، وأتيتُ نَقرةً في صخرةٍ عصرتُه فيها ، ثم أشرتُ اليه ان يكرَعَ منه . فكرَعَ ، وتحلّلَتْ رجلاه ، فرَميتُ به ، فأثرُ الخُموشِ ، من ذلك ، في وجهي .

الجبال وعجايبها

جبل الرقيم

... قيل: الرقيمُ اسمُ الجبلِ الذي فيه الكهفُ ، وقِيلَ إسمُ القَريةِ التي كانَ اصحابُ الكهفِ منها ... والمشهورُ انَّ جبلَ اصحابِ الكهفِ بالرومِ بينَ عَمُّوريةَ ونِيقيةَ .

رُوي عن عُبادةَ بنِ الصامتِ ، رضه ، قال : بعثَني ابو بكرٍ الصِدّيقُ ، رضه ، رسولًا الى ملكِ الرومِ ، أدعوه الى الاسلامِ ، وآذَنهُ بحربٍ .

قال : فسِرتُ حتّى دَخلتُ بلادَ الروم ، فلاحَ لنا جبلٌ احمرُ ، قالوا : إنهُ جبلُ اصحابِ الكهفِ ، فوَصلنا الى ديرٍ فيه ، وسَألنا اهلَه عنهم ، فأَوقفُونا على سَرَبٍ[1] في الجبلِ ، فقُلنا لهم نحنُ نُريدُ أنْ ننظُرَ اليهم ، ووَهبنا لهم شيئاً .

فدَخلوا ودَخلنا معَهم في ذلك السَّرَبِ ، وكانَ عليهِ بابُ حديدٍ ، ففتحُوه ، فانتَهينا الى بيتٍ عظيمٍ محفورٍ في الجبلِ ، فيهِ ثلاثةَ عَشَرَ رجلًا ،

١ * السرب : الحفير تحت الارض ، النفق .

مضطَّجِعين على ظُهورِهم ، كأنهم رُقودٌ ، على كلِّ واحدٍ منهم جُبَّةٌ غبراءُ وكِساءٌ اغبرُ ، قد غطَّوا بها رؤوسَهم الى أرجُلِهم ، فلم ندرِ ما ثِيابُهم أمِن صوفٍ ام وَبَرٍ ، إلا أنها كانت اصلب من الدِيباجِ ، واذا هي تتَقَعْقَعُ من الصَّفاقةِ[1] والجُودةِ ؛ ورأينا على اكثرِهم جَفافاً الى أنصافِ سُوقِهم ، مُنتعِلين بِنِعالٍ مَخصُوفةٍ[2] ، ولِنعالِهم وخِفافِهم من جُودة الخَرْزِ ولِينِ الجلودِ ما لم يُرَ مثله ؛ فكشَفنا عن وُجوهِهم رجلًا بعدَ رجلٍ ، فاذا هم من وَضاةِ[3] الوُجوهِ وصفا الألوانِ كالأحياء ، واذا الشَّيبُ قَد وَخطَ بعضَهم ، وبعضُهم شبابٌ سودُ الشعورِ ، وبعضُهم مَوفُورَةٌ شعورُهم ، وبعضُهم مَضمومةٌ ، وهم على زِيِّ المُسلمين .

فانتَهينا الى آخرِهم ، فاذا هو مَضروبُ الوجهِ بالسيفِ ، كأنَّه ضُربَ في يومِه ، فسألناهم عن حالِهم ، فذكَروا : أنهم يدخُلون عليهم في كلِّ عامٍ ، يومَ عيدٍ لهم ، يجتمعُ اهلُ تلك البلادِ من سايرِ المُدُنِ والقُرى على بابِ هذا الكهفِ ، فنُقيمُهم من غيرِ ان يَمسَّهم احدٌ ، فَننفُضُ جِبابَهم واكسِيَتَهم من التُّرابِ ، ونُقَلِّمُ[4] أظافِيرَهم ، ونَقُصُّ شوارِبَهم ، ثم نُضجِعُهم ، بعدَ ذلك على هيئتِهم التي تَرَونها .

فسألناهم : مَن هُم ، وما أَمرُهم ، ومُنذُ كم هُم بذلك المكانِ ؟

فذكَرُوا أنهم يَجِدون في كُتُبِهِم أنَّهم بمكانِهم ذلك قبلَ مَبعثِ المسيح باربعمايةِ سنةٍ ، وأنهم كانُوا انبياء بُعِثُوا في عصرٍ واحدٍ ، وأنّهم لا يَعرفون من امرِهم غيرَ هذا .

١ * تتقعقع : تصوت عند التحرك ◉ الصفاقة : كثافة النسج .

٢ * مخصوفة : من خصف النعل : اطبق عليها مثلها وخرزها ، خاطها ، بالمخصف ، اي مخرز الاسكاف .

٣ * وضاة : مسهّل وضاءة : النظافة والحسن .

٤ * نقلّم : نقطع .

هاروتُ وماروتُ

في بئرِ بابلَ

هاروتُ وماروتُ ، خلّصهما اللهُ ، وهما ملكانِ مُعذّبانِ ببابلَ .

قال ابنُ عباسٍ : لمّا أُخرِجَ آدمُ من الجَنّةِ عُرياناً نَظَرت اليه الملائكةُ وقالَت : إلهنا ! هذا آدمُ بديعُ فُطرتِك ، أقِلْهُ ولا تَخذُلْهُ ! حتى مرَّ بملإٍ من الملايكةِ ، فوبّخوه على نَقضِه عهدَ ربّه .

وكانَ مِمّن وبّخه ، يومئذٍ ، هاروتُ وماروتُ . فقال آدمُ : يا ملايكةَ ربي ، ارحموا ولا توبّخوا . فذلك الذي جرى عليَّ كان قضـاءَ ربي وقدرَه ؛ فابتلاهما اللهُ حتى عَصَيا ومُنِعـا من صُعودِ السماء . فلمّا كانَ ايامُ إدريسَ ، عم ، سارا اليه وذكرا له قصّتهما ، ثمَّ قالا له : هل لـك ان تدعوَ لنا حتى يتجاوزَ عنّا ربُّنا !

فقال ادريسُ : كيفَ لي عِلمٌ بالتّجاوزِ عنكما ؟

فقالا : ادعُ لنا ، فإنْ رأيتَنا ، فهو الاستجابةُ ، وان لم ترَنا هلكنا !

فتوضّى ادريسُ ، عم ، ودعا اللهَ تعالى ، ثم التفتَ ، فلم يرَهما ، فعلِمَ أنّ العُقوبَة قـد حلّت بهما ؛ فاختُطِفا الى ارضِ بابلَ ، ثم خُيّرا بينَ عَذابِ الدنيا وعَذابِ الآخرةِ ، فاختارا عذابَ الدنيا ، فهما مُسَلسلان ، مُعذّبانِ في بيرٍ بارضِ بابلَ ، مُنكّسين الى يومِ القِيامةِ .

اسطورة الرّيحان

ريحانٌ يقالُ له بالفارسيّـةِ شاهسَفرَمَ ؛ زَعمتِ الفرسُ أن الشّاهسَفرَمَ لم يكن قبلَ كِسرى أنو شَروانَ بإيرانَشهر[1] ، وأنّهُ وُجِدَ في زمانِه .

١ * ايرانشهر : مدينة ايران .

وسببُه أنَّه كانَ ذاتَ يوم جالساً للمَظالم ، إذ أقبلَت حيةٌ عظيمةٌ تَنسابُ تَحت سريرِه ، فأهوى الأساورةُ اليها ، فقالَ الملكُ : كُفُّوا ! فإنَّ لها شأناً ؛ اتَّبِعوها فإني أظُنُّها مظلومةً .

فمرَّت تَجري ، حتى استدارَت تحتَ فُوهةِ بيرٍ ، فنزَلت فيها ، ثمّ أقبلَت تَطلُعُ ، فوَقفَ الأساورةُ عليها ، فاذا في قَعرِ البيرِ ، على قدرِ رُمحٍ ، حيةٌ مقتولةٌ ، وعلى مَتنِها عَقربٌ اسودُ ، عظيمٌ ، فأدلى بعضُ الاساورةِ رُمحَهُ الى العقربِ ، نَخَسها به ، وأتى الملكَ ، وأخبرَه بحالِ الحيةِ ، فقال الملكُ : أما قلتُ إنّي اظنُّها مظلومةً .

فلمّا كانَ من العامِ القابلِ ، أقبلَتِ الحيةُ ، في اليومِ الذي كان كِسرى قاعدًا فيه للمظالم ، تَنسابُ حتى وقَفت ، ثم نفَضت من فِيها بَذرًا اسودَ ، فأمرَ الملكُ بزِراعتِه ، فنَبَتَ منه الشاهسفرمُ .

وكانَ الملكُ كثيرَ الشِكايةِ من الزُكامِ واجتماعِ الفُضولِ في الدِماغِ ؛ فاستعملَ من هذا النَبتِ ، وكان نافعاً جدًّا .

حكايات عن نفوس اصحاب العرافة

هي نفوسٌ تَستدِلُّ ببعضِ الحوادثِ على البعضِ بمناسبةٍ بينَها ، أو بمشابهةٍ خفيّةٍ :

حُكِيَ أنَّ الاسكندرَ دخلَ بعضَ البلادِ ، فدخلَ هيكلَها فوجدَ فيهِ امرأةً تنسِجُ ثوبَها ، فقالَت : أيُّها الملكُ قد أُعطِيتَ مُلكاً ذا طُولٍ وعَرضٍ ؛ فوَصلَها .

ثم دخَل عليها اميرُ بلدِها الوالي ، فقالَت له : إن الاسكندَر سَيعزُلُك ! فغضِبَ الوالي ، فقالَت : لا تَغضَب ! إنَّ النُفوسَ تعلَمُ أُمورًا بعلاماتٍ ، فإنَّ الاسكندَر لما دخلَ كُنتُ أُدبِّرُ طُولَ الثوبِ وعَرضَه ، ولما دَخلتَ كنتُ فارغةً منه وأردتُ قَطعَه ، ولهذا قُلتُ : قد انتهت وِلايتُك .

وكانَ الامرُ كما قالت .

. . .

وحُكي ان سيفَ بنَ ذي يَزَنٍ لما استنصر بكسرى على قتالِ الحبَشةِ ، بعثَ كِسرى أجلَّ مُقدَّميه في جُندٍ عظيمٍ ، وفرَّقهم فِرقتين : فرقةً بطريقِ البرِّ ، وفرقةً بطريقِ البحر . فلما وَصلَ خبرُهم الى ملكِ الحبشةِ ، مسروقِ ابن أبرهةَ ، أتاهم في مايةِ الفٍ من الحبَشةِ وغيرِهم ، من حِميَرٍ وكهلانَ ، فتصافَّ القومُ . وكانَ بينَ عينَي مسروقِ بنِ ابرهةَ ياقوتةٌ حمراءُ مُعلَّقةٌ من تاجه بعلاقٍ من الذهب ، تُضيءُ كالنارِ ، وهو على فيلٍ عظيمٍ ؛ ثم نزلَ عن الفيلِ ، وركبَ جملًا ، ثمّ نزلَ عن الجملِ ، وركِبَ فرساً ، ثم أنِفَ من محاربتهم على الفرسِ استصغارًا لأصحابِ السُّفُنِ ، فدعا بحمارٍ فركِبَه . فتأمَّلَ سيفٌ وهزَّزَ[1] ذلك ، وقال : ذهبَ مُلكُهُ لأنه انتقلَ من كبيرٍ الى اصغرَ؛ احملوا على القومِ !

فحَملوا عليهم فانكشفَت الحبشةُ ، واخذَهم السيفُ ، وقُتلَ مسروقُ بنُ ابرهةَ وخواصه .

. . .

وحُكيَ أن عليَّ بن ابي طالب ، رضه ، لما جلسَ للبيعةِ ، فأول من بايَعه كاحةُ بنُ عبدِ الله ، فبايَعه بيدِه ، وكانت اصبعهُ شلَّاءَ ، فتطيَّرَ منه علي، عم ، وقال : ما اخلَقَها ان تنكُثَ[2] ، وكان الامرُ كما قال ، ولم تصفُ له الخِلافةُ الى أن درجَ الى جوارِ ربّه .

. . .

وحكَى ابرهيم بنُ المهديّ قال : بعثَ اليَّ الامينُ ، فسرتُ اليه ، فاذا هو جالسٌ في طارمةٍ[3] ، خشَبُها عودٌ وصندلٌ ، عشَرةً في عشَرةٍ ، مزيَّنةٍ بانواعِ الحريرِ والديباجِ الاخضرِ ، والذهبِ الاحمرِ ؛ واذا سُليمانُ بنُ المنصورِ معهُ في القُبَّةِ ، وبين يدَي الأمينِ قدحُ بلُّورٍ مخروطٍ ، وكانَ شديدَ الاعجاب

١ * هزّزه : حرّكه ⊙ اراد : ردّده في فكره.

٢ * تنكث : تنقض العهد

٣ * الطارمة : بيت كالقبة من خشب .

به ، حتى سمّاه باسمِهِ . فقال : إنّمـا بعثتُ اليكما لمّا بلغني مسيرُ طاهرِ بنِ الحسينِ الى نَهروانَ ، وقد صَنعَ في امرِنا من المكروهِ ما صنَعَ ، فدعوتُكما لافرِّجَ همّي بكما .

فاقبَلنا نُحدِّثُه ، فدَعا بجاريةٍ ، تُسمّى ضَعفَ ، فتطيَّرنا باسمِها ، ثم امرَها ان تُغنّيَ ، فغنّت :

أبكَى فراقُهما عيني ، فأرقَّهـا ، إنّ التفرُّقَ للمُشتـاقِ بَكّاءُ ؛
ما زالَ يعدُو عليهِم ريبُ دهرِهِمُ ، حتى تَفانَوا ، وريبُ الـدهرِ عَدّاءُ !

فزجرَها ، وتطيّر من قولِها ، وقال لها : لعَنكِ اللهُ أما تعرِفين من الغناءِ غيرَ هذا ؟

فقالت : يا سيّدي ! ما قَصدتُ إلّا ما ظننتُ أنّك تُحِبُّ ، وما هو إلا شيءٌ جاءَني .

فعادَ الى ما كان من الغمِّ ، فأقبَلنا نُحدِّثُه الى أن ضَحِكَ ، ثمَّ اقبلَ عليها وقال لها : هاتِ ما عندَكِ ! فغنّت :

همُ قتَلُوه كي يكونوا مكانَه ، كما فعَلَت ، يوماً بِكسرى مَرازِبُه .[1]

فزَجرَها ، ثم عادَ الى الحالةِ الأُولى ، فسلّيناهُ ، حتى عادَ الى الضَّحِكِ ، واقبلَ عليها في الثالثةِ ، فقالَ غني ! فغنّت :

أما وربِّ السكونِ والحَرَكِ ، إنَّ المَنايا كثيرةُ الشَّرَكِ
ما اختلفَ الليلُ والنهارُ ، وما دارَت نجومُ السَّماءِ في فَلَكِ ،
إلّا لنَقلِ النَّعيمِ مِن ملِكٍ ، قد انقضى مُلكهُ الى ملِكِ ؛
ومُلكُ ذي العَرشِ دائمٌ ابدًا ، ليسَ بفانٍ ولا بمُشتَرِكِ .

فقال لها : قُومي لعنكِ اللهُ ، فقامَت ، فعثَرَت بالقَدَحِ ، الذي بينَ يدَيهِ فكسَرَتهُ ، وانهرَقَ الشَّرابُ . وكانَت ليلةً قمراءَ ، ونحنُ على شاطىءِ دِجلة ،

١ * المرازِب ، واحدها مرزبان : القائد من قواد الفرس.

فقُمنا ، ونحنُ مُتعجّبون مما شاهَدنا في امرهِ ، فسَمِعنا قارئاً يَقرأُ : قُضِيَ الأَمرُ الذي فيهِ تَستَفتِيان ، فكانَ هذا آخرَ الاجتماعِ ما قَعدَنا مَعه الى أن قُتِلَ .

. . .

وحُكِيَ أَنَّ السَّفَّاحَ اميرَ المؤمنين ، نظرَ يوماً في المِرآةِ ، وكانَ من اجملِ الناسِ وجهاً فقال : اللّهمَّ ! إني لا اقولُ كما قال سليمانُ بنُ عبدِ الملِكِ : أنا الملِكُ الشابُّ ، ولكنّي اقولُ : اللّهمَّ عَمِّرني طويلًا في طاعتِك مُمتَّعاً بالعافيةِ .

فما اتمَّ كلامَه حتى سَمِعَ غُلاماً يقولُ : لآخرِ الاجلِ بيني وبينك شهرانِ وخمسةُ ايامٍ ، فتطيَّرَ من كلامهِ ، وقال : حسبيَ اللهُ ، لا قُوَّةَ الا باللهِ ، عليهِ توكّلتُ ، وبه استعِينُ . فما مضَت الا ايامٌ ، حتى أتاه الحُمَّى ، ومات بعدَ شهرينِ وخمسةِ ايامٍ .

. . .

وحُكيَ أنَّ طاهرَ بنَ الحسين خرجَ من الرَّيِّ لقِتال عيسى بنِ ماهانَ وجعَلَ في كُمِّهِ دراهمَ ليفرِّقَها على الفُقَراءِ ، ثم سَها ، وأرخَى كمَّه ، فتبدَّدتِ الدراهمُ فقال الشاعرُ !

هذا تبدُّدُ جمعِهم لا غيرَه ، وذهابُه منها ذَهابَ الهمِّ ؛
شيءٌ يكونُ الهمُّ نصفَ حروفِه ، لا خيرَ في إمساكهِ في الكُمِّ .

فكانَ الأَمرُ كما كان ؛ قُتِل عِيسى بنُ هامانَ ، ثم جاءَ الى بغدادَ وقُتِلَ الامينُ ايضاً .

تفاوت الناس في العقل

حُكِيَ أَنَّ بعضَ الأَطبّاءِ دخَلَ على مريضٍ وجسَّ نَبضَهُ ، وشاهَدَ بِقُربهِ شيئاً من الفواكِه ، فقال له : لعلّكَ اكلتَ شيئاً من الفواكهِ ؟ قال : نعَم . قال له : لا تأكُل منها ، فإنَّها تضُرُّك .

ثم دخلَ عليه في اليومِ الثاني وفعلَ ما فعلَ في اليومِ الاول ، وقال له : لعلّكَ أكلتَ الفرّوج قال : نعم . فقال أما قلتُ لا يصلحُ الفرّوج لك ! فتعجّبَ الناسُ من حِذقِه .

وكانَ لذلك الطبيبِ ابنٌ قال : يا ابتِ كيفَ عرفت تناوُلَهُ الفاكهةَ والفرّوجَ ؟

فقال : يا بُنيَّ ! ما عرفتُ ذلك بمجرَّدِ الطِبِّ ، بل به وبالفِراسةِ[1] ، فسأله عن معرفتِه ذلك بالفِراسةِ .

فقال : إني لما دخلتُ دارَ المريض رأيتُ سُقاطاتِ الفاكهةِ في صَحنِ الدارِ ، ثم رأيتُ في وجهِ المريضِ انتفاخاً لم يكن قبلَ ذلك ، وفي النبضِ ليناً ، وفي التَّفسِرَةِ[2] غِلَظاً وفجاجةً ، وعلمتُ أنّ الفاكهةَ ، اذا حضَرت عند المريض ، لم يصبِر عنها ، بل تناولَ منها ، فظهرَ لي من هذهِ الشّواهِد كلِّها أنه يناوِلُ شيئاً من الفاكِهةِ ، ومع هذهِ الشواهدِ ما جزمتُ بهِ بل قُلتُ : لعلّكَ فعلتَ هذا .

وفي اليومِ الآخرِ رأيتُ ريشَ الفرّوجِ على بابِ دارِ المريضِ ، وفي النَبضِ امتلاءً ، وفي رسوبِ الماءِ غِلظاً ، ثم عَلِمتُ ان الفرّوجَ لا يأكُلُهُ غيرُ المريضِ ، فظهرَ لي بهذه الشواهدِ أنه أكلَ الفرّوجَ فقُلتُ ما قُلتُ .

فسمِعَ منه ابنهُ هذا الكلامَ ، واحبَّ أن يَسلُكَ مَسلَكَ ابيه ، فدخلَ على مريضٍ وجسَّ نبضَه ، وشاهدَ تفسِرَتَه ، فقال : لعلّكَ تناولتَ لحمَ حمارٍ .

فقال المريضُ : حاشا وكلّا بان يُؤكَلَ لحمُ الحمارِ أيُّها الطبيبُ !

فخجِلَ وخرجَ من عندِه ، فانتهى الخبرُ الى ابيه ، فأحضرَهُ ، وقال : كيفَ عرفتَ أنه اكلَ لحمَ الحمار ؟

فقال : لأني رأيتُ في دارِهم بَرْذَعةً وأُكافاً[3] . فعلِمتُ أنهما لا يكونان

١ * الفراسة : ادراك الباطن من النظر الى الظاهر .

٢ * التفسرة : اراد بها بول المريض .

٣ * البردعة : كساء يلقى على ظهر الدابة ◎ الاكاف : البردعة .

الا الحمارِ ، ثم قالتْ ، لو كانَ الحمارُ حيًّا لما كانت بَردعتهُ ها هنا بل كانت على ظهرِه ، واذا لم يكن حيًّا ، فلم يبقَ إلّا أنهم ذبحوه وأكلوه .

فقال ابوه : لو كانَ شيءٌ من المُقدَّماتِ صحيحاً لرجوتُ النَّجابَةَ فيك ، ولكنَّ المقدَّماتِ كلَّها فاسدةٌ ، وطَمَعُ النَّجابةِ منك مُحالٌ ؛ ونعمَ من قال[1] :

فلا يَنْفعُ مَسموعٌ ، اذا لم يكُ مَطبوعُ

في ذكر بعض المتشيطنة

الغولُ

زَعموا ان الغُولَ حيوانٌ شاذٌّ مشوَّهٌ لم تُحكِمه الطبيعةُ ، وأنَّه لما خرجَ مُفردًا لم يستأنِس ، وطلبَ القِفارَ ، وهو يُناسبُ الإنسانَ والبهيمةَ ، وأنه يَتراءى لمن يسافرُ وحدَه في الليالي واوقاتِ الخَلَواتِ ، فيتوهمُ أنهُ انسانٌ ، فيصُدُّ المُسافرَ عن الطريقِ .

وقال بعضُهم : إنّ الشياطينَ ، إذا أرادوا استراقَ السَّمعِ ، تُصيبُهم الشُّهبُ ، فمنهم من احترقَ ، ومنهم من وقعَ في البحرِ ، فصار تِمساحاً ، ومنهم من وقعَ في البرِّ فصار غُولًا .

قال الجاحظُ : الغُولُ كلُّ شيءٍ من الجِنِّ يتعرَّضُ للسُّفّارِ ، ويتكوَّنُ في ضروبِ الصُّورِ والثيابِ . قال كعبُ بنُ زُهيرٍ :

فما تَكونُ على حالٍ تكونُ به ، كما تَكوَّنُ في اثوابِها الغُولُ

السعلاة

وهي نوعٌ من المُتشيطنةِ مُغايرةٌ للغولِ . قال عُبيدُ بنُ ايوب :

وساخرةٍ مني ، ولو أنّ عينَها رأت ما أُلاقيه من الهَولِ خَبّتِ[2]
أبيتُ وسعلاةً وغولًا بقفرةٍ ، اذا الليلُ وارى الجِنَّ فيه أرَبَّتِ[3]

١ * نعم من قال : اي الشاعر . وهذا البيت من ابيات رويت للامام علي .

٢ * خبت : اما اريد بها أسرعت ، اي هربت مسرعة ، او اضطربت

٣ * اربّت : اقامت بالمكان ولزمته ، وارب منه : دنا .

واكثر ما توجد السعلاة بالغياض ، اذا ظفرت بانسان ترقصه به كما تلعب الهرة بالفارة .

رأيت رجلا في بلاد أصفهيد ذكر أن عندهم من هذا النوع كثير .

وذكروا ان الذيب ربما يصطادها بالليل يأكلها ، فاذا افترسها ترفع صوتها تقول : اذكرني فان الذيب قد اكلني ؛ وربما تنادي من يخلصني ومعي ماية دينار يأخذها . والقوم يعرفون أنه كلام السعلاة ، فلا يخلصها احد ، فيأكلها الذيب .

الدلهاث

وهو نوع آخر من المتشيطنة يوجد في جزاير البحار ، وهو على صورة انسان راكب على نعامة ، يأكل لحوم الناس الذين يقذفهم البحر .

وذكر بعضهم ان الدلهاث عرض لمركب في البحر أراد اخذهم، فحاربوه ، فصاح بهم صيحة خروا على وجوههم فأخذهم .

الشق

وهو نوع آخر من المتشيطنة ، صورته كنصف آدمي ؛ زعموا ان النسناس[1] مركب من الشق والإنسان ؛ يظهر للانسان في اسفاره .

وذكر أن علقمة بن صفوان بن أمية خرج في بعض الليالي ، فانتهى الى موضع يعرف بحومان ، فإذا قد عرض له شق ، فقال علقمة : إني مقتول ، وإن لحمي مأكول ، أضربهم بالهذلول[2] ، ضرب غلام بهلول[3] .

فقال علقمة : يا شق ما لي والك ، أغمد عني منصلك ، تقتل من لا يقتلك ؟

١ * النسناس : دابة وهمية يزعمون انها على شكل الانسان .

٢ * الهذلول : السهم .

٣ * البهلول : السيد الجامع لكل خير .

فقال شقّ : هيتَ لكَ ! اصبِر على ما قد حُمَّ لك[1] .

فضربَ كلٌّ واحدٍ منهما صاحبَهُ فوقعا ميتَين . وهو مشهورٌ أنَّ علقمةَ قتلتْه الجِنُّ واللهُ أعلمَ .

حكايات عجيبة عن الجن

سليمانُ والجنُّ والشياطينُ

حُكيَ أنَّ اللهَ تعالى لمَّا سخَّرَ الجنَّ لسُليمانَ ، عم ، نادى جبريلُ ، عم : ايَّتُها الجِنُّ والشياطينُ أجيبوا باذنِ اللهِ لنبيّهِ سليمانَ بنِ داودَ ، فخرجَت الجِنُّ والشياطينُ من المغاراتِ والجبالِ والآكامِ والأوديةِ والفلَواتِ والآجامِ ، وهي تقولُ : لبَّيكَ ، لبَّيكَ ، فتسوقُها الملايكةُ سَوقَ الراعي غنمَه ، حتى حُشِرَت لسليمانَ طايعةً ذليلةً ، وهي يومَيذٍ اربعُمايةٍ وعشرون فِرقةً ، فوقفوا بين يَدَي سليمانَ ، فجعلَ ينظُرُ الى خِلقتِها وعجايبِ صُوَرِها ، وهم بيضٌ وسودٌ وصفرٌ وشُقرٌ وبُلقٌ ، على صورةِ الخيلِ والبغالِ والسباعِ ، ولها خراطيمُ وأذنابٌ وحوافرُ وقرونٌ ، فسجَدَ سليمانُ للهِ ، تعالى ، وقال : اللهُ ألبِسني من القُوَّةِ والهيبةِ ما استطيعُ به المنظرَ اليهم !

فأتاهُ جبريلُ ، عم ، وقال : إنّ الله تعالى قوَّاكَ عليهم ، قُم من مكانِك !

فقامَ والخاتَمُ في اصبعهِ فخرَّت الجِنُّ والشياطينُ ساجدةً ، ثم رفَعت رؤوسَها وقالت : يا ابنَ داودَ ! قد حُشِرنا اليك ، وأُمِرنا بالطاعةِ لك .

فجعلَ سليمانُ يسألُهم عن اديانهم وقبايلِهم ومساكنِهم وطعامِهم ، وهم يُجيبونه ، فقال لهم : ما لَكم صورُكم مختلفةٌ وابوكُم الجانُّ واحدٌ .

فقالوا : إنَّ اختلافَ صورنا لاختلافِ معاصينا .

[1] هيت لك : تعال . حمّ : قُضي ، وقُدّر .

فنظرَ سليمانُ ، فرأى المَردةَ يهمُّون بالفَسادِ ، وفرَّقهم في الاعمالِ المختلفةِ من الحديدِ والنَّحاسِ ، وقطعِ الأَحجارِ والصُّخورِ والأَشجارِ ، وأبنيةِ الحُصونِ ، وأمرَ نساءَهم بغزلِ القزِّ والإبريسم [1] والقُطنِ ، ونسجِ البُسطِ والنَّمارق [2] ، وأمرَ بعضَهم بعَملِ المحاريبِ والتَّماثيلِ وجِفانٍ كالجَوابي ، وقُدورٍ راسياتٍ ، فاتَّخذوا له قُدورًا من الحجارةِ كلَّ قدرٍ يأكلُ منها الفُ نسمَةٍ ، وشغَلَ طايفةً منهم بالطَّحنِ ؛ وطايفــةً بالخَبزِ ؛ وأُخرى بالذَّبحِ والسَّلخِ ؛ وطايفةً بالغَوصِ في البحارِ لاستخراجِ الجَواهرِ واللآلي ، وطايفــةً بحَفرِ الآبارِ والقُنيِّ وشقِّ الأَنهارِ ؛ وطايفةً لاستخراجِ الكنوزِ من تحتِ الارضِ ؛ وطايفةً بالمعدنياتِ واستخراجِها من المعادنِ ؛ وطايفةً برياضةِ الخَيلِ الصِّعابِ ، فاشتغــلَ كلُّ طايفةٍ منهم بأمرٍ صَعبٍ ليَقِلَّ فسادُهم ، ويكونَ قوةٌ لمُلكِه .

وقال وهبُ بنُ مُنبِّه : كانَ سليمانُ ، عم ، اذا شربَ المــاءَ كلَحتِ الشياطينُ في وجهِهِ ، وهو لا يَراهم ، لأَنَّ الكُوزَ كانَ يمنعهُ ، فكرِهَ ذلك منهم ، فاتَّخذَ له صَخرُ الجنيُّ الأَواني من القَواريرِ ، كان يشرَبُ منهـا ولا تمنعهُ من رُؤيةِ الشياطينِ .

ثم أمرهُ أنَ يتَّخذَ له مدينةً من القَواريرِ لا تحجُبُ سُقُوفُها وحيطانُهــا شيئاً ، فبنَى مدينةً على طولِ مُعَسكرِ سليمانَ وعَرضِه ، وجعلَ الكلَّ ببسطٍ من الأَسباطِ فيها قصرًا ، في طُولِ الفِ ذراعٍ وعرضِ مثلِه ؛ وفي كلِّ قصرٍ دورٌ ومَجالسُ ، وبيوتٌ وغُرفٌ للرجالِ والنساءِ .

ثم بَنى مَجلساً في طولِ الفِ ذراعٍ ، وعرضُه كذلك ، ليجلِسَ فيهِ العلماءُ والقُضــاةُ ؛ ثم بنَى لسليمانَ قصرًا رفيعاً عجيباً في طولِ خمسةِ آلافِ ذراعٍ وعرضِ مثلِه ، وزخرَفَه بانواعِ القواريرِ ، ورَصَّعــه بانواعِ الجواهرِ ، فكانَ سليمانُ ، اذا ركبَ الرِّيحَ على بِساطِه في هذهِ المدينةِ ، يَرى كلَّ شيءٍ ، كانَ على بساطِه خارجَ المدينةِ لصَفاءِ القواريرِ ، حتى الطَّبَّاخين والخَبّــازين ،

١ * القزّ : ما يُسوّى منه الابريسم ، اي الحرير .

٢ * النمارق : الطنافس ، واحدتها نمرقة .

وجميعَ من ركبَ بساطَه من الجنِّ والإنسِ والخيلِ والخدمِ والحشَمِ ، فكان الكلُّ بمرأى من سليمانَ عم ، والريحُ تمشي بأمرِه رخاً[١] حيثُ أَحبَّ .

وقال وهبٌ : ولمّا ردَّ اللهُ تعالى على سليمان مُلكَهُ أمرَ الريحَ الصَرْصَرَ[٢] حتى حَشَرَ له شياطينَ الدنيا فرآهم سليمان على صورٍ عجيبةٍ ؛ منهم من كانت وجوهُهم في أقفيتِهم وتخرُجُ النارُ من فيهِم ؛ ومنهم من كانَ يمشي على اربعٍ ؛ ومنهم من كانَ لهُ رأسانِ ؛ ومنهم مِن كانت رؤوسهم رؤوسَ أسدٍ وابدانُهم ابدانَ الفيلِ ؛ فرأى سليمانُ عم ، شيطاناً نصفُهُ صورةُ كلبٍ ونصفُه صورةُ سِنَّوْرٍ ، وله خُرطومٌ طويلٌ ، فقال له : من أنتَ ؟

فقال : أنا مَهرانُ بنُ هَفَّانَ بنِ فِيلانَ .

فقال سليمانُ عم : ما عندكَ من الاعمالِ ؟

فقال : عندي عملُ الغِناءِ وعصرُ الخمرِ ، وشرْبُهُ ، وأُزيّنُ الشُّربَ والغِناءَ لبني آدمَ .

فأمرَ بتصفيدهِ[٣] ؛ ثم مرَّ بهِ آخرُ قبيحُ الشَّكلِ اسودُ ، له نبيحُ الكلابِ ، والدمُ يقطُرُ من كلِّ شعرةٍ على بَدنِه ، وهو سَمِجُ الشَّكلِ جداً ، فقال له : من أنتَ ؟

قال : أنا الهَلهالُ بنُ المَحلولِ .

فقال له : ما عملُك ؟

قال : سفكُ الدّماءِ .

فأمر بتصفيدِهِ ؛ فقال يا نبيَّ اللهِ : لا تُقيّدْني ، فإني احشُرُ اليك جبابرة الارضِ وأُعطيك العهدَ والمِيثاقَ أن لا أُفسِدَ في مَملكتِك .

فأخذ عليه العهدَ والميثاقَ ، وختَمَ عُنقَهُ وأطلقَهُ .

ومرّ به آخرُ في صورةِ قِردٍ له اظفارٌ كالمَناجِل ، وهو قابضٌ على بَرْبَطٍ[٤] فقال له من انتَ ؟

١ * رخا : سهلة ، ليّنة .

٢ * الصرصر : الباردة .

٣ * تصفيده : تقييده بالسلاسل

٤ * البربط : العود .

فقال : أنا مُرةُ بنُ الحارثِ .

فقال له : ما عملك ؟

فقال : انا أوّلُ من وَضعَ هذا البربطَ وحرّكه ، فلا يجدُ احدٌ لَذّةَ المَلاهي إلّا بي .

فأمرَ بتصفيدِهِ .

رجل من بَلْحَرثِ وعِفريتٌ

وقد جرى ذكرُ الجنِّ في مجلس عمرَ بنِ الخطّابِ ، رضه ، فقال رجلٌ من بَلْحَرثِ : خرجتُ عاشرَ عشرةٍ نُريدُ الشامَ فتأخّرتُ عن أصحابي حتى اختلطَ الظلامُ ، فرُفِعَت لي نارٌ فقصدتُها ، فإذا أنا بخيمةٍ امامَها جاريةٌ جميلةٌ ، فقلتُ لها : ما تَصنعِين في هذا المكانِ ؟

فقالت : انا جاريةٌ من فَزارةَ اختطفني عِفريتٌ ، وهو يَغيبُ عني بالليلِ ويأتي بالنهارِ .

فقلتُ لها : امضي معي !

فقالت : اخافُ على نفسي الهلاكَ .

فالححتُ عليها ، فأركبتُها ناقتي ، وجعلتُ أمشي ، فالتفتُّ ، فإذا ظَليمٌ[1] عظيمٌ عليه راكبٌ ، فقالت : ها هو قد أتانا ، فما نُريدُ نَصنعُ ؟

فأنختُ الراحلةَ وأنزلتُها وخطَطتُ حولَها ، وقرأتُ آياتٍ من القُرآنِ ، وتعوّذتُ باللهِ ، فتقدّمَ وانشأ يقول :

يا ذا الذي للحَينِ يدعوه القدَرْ ! خلِّ عن الحَسناءِ ، رِسْلًا ، ثم سِرْ ،[2]
إني امرؤٌ مالكُ حينٍ ، فاصطبِرْ :

فاجبت وقلت :

يا ذا الذي للحَينِ يدعوهُ الحُمُقِ ! خلِّ عن الحسناءِ رسلًا وانطلِق ،
فلستَ في الجِنِّ بأولى من عشِق .

١ * الظليم : ذكر النعام.

٢ * الحين : الهلاك ◎ الرسل : الرفق ، التمهّل.

فبرزَ اليَّ في صُورةِ اسودٍ ، فتصارَعنا ، فلم يَغلِب احدٌ منا صاحبه ، فقال لي : هل لك في خَصلةٍ[1] من ثلاث ؟

قلتُ : ما هي ؟

قال : تجزُّ ناصِيتي وتُعرِضُ عن الجاريةِ .

قلت : ناصيتُك اهونُ شيءٍ عليَّ !

قال : فتأخُذُ ما تشاءُ من الإبلِ .

قلت : لا أبيعُ ديني بعَرَضٍ من الدنيا .

قال : فاخدُمُك ايامَ حياتِك .

قلت : ما لي الى خِدمتكَ حاجةٌ .

فانشأ يقول :

بَلِي جسَدي ، والحبُّ يَبلى جديدُه ، ولم يَبلَ منّي،إذ بَلي جسدي،وجدي

عليكِ سلامُ الله ،يا دعدُ ، ما جَرَت رياحُ الصَّبا في الغَورِ يوماً وفي نَجدِ .[2]

فسِرتُ بها الى أهلي ، فزوَّجُونيها ، ولي منها اولادٌ .

عامر الوادي

وحَكى بعضُ الرُّعاةِ : أنَّه نزَلَ بوادٍ بغنمهِ ، فسلَبَ ذِيبٌ شاةً من غنمهِ ، فقامَ ورفعَ صَوتَه ونادى : يا عامرَ الوادي ! فسمِعَ صَوتاً يقول : يا سِرحانُ ! ردَّ عليه شاتَه . فجاءَ الذِيبُ بالشاةِ ، وتركَها وذهَب .

ابرهيم بن المهدي والجني

وذكَرَ ابرهيمُ بنَ المهديِّ بنِ المنصورِ أنَّ محمدًا الامينَ غضِبَ عليه ، فسلَّمهُ الى كَوثرٍ الخادمِ ، فحبسَه في سِردابٍ وأغلقَ عليه البابَ . وكانَ ابرهيمُ : عديمَ المِثلِ في الغِناءِ .

١ * الخصلة : الخَلَّة ، الأمر .

٢ * الغور : المنخفض من الارض ؛ النجد : المرتفع منها .

قال : فمكثتُ في السِرداب ليلةً ، فلما أصبحتُ إذا بشيخٍ خرجَ من زاويةِ السرداب ، ودفعَ اليَّ وسَطاً[1] ، وقال : كُل ا فأَكلتُ ؛ ثم أخرجَ قِنينةً وقال : اشرَب ا فشربتُ ؛ ثم قال لي غنِّ ا فقلتُ :

لي مُدةٌ ، لا بدَّ بالغُها ، معلومةٌ ، فإذا انقضَت مُتُّ ؛
لو ساوَرَتني الأُسْدُ ضاريةً ، لغَلَبتُها ، إن لم يَجي الوقتُ .

فسمِعَ كوثرٌ صوتِي ، فذهبَ الى الأمينِ ، وقال له : إنَّ عَمَّكَ جُنَّ ا هو قاعدٌ يُغني بكَيتَ وكَيتَ ، فأمرَ بإحضاري ، فأخبرتُهُ بالقِصَّةِ ، فرضي عنّي ، وأَمرَ لي بسبعِمايةِ الفِ درهمٍ .

حيواناتٌ غريبة الصورِ والاشكالِ

ياجوج وماجوج : وهم أُممٌ لا يُحصيهم غيرُ اللهِ كثرةً ، طولُ احدِهم نصفُ قامةِ رجلٍ مربوعٍ ، ولهم أنيابٌ كانيابِ السّباعِ ، ومَواضعُ الاظفارِ مخالبُ ؛ ولهم هُلبٌ[2] عليهِ شَعرٌ . قالوا : لا يَموتُ احدهم حتى يَرى من نسلِهِ أَلفاً .

. . .

مَنسَكُ : ومنهم امم يقال لها . مَنسَكُ ، وهم في جهةِ المشرقِ بقُربِ ياجوجَ وماجوجَ ، على صورةِ الناسِ ، ولهم آذانٌ كآذانِ الفِيلةِ ، كلُّ أُذنٍ مثلُ كِساءٍ ، اذا ناموا افترشوا أحدَ الأُذنين والتحفوا بالأخرى .

. .

قصار القدود : ومنها اممٌ ، في بعضِ الجبالِ بقرب سَدِّ الاسكندرِ ، قصارُ القُدودِ ، طولُ احدهم خمسةُ أشبارٍ ، عِراضُ الوجوهِ ، سودُ الجلودِ وفيها نُقَطٌ بيضٌ ، يستوحشون من الناسِ وغيرِهم ويتسلَّقون الاشجارَ ، ولا يستأنسون بالناسِ .

. . .

الانسان الطائر : ومنهم أُمَّةٌ بجزيرةِ الزّانجِ على صُورة الانسانِ ، ولهم

١ ـ وسطًا : لم نجد لهذه اللفظة معنى موافقًا للكلام ، ولعلّها محرّفة عن سفط وهو وعاء كالقفة .

٢ ـ الهلب : شعر الخنزير .

اجنحةٌ يطيرون بهـا ، وهم بِيضٌ وسودٌ وخُضرٌ ، لهم كلامٌ يتكلمون به ويَفهمُونه ولا يَفهمُ غيرُهم ، ويأكُلون ويشرَبون كالانسانِ .

. . .

رؤوس كلاب : ومنهـا أُمَّةٌ في بعضِ جزايرِ بحرِ الزّنجِ ، رؤُوسُهم كرُؤوسِ الكلابِ ، وابدانُهم كابدانِ الناسِ ، يتقوّتون بثِمارِ تلك الجزيرةِ ، وان وَجدوا شيئاً من الحيواناتِ أَكلوه .

. . .

اناس ذوو أجنحة وخراطيم : ومنها أُمّةٌ في بَعضِ الجزايرِ لها اجنحةٌ وَخراطيمُ دِقاقٌ ، ولها شعورٌ ، تمشي على رجلَين ، وتمشي على اربعٍ ايضاً ، وتطيرُ ايضاً ؛ من الناسِ من يقولُ بانهم صِنفٌ من الناسِ ، ومنهم من يقولُ : إنهم صنفٌ من الجِنِّ .

عوج بن عَناق

قال عبدُ الله بنُ عمرَ ، رضه ، كانَ طولُ عُوجِ بنِ عَناقَ ثلاثةَ وعشرين الفَ ذراعٍ ، وثلاثمـايةٍ وثلاثين ذِراعاً بذراعِ المَلِكِ ؛ وعُمِّرَ ثلاثةَ آلافِ وستمايةِ سنةٍ ؛ وكانَ ممّن وُلِدَ في دارِ آدمَ ، وكانت أُمه من بناتِ آدمَ .

وكان عوجٌ ادركَ زمانَ نوحٍ ، عم ، وسأَل نُوحاً ان يَحمِلَه في السفينةِ ، فطرَدَه ، وقال له : يا عدوَّ الله ! مَن يَحمِلُك ؟ وكانَ ماءُ الطّوفانِ ، يصِلُ الى وَسَطِه ، وكانَ جبّارًا في خِلقتِه ، مُفسدًا في أفعالِه ، فلمّا نزَلَ نبيُّ اللهِ موسى ، عم ، وبنو اسرائيلَ أرضَ الكنعانيّين لمحـاربةِ الجَبابرةِ ومَلِكِهم بالقِ بن صافونَ ، أرسلَه الى بني اسرائيلَ ، فنظر في مِقدارِ عَسكرِ بني إسرائيـل ، فكانَ فَرسخاً في عَرضِ فَرسخٍ ؛ فانطلقَ عُوجٌ الى جبلٍ من جبالِ الشامِ ، فقطَعَ منه صَخرةً على مقدارِ عسكرِ موسى ، عم ، ثم حملَها على رأسِه وأقبلَ نَحوَهم ليُلقيَها عليهم ، ويَقتُلَهم جميعاً ، فسلّطَ اللهُ على تلك الصخرةِ ، وهي على رأسِه ، الهُدهُدَ وسايرَ الطيورِ ، فجعلَت تَنقُرُ تلك الصخرةِ حتى ثُقِبت .

وذكر الكِسائيُّ ، رَحِمَهُ الله تعالى : أَنَّ اللهَ أَرادَ إظهارَ قُدرتِه لبني إسرائيل ، فأرسَلَ هُدهُدَةً ، وفي مِنقارِها حجرٌ من السماءِ ، فضرَبَته على الصخرةِ ، التي

حملها ، ضربةً واحدةً ، فانخرقتِ الصخرةُ ، ونزلت في عُنقِ عوجٍ كهيئةِ الطَّوقِ .

ثم أوحى اللهُ ، تعالى ، الى موسى ، عم ، بذلك ، فخرجَ اليه بعصاه ، وكانَ طولُ موسى عشرةَ اذرعٍ ، وطولُ عصاه عشرةَ اذرعٍ ، وأعطاه اللهُ من القوّةِ ، إذ وثبَ الى نحوِ السماءِ عشرةَ اذرع ، وضربَه بعصاه ، فلَم يلحق الا كعبَه ، فانصرعَ قتيلًا الى الارضِ ، فكانت فخذُهُ وساقُه زماناً طويلًا قنطرةً على النيلِ ، واللهُ سبحانه وتعالى ، أعلمُ بالصَّوابِ .

الشاعرُ الزاغُ أبو عجوة

ومنها ما ذكرَه ابو سعيدٍ السيرافيّ عن بعضِ الكُتّابِ قال :

دخلتُ على القاضي يحيي بنِ اكثمَ ، واذا الى جانبِهِ طايرٌ في قفصٍ ، على شكلِ الزّاغِ ، ورأسه كرأسِ الإنسانِ ، وعلى ظهرِهِ سلعتان[1] ، فقلتُ : ما هذا ، أصلحَ اللهُ القاضيَ ؟

فقال : اسأله ، فهو يُجيبُك !

فقلتُ للطاير : ما أنتَ ؟

فنهضَ وأنشد بلسانٍ فصيحٍ :

أنا الزّاغُ أبو عجوه ، انا ابنُ الليثِ واللَّبوه ؛
أُحِبُّ الراحَ والرَّيحانَ ، والنَّشوةَ ، والقهوه ؛
فلا عَربَدتي تُخشَى ، ولا تُحذَرُ لي سَطوة
ولي اشياءُ تُستطرَفُ ، يومَ العُرسِ والدَّعوه :
فمنها سَلعَةٌ في الظهرِ ، لا تَستُرُها الفَروه ؛
واما السَّلعةُ الأخرى ، فلو كانَ بها عُروه ،
لما شكَّ جميعُ الناسِ فيها أنها رَكوه .

ثم صاح : زاغْ زاغْ وانطرَح ، فقلتُ : اصلحَكَ اللهُ ! أو هو عاشقٌ ؟

فقال : هو على ما ترى ، ولا علمَ لي به ، وقد أرسلهُ صاحبُ اليمنِ الى اميرِ المؤمنين المأمونِ وكتبَ له كتاباً لم أفضُضْهُ ، واظنُّ أنَّه ذكرَ فيهِ شأنه وحالَه .

١ * السلعة : زيادة كالغدة ، والشجّة

الصَّلاح الصَّفديّ

١٢٩٦ - ١٣٦٢

هو صلاح الدين خليل بن إيبك ، ولد في صفد ، وانتسب اليها . تلقى علومه في دمشق ؛ ثم تولّى ديوان الانشاء في صفد ، فالقاهرة ، فحلب ؛ ثم وكالة المال في دمشق وتوفّي هنالك .

كان صلاح الدين شاعرًا رقيقًا ، حسن المعاني ، ومنشئًا بليغًا ؛ وكان اوسع كتّاب زمانه علمًا ، واكثرهم عملًا ؛ وعلى كثرة مشاغله في دواوين الدولة الّف في مواضيع مختلفة اكثرها في التراجم التاريخية ، جاء بها في اسلوب لبق تتخلّله فكاهات لطيفة ، ونوادر شائقة .

ولم يكن في انشائه ممن يتعمّد السجع ، ويتكلّف المحسّنات ، فأتى به مرسلًا ، مطبوعًا خاليًا من الالاعيب اللفظية المملّة ، والتعسّفات المستهجنة .

آثارُه

للصَّلاح الصفديّ آثار كثيرة يهمّنا منها كتابه «نَكْتُ الهميان في نُكَت العميان» جعله في عشر مقدّمات وخاتمة للمقدّمات ، ثم ابتدأ بالنتيجة وهي الغرض المطلوب من الكتاب ، ووضع فيه نكت العميان وشعرهم ، وتراجم مشاهيرهم متبّعاً فيها حروف المعجم ليسهل كشف من يُراد كشفه منهم .

طبع في مصر سنة ١٩١٠

من المقامات وخاتمتها

في نوادر العميان

قال بعضهم لبشّارِ بن بُردٍ : ما أذهبَ اللهُ كريمتي مؤمنٍ إلّا عوّضه اللهُ خيرًا منها . فبِمَ عوّضك ؟ قال : بعدمِ رؤيةِ الثُّقلاءِ مثلَك .

. . .

وقال بعضُهم : إن أهلَ هِيتَ يكونُ اكثرُهم عورًا . فرأيتُ رجلًا منهم صحيحَ العينَين ، فقلتُ له : إنّ هذا لَغريبٌ ! فقال : يا سيّدي ! إن لي اخًا أعمى ، قد اخذَ نصيبَه ونصيبي .

. . .

يقالُ : إن رجلًا أعمى تزوّجَ امرأةً قبيحةً ؛ فقالت لـه : رُزِقتَ أحسنَ الناسِ ، وأنتَ لا تدري . فقال لها : أين كانَ البُصراءُ عنكِ قبلي ؟

. . .

قال بعضُهم : نزلتُ في بعضِ القُرى وخرجتُ في الليلِ لحاجةٍ ، فإذا انا بأعمى على عاتقهِ جرّةٌ ، ومعَه سراجٌ ؛ فقلتُ له : يا هذا ، انتَ والليلُ والنهارُ عندك سواءٌ ! فما معنى السّراجِ ؟ فقالَ : يا فضوليُّ ! حملتهُ معي لأعمى البصيرةِ مثلِك ، يستضيءُ به ، فلا يعثُرُ بي ، فاقعَ وتنكسرَ الجرّةُ .

. . .

قالت لأَبي العيناءِ قينةٌ يوماً : يا اعمى ! فقالَ لها : ما أستعينُ على وجهِك بشيءٍ أصلحَ من العمى .

. . .

كان بحرَمِ سيّدنا الخليلِ ، عليه الصلاةُ والسلامُ ، شخصانِ أعميانِ ، احدهما

ناظِرُ الحرمِ والآخرُ شيخُه ، فرامَ الناظرُ عَزلَ الخطيبِ ، فعـارَضه الشيخُ ومنعَه ، فقالَ له الناظرُ : كأنك قد شاركتَني في النظرِ ؟

فقال له : لا ! بل في العمى ؛ فاستحيا واستمرَّ الخطيبُ .

. . .

ودخلَ يزيدُ بن منصورٍ الحِميَريُّ على بشّارٍ ، وهو واقفٌ بين يَدَيِ المَهديِّ يُنشِدُ شِعرًا ؛ فلما فرغَ من إنشادِهِ أقبلَ يزيدُ بن منصورٍ على بشّارٍ وقال له : ما صِناعتُك ، يا شيخُ ؟ فقال له : اثقُبُ اللُّؤلوءَ ، فضحِكَ المهديُّ وقال لبشارٍ : أغرُبْ ويلَك ! أتتنادرُ على خالي ؟ قال : وما اصنعُ به ؟ يَرى شيخاً اعمى قائماً يُنشدُ الخليفةَ مديحاً ، ويقولُ له : ما صِناعتُك ؟

. . .

قلتُ : حكى مسرورٌ ، الخادمُ قال : لما أمرَني الرشيـد بضربِ عنقِ جعفرٍ البَرمكيِّ ، دخلتُ عليه ، وأبو زكّارٍ عنده يُغنّيه :

فلا تَبعَد ، فكلُّ فتًى سيأتي عليـه الموتُ ، يطرُقُ ، أو يُغادي [1]

فقلتُ : في هذا واللهِ أتيتُك ! واخذتُ بيدِ جعفرٍ وضرَبتُ عنقَه . فقالَ ابو زكّارٍ : نَشَدتُك اللهَ إلَّا ألحقتَني به !

فقلتُ له : وما رَغبتُك ؟ قالَ : إنَّه أغناني عمَّن سواه باحسانِه ، فما أُحِبُّ ان أبقى بعدَه . فقلتُ : استأمِرُ أميرَ المؤمنين. ولما اتيتُ الرشيدَ برأسِ جعفرٍ ، ذكرتُ له أمرَ ابي زكّارٍ ، فقال : هذا رجلٌ فيه مصطَنَعٌ ، فانظُر الى مـا كان يُجريهِ عليه جعفرٌ ، فأَقِرَّه عليه .

في شعر العميان وما قيل فيه من غزل

انشدَ الجاحظُ لابنِ عبّاس :

إن يأخُذِ اللهُ من عينيَّ نورَهمـا ، فـفي لِساني وسَمعي منهما نورُ ؛
قلبي ذكيٌّ ، وعَقلي غيرُ ذي دَخَلٍ ، وفي فمي صارمٌ كالسيفِ مـأثورُ .

[1] * الشعر لبشار بن برد

وقال الخُزَيْميّ :

أسعى الى قائدي ليُخبرَني ، اذا التقَينا ، عمّن يُحيّيني ؛
يُريدُ أن أعدلَ السلامَ ، وأن أفصِلَ بينَ الشريفِ والدُّونِ ؛
أسمَعُ ما لا أرى ، فأَكرَهُ أن أخطئَ ، والسَّمعُ غيرُ مأمونِ ؛
للهِ عيني ، التي فُجِعتُ بها ، لو أنَّ دهرًا بها يؤاتيني ،
لو كنت خيّرتُ ما أخذتُ بها تعميرَ نُوحٍ ، في مُلكِ قارونِ . [1]

وقال ايضاً :

فإن يكُ عيني خبا نُورُها ، فكم قبلَها نورُ عينٍ خَبا ،
فلم يعمَ قلبي ، ولكنّها أرى نورَ عيني لقلبي سَعى .

وقال بشارُ بن بُرد :

يا قومُ ! أُذني لبعضِ الحيِّ عاشقةٌ ، والأُذنُ تَعشَقُ قبلَ العينِ احيانا ؛
قالوا : بمن لا تَرى تَهذِي ؟ فقلتُ لهم : الأُذنُ كالعينِ تُوفي القلبَ ما كانا .

ذكاء العميان

قلَّ أن وُجِدَ أعمى بليدًا ، ولا يُرى أعمى إلّا وهو ذكيٌّ .

والسَّببُ الذي أَراه في ذلك ، أنّ ذِهنَ الأَعمى وفكرَه يجتمعانِ عليه ، ولا يعودان متشعِّبَين بما يراه ؛ ونحن نرى الانسانَ ، اذا ارادَ ان يَتذكَّرَ شيئاً نَسيه ، أغمضَ عينيه وفكَّرَ ، فيقَعُ على ما شردَ من حافظتِه .

وحكى لي الشيخُ يحيي بن محمَّدٍ الخبّازِ الحمويُّ قال : كان عندنا في حماةَ اعمى يُعرفُ بنَجمٍ ، يلعَبُ بالحَمامِ ويَصيدُ الطيرَ الغريبَ ، فاستبعدتُ صيدَ الطائرِ الغريبِ ، فقالَ لي : إنَّ طيوري أُبخِّرُها ببَخُورٍ أعرِفُه وأُطيِّرُها ، فإذا طارت ونزَلت ، ومعها الطَّيرُ الغريبُ ، هَدَرَت حولَهُ ، فأَعرِفُ أن معها غريباً ، فأرمي العُبَّ [2] على الجميعِ ، واخذُها واحدًا بعدَ واحدٍ ، فأشَمُّهُ ، فالذي ليس فيه شيءٌ من بَخوري أعرِفُ أنَّه غريبٌ فأصطادُه .

١ * تعمير نوح : طول عمره .
٢ * العب : عصا طويلة في احد طرفيها دائرة فيها شبكة ترمى على

وكان عندنا في صفَدَ شخصٌ اعمى ، يُعرفُ بشمسٍ كان يسقي من البئر بيدِه ، ويملأُ بحُقٍّ كبيرٍ ، ويتوجّهُ بذلك الى بيوتِ الناسِ وزَبوناتِــه ، وهو مع كلّ ذلك بغيرِ عصا . رأيتــه يوماً هو وزوجةً له متوجِهين الى حَمّامِ عينِ الزّيتونِ ، وفي الطريقِ عَقَبَةٌ تعرف بعقَبةِ عينِ الوردِ ، وتحتَها وادٍ ، وقد اخذ بيدِ زوجتِه ، وهو يقول لها : تعالَي الى هنا ، لا تَتطرّفي تقعي في الوادي .

من النتيجة

ابرهيمُ بنُ جعفر

أميرُ المؤمنين ابو إسحاقَ ، المتّقي للهِ ، ابنُ المُقتَدرِ بن المعتَضدِ . وُلد سنةَ سبعٍ وتسعينَ ومئتينِ[1] ، واستُخلفَ سنةَ تسعٍ وعشرين وثلاثمائةٍ[2] بعد اخيه الرّاضي بالله ، فوَلِيَها الى سنة ثلاثٍ وثلاثين ، ثمّ إنهم خلَعُوه وسمَلُوا[3] عينيه، وبقيَ في قَيدِ الحياةِ .

وكان حسنَ الجسمِ ابيضَ اشقرَ الشعرِ مُشرباً حُمرةً اشهلَ العينين ؛ وكان فيه دِينٌ وَصلاحٌ وكَثرةُ صلاةٍ وصُيامٍ ، لا يَشرَبُ الخمرَ ؛ وتُوُفّي ، رَحِمَهُ اللهُ ، في السّجنِ سنةَ سبعٍ وخمسين وثلاثمائة[4] ، فكانت خِلافتُهُ ثلاثَ سِنينَ وأَحدَ عَشرَ شهرًا ؛ وكانت وفاتُه بعد خمسٍ وعشرين سنةً من خلعِه .

وكانت أيامُه مُنغَّصةً عليه ، لاضطرابِ الاتراكِ حتى انه فرّ الى الرّقّةِ ، فلَقِيَهُ الإخشيدُ صاحِبُ مِصرَ ، وأهدى له تُحَفاً كثيرةً ، وتوجّعَ لما نالَه من الأتراكِ ، ورغَّبَه في ان يَسيرَ معه الى مِصرَ ، فقالَ : كيفَ أُقيمُ في زاويةِ من الدنيا ، وأَترُكُ العِراقَ متوسِطةَ الدنيا وسُرَّتَها ، ومَقرَّ الخِلافةِ ويُنبوعَها .

الطائر فتمسكه ، وهذه الكلمة من اصطلاح من يلعب بالحمام في بعض البلاد الشامية .

١ * ٩٠٩ م .

٢ * ٩٤٠ م .

٣ * سملوا : فقأوا .

٤ * ٩٦٧ م

ولمّا خَلا بخواصّه قالوا له : الرأيُ أَن تسيرَ معــه الى مِصر لتَستريحَ من هؤلاءِ ؛ فقال : كيف يَحسُنُ في رأيِـكم أنّا نتمكَّنُ من حاشيةٍ غريبةٍ عنا ، عاريةٍ من إحسانِنا الوافرِ اليها ، وقد رأيتم أن خَواصَّنــا ، الذين هم برأي العَينِ منا ، ومُستغرِقون في إحسانِنا ، لما تحكَّموا في دولتِنا ، ووجــدوا لهم علينا مقدَرةً ، كيفَ عاملونا ؛ فكيفَ يكونُ حالُنا في ديارِ قومٍ إنّما يرَون أَنهم خلَّصونا مما نزَلَ بنا ؟

ثم إنه سارَ حتى قدِمَ بغدادَ ، بعدَ أَن خاطبه تُوزونُ اميرُ الاتراكِ ، وحلفَ له أَن لا يَغدُرَ به ؛ وزُيِّنَت له بغدادُ زينةً ضُرِبَ بها المثلُ ، وضُرِبت له القِبابُ العَجيبة في طريقِهِ . فلمّا وَصلَ الى السِّنديّةِ ، على نهرِ ابي عيسى ، قَبضَ عليه تُوزونُ وسمَلَه ، وبايَع المُستكفي من ساعته ، ودخَلَ بغدادَ في تلك الزِّينةِ ، فكَثُرَ تعجُّبُ الناسِ من ذلك . وقال المتقي في ذلك :

كحَلُونا ، ومــا شَكَو نا اليهم من الرَّمــدْ ،
ثم عاثُوا بنــا ونحن أُسودٌ ، وهم نَقَدْ ،
كيفَ يَغتَرُّ من أُقِمْنا ، وفي دَستِنــا رَقَدْ ؟[1]

قلتُ : ما اغترَّ المُستكفي باللهِ بعــدَه بتُوزون ، ولم يزَلْ الى ان سمَّه وقتلَه ، ولكن دخلَ اليه مُعِزُّ الدولةِ بنُ بُوَيه فخلَعه وسمَلَه .

ابرهيم بن محمد التُّطَيلي

ابرهيمُ بن محمدٍ التُّطَيلي (بضمّ التاء ثالثــة الحروف وفتحِ الطّاء المُهمَلةِ وسكون الياءِ آخرِ الحروفِ ، وبعدها لامٌ وياءُ النَّسَب) أبو إسحاقَ الضَّريرُ ، قال ابنُ الأَبّارِ : نشأَ بقُرطُبَةَ وسكنَ إشبيلية ، وكان يُعرَف بالتُّطَيلي الأَصغرِ ، فَرقاً بينه وبين ابي العبَّاسِ احمدَ التطيلي ، وكان بعده بزمانٍ يسيرٍ ، ومن شعره :

[1] اقمنا : اي قامونا عن دست الملك .

ومُعذّرٍ رقّت له خمرُ الصِّبا ، حيثُ العذارُ حَبابُها المُتَرَقرقُ ، [١]
ديباجُ حُسنٍ كان غُفلًا ناقصاً ، فأتمّه عَلمُ الشبابِ المُونِقُ ، [٢]
وشكا الجمالُ مَقيلَه في وَردِهِ ، فأظلّه آسُ العِذارِ المُشرِقُ
هامَت بماءِ الفضلِ شامةُ خدِّهِ ، فغدا العِذارُ زويرِقاً لا يَغرَقُ . [٣]

أحمدُ بن الحسن

اميرُ المؤمنين الإمامُ الناصرُ لدينِ اللهِ ابو العبّاسِ ابن الإمامِ المُستضيءِ ابن الإمامِ المستنجدِ ، وُلد يومَ الاثنينِ عاشرَ رجبٍ سنة ثلاثٍ وخمسين وخمسمائة[٤] ، وبويع له في أوّلِ ذي القِعدةِ سنةَ خمسٍ وسبعين ، وتوفّي ، رحمه الله ، سلخَ شهرِ رمضانَ ، سنةَ اثنتينِ وعشرين وستمائة[٥] ، فكانت خِلافتُه سبعاً وأربعين سنةً .

وكان ابيضَ اللّونِ ، تُركيَّ الوجهِ ، مَليحَ العينينِ أنورَ الجبهةِ ، اقنى الأنفِ خفيفَ العارِضَين ، اشقر اللحية ، رقيق المحاسن ، نَقشُ خاتمه : من اللهِ عفوُه . أجازَ[٥] له ابو الحسينِ عبدُ الحقِّ اليوسُفيُّ ، وابو الحَسَنِ عليُّ ابنُ عساكرَ ، والبَطائحيُّ ، وشُهدَةُ ، وجماعةُ ، واجازَ هو لجماعةٍ من الكبارِ ، فكانوا يحدِّثون في حياتِهِ ويَتنافسون في ذلك . وكانَ ابوه المُستضيءُ قد تخوَّفه ، فاعتقلَه ومالَ الى اخيه ابي منصورٍ ؛ وكان ابنُ العطّارِ واكثرُ الدولةِ ، وبَنفَشا حَظِيّةُ المُستضيءِ ، والمجدُ بنُ الصاحبِ ، مع ابي منصورٍ ، ونَفرٌ يَسيرٌ مع الناصرِ ، فلما بُويعَ قبضَ على ابنِ العطّارِ وسلّمه الى المماليكِ ، فأُخرِجَ بعد سَبعةِ ايامٍ مَيتاً ، وسُحِبَ في الأسواقِ ، وتمكّن المجدُ بنُ الصاحبِ ، وزادَ وطغَى الى أن قُتل .

١ * المترقرق : الجاري جرياً سهلاً .
٢ * المونق : المعجب .
٣ * الزويرق ، تصغير زورق : سفينة صغيرة .
٤ * ١١٥٨ م
٥ * ١٢٢٥ م
٥ * اجاز له : اعطاه اجازة ، او جعل له الشيء جائزاً ، والمراد هنا انه اجاز له ان يحدّث .

قال الموفَّقُ عبدُ اللطيفِ : وكان الناصرُ شاباًّ مَرِحاً عنده مَيعةُ الشبابِ ، يشقُّ الدُّروبَ والأَسواقَ اكثرَ الليلِ ، والناسُ يتهيَّبون لِقاءَه .

وظهرَ التَشيُّعُ بسببِ ابنِ الصاحبِ ، ثم انطفى بهلاكه ؛ وظهر التَسنُّنُ المُفرِطُ ، ثم زالَ ؛ وظهرتِ الفُتُوَّةُ . والبُندق والحمامُ الهادي[1] ، وتفنَّنَ الناسُ في ذلك ، ودخلَ فيه الأَجِلَّاءُ ثم الملوكُ ، فأَلبسوا الملكَ العادلَ واولادَه سَراويلَ الفُتُوّةِ ، وأَلبسوا شِهابَ الدينِ الغوريَّ ملِكَ غَزنَةَ والهندِ ، وصاحبَ كيشٍ ، وأَتابكَ سعد صاحبَ شِيرازَ ، والظاهرَ صاحبَ حلبَ . وتخوَّفوا من السلطانِ طُغرِيلَ ، وجرت بينهم حروبٌ ، وفي الآخرِ استدعَوا تَكَشَ لحربِهِ ، وهو خُوارَزمُ شاهُ ، فالتقى معه على السَّريِّ واحتزَّ رأسه وسيَّره الى بغدادَ .

وكانَ الناصرُ قد خطَبَ لولدِه الأَكبرِ ابي نصرٍ بولايةِ العهدِ ، ثم ضيَّقَ عليه لمَّا استشعَر منه وعيَّنَ اخاه ، وألزمَ ابا نصرٍ بأن اشهدَ على نفسِهِ أنه لا يَصلُح ، وأنه قد نزَلَ عن الأمرِ .

ولم يزلِ الناصرُ ، مدَّةَ حياتهِ ، في عِزٍّ وجلالةٍ وقمعٍ للأَعداءِ ، والاستظهارِ على الملوكِ ، لم يَجِد ضيماً ولا خرَجَ عليهِ خارجيٌّ إلا قمَعَه ، ولا مُخالفٌ إلا دفعَه . وكان شديدَ الاهتمامِ بالمُلكِ ومَصالحِه ، لا يَكادُ يَخفى عليهِ شيءٌ من أمورِ رعيَّتِهِ كبارِهم وصِغارهم ؛ واصحابُ الأَخبارِ في أقطارِ الأَرضِ يواصلون اليهِ احوالَ الملوكِ الظاهرةَ والباطنةَ .

وكانت له حِيَلٌ لطيفةٌ ومَكائدُ خَفيَّةٌ وخِدَعٌ لا يفطَنُ لها أَحدٌ ، يُوقِعُ الصَّداقةَ بين ملوكٍ مُتعادينَ ، ويُوقِعُ العداوةَ بين ملوكٍ متصادقِين ، وهم لا يشعُرون .

ولمَّا دخلَ رسولُ صاحبِ مازَندرانَ بغدادَ ، كانَ يأتيهِ ، كلَّ صباحٍ ، ورقةٌ بما فعَلَهُ في الليلِ ؛ وكان يُبالغُ في كِتمانِ أمرِه والورقةُ تأتيه ، فتحيَّر

١ * الفتوة : نظامٍ اجتماعي ادبي ، كان همٌ من دخل فيها ولبس سروايلها المخصوص ، السخاء والكرمُ والمروءةُ وكان اعضاؤها يسمون بالفتيان ◎ البندق : طين مدوّر يُرمى به ◎ الحمام الهادي : أي تطيير الحمام ◎ وربما اراد بالهادي حمام البطاق الذي يحمل الرسائل .

وخرجَ من بغدادَ ، وهو لا يَشُكُّ أنّ الإمامَ الناصرَ يعلمُ الغيبَ ، لأن الإماميَّةَ يعتقدون ان الإمامَ المعصومَ يعلمُ ما في بطنِ الحاملِ وما وراء الجدارِ .

وأتى رسولُ خُوارَزمَ شاه برسالةٍ حفيَّةٍ وكتابٍ مختومٍ ، فقيل له : ارجع ، فقد عرفنا ما جئتَ بهِ ، فرجع ، وهو يظُنُّ أنهم يعلمون الغيبَ .

ورُفع اليه في المطالعاتِ ان رجلًا كان واقفاً ، والعسكرُ خارجٌ الى شَشْتَر ، في قُوّةِ الأمطارِ وشدَّةِ البَردِ ، فقالَ : كنتُ اريدُ من اللهِ من يُخبِرُني إلى اينَ يمضي هؤلاء المَدابيرُ[1] ، ويَسفقُني مائة خشبةٍ ، فلم تزَلْ عينُ الرافعِ ترقُبُ القائلَ ، حتى وصَلَ الى مُستَقرّهِ خشيةَ ان يُطلَبَ ؛ فأمرَ الناصرُ ، في الحالِ ، ان يَطلُبَهُ الوزيرُ ويضربَه مائة خشبةٍ ، فإذا تمَّت يُعلِمهُ الى اين يذهبُ العسكرُ ؟ فلمَّا ضربَه ، وهو لا يَعلَمُ علامَ ضُرِبَ ، نسيَ ان يُعلمَهُ الى اينَ يذهبُ العسكرُ ، فما انفصلَ عن المكانِ قليلًا ، حتى تذكَّر الوزيرُ ذلك ، فقال : ردُّوه . فعادَ مرعوباً خشيةَ زيادةِ العُقوبةِ . فلما وصل ، قال له الوزيرُ : قد أمرَ مولانا اميرُ المؤمنين ، صلواتُ اللهِ عليهِ ، ان نُعلِمَك ، بعدَ ان نُؤدِبَك ، الى اينَ يمضي العسكرُ ؛ يَمضي الى شَشترَ .

فقال : لا كتبَ اللهُ له عليهم سلامةً ! فضحِكَ الحاضرون ، ورُفِعَ الخبَرُ الى الناصرِ ، فقال : يَغفِرُ اللهُ له سوءَ أدبِهِ لحُسنِ نادرتِه ولطف موقعِها ، ويُدفَعُ اليهِ مائةُ دينارٍ ، عددَ الخشبِ الذي ضُربَه .

ويُحكى عنه نوادرُ من هذا وغرائبُ وعجائبُ . وكان يعطي ، في مواضعَ ، عَطاءَ من لا يَخشى الفَقرَ ؛ وجاءَهُ رجلٌ ومعه بَبَّغا من الهندِ تقرأُ : قُلْ هو اللهُ احدٌ ، فاصبحَت مَيتةً ، فجاءَه فرَّاشٌ ، يطلُبُ البَبَّغاءَ ، فبكى وقال : الليلةَ ماتَت ، فقالَ : عرَفنا بموتِها ؛ وكم كانَ في ظَنّك ان يُعطِيَكَ ؟ فقال : خمسَمِائةِ دينارٍ . فقال : خُذ ! هذه خمسُمائةِ دينارٍ ، فإنَّهُ علم بحالِك منذُ خروجِكَ من الهِند .

[1] * اراد بالمدابير الذين يولّون هرباً ⊙ والمدابير ايضاً : المجاريح ، واحدها مدبور .

قال ابن النجّارِ : وملَكَ من المماليكِ ما لم يملِكْهُ سواه ممن تقـدَّمه من الخلفاءِ ، وخُطبَ له : بالاندلسِ والصِّينِ ، وكان أسدَ بني العبَّاسِ . وقيلَ له : إن شخصاً يَرى خِلافةَ يزيدَ ، فاحضرَه ليعاقبَه ، فقيلَ له : اتقولُ بصِحَّةِ خِلافةِ يَزيدَ ؟ فقال : انا لا اقولُ إن الإمـامَ لا ينعزلُ بارتـكاب الفُسقِ . فأَمر باطلاقهِ ، واعرضَ عنه وخافَ المحاقَّةَ[1] .

وقال الموفَّقُ : أمّا مرضُ موتِهِ فسَهوٌ ونسيانٌ ، بَقيَ ستَّـةَ اشهرٍ ، ولم يشعُر بـكنهِ حالِهِ أَحدٌ من الرعيَّةِ ، حتى خَفِيَ على الوزيرِ وعلى اهلِ الدارِ ؛ وكان له جاريةٌ قـد علّمها الخطَّ بنفسِهِ ، فكانَت تكتبُ مثلَ خطِّهِ ، فتـكتبُ على التوقيعِ بمشاورة قهرمانةِ الدارِ ؛ ولما ماتَ بُويعَ لولده ابي نصرٍ ، ولُقِبَ الظاهرَ بأمر الله .

وقال ابنُ الاثيرِ : بقي الناصرُ عاطـلًا عن الحركةِ ، بالـكُلّيّةِ ، ثلاثَ سِنينَ ، قد ذهبت إحدى عينيهِ ، وفي الآخر أصابه ذوسَنطـاريا عشرين يوماً ، ولم يُطلق في مرضِهِ شيئاً ممـا كانَ احدثه من الرُّسومِ وكان يُسيءُ السّيرةَ ، خَرِب في ايامِه العراقُ ، وتفرّقَ اهلُه في البلادِ ، واخـذَ أموالَهم واملاكَهم ، وكان يفعَلُ الشيء وضِدّه . وقال المظفَّرُ بن الجوزيّ : قـلَّ بصرُ الخليفةِ في الآخِرِ ، وقيل : ذهبَ جُملةً ؛ وكانَ خادمُهُ رَشيقٌ قد استولى على الخِلافةِ ، واقامَ مُدّةً يُوقِعُ عنه .

ابو الشّيصِ

محمدُ بنُ عبـدِ الله بنِ رزينٍ . الشاعرُ المشهورُ ، المُلقَّبُ بابي الشّيصِ ، وهو ابن عمّ دِعبلٍ الخُزاعيِّ ، تُوفي سنةَ مائتينِ ، أو قبلَهـا . وقد كُفَّ بصرُه . قال ابو الشّيصِ ، وهو مشهورٌ عنه :

وَقفَ الهوى بي، حيثُ أَنتِ، فليسَ لي مُتأَخّرٌ عنه ولا مُتقـدَّمُ ؛

١ * المحاقّة : المخاصمة .

أَجِدُ المَلامَة ، في هواكِ ، لذيذةً ؛ حُبًّا لِـذكركِ ، فَلْيَلُمْني اللُّوَّمُ ؛
أَشْبَهْتِ اعدائي ، فصِرتُ أُحِبُّهم ، إذ كانَ حظِّي منـكِ حظِّي مِنهُمُ ،
وأَهَنتِني ، فأهنتُ نفسي عامِـدًا ، ما مَن يهونُ عليـكِ مِمَّن يُكرَمُ .

قوله : اجدُ الملامةَ ، البيت ، خالفَه ابو الطيّب ، فقالَ :

أَأُحِبُّهُ ، وأُحِبُّ فيه مَلامةً ؟ إنّ الملامَةَ فيـه من اعدائهِ !

ولأَبي الشِيص ايضاً :

لا تُنكري صَدّي ، ولا إعراضي ! ليسَ المُقِـلُّ عن الزّمانِ براضِ !
شيئـانِ لا تَصبُو النساءُ اليهما : حَليُ المَشيبِ وحلَّـةُ الإنفاضِ ؛[1]
حسَرَ المَشيبُ قِناعَـه عن رأسِه ، فرَمَينَـه بالصَّدّ والإعراضِ ،
ولربما جُعِلَت محـاسنُ وجهِهِ ، لجفونهـا ، غرَضاً من الأَغراضِ

١ * الانفاض : الفقر

فهارس الكتاب

تسهيلًا للاستفادة من مضامين هذا الكتاب ، رأينا ان نتوسع في الفهارس فنشمل بها موضوعات كل ما ورد من القطع الشعرية والنثرية وقد رتبناها كما يلي :

١ً – في الاشخاص والارهاط والقبائل والشعوب
٢ً – في الاماكن والبحار والانهار والجبال والمحال والبلدان والجزائر .
٣ً – في الحيوان
٤ً – في النبات
٥ً – في الثياب والادوات والآنية والمواعين
٦ – في المعبودات والمعتقدات والتقاليد والعادات
٧ – في الايام والمعارك
٨ – في الاسلحة
٩ – في الكواكب والابراج
١٠– في اسماء الكتب

الفهرس الاول

في

الأشخاص والأرهاط والقبائل والشعوب

الفهرس الثاني

في

الاماكن والبحار والانهار والجبال والمحالّ والبلدان والجزائر

الفهرس الثالث

في

الحيوان

الفهرس الرابع

في

النبات

الفهرس الخامس

في

الثياب والادوات والآنية والمواعين

الفهرس السادس
في
المعبودات والمعتقدات والتقاليد والعادات

الفهرس السابع

في

الايام والمعارك

الفهرس الثامن

في

الاسلحة

الفهرس التاسع

في

الكواكب والابراج

الفهرس العاشر
في
اسماء الكتب

مضامين الكتاب

اصلاح خطأ

الصفحة	السطر	خطأ	صواب
٤٦	٧	للتسيح	للتسبيح
٦٧	١٤	متكتر	متكبّر
٩٤	٥	محمرَّةَ	محمرَّةً
٩٦	٧	الحَثى	الحشى
١٠٥	١١	فقال الوزيرِ	فقال للوزير
١١٦	٨	قرب	قرب
١٣٨	٢	شيخُ	شيخَ
١٣٩	١٥	الأمة	الأَمة
١٤٠	١٣	فحبيت	فخبيث
١٧٨	١٦	النُّقَب	النُّقُب
١٨٦	١٢	لـ نها	لعَنَها
٢١٣	٧	جهم	جهنَّم
٢١٣	١٢	مُخيط	مَخيط
٢٢٦	٤	الاقليمَ	الاقليمِ
٢٤٤	٣١	الذي	الذمّ
٢٤٦	١٦	لم يبنِ	لم يبنْ

أُنجز طبع هذا الكتاب على مطابع
المطبعة الكاثوليكية – بيروت ،
في العشرين من تشرين الأَول من السنة
الواحدة والخمسين بعد التسعمائة والالف